

جَلال الدين السَّيوطي

بحوث أُلقيت في التدوة التي أقامها
المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية
بِالاشتراك مَع
الجمعية المصرية للدراسات التاريخية
٦-١٠ مارس ١٩٧٦



الجمعية المصرية لدراسة الحضارة وكتبات

١٩٧٨

جلال الدين السيوطي

جمهورية مصر العربية

وزارة الثقافة

المكتبة العربية

يصدرها

المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية

بالاشتراك مع

الهيئة المصرية العامة للكتاب

قاهرة

افتتاح الندوة

كلمة الأستاذ يوسف السباعي

أحييكم أطيب تحية ، وأشكركم على حضور هذه الندوة التي دعا إليها المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية بالاشتراك مع الجمعية المصرية للدراسات التاريخية لاهياء ذكرى العالم الجليل المؤرخ والفقير جلال الدين السيوطي •

وأحيي في هذه المناسبة هذا التعاون المثمر بين لجنة التاريخ بالمجلس ، وبين الجمعية المصرية للدراسات التاريخية والذي تمثل - لأعوام طويلة - في الجهود المتواصلة في الاهتمام العلمي والعناية بدراسة أعلام المؤرخين • ولقد كان من ثمرات هذه الجهود المتأنيبة أن أصبح في متناول القراء سلسلة من الدراسات المتخصصة عن طائفة من هؤلاء الأعلام الذين نعتز بمؤلفاتهم مثل : المقرئ ، والقلقشندي ، وابن عبد الحكم ، وابن تغري بردي ، والجبرتي • واستطاعت هذه الدراسات أن تسد فراغا واضحا في هذا المجال ، وأن تحقق في الوقت نفسه ثراء ملحوظا للمكتبة العربية الحديثة •

وهذه الندوة التي تعقد لدراسة جلال الدين السيوطي تضيف الى رصيد هذه الدراسات الحديثة صفحات من البحث جديدة •

ان شخصية جلال الدين السيوطى المتعددة الجوانب شخصية فذة
بلا ريب ، جديرة بالدراسة والبحث .

فلقد جمع السيوطى الى التبحر فى العلوم الدينيه ، العلم باللغة ،
والتأليف فى الأدب ، والعناية بتاريخ مصر السياسى والاجتماعى ، وعجائب
مصر وآثارها .

وهو - كما قيل عنه - واحد من أبرز الشخصيات الأدبية فى القرن
الخامس عشر جال بقلمه فى كافة مجالات العلوم العربية ، فكتب فى
القرآن والحديث والفقه والفلسفه والتاريخ وفلسفه اللغات والبلاغة
والأدب وغيرها .

لقد أولع بالثقافة ، وتنقل بين مراكز التعليم ، وتذكر مصادر تاريخية
أنه قد درس على ستمائة شخص من شيوخ عصره بمختلف البلاد .
وأنه تصدى لتدريس الفقه والحديث ، كما تصدى للافتاء ، ثم كان
فاضى الفضاء بمصر والشام والممالك الاسلاميه المجاورة فى عصره .
وحين توفر على التأليف كان من أكثر المؤلفين إنتاجا ، أربت كنبه -
كما قيل - على الخمسمائة .

ومهما قيل في شأن مصنفاته من أن طابع التجييع هو الغالب عليها ،
فإن ذلك لا ينفي عنها أنها شواهد نشاط جيم ، وحيوية فائقة ، وإخلاص
عظيم للثقافة .

فلقد استطاع أن يقرب كثيرا من المعارف الى أهل عصره بما أنفق
من جهده في تلخيص المؤلفات الضخمة وتهذيبها ، فكان أن انتشرت
مخصصاته في أرجاء العالم الاسلامي .

وما تزال مؤلفاته حتى اليوم مصدرا غنيا للدارسين .

وقد عبرت شهرته من الخاصة الى جماهير الناس تاركة صدى من
التقدير عميقا حيث يقترن اسمه بألقاب التعظيم ، وما زال المسجد المعروف
باسمه في مدينة اسبوت معلما من معالم الصعيد ومزارا للناس ، وما يزال
الاحتفال بمولده في كل عام عيدا شعبيا .

وأن هذه الندوة بما يتضمنه برنامجها من بحوث متنوعة عن
السيوطي وعصره ومنهجه في التأليف ، ودراسات نقدية لبعض مؤلفاته
الشهيرة كقيلة بأن تحقق الغاية المرجوة في توضيح شخصيته العلمية يفيد
منها القارئ الذي يصعب عليه تتبع آثاره الغزيرة ، ويفيد منها شباب
الباحثين المتخصصين . ثم هي من بعد ذلك إضافة جديدة الى سلسلة
الدراسات القيمة التي صدرت عن الندوات السابقة ، وإسهاما متميزا في
خدمة التراث والثقافة العربية .

أتمنى لندوتكم هذه كل توفيق ، ومزيادا من الندوات المقبلة تضيف
الى رصيد الحياة الثقافية ثراء وازدهارا ، وأشكركم .

والسلام عليكم .

يوسف السباعي

البحوث

القسم الأول
السِّيَوطِي وَعَصْرُه

جلال الدين السيوطي
للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

السيوطى - وهو موضوع هذه الندوة - رجل تدعو حياته الى العجب والى الاعجاب ، فان حياته مليئة بالعمل وبالانتاج ، كما أن خلقه الشخصى أيضا كان يتصف بالاعتزاز الشديد بالنفس ، حتى أن هذا الاعتزاز كلفه غالبا فى سنوات عمره الأخيرة •

أما العجب فمصدره هذا التراث الضخم الذى خلقه ، والذى تناول فيه أكثر ما عرف من العلوم فى عصره • عاش السيوطى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وبضع سنوات من أوائل القرن السادس عشر ، عاش بين عامى ١٤٤٥ و ١٥٠٥ ، فكان بذلك علما من أعلام مدرسة التاريخ المصرى فى القرن الخامس عشر ، وهى مدرسة زاخرة باعلام المؤرخين حقا ، كالمقريزى والقلقشندي وابن تغرى بردى وابن دقماق وابن اياس وغيرهم من أعلام المؤرخين •

والواقع أن مدرسة التاريخ المصرى فى القرن الخامس عشر جاءت متميزة عن مدرسة التاريخ الاسلامى بصفة عامة ، فلا نكاد نجد قطرا من الأقطار العربية الأخرى تميز بمثل هذه السلسلة من اعلام المؤرخين الذين

كتبوا المؤلفات الموسوعية الكبيرة وخلقوا في تاريخ الفكر العربي وفي حركة التأليف التاريخي بصفة خاصة كنوزا لا تقدر . وأعتقد أن هذه المدرسة من غرس مؤرخ عربي جاء الى مصر من تونس وهو ابن خلدون وأقام في مصر وعاش فيها . وابن خلدون معروف بكتابه الكبير في التاريخ، ولكن مكاتبه العلمية تعتمد أكثر من ذلك على المؤلف الذي كبه ليكون مقدمة لهذا التاريخ يعرف باسم «مقدمة ابن خلدون» فجاءت في الواقع أثنى من الكتاب نفسه وله فيها نظرات فلسفية عميقة في التاريخ وفي العمران وفي علم الاجتماع بل انه يعد المؤسس الحقيقي لهذا العلم .

كان المقرئى أول تلامذة ابن خلدون وهو أول اسناد في مدرسة التاريخ المصرى فى القرن الخامس عشر ، ثم أصبح الرائد الأول لحركة التأليف التاريخى فى مصر فى القرن الخامس عشر . كما كان المؤرخ ابن اياس آخر اعلام هذه المدرسة . وفى عصر ابن اياس - أى فى النصف الأخير من القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر ، عاش مؤرخنا السيوطى . فالسيوطى كان معاصرا لابن اياس ، ومعاصرا لمؤرخ آخر كبير هو السخاوى وعدد من المؤرخين الآخرين . ويكفى السيوطى فخرا أنه استطاع أن يوجد له مكانا - ومكانا مرموقا - بين اعلام المؤرخين فى هذا العصر الحافل . هذا الى جانب عناية السيوطى بالبحث والتأليف فى علوم أخرى كثيرة ، فكان موسوعى المعرفة ، ونستطيع أن نشبهه بالموسوعين فى فرنسا فى القرن الثامن عشر الذين كتبوا فى شتى أنواع المعرفة .

قيل ان نبوغ السيوطى بدأ يظهر مبكرا ، فقد استطاع أن يحفظ القرآن وهو دون اثنائه من عمره ، واذا كان السيوطى قد أخذ اسمه من هذه المدينة عاصمة الصعيد - سيوط - أو بتعبيرنا فى الوقت الحاضر - أسيوط - فانه لم يعيش فى هذا المدينة وان كان للأسرة مسجد ينسب لها

تقام فيه الشعائر الدينية حتى اليوم ، وقد أقامت الاسرة فعلا في أسيوط
مدة من الوقت •

وقيل أن أصلها من بغداد ثم نزلت الى مصر ، وعاش أبوه في
القاهرة ، وكان رجل علم فنشأ ابنه على طلب العلم ، وولد السيوطي
بالقاهرة ودرس فيها ، وكعادة العلماء في ذلك العصر لحقه التصوف في
شبابه ، فأقبل على خانقاه من تلك الخوانق المنتشرة في القاهرة وأقام فيها ،
وهي الخانقاه التي أصبح بد ذلك ناظرا على أوقافها ، وكانت من أشهر
الخوانق ولها أوقاف كثيرة •

لم يكن السيوطي بعيدا عن السلطان ، فقد كان السلطان يتخذ العلماء
وسيلة يزدان بهم بلاطه كما جرت بذلك العادة في تلك الأيام ، ولكن
السيوطي مع هذا كان له خلق يجمله ينأى عما عرف به كثير من أهل
عصره من الزلفى والتهافت على السلطان • ولعل هذا الخلق وفر
للسيوطي من الوقت ما مكنه من التوفر على قضاء الوقت في البحث
والتأليف •

نظر السيوطي في أكثر العلوم : في علوم اللغة والنحو والضرف
والبيان والبديع والآداب والمعاني ، ونظر في علوم الدين : في الحديث
وفي التفسير والفقه والشريعة ، نظر في التاريخ وفي الكلام وفي التصوف ،
ولكن هناك علمين فقط نأى عنهما السيوطي - كما قال هو نفسه - ، نأى
عن علم الحساب لانه لم يرق له أو لم يستسغه وكان كما قال يراه «جبالا»
فوقه ، أى وجده شاقا عليه ، فلم يبحث في الحساب ولم يكتب فيه ، والعلم
الآخر الذى نأى عنه ، هو المنطلق لأنه كما قال ، وجد أن لافائدة من
دراسته ، بل قال ان الضرر كل الضرر في دراسته •

ولكن اعتداد السيوطي الشديد بنفسه أدى به الى نوع من الزهو ،
فكثير من العبارات التي ذكرها عن نفسه تدل ليس فقط على اعتزاز

بالنفس ، وانما على زهو وفخر بها ، فهو يقول انه يستطيع أن يكتب في كل شيء ، وأنه بلغ في الاجتهاد أعلى مرتبه ، فهو « المجتهد الأعظم » بل قال انه الامام الذي يعثه الله الى الأمة مرة في كل مائه عام • ويبدو أن أقواله هذه البت عليه مؤرخا آخر كان يعيش في ذلك الوقت ، وكان رجلا حاد اللسان ، وهو السخاوى •

والسخاوى رجل لم يسلم منه أحد من معاصريه ، ولهذا وجد السخاوى في السيوطى مجالا واسعا للنقد الى حد التهكم والسخرية ، واتهمه بأنه نقل كثيرا من كتب غيره ونسبها الى نفسه ، بل ادعى أنه أخذ منه هو ، وحمل عليه حملة شنيعة • ورد عليه السيوطى ، وكانت بينهما معركة أدبية ممتعة ، وكذلك وقع بين السيوطى وبعض زملائه الآخرين نفور شديد ، فقد عابوا عليه أنه اطلع الى السلطان وهو يضع (الطيلسان) فوق رأسه ، فقالوا ان هذا أمر لا يليق بعالم كبير يعرف قواعد السلوك - أو قواعد البروتوكول كما نقول نحن - فغضب السيوطى - . كان سريع الغضب - فالف كتابا في فضل الطيلسان •

ثم أوقفه هذا الزهو والاعتداد بالنفس في خصومة شديدة مع متصوفة العصر • فقد كان السيوطى ناظرا على أوقاف خانقاه البيهسيه - وكانت من أكبر الخوانق في تلك الأيام - وكان يفسد منها أموالا كثيرة أنهم أنه يجسها عنم يستحق من المتصوفة • فشكوه الى السلطان وأحيل السيوطى - كما نقول بلغتنا - الى مجلس تأديب ، فحكموا بعزله من هذه النظارة ، فعزل عنها وذهب الى بيت له في جهة الروضة حيث أقام بقية حياته ، وأفضل على نفسه البيت حتى كان يرد عن بابه من كان يأتي لزيارته ، بل قيل أنه أفضل شبابيك البيت ، مع أنها كانت تطل على منظر جميل وهو مقياس النيل عند الروضة ، وأقام السيوطى سنوات كثيرة لا يحمل الا قلمه ويكتب ويسطر حتى قال هو عن نفسه أنه كتب ثلاثمائة

كتاب فاذا أضفنا الى هذا العدد الكبير الذى ذكره فى ترجمته لنفسه ما ألفه بعد ذلك ، فان كتبه تربو على الخمسمائة كتاب حتى وفاته ، بل قيل انها تصل الى الستمائة . ولكن كثيرا مما كتبه السيوطى لم يكن كتبا بالمعنى المؤلف ، فبعضها أقل من ذلك ، حتى أن بعضها كان لا يزيد عن صفحة واحدة .

كتب السيوطى فى كل مسألة كانت تعن له ، كان يمسك قلمه ويكتب فى كل شيء ، بل قال السيوطى نفسه أنه كتب أكثر من ذلك ، ثم محا ما كتب .

لا شك أن السيوطى بهذه التأليف والتصانيف الكثيرة ، قدم للفكر العربى تراثا ضخما ، واذا كانوا قد عابوا على السيوطى أنه نقل كثيرا مما كتبه السابقون ، فان له فضلا فى ذلك ، وهو ان بعض ما نقله فقد فعلا ولم يوجد الا فيما نقله السيوطى أو المؤلفون المتأخرون وهذه خدمة كبيرة قدمها المتأخرون من كتاب ذلك العصر الزاخر بألوان الحياة العلمية .

والواقع أن السيوطى عاش فى عصر يمثل فى مصر قمة الازدهار ولكنه فى الوقت نفسه يمثل بداية الأفول ، عاش السيوطى فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر وفى أواخر ذلك القرن ، اكتشف البرتغاليون طريقا بحريا جديدا الى الهند والشرق الأقصى ، متكئين الطرق القديمة التى كانت تمر عبر البلاد العربية والاسلاميه ومنها الأقاليم التابعة للسلطنة المملوكية وخاصة بلاد مصر والشام ، وبدأت المتاجر - بد اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح - بين الشرق والغرب تتحول الى الطريق الجديد وبدأت أسواق التجارة فى المدن الزاهرة فى هذه المنطقة العربية والاسلامية التى نسميها الآن الشرق الأوسط ، بدأت تعاني من ذلك الجفاف وبالتالي بدأت تعاني فقرا اقتصاديا ، كان له لاشك أثره فى مجالات الحضارة المختلفة فى الفن والفكر وغيرهما ، ثم بعد بضع

سنوات يبدأ الأتراك العثمانيون في فتح البلاد العربية وضمها الى
امبراطوريتهم ، وينتهي الأمر بضم العالم العربي كله - باستثناء المغرب
الأقصى - الى الامبراطورية العثمانية *

وان كان السيوطى ولا بد أنه سمع عن أخبار البرتغاليين ومحاولاتهم،
ولكنه لم يعيش ليشهد الفتح العثمانى كما عاش معاصره ابن اياس *

بهذه الكلمة السريعة ، قدمت لكم مؤرخنا وفقهنا جلال الدين
السيوطى ، تاركا لزملائى من بعدى أن يعالجوا فى هذه الندوة الجوانب
المختلفة من حياة السيوطى ونشاطه العلمى *

عصر السبوطي
للأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد

عصر السيوطى

يلعب الزمن دورا سياسيا فى التاريخ ؛ ومع ذلك فلاتكون له صفة ؛ الا بتحرك الانسان فيه ؛ وبالتالي ؛ فلا يتسنى لنا معرفة عصر السيوطى ؛ الا بمعرفة سيرته (١) ، ولا سيما أن السيوطى كان مؤرخا ؛ له كتب متعددة (٢) ؛ تحيط بكثير من جوانب عصره ، من ناحية التنظيم السياسى والأحوال الاجتماعية والثقافية .

فقد عاش السيوطى فى مصر ، فى عصر دولة ، كان حاكمها وجيشها ؛ من ممالك مشروبات ، أو ما يسمى جلبان أو أجلاب ، وهى ألفاظ تعنى جلبهم كرفيق من بلاد أخرى ، أو شرائهم ؛ حيث يتربون فى الطبقة ، وهى مدرسة الحربية ، التى يتعلمون فيها الكتابة وطرق الحرب والفروسيه ؛ فكان الى آخر حكم هذه الدولة توجد وظيفة تاجر

(١) هو أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد جلال الدين الخضيرى الشافعى ، الذى اشتهر بالسيوطى ، ربما نسبة الى سيوط وهى أسيوط - من مدن الصعيد ، حيث كانت أسرته قد نزلت بها أو استقرت فيها ، وقد ولد فى القاهرة فى أول رجب ٣/٨٤٩ أكتوبر ١٤٤٥ ، وتوفى فى ١٨ من جمادى الأولى ١٧/٩١١ أكتوبر ١٥٠٥ . بتفصيل أنظر سيرته ، التى كتبها بقلمه فى كتابه : حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ ، وأيضاً : Ency. de l'Islam (Art. Al-Suyutî), t. 4, p. 601 sqq.

(٢) مثل : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، وتاريخ الخللا ، وبدائع الزهور فى وقائع الزهور .

المماليك (١) ؛ مما كان سبباً في قيام نظام دولة ؛ لم يكن له نظير الا في ظل الاسلام ، وليس له مثل في خارج الاسلام ، ولم يظهر بشكله هذا الا في مصر •

ومع أن غالبية المماليك كانوا من جنس الترك ؛ الا انه قد انخرطت معهم جنسيات أخرى ؛ ولكن سرعان ما كانوا يذوبون جميعاً في شكل طبقة متناسكة ، أقامت لنفسها وظائف ثابتة ومحددة ، على رأسها السلطان ؛ الذي هو واحد منهم ، يعتبر الأول بين أقرانه ، تولى غالباً بناء على القهر والغلبة ، فمكنتهم هذه الوظائف من السيطرة على الحكم ؛ ليس فقط في مصر وانما في أمبراطورية مترامية ، امتدت من صحارى برقة الى الفرات ، ومن قبرس الى مجاهيل أفريقيا والجزيرة العربية • ومن قبل قد لاحظ السيوطي (٢) أن بيبرس - واضع نظم دولتهم - أراد أن يسلك في تنظيم مملكته بمصر مملكة جنكزخان - وهى دولة المغول المعاصرة لهم - فرتب في سلطنته أشياء كثيرة لم تكن قبله بمصر ، فقد كان الترك مجاورين للمغول منذ القدم ، بل ان المغول اعتبروا جنساً من الترك • وعلى الرغم من تغير السلاطين المستمر ، بسبب طبيعة المماليك أنفسهم في عدم قبولهم الحكم الوراثي ؛ فان كل سلطان كان يشغل الوظائف نفسها بأعوانه ؛ حيث استمرت هذه الوظائف الثابتة والمحددة حكراً لهم ، الى آخر حكم دولتهم •

ولعله بسبب أن المماليك كان يتقصهم نبل الأصل ؛ فانهم حرصوا منذ قيام دولتهم على اصباغ الشرعية على حكمهم ، عن طريق نقل الخلافة الى مصر ؛ وقد ساعدتهم الظروف على ذلك ، حينما قتل المغول بقيادة هولاكو ، المستعصم آخر خليفة عباسي في بغداد ؛ فلجأ الى مصر عم له ، هو المستنصر بالله ؛ فان بيبرس أسرع باعلان خلافته في عام ١٢٦١/٦٥٩

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٥ •

(٢) نفسه ، انظر • ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ١ ص ٧ •

حيث بقيت الخلافة العباسية في مصر الى وقت مجيء العثمانيين . ولكن نظام الخلافة العباسي هذا نشأ ضعيفا ؛ فيصف السيوطي الخليفة بأنه أمير في حاشية السلطان (١) ، أما المقرئ فيقول حسبه أن يقال له : أمير المؤمنين (٢) ؛ فكان عملهم الأول والأخير اسباغ الشرعية على حكم السلاطين والأمراء التابعين لهم ، أو حتى ملوك الاسلام من أصدقاء دولتهم .

وقد عاصر السيوطي من حكم دولة المماليك في مصر دولة الجراكسة أو الشراكسة (٧٨٤ - ١٣٨٢/٩٢٢ - ١٥١٧) ؛ وهي كلمة تبدو من أصل روسي ، تعني موطنهم الذي كانوا يجلبون منه في القوقاز ، بجوار بحر قزوين ؛ وان عرفوا أيضا بالمماليك البرجية ؛ لأنهم كانوا يسكنون أبراج القلعة ، حينما قاموا بانقلاب عسكري ضد دولة المماليك السابقة على دولتهم ، التي كان غالبية مماليكها من عنصر التركمان المجاورين لموطنهم وكانوا يسكنون في جزيرة الروضة ، عرفوا بالمماليك البحرية (٦٤٨ - ١٣٥٠/٧٨٤ - ١٣٨٢) ؛ ومع ذلك فإن الممالك الجراكسة هم امتداد للمماليك البحرية ، استسروا الي وقت مجيء العثمانيين .

فكانت دولة السلاطين الجراكسة مثل سابقتها ؛ دولة عسكرية متسفة ، استحوذت على السلطة في يدها ، بشكل لم يعرف اطلاقا في تاريخ مصر من قبل . حقا ان معظم حكم مصر في العصر القديم أو حتى الوسيط ، قد وسموا بالطغيان والاستبداد ؛ الا أن طغيانهم كان فرديا أو حتى أسريا ؛ ولكن بسجيء دولة المماليك ؛ فان الطغيان أصبح طغيان طبقة ؛ مع كل ما يحيط بها من عقدة الرق .

وقد عاصر السيوطي من السلاطين الجراكسة ثلاثة عشر سلطانا (٣) ،

(١) السيوطي ، الخلفاء ، القاهرة . ١٩٠٥ ، ص ١٦٤ س ١ .

(٢) الخطط ، ٣ ، ص ٣٩٤ ص ٩ - ١٤ .

(٣) هم : الظاهر جقيق (٨٤٢ - ١٤٣٨/٨٥٧ - ١٤٥٣) ، المنصور عثمان

(٨٥٧/١٤٥٣) ، الأشرف اينال (٨٥٧ - ١٤٥٣/٨٦٥ - ١٤٦١) ، المؤيد احمد (٨٦٥/١٤٦١) .

كل منهم تولى نتيجة القهر والغلبة ؛ الا الأخير ، وهو السلطان قانصوة الغورى (٩٠٦ - ١٥٠١/٩٢٢ - ١٥١٦) ؛ فقد كانت لتوليته ظروف خاصة ، اذ تولى السلطنة عن طريق الاختيار من قبل مشايخ العلم فى مصر ، الذين كانوا بمثابة الزعماء للمصريين ؛ فقد كان محببا لديهم . فكان هذا الاختيار من جانبهم يعتبر مبدءا خطيرا فى تقاليد مصر الاسلامية ، تكرر بعد ذلك فى تولية طومانباى ، آخر سلاطين الجراكسة ، اذ يبدو أن المصريين قد تعبوا من استئثار اختيار السلطان من قبل المماليك وحدهم .

كذلك مع وجود هذا الحكم الأتوقراطى ؛ فلم يمنع اطلاقا من أن يشارك المصريون فى الحكم بشقيهم من المسلمين والأقباط ، حتى أن السيوطى أطلق على منصب الوزير فى دولتهم ، وهو الذى يشرف على الحكم المحلى ، وزارة الأقباط (١) ؛ اذ أن معظم من كان يتولاها لهم من الأقباط الذين أسلموا ؛ كما أن المصريين كانوا يشغلون المناصب الديونية ، حيث يكونون فيها طبقة الكتاب ، والمناصب الدينية ، لاسيما مناصب القضاء الكبرى المعروفة بنبابة الحكم ، حيث وجد نواب الحكم الأربعة الذين يمثلون المذاهب الأربعة ، فكانت بيعة هؤلاء ضرورية لاسباغ الشرعية على حكم السلاطين وحتى الخلفاء ، كما أن السلاطين كانوا دائما يستشيرونهم ، ويكونون لهم احتراماما قد يبلغ حد تقبيل الأبدى (٢) .

وعلى العكس ؛ فقد كان يعكس صفوة المماليك ؛ وحتى أمن المصريين ، لاسيما فى الريف جماعة العربان ، الذين كانوا يقيمون فى

الظاهر خوشقدم (٨٦٥ - ١٤٦١/٨٧٢ - ١٤٦٧) ، الظاهر الباي (١٣٦٧/٨٧٢) ، الظاهر تمرغا (١٤٦٧/٨٧٢ - ١٤٦٨) ، الأشراف قايتباى (٨٧٣ - ١٤٦٨/٩٠١ - ١٤٩٦) ، الناصر محمد بن قايتباى (٩٠١ - ١٤٩٦/٩٠٤ - ١٤٩٨) ، الظاهر قانصوة (٩٠٤ - ١٤٩٨/٩٠٥ - ١٥٠٠) ، الأشراف جانبلط (٩٠٥ - ١٥٠٠/٩٠٦ - ١٥٠١) ، العادل طومانباى (١٥٠١/٩٠٦ - ١٥٠١) ، الأشراف قانصوة الغورى (٩٠٦ - ١٥٠١/٩٢٢ - ١٥١٦) .

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ، ص ١٢٤ ، س ٤ .

(٢) نفسه ، ٢ ، ص ١٠١ ، س ١٧ .

مصر ، وهم من سلالة من قدم من قبائلهم في أيام الفتح وبعدها ،
وانتشروا في جميع أقاليمها حتى أقاصى الصعيد ، وأصبح مشايخهم
لهم شهرة السلاطين ؛ فقد كانوا يحسون دائما أنهم أحق بحكم مصر من
طليقة الرقيق ، لذلك كثيرا ما وقع التصادم بينهم وبين الممالك ، وكان في
قلب الممالك الشيء الكثير ضدهم .

هذه هي باقتضاب أحوال التنظيم السياسي في عصر السيوطي
يظهر منها أن أرستقراطيته من الرقيق كانت تحكم في مصر بمشاركة
المصريين بنسقيهم المسلم والقبطي ، وأن المصريين كانوا مثل بقية شعوب
الاسلام الأخرى منساقين مع روح العصر ، الذي وجد فيه الممالك ، وهو
عصر خال من الحركات القومية ، والفكرة المسيطرة على شعوبه الاسلامية ،
هي صالح الاسلام العام ، الذي يتمثل في وجود الخلافة في أسرة
الرسول ، من فرع بنى العباس ، وأن حمايتها هم الترك الممالك .



ومثلبا كان الممالك يملكون الحكم في مصر ؛ فانهم منذ نشأة
دولتهم الى آخر أيامهم استحوذوا أيضا على أرض مصر . بحيث أصبحت
لهم أشبه بملكية خاصة على حسب درجاتهم من السلطان الى أصغر
مملوك ؛ بقصد استغلالها ، وليس ملكيتها . فكان استيلاء الممالك
على أرض مصر ، هو ما عبر عنه بالنظام الاقطاعي ، وان أطلق عليه
أسماء أخرى ، مثل « عبدة (١) » ، بمعنى دخل سنوي ، أو « خبز »
— جمعها أخباز ، لما فيه من معنى التعيش . فكان هذا الاقطاع
الخراجي هو ما عرف عند الفقهاء — مثل الملوذي (٢) — باقطاع
الاستغلال ، فأجازوا اعطائه لأهل الجبش مقابل ما هو مقرر لهم من
الرزق . وقد ترتب على ذلك ؛ أن تحول معظم زرايع مصر الى أجراء ،

(١) الخطط ، ١ ، ص ١٤٢ من ٨ ، ٢٤ ، ٢٧ ، ٢٨ .

(٢) الاحكام السلطانية ، مصر ١٩٠٩ ، ص ١٧١ وما بعدها .

على أساس أن الممالك طبقة حربية، لا يقومون بأنفسهم بزراعة الأرض .

يضاف الى ذلك أن دولة الممالك، قد سيطرت على التجارة العالمية بين الشرق والغرب، عن طريق مصر، بحيث أصبحت مصر على أيديهم محط للتجارة العالمية، ازدهرت مدنها بشكل لم يعرف قبلا . فلدنا عن ذلك رسائل عديدة من سلاطين الممالك وملوك وحكام أوروبا، ولاسيما المدن الايطالية، وعلى رأسها البندقية . ولعل أهم هذه التجارة هي تجارة التوابل، التي عرفت بتجارة الكارم أو الكريمي، التي كانت تنقل من الهند في طريقها الى أوروبا عن طريق موان مثل عدن وجدة والسويس والاسكندرية . . ولكن أوروبا بدورها، عن طريق الاستكشافات، التي توصلت اليها، ولا سيما من قبل دولة البرتغال، أرادت أن تقوم بالتجارة المباشرة مع الهند، مما أدى الى وقوع تصادم بينها وبين دولة الممالك في أيام قانصوة الغوري بالذات .

ويؤيد ذلك أيضا وجود العملة الأجنبية (١) . المتداولة في مصر في وقتهم، مثل عملة البندقية دوكات Ducato - نسبة الى دوكة - وهو الدوق، وعملة بلاد الفرنجة عموما - وهو أوروبا بما فيها افرنسية وايطاليا والأراضي الواطئة، المسماة الافرتية، جمع افرتي، وهي الفولورين Florino، وان عرفت العملة الأجنبية باسم مشخصة، بسبب صور القديسين وملوك الفرنجة المنقوشة على وجهها .

وفوق ذلك نشطت التجارة في عهدهم مع أفريقيا عن طريق القوافل، وساعد على ذلك ظهور ممالك بل إمبراطوريات اسلامية للسود في أنحاء متفرقة من أفريقيا، ولاسيما في غربها، نتيجة لاسلامها، مما جعلها على علاقة قوية بدولة الممالك، حامية الخلافة الاسلامية . فكان كثيرا ما

(١) ص ٣٠ ص ٤٤١ - ٢ .

أتى إلى مصر ملوك أفريقيا وتجارها ، من بلاد التكرور أو مالى ، وسلطنه
برنو أو كانم ، ومملكة غانة ، ومملكة سنغاي ، اما امم النوبة فقبل
فتحها على يد المماليك ، ارتبطت بحكام مصر ، بمعاهدة ترجع الى أيام الفتح
العربي اسمها « البقط » ، التي بمقتضاها يسمح بتنقل التجار .

ولعل أشهر تجارة المماليك مع دول أفريقيا ، هي الصناعات المصرية
على الخصوص ، مثل تطعيم المعادن والجوهر ، أو ما كان يطلق عليه التزميك
أو التكفيت ، وهي صناعة دقيقة أصبح للقاهرة أسلوب خاص فيها في صناعة
الأواني النحاسية ، كالأباريق والمباخر والثريات والطاقات والمسارج .
كذا صناعة السروج التي كان لها سوق خاصة ، وصناعة السجاد التي
بلغت غاية الرقي ، وصناعة الزجاج ، وان كان أشهرها على الاطلاق صناعة
الأفمشة ، التي كانت تصنع في مصانع النسيج الحكومية المسماة طراز .

فكان مظهر الثراء في عصر دولة المماليك ، البذخ السذى عاشته
الطبقة المملوكية بالذات ، وعلى رأسها السلطان ؛ حتى أنه من كثرة الأموال
كانت له خزانة عرفت : « بخزانة الخاص » (١) كما أصبحت القلعة
مقر حكمهم - تتكون من قصور عظيمة ، شبهت بأجنحة تطل على القاهرة .
ثم هذه المنشآت الضخمة التي تركها معظم السلاطين ، من جوامع وزوايا
ومدارس وسبل وبيمارستانات وحمامات وقلاع وتحف مازالت تحتل
الصدارة بين مخلفات مصر الاسلامية ؛ بحيث أن القاهرة أصبحت درة
في جبين الشرق ، فهي المدينة ذات الألف مئذنة .

وكذلك ظهرت في حياة القصور الباذخة رسوم وحفلات ، طبعت
بطابع الأناقة والبذخ ؛ مما لم يسبق له مثيل من قبل في بلاط مصر ؛
بحيث قيل أنهم ختموا هذه الرسوم الباهرة في مصر في العصور اله سطي ،
ويذكر المؤرخون أنه بعد زوال دولتهم على يد العثمانيين ، لم تمد لحفلات

(١) حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٤ .

الدولة العثمانية بهجه (٢) ، كما أن أحد الشعراء يتعذب (٣) ، عند ذكر حفلات الماليك . فقد كان الماليك يحتفلون بأعياد مصريه خالصة ، مأخوذة من التقاليد المصريه القديمه ، فى موسم فيض النيل ، وبالأعياد الاسلاميه المتعدده ؛ حيث تقام لها احتفالات دينية شائقة ، ولاسيما من قبل رجال الصوفية ، التى انتشرت طرقهم فى عهد الماليك ، وحتى بأعياد قبطية ، فضلا عن أن رسوما كثيرة قد ظهرت لهم ، أتوا بها من موطنهم الأصيلى فى آسيا ، لم تعرف من قبل فى بلاط مصر .

والخلاصة أن عصر السيوطى هو عصر الاتعاش الاقتصادى لمصر ولاسيما مدنها ، مما انعكس أثره على حياة الحكام ، وبعض الناس فى شكل ثراء وبذخ نادرين ، وحتى ابداع فى الصناعة والحياة الاجتماعية ، بشكل لم يعرف من قبل .

ولاشك أن عصر السيوطى أيضا ، هو عصر الثقافة العربية المزدهرة ، بشكل لم يسبق اليه ؛ باعتبار أن عصر الماليك فى مصر استداد للعصور العربية السابقة عليه . حقا ان أصول الماليك غير عربية ، الا أنه بسبب اقامتهم فى أرض العروبة ، اعتبروا أنفسهم عربا ، بل حياة للعرب ضد أعدائهم ؛ حتى أنه كانت من ألقاب سلاطينهم سيد ملوك العرب (١) ؛ اذ العروبة وقتذاك تعنى بالأولى اتجاها جغرافيا . هذا بالاضافة الى أن الجراكسة بالذات ، كانوا قد اكتسبوا الروح المصرية ، بحكم اقامتهم الطويلة فى مصر منذ نشأة دولة الممالك .

ومع أن لغة الماليك هى اللغة التركية - وهى لغة مليئة بالفارسية والعربية - الا أنهم كانوا يتعلمون الخط العربى والقرآن والشرع فى

(١) ابن اياس ، ٣ ص ١٢٩ ، انظر . ماجد ، نظم الماليك ، ٢ ص ٦١ - ٦٢ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٢٧ (فى آخر الصفحة) .

(٣) صبح ، ٦ ص ٣٥ ، ٥٣ ، انظر . ماجد ، نظم الممالك ، ١ ص ٣٠ .

الطباق ، حتى عرفوا أيضا بالكتابية (٢) . ثم ان كثيرا من كبار الماليك ؛ بملاحظة المؤرخين ؛ قد أتقنوا العربية ، وحتى أصبح الواحد منهم فصيح اللسان بها ، وله مسائل فى الفقه عويصة ؛ يرجع له فيها العلماء . ويؤيد ذلك أن قانسوة الغورى ، الذى كان معاصرا للسيوطى ، كان يملك ناصية اللغة العربية ، وشديد الولع بالآداب والعلوم ، وله فيها خوض ونظر ، كما كان يفهم فى الشعر (١) ، ومغرما بقراءة السير والتواريخ ، فاشتهرت له مجالس عرفت بمجالس الغورى (٢) ، عبارة عن مناظرات جرت فى حضرته .

ولعل الذى ساعد على ازدهار الثقافة العربية فى عهد السيوطى ؛ هو أن مصر أصبحت تنعم باسترخاء حربى ؛ اذ لم يكن سلاطين الجراكسة قد أعلنوا عداؤهم المكشوف ضد العثمانيين بعد ؛ هذا فضلا عن أن علاقتهم كانت سلمية مع جميع الممالك الأخرى ، ولاسيما ممالك أوروبا ، التى كانت هى الأخرى ، بعد انتهاء الحروب الصليبية فى الشرق ، قد بدأت تدخل عصر النهضة . وحتى علاقة الماليك ، أصبحت طيبة وودية مع أغلب دول المغول فى الشرق ، منذ أن تحولوا الى الاسلام . أما أفريقيا ؛ فانها استيقظت نتيجة لجهود من مصر فى نشر الاسلام ؛ مما جعلها على وفاق ووثام مع دولة الماليك ، حامية الخلافة .

يضاف الى ذلك ، أن مصر منذ حكم سلاطين الماليك ، أصبحت وحدها حاملة لمشعل الثقافة العربية ، بعد أقول مراكزها الكثيرة فى الشرق ، ولاسيما فى بغداد ، نتيجة للغزو المغولى ، وفى الأندلس ، مثل قرطبة ، نتيجة لحركة الريكونكيستا ؛ حيث أصبحت مقصد العلماء المسلمين من

(١) زبدة ، ص ١١٦ ، ١٢٥ ، ابن اياس ، ٢ ص ٩٠ س ٨ - ٩ .

(٢) ابن اياس ، ٣ ص ٥٩ .

(٣) نشرها عبد الوهاب عزام ، القاهرة ١٩٤١ .

كل مكان ؛ يأتونها ليجدوا في رحابها الافتتاح الثقافي . ثم ان هذه الثقافة العربية ، كانت بالفعل قد رسخت في مصر ، بعد المشوار الطويل الذي قطعتة ؛ بحيث أن علوما كثيرة كانت قد قتلت بحثا ، ولم يعد من الممكن الزيادة فيها .

ولذلك أصبحت ظروف الثقافة في عصر السيوطي ، لا يبدل في نيلها الجهد الشخصي وحده ؛ وانما بالأولى بناء على الدراسة المنهجية في معاهد العلم ؛ حيث كثرت المدارس في عصر المماليك ، بينها السلاطين والأمراء والتجار وحتى النساء ، ولاتزال بعض المدارس من وقتهم باقية للآن ، فهي عبارة عن فناء وأروقة ومكتبة (١) ، ومكان لنزول الطلبة ، الذين يتلقون العلم بالمجان ، كما كانت تخصص لهم هيئة للتدريس على رأسها الأستاذ والمدرس والمعيد ، وأصبحت تدرس العلوم للطلبة على أساس مناهج محددة ، بعضها عرف بالطريقة المصرية (٢) ، ومن كان ينجح ينال ما يسمى اجازة ويؤكد ذلك أن السيوطي نفسه كان نتاجا لهذا النظام في المدرسة الشيخونية ، حيث درس فيها على يد شيخه البلقيني ، الذي منحه اجازته في عام ١٤٦٠/٨٦٤ ، وأنه عمل في هذه المدرسة ذاتها أستاذا في عام ١٤٦٧/٨٧٢ .

وقد كان احتكار المماليك للسياسة ، سببا في أن جعل العلماء يتفرغون للعلم ، بحيث نبغ منهم عدد كبير (٣) . فكان السيوطي واحدا منهم ، أعتبر أكثر من أثروا الثقافة العربية ، ليس فقط في مصر أو في

(١) ألحقت ناحدي المدارس مكتبة بها مائة ألف مجلد ، الخطوط ، ٤ ص ١٩٧ ، س ٩ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ص ٤٤٢ .

(٣) أشهر من عصر السيوطي من المؤرخين : ابن حجر العسقلاني (ب ١٤٤٩/٨٥٣) ، وابن عربشاه (ت١٤٥٠/٨٥٤) ، والعيني (١٤٥١/٨٥٥) ، وأبو المحاسن (ت١٤٦٩/٨٧٤) ، والسخاوي (ت١٤٩٧/٩٠٢) ، وميرخند (ت١٤٩٨/٩٠٣) ، وابن اياس (ت٩/١٥) .

نفسه لم يذكر غير ثلاثمائة مؤلفا ، كما ورد في ترجمته لنفسه ربما الى وقت المماليك ، وانما أيضا بالنسبة للعالم الاسلامي كله حتى وقتنا .
كان هو نفسه لم يذكر غير ثلاثمائة مؤلفا ، كما ورد في ترجمته فقد أحصى بعض العلماء الحديثين (٤) أكثر من ٥٦١ مؤلفا له ؛ وان كان هو وقت كتابتها ؛ تشتمل على علوم في الفقه والحديث واللغة والتاريخ .

ولنضرب مثلا لعلم واحد ازدهر في عصر السيوطي ، هو علم التاريخ ، الذي أصبح له مفهوم لم يكن له من قبل . فهو لم يعد عبارة عن العلم الذي يسر سب الأحداث أو يسردها أو حتى المحافظة على نقلها ؛ وانما بالأولى أصبح العلم الذي يفسرها على أساس العلية ؛ مما أوجد نظريات للتفسير التاريخي ، أشهرها نظرية ابن خلدون في العمران ؛ وبذلك برز دور المؤرخ أكثر مما كان له من قبل ، والسيوطي نفسه له كتاب في التاريخ ومنهجه معروف باسم : الشماريخ في علم التاريخ (١) .

والخلاصة أن عصر السيوطي ، قد عبر عنه ابن خلدون بأصدق تعبير حينما قال : « ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر ، فهي أم العالم واخوان الاسلام ، وينبوع العلم والصنائع » (٢) .

(١) ذكر Flügel في Wiener jahrb كما ذكره بروكلمان ، في مؤلفه المشهور : G. A. L.

(٢) تحقيق Seybold ، طبعة Leiden ، ١٩٦٣ ، ونشر ابراهيم السامرائي ، المجلد التاريخي ، بغداد ١٩٧٠ ، العدد الأول ، السنة الأولى ، ص ١١ وما بعدها .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٥٣ ، انظر . ماجد ، تاريخ الحضارة الاسلامية ، ص ٢٨١ .

القسم الثاني
السِّيَوطِي مَوْفِقًا

منهج السيوطي في كتابة التاريخ

للدكتور حسين محمد ربيع

استاذ مساعد تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

لايستطيع باحث دراسة منهج جلال الدين السيوطى فى تسابه التاريخ دون اشارة عابرة الى عصر السيوطى وتربيته ونشأته ، فمن المعروف أن السيوطى عاش فى عصر بدأت فيه دولة المماليك فى مصر والشام تعاني من عوامل التدهور والانهار نتيجة أسباب سياسيه واقتصادية واجتماعية . فقد ولد السيوطى فى غرة رجب سنة ٨٤٩ هـ / ٣ من أكتوبر ١٤٤٥ م أى بعد سبع سنين من حكم السلطان الظاهر سيف الدين جقمق (١٤٣٨ - ١٤٥٣) ، وتوفى فى ١٨ من جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ / ١٧ من أكتوبر ١٥٠٥ م أى بعد أربع سنوات من حكم السلطان الأشرف قانصوه الغورى (١٥٠١ - ١٥١٦) ، وهى مدة لاتزيد عن ستين عاما تولى سلطنة المماليك فى خلالها ثلاثة عشر سلطانا ، وطفحت بمؤامرات السلاطين والأمراء ، وفتن القضاة والفقهاء ، وفساد موظفى الدواوين وولاية الأقاليم .

وواكب هذا انهيار اقتصادى بعيد المدى بعد أن انهار نظام الاقطاع الحربى ، وهو نظام حربى اقتصادى برهن على أهميته طيلة عصر سلاطين الأيوبيين والمماليك ، وتكررت حوادث المجاعات والأوبئة والطواعين بما لها من آثار وخيمة على بلاد اعتمدت على الزراعة طيلة تاريخها . وبعد أن كان

لمصر شهرة كبيرة في صناعات متنوعة ، مثل صناعة المنسوجات وصناعة السكر ، في بلدان عالم البحر المتوسط ، حدث أن أغلقت معظم حوانيت صناعة النسيج ومطابخ السكر أبوابها لقلّة عدد المشتغلين في هذه الصناعات ، وعدم استطاعة الصناعات المصرية وقتذاك ملاحقة ما حدث في أوروبا من اختراعات جديدة عند فجر النهضة الأوربية الحديثة فأضاعت مصر أسواقها الخارجية . هذا بالإضافة الى أن مصر فقدت مركزها التجارى الهام في تجارة التوابل والسلع الشرقية بعد أن اتسع نشاط البرتغاليين في الهند باكتشافهم طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٣ هـ / ١٤٨٧ م ، ووصولهم الى الهند عن طريق الطواف حول أفريقيا سنة ٩٠٤ هـ / ١٤٩٨ م . وعاصر ذلك تدهور العملات النقدية المصرية بعد أن أصبحت الفلوس النحاسية - لا الدنانير الذهبية أو الدراهم الفضية - هى النقود القانونية التى تنسب اليها المبيعات (١) . وهكذا عاش السيوطى في عصر من عصور التدهور والانهار ، وشاهد هذا بنفسه كعالم ومؤرخ وفتية ، وكان لذلك أثره في منهجه في كتابة التاريخ .

يضاف الى ذلك أن تربية ونشأة السيوطى كان لهما أثرهما فى منهجه فى كتابة التاريخ ؛ فالسيوطى ولد ونشأ فى أسرة انقطع معظم رجالها لطلب العلم والاشتغال بالتعليم ، فوالده العلامة كمال الدين أبو بكر بن محمد كان من فقهاء الشافعية تولى القضاء بأسيوط قبل قدومه الى القاهرة ، ودرس الفقه بالجامع الشيخونى ، وخطب بجامع ابن طولون ، وصنف بعض الكتب فى الفقه والنحو (٢) . ولما توفى سنة ٨٥٥ هـ /

(١) لتفصيل ذلك أنظر :

Cook, M.A., Studies in the Economic History of the Middle East, (London, 1970), pp. 115-128.

(٢) أنظر ترجمته فى السيوطى : حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، (القاهرة ١٩٦٧) ، ح ١ ، ص ٤٤١ - ٤٤٣ ؛ السيوطى : كتاب النجدة بنعمة الله ، تحقيق الزايت ماري سرتن ، (القاهرة - كمبودج ١٩٧٥) ، ص ٥ - ١١ .

١٤٥١ م لم يكن ابنه عبد الرحمن السيوطى قد بلغ السادسة من عمره ، الا أنه كأحد أبناء طبقتة من أبناء شيوخ العصر وعلماؤه تلقى العلم على شيوخ أجلاء . ويحدثنا السيوطى عن حياته عندما ترجم لنفسه فى كتابه حسن المحاضرة (١) ، فذكر أنه حفظ القرآن الكريم وهو دون الثامنة من عمره ، ثم شرع فى الاشتغال بالعلم عندما بلغ الخامسة عشرة على علماء وشيوخ العصر مثل الشيخ شهاب الدين الشارمساحى ومحبى الدين الكافيجى الذى لزمه السيوطى أربع عشرة سنة ، وشيخ الاسلام علم الدين البلقينى الذى أجاز السيوطى بالتدريس والافتاء سنة ٨٧٦ هـ / ١٤٧١ م أى وعمره سبع وعشرون سنة . وسافر السيوطى الى بلاد الحجاز طالبا للعلم . ووضع معجما سماه (المنجم فى المعجم) ذكر فيه أعيان الشيوخ الذين سمع منهم الحديث أو أجازوا له (٢) .

ومعنى هذا كله أن السيوطى - كمعاصريه - تعلم تعليما دينيا عليا ، ثم شغل أو طلب شغل وظائف فى الدولة المملوكية ، فباشر تدريس الفقه بالجامع الشيخونى خلفا لوالده ، وتصدى للافتاء . واملأ الحديث بجامع ابن طولون ، ودرس الحديث بالخانقاه الشيخونية ، وتولى مشيخة التصوف بتربة بوقوق الناصرى ، ثم أصبح شيخا للخانقاه البيرسية وهى أكبر خوانق (بيوت الصوفية) بالقاهرة . غير أنه صرف عن هذا المنصب سنة ٩٠٦ هـ / ١٥٠١ م ولم

(١) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٤٤ ؛ محمد مصطفى زيادة : المؤرخون فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، (القاهرة ، ١٩٥٤) ص ٥٦ - ٦٨ . ويلاحظ أن السيوطى ترجم لنفسه متأسبا بترجمة ناقوت الحموى فى معجم الأدباء ، ولسان الدين الخطيب فى تاريخ غرناطة ، وابن حجر فى قضاء مصر ، وأبو شامة فى الروضتين فى أخبار الدولتين وغيرهم .

(٢) السيوطى : المعجم فى المعجم ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٢٦ تاريخ ، انظر أيضا السيوطى : كتاب التحدث بنعمة الله ، ص ٤٣ - ٧٠ ، ٧٩ - ٨٢ .
Sartain, E.M. : Jalal al-din al-Suyuti, Vol. I, Biography and Background, (Cambridge, 1975), pp. 26-40.

ينول بعد ذلك وظيفته حتى وفاته (١) •

وهناك عامل آخر من أهم العوامل التي أثرت في منهج السيوطي في كتابه التاريخ وهو عقليته الموسوعية ، فقد ذكر السيوطي في ترجمته انه برع في التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع وأصول الفقه والجدل والتصريف والانشاء والترسل والفرائض والقراءات والطب(٢) • لهذا لم يترك السيوطي موضوعا في حقل العلوم الاسلامية في القرن الخامس عشر الميلادي الا تناوله وكتب عنه • وجمع بين فن الكتابة في التاريخ والدراسات والتأليف المتنوعة ، فبالاضافة الى التاريخ كتب في علوم القرآن (٣) ، وفي أصول التفسير (٤) ، وفي تفسير القرآن الكريم (٥) ، وفي أسباب النزول (٦) ، وفي الحديث (٧) ، وفي اللغة (٨) ، وفي الأنساب (٩) ، وغير ذلك من أمهات المصادر والرسائل الصغرى حتى أنه عد منها في كتابه حسن المحاضرة ثلثمائة كتاب « سوى ما غسله وتاب عنه » (١٠) بل ذكر تلميذه المؤرخ ابن اياس في كتابه بدائع الزهور

(١) السيوطي : كتاب التحدث بنعمة الله ، ص ٨٨ - ٩١ ، محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر ، ص ٥٩ - ٦٠ ،

Sartair, E.M. : Jalal al-din al-Suyuti, Vol. 1, pp. 41-46, 94 ff.
Brockelman, Article « Al-Suyuti », in Encyclopaedia of Islam, 1st edition.

(٢) السيوطي . حسن المحاضرة ، ح ١ ، ص ٣٣٨ - ٣٣٩ •
(٣) السيوطي : الايقان في علوم القرآن ، جزءان ، (القاهرة ١٣١٨ هـ / ١٨٩٥ م) •
(٤) السيوطي . في أصول التفسير ، (دمشق ١٣٣١ هـ / ١٩١٣ م) •
(٥) السيوطي : تفسير الجلالين ، جزءان (القاهرة ١٩٠٩ م) •
(٦) السيوطي : لباب النقول في أسباب النزول ، (القاهرة ١٣٨٢ هـ / ١٩٦٢ م) •
(٧) السيوطي : الآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة ، جزءان ، (استانبول ، ١٣١٧ هـ / ١٨٩٩ م) •

(٨) السيوطي . المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، حققه محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، جزءان ، (القاهرة ١٩٥٨) •

(٩) السيوطي : لب اللباب في تحرير الأنساب ، (ط ٠ أوربية ١٨٤٠ م) ؛ السيوطي . كتاب في نسب بعض الصحابة والأشراف الادريسيين وغيرهم من ملوك لمتونة والموحدين . مخطوط . بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٢٤ تاريخ •

(١٠) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٣٣٩ - ٣٤٤ • أنظر أيضا أسماء المصنفات التي صنفتها في كتاب التحدث بنعمة الله للسيوطي ، ص ١٠٥ - ١٣٦ •

أن السيوطى كان نادرة في زمانه ، بلغت عدة مصنفاته نحو من ستمائة كتاب (١) .

ولعل هذا العدد الوافر من مؤلفات السيوطى أثارت عليه في أثناء حياته المشاحنة والخصام مع بعض معاصريه وبخاصة السخاوى الذى اتهم السيوطى بأنه اختلس كثيرا من تصانيف شيوخه وغيرهم ، كما اتهمه السخاوى بالحقم والجنون والهوس (٢) . ودافع السيوطى عن نفسه في رسالة له سماها (الكاوى على تاريخ السخاوى) ذكر فيها أن السخاوى « حقيق تقيير ، لا يباع في سوق العلم بقطمير » (٣) . كما اتهمه السيوطى في كتابه (نظم العقيان في أعيان الأعيان) بأنه « أكب على التاريخ فأفنى فيه عسره ، وأغرق فيه عمله ، وسلق فيه أعراض الناس ، وملاه بمساوىء الخلق » (٤) . ويمكن تفسير ذلك العدد الوافر من المؤلفات الكبرى والصغرى للسيوطى بأن كثيرا من رسائله الصغير لا تزيد الواحدة منها على مقالة طويلة أو صغيرة أو مختصرة منها « ما هو في ورقة ، وما هو دون كراسة » كما قال السخاوى (٥) . غير أن ما يهمننا هنا هو أن هذه العقلية الموسوعية لجلال الدين السيوطى كان لها أثرها ودورها في منهجه في كتابة التاريخ .

يضاف الى ذلك أن السيوطى اتخذ لنفسه منهجا تاريخيا مخالفا لمنهج مؤرخى القرن الخامس عشر متأثرا بعقليته الموسوعية وظروف

-
- (١) ابن اياس . بدائع الزهور في وقائع الدهور ، ج ٤ ، بحسب محمد مصطفى ، (القاهرة ١٩٦٠) ، ص ٨٣ .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، (القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٤) ، ج ٤ ، ص ٦٦ - ٧٠ .
(٣) السيوطى . الكاوى على تاريخ السخاوى ، مخطوط بدار الكتب المصري رقم ١٥١٠ أدب .
(٤) السيوطى . نظم العقيان في أعيان الأعيان ، تحقيق فيلبس حى ، (نيويورك ، ١٩٢٧ م) ، ص ١٥٢ - ١٥٣ ؛ والعقمان هو الذهب الخالص .
(٥) السخاوى . الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٨ ، أنظر أيضا .
Nicholson, R. A., A Literary History of the Arabs, (Cambridge, 1902), n. 455.

عصره وحياته ، فقد اعتبر السيوطى ان الاجتهاد فرض وكتب كتابا سماه (كتاب الرد على من أخذ الى الأرض ، وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض) • وفى هذا الكتاب يرد السيوطى على من استعظم دعوى الاجتهاد « ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات فى كل عصر ، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة فى كل فطر » (١) • وشرح السيوطى فى كتابه أن الدهر لا يخلو من مجتهد ، وخصص بابا فى ذكر من حث على الاجتهاد وأمر به ، وذم التقليد ونهى عنه • وفى مقدمة كتابه (الاتقان فى علوم القرآن) ، نقل السيوطى رأى الامام مجد الدين أبو السعادات بن الأثير أن « كل مبتدئ لشيء لم يسبق اليه ومبتدع لأمر لم يتقدم فيه عليه ، فإنه يكون قليلا ثم يكثر ، وصغيرا ثم يكبر » (٢) ؛ بمعنى أن السيوطى حاول أن يكون رائدا ومبتدعا لأمر كثيرة لم يتقدم عليه أحد فيها ، ولاريب أن منهجه فى كتابة التاريخ كان احداها •

ويبدو أن المنهج الجديد الذى سلكه السيوطى فى معالجته لقضايا التاريخ وغيره كان من الأسباب الكثيرة التى دفعته الى أن يعتقد فى نفسه أنه هو « المبعوث » على رأس المائة التاسعة للهجرة ، مجددا لدين الاسلام ومحياها له ؛ ولذلك كتب رسالته المسماة : (كتاب التنبيه بمن يبعثه الله على رأس كل مائة) (٣) حاول فيها السيوطى - مستعينا بأدلة من السنة والتاريخ - أن يتتبع أخبار المجتهدين فى الاسلام على رأس كل مائة ، ابتداء من المائة الأولى للهجرة مثل عمر بن عبد العزيز والامام الشافعى والامام الغزالى ، ورجا السيوطى أن يكون هو المجدد

(١) السيوطى : كتاب الرد على من أخذ الى الأرض ، (الجزائر سنة ١٩٠٧) ص ٢ •

(٢) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ، ج ١ ، ص ٤ ، انظر مجد الدين بن الأثير :

النهاية فى غريب الحديث والاثر ، (القاهرة ١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م) ، ج ١ ، ص ٤ •

(٣) هذه الرسالة فى مؤلفات السيوطى الصغرى ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم

٩٨ مجاميع ، ورقات ١٠٨ أ - ١٢٦ ب •

على رأس المائة التاسعة (٨٩٩ هـ) لتبحره في أنواع العلوم ، وانتقال مصنفاته الى سائر الأقطار (١) * ومن الثابت أن شهرة السيوطي في زمنه وصلت الى بلاد كثيرة بدليل أن الشيخ شمس الدين محمد الممتوني من بلاد التكرور بغرب السودان ، أرسل الى السيوطي سنة ٨٩٨ هـ / ١٤٩٣ م رسالة تحتوى على مشكلات فقهية مختلفة، أجاب عنها السيوطي في رسالة سماها (فتح المطلب المبرور ، وبرد الكبد المحرور في الجواب عن الأسئلة الواردة من التكرور) ، وهى رسالة تدل على مدى طول باع السيوطي فى العلم ، ونعرف منها شيئا عن النظم الاقتصادية والحياة الاجتماعية فى بلاد غرب السودان فى العصور الوسطى (٢) *

غير أن السيوطي من ناحية أخرى عاش فى عصر نضج فيه مفهوم وماهية علم التاريخ وتأثر بذلك ، فهو أحد تلاميذ مدرسة الدراسات التاريخية التى كونها العالم والمفكر والفيلسوف الكبير عبد الرحمن بن خلدون الذى قدم الى مصر سنة ١٣٨٢ م ، ودرس بالجامع الأزهر والمدرسة القمحية ، وأدت اتصالاته بعلماء مصر ومؤرخيها وحلقاته الدراسية الى تكوين مدرسة فكرية للدراسات التاريخية كان من تلاميذها المؤرخ

(١) عن بلوغ السيوطي رتبة الاجتهاد واعتبار نفسه « المبعوث » على رأس المائة التاسعة مجددا لدين الاسلام ، ومجيبا له : أنظر السيوطي : كتاب التحدث بنعمة الله ، ص ٢٠٣ - ٢٢٧ ومقدمة فيليب حتى لكتاب نظم العقيان فى أعيان الأعيان ، صفحة ٦١ - ٧٢ ، ص ، أنظر أيضا Sartain : op. cit., pp. 61-72.
Grunebaum, G. E., Von, Medieval Islam, (Chicago and London, 1969), p. 246.

(٢) أنظر نص الرسالة الى بلاد التكرور فى كتاب السيوطي : الحاروى فى الفناوى ، الملمة الثالثة ، تحقيق محمد مجبى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٥٩) ، ج ١ ص ٤٥١-٤٥٥ .
وماك رسالة أخرى للسيوطي الى ملوك التكرور ينصحهم ويردهم الى حكم الله ويذكرهم بقرنه ، وهذه الرسالة الثانية بدار الكتب المصرية ، مخطوط رقم ٤١٦ مجاميع *

الكبير أحمد بن علي المقرئ بن علي المقرئ وابن حجر والسخاوي وغيرهم (١) *
وقد عرف ابن خلدون التاريخ تعريفا هاما عندما قال : « في ظاهره ،
لا يزيد على أخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول ،
تنمى فيها الأقوال ، وتضرب فيها الأمثال ... وفي باطنه نظر وتحقيق ،
وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق ، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها
عميق ، فهو لذلك أصيل في الحكمة (الفلسفة) عريق ، وجدير بأن
بعد في علومها وخليق » (٢) * وهكذا أشار ابن خلدون الى العلى
والكيفيات والأسباب والنتائج * ولا ريب أن السيوطي تأثر بهذا
المفهوم لعلم التاريخ ، كما أنه لا شك قد تأثر أيضا بنظرة أحمد بن
علي المقرئ الذي عرف علم التاريخ الأخبار عما كان في العالم ، فلذلك
يقوله : « وموضوع علم التاريخ الأخبار عما كان في العالم ، فلذلك
صار هو السبيل الى معرفة ما يضر وينفع » * وقسم المقرئ التاريخ
الى ثلاثة أقسام أولها أخبار وسير ومواعظ الأنبياء والرسل والعلماء
والحكام والنسك والزهاد ، وثانيها أخبار الملوك وأسباب قيام الدول
وانقراضها وزوالها تدير أصحاب الجيوش والعساكر وأخبار الوزراء
والأمراء ، وثالثها أخبار ذوى المروءات والأجواد وأهل الوفاء وأرباب
الشجاعة (٣) *

ولا بد أن السيوطي تأثر أيضا بشيخه وأستاذه محبى الدين
محمد بن سليمان الكافي ، المتوفى سنة ٨٧٩ هـ / ١٤٧٤ م ،

(١) عن مدرسة ابن خلدون التاريخية وتلاميذه انظر : السخاوي ، الضوء الاعم ، ج ٧
س ١٧٢ ، ١٨٦ ؛ ج ١٠ ، ص ٣١٢ ؛ زيادة : المؤرخون في مصر ، ص ٦ ؛ زيادة :
« تاريخ حياة المقرئ » في كتاب دراسات عن المقرئ (القاهرة ١٩٧١) ، ص ١٤ ،
انظر أيضا :

Fischel, W. J., Ibn Khaldun in Egypt (Berkeley and Los Angeles, 1967),
pp. 28-29; Rosenthal, F., A History of Muslim Historiography, (Leiden,
1952), p. 40.

(٢) ابن خلدون : المقدمة ، (ط . القاهرة ١٩٣٠) ، ص ٢ - ٣ ،
Rosenthal, F., The Muqaddimah, An Introduction to History, 2nd ed., (Prin-
ceton, 1967), Vol. I, p. 6.

(٣) المقرئ : الخبر عن البشر . مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٩٤٧ تاريخ .

ج ١ ، ورقة ١١٦ - ١١٧ .

الذى تتلمذ على يديه السيوطى لمدة أربع عشرة سنة ، ومدحه ولقبه بلقب « أستاذ الأستاذين » (١) . وكتب الكافيحى كتابا هريدا من أنواعه عنوانه (المختصر المفيد فى علم التاريخ) عالج فيه نظرية التاريخ ، واجاب عن المسائل المتعلقة بخصائص علم التاريخ وغرضه وهدفه وفوائده . وعرف الكافيحى التاريخ بأنه : « علم يبحث فيه عن الزمان وأحواله ، وعن أحوال ما يتعلق به من غير تعيين ذلك وتوقيته » (٢) . وبرهن على أن التاريخ « علم كسائر العلوم المدونة كالفقه والنحو والبيان وغير ذلك . فثبت الاحتياج اليه كما ثبت الاحتياج الى ماعده من العلوم ، وأنه واجب علمه على سبيل الكفاية كوجوب سائر العلوم » (٣) . ويرى الكافيحى أيضا أنه يشترط فى المؤرخ ما يشترط فى راوى الحديث من أربعة أمور هى : العقل والضببط والاسلام والعدالة (٤) . وفى الصفحات التالية سوف نرى مدى تأثير السيوطى عند كتابته للتاريخ بآراء وأفكار أستاذه الكافيحى .

يضاف الى ذلك أن السخاوى ، وهو أحد معاصرى السيوطى ومنافسيه - كتب كتابا عنوانه (الاعلان بالتوييح لمن ذم أهل التاريخ) للدفاع عن دراسة التاريخ . ورأى السخاوى أن موضوع التاريخ هو « الانسان والزمان » وبالتالي فهو يرى التاريخ فى نظرة أكثر شمولاً من نظرة الكافيحى خاصة عندما فسر ذلك بقوله بأن مسائل التاريخ هى أحوال الانسان والزمان « المفصلة للجزئيات تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للانسان وفى الزمان» . ورأى السخاوى أن فائدة التاريخ هى معرفة الأمور على حقيقتها (٥) . وفى مقدمة كتابه (التبر المسبوك فى ذيل

(١) السيوطى : الاتقان فى علوم القرآن ، ج ١ ، ص ٣ .

(٢) الكافيحى المختصر المفيد فى علم التاريخ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ،

رقم ٥٢٨ تاريخ ، ورقة ٢ ب ، ٣ ، ١ .

(٣) المصدر السابق ، ورقة ٥ ب .

(٤) المصدر السابق ، ورقة ١٧ - ١٧ .

(٥) السخاوى : الاعلان بالتوييح لمن ذم التاريخ ، (دمشق ١٣٤٩ ص / ١٩٣٠ م) ،

(السلوك) ردد السخاوى هذه النغمة ، وأضاف أن علم التاريخ فن من فنون الحديث النبوى ، وأنه ذو أهمية كبيرة فى معرفة الحق من الباطل ، بالإضافة الى معرفة الانساب ، واختلاف النقود ، وما يستفاد من دراسة سير الملوك والأمراء ، وأخبار العلماء والأدباء ، وما يتصل بعلم التاريخ من علوم اللغة والمعانى والعربية والشعر وما الى ذلك (١) .

كان لهذا كله أكبر الأثر فى منهج السيوطى فى كتابته للتاريخ ، فقد نظر السيوطى للتاريخ مثل ابن خلدون والمقرئى والكافجى ، والسخاوى - على أنه علم له أهميته ولا بد من ضرورة دراسته والاهتمام به . وعلى الرغم من أن السيوطى لم يشرح ماهية علم التاريخ فى كتابه المسمى (اتمام الدراية لقراء النقاية) الذى شرح فيه خلاصة أربعة عشر علما مثل علوم التفسير والحديث والنحو والتشريح والطب (٢) ، إلا أنه أفرد للتاريخ كتابا سماه (الشمارىخ فى علم التاريخ) احتوى على فوائد « مهمة لا يليق بالكاتب والمؤرخ جهلها » (٣) . وقسم السيوطى كتابه الى ثلاثة أبواب درس فى الباب الأول مبدأ التاريخ أو بمعنى آخر بداية معرفة الانسان للتاريخ ، وأرجع السيوطى بداية التاريخ الى وقت هبوط آدم من الجنة . ويشير السيوطى بذلك الى حقيقة هامة وهى أن التاريخ عرفه الانسان منذ ترك آثاره على الصخر ممثلا فيما نقشه على جدران كهفه ، مصورا مظاهر حياته ليراهها ويدرسها من يأتى بعده من بنيهِ وعشيرته . ثم تتبع السيوطى تطور التاريخ منذ عهد آدم عليه السلام .

(١) السخاوى : التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، (القاهرة بدون تاريخ) ص ٢ - ٣ ،

الاعلان بالتاريخ ص ٤٤ .

(٢) السيوطى : اتمام الدراية لقراء النقاية ، (ط٠ القاهرة ١٨٩٩) والنقاية بمعنى النقاوة أى خيار الشيء ، انظر ابن منظور (لسان العرب) مادة « نقا » ، وعن هذا الكتاب الهام للسيوطى وأهميته فى دراسة تاريخ العلم والطب انظر :

Dunlop, D. M., Arab Civilization to A.D. 1500, (New York, 1971), pp. 247-8.

(٣) السيوطى : الشمارىخ فى علم التاريخ ، (ليدن ١٨٩٤ م) ، ص ١٥ .

حتى زمن الخليفة عمر بن الخطاب عندما بدأ المسلمون يؤرخون بالهجرة النبوية . وفي الباب الثاني من كتاب الشناربخ بحث السيوطي فوائد التاريخ ومنها : « معرفة الآجال وحلولها ، وانقضاء العدد وأوقات التعاليق ، ووفيات الشيوخ ومواليدهم والرواة عنهم ، فتعرف بذلك كذب الكاذبين ، وصدق الصادقين » . ثم أورد السيوطي في الباب الثالث بعض الفوائد التي تتعلق بالتاريخ والتي ينصح بها المؤرخ . مثل ضرورة التأريخ بالأشهر الهلالية دون الشمسية والمصطلحات التي يجب على المؤرخ استخدامها عند ذكر الشهور والأيام والليالي (١) .

هكذا نظر السيوطي الى التاريخ كعلم ، متأثرا في ذلك بالمدرسة التاريخية المصرية في القرن الخامس عشر الميلادي . وكان لهذه النظرة بالإضافة الى تربيته ونشأته وعتليته الموسوعية واجتهاده ، دور كبير في تحديد منهجه في كتابة التاريخ . فالسيوطي لم يكتب التاريخ متبعا لفريقة الحوليات كالمقرئزي والعيني وغيرهما ، بل كان له منهجه الخاص به . فكتاب (تاريخ الخلفاء) وضعه السيوطي في سلسلة ما كتبه عن « تراجم أعيان الأمة » (٢) ؛ فكما وضع كتابا في طبقات المفسرين يحتوي على ترجمة ١٣٦ مفسرا (٣) ، وكتابا عن طبقا اللغويين والنحاة (٤) ، وأكثر من كتاب في طبقات حفاظ الحديث النبوي (٥) ، كتب السيوطي كتابه عن تاريخ الخلفاء . ومما يدل على أهمية كتاب تاريخ الخلفاء أنه كان مصدرا من أهم المصادر التي اعتمدها

(١) المصدر السابق ص ٢ والصفحات التالية .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، الطبعة الثالثة (القاهرة ١٩٦٤) ص ٣ - ٤ .

(٣) السيوطي : كتاب طبقات المفسرين ، (ليدن ١٨٣٩) .

(٤) السيوطي : نغمة الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل

ابراهيم ، جزءان (القاهرة ١٩٦٤) .

(٥) السيوطي : طبقات الحفاظ ، مخطوط رقم ٨١ تراجم بمكتبة الحرم الملكي الشريف

ميكروفيلم رقم ١٢٢ تاريخ بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة .

السيوطي : ذيل طبقات الحفاظ ، (دمشق ١٣٤٧هـ/١٩٢٨م) .

Gustav Weil منذ أكثر من قرن من الزمان ، عندما كتب كتابه (تاريخ الخلفاء Geschichte der Chalifen) ، وهو الكتاب الذي صدر في خمسة مجلدات فيما بين سنتي ١٨٤٦ - ١٨٦٢ (١) ، كما ترجم Janet هذا الكتاب الى اللغة الانجليزية لأهميته البالغة (٢) .

وفي كتاب تاريخ الخلفاء يظهر مدى تأثير السيوطي بمنهج علماء الحديث ، وهو منهج يعتمد أصلا على الجرح والتعديل أى العدالة والضبط . ومن المعروف أن النقد عند علماء الحديث كان ذاتيا منصبا على الرواة لا موضوعيا منصبا على المرويات . لهذا نجد السيوطي في الفصلين اللذين كتبهما عن الأحاديث النبوية المنذرة بخلافة بنى أمية والمبشرة بخلافة بنى العباس يهتم اهتماما كبيرا بالاسناد ورواة الحديث، ويذكر دائما اذا كان الاسناد ضعيفا، أوله شواهد من حديث آخره، أو أن الراوى قد اتهم بالكذب أو ما يشبه ذلك متبعا منهج الجرح والتعديل عند علماء الحديث (٣) . وعندما تحدث السيوطي عن الخلفاء الراشدين اهتم كثيرا بالأحاديث النبوية المشيرة بفضلوهم وخلافة كل منهم وكلام الأئمة في ذلك (٤) .

وعند معالجته لعصر كل خليفة من الخلفاء حاول السيوطي تسجيل الحوادث الهامة على ترتيب السنين كماصريه ، غير أنه نحا نحو الاختصار

(١) Dunlop, D. M., « Some remarks on Weil's History of the Caliphs » in Lewis, B. and Holt, P. (Editors), *Historians of the Middle East*, (London, 1962), pp. 316, 322.

(٢) Jarrett, H. S., *History of the Caliphs*, (Calcutta, 1881).

(٣) السيوطي . تاريخ الخلفاء ، ص ١٢ - ١٨ ، عن طريقة علماء الحديث فى جمع الرواية التاريخية ونقدها انظر : أسد رستم ، مصطلح التاريخ ، الطبعة الثالثة (بيروت ١٩٥٥) ص ٥٩ - ٧٩ ، فسطاطين زريق : نحن والتاريخ (بيروت ١٩٥٩) ص ٦٨ ، عبد الحميد العبادى : المامه بالتاريخ عند العرب ، وهو الفصل الثالث من كتاب علم التاريخ تأليف هرنشو ونرجمة عبد الحميد العبادى (القاهرة ١٩٤٤) ، ص ٤٣ - ٤٥ .

(٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٥٠ - ٥٣ ، ٦١ - ٦٧ ، ١٢٠ - ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٦٨ - ١٧٤ .

والتركيز ، وابتعد عن السرد وذكر التفاصيل التي تهتم بها عادة كتب الحوليات . ويتضح هذا المنهج المختصر عند حديثه عن الفتوح الاسلامية زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، والحوادث التي جرت في خلافة عثمان بن عفان ومعاوية بن ابي سفيان وغيرهما من الخلفاء (١) . ويلاحظ أنه عندما اتسعت حدود الدولة الاسلامية ، اتسعت فطرة السيوطي لتأريخ الحوادث ، فأصبح لا يقتصر على ذكر الحوادث التي حدثت في الحجاز أو الشام أو مصر فقط ، بل ذكر أحيانا علاقات الدولة الاسلامية بالدول أو الشعوب المجاورة ، مثل وصول كتاب نقفور امبراطور الدولة البيزنطية الى هارون الرشيد ، وأول ظهور الصليبيين بالشام ، واستيلاء الصليبيين على القسطنطينية سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م وهي الحملة الصليبية الرابعة ، وخروج التتار وما الى ذلك من الحوادث (٢) .

وسجل السيوطي أيضا ما حدث في الدولة الاسلامية من ظواهر طبيعيه أو خوارق دون أن يعللها أو يعلق عليها مثل هبوب ربيع بالعراق ، ووفوع زلازل بدمشق وتونس والرى وخراسان ونيسابور وطبرستان وأصبهان، وسماع أهل خلاط لصيحة عظيمة من النساء مات منها خلق كثير، وأن جبلا باليمن سار بمن عليه من مكان الى مكان آخر ، ووقوع طائر أبيض بحلب صاح يأمر الناس بالتقوى ، وما الى ذلك من أخبار تدل على أن السيوطي كان جماعا متهييا من نقد أو تمحيص ما نقله وجمعه ، واقتصر على اسناده الى رواته (٣) . وفي هذا اتبع السيوطي منهج العلماء المسلمين في العصور الوسطى الذين كانوا يشددون على ضرورة الأمانة والدقة في النقل من المصادر . وسواء أكان المقول حقا أو باطلا فقد رأى العلماء المسلمون - وقد ذاك - أن الصدق في ايراده

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ١٣١ ، ١٥٢ - ١٥٥ ، ١٩٦ - ١٩٩ ، ٢١٥ .
٢٦٢ .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٨ ، ٤٣٧ ، ٤٥٦ ، ٤٦٧ - ٤٧١ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٤٧ - ٣٤٨ .

لما لذلك من أهمية فى البحث العلمى ، لانه يسهل لطالب العلم الاطلاع على آراء أهل الخبرة فى ذلك العلم • ومن المعروف أن العلماء المسلمين حملوا للنقات من أهل العلم الكثير من الاحترام ، وأقصى ما كانوا يذهبون اليه هو اظهار الحسن الجيد والقييح الردىء ، وهذا لا علاقة له بالنقد العلمى الذى يستهدف التمييز بين الصواب والخطأ (١) •

وهنا يجب الاشارة الى مسألة فى غاية الأهمية عند دراستنا لمنهج السيوطى فى كتابة التاريخ وهى حرص السيوطى دائما على ذكر المصادر التى أخذ عنها ، ربما ليبعد عن نفسه هجوم المنتقدين من معاصريه ، ولتأثره بالعلوم الاسلامية التى برع فيها • ولهذا اتصف السيوطى بالأمانة العلمية ، حتى أنه ذكر صراحة فى مؤلفه الكبير (المزهى فى علوم اللغة وأنواعها) فى فصل خاص تحت عنوان « عزو العلم الى قائله » ما نصه : « ولهذا لا ترانى أذكر فى شىء من تصانيفى حرفا الا معزوا الى قائله من العلماء » مبينا كتابه الذى ذكر فيه « (٢) • لذلك نجد فى مقدمة كتابه حسن المحاضرة — على سبيل المثال — يذكر قائمة طويلة تحتوى على عناوين الكتب التى استعان بها وأسماء مؤلفيها (٣) • وحرص دائما على كتابة المصدر أو اسم المؤلف قبل ذكره لأى خبر من الأخبار أو واقعة من الوقائع فى أمانة علمية مطلقة • وكذلك فى تاريخ الخلفاء لم يتردد السيوطى فى ذكر محاولات قام بها قبله جماعة من المتقدمين لكتابة تواريخ الخلفاء ، وذكر بعض هذه الكتب وأسماء مؤلفيها (٤) • كما ذكر فى خاتمة تاريخ الخلفاء المصادر التى اعتمد عليها مثل مؤلفات الذهبى وابن كثير وغيرهما (٥) •

- (١) انظر روزنتال (فرانتز) : مناهج العلماء المسلمين فى البحث العلمى ، ترجمة أنيس فريجة (بيروت ، ١٩٦١) ، ص ١٢١ - ١٢٢ ، ١٣٣ - ١٣٤ ، ١٤٢ •
(٢) السيوطى : المزهى فى علوم اللغة ، تحقيق محمد أحمد جاد المولى وآخرون ، (القاهرة ١٩٥٨) ، ج ٢ ص ٣١٩ •
(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ، ص ٣ - ٤ •
(٤) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٢٥ - ٢٦ •
(٥) المصدر السابق ، ص ٥١٦ - ٥١٧ •

وإذا كان السيوطى قد كتب تاريخ الخلفاء للخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، إلا أنه فى الحقيقة اهتم كثيرا بتاريخ بنى العباس فى مصر. ولم يهتم - كغيره من المؤرخين السنيين - بتاريخ الفاطميين، وسار على نهج ابن كثير وغيره فى الغرض من قدرهم . ولعل مرجع هذا الاهتمام بتاريخ العباسيين أن السيوطى كان فقيها وعالما ومحدثا ، كما كان صديقا للخليفة العباسى المتوكل على الله الذى مدحه فى كتابه حسن المحاضرة ودعا له بالبقاء ، وأشاد بأعماله الخيرة (١) . وذكر ابن اياس فى بدائع الزهور أن هذا الخليفة العباسى أراد سنة ٩٠٢ هـ / ١٤٩٦ م أن يعين السيوطى قاضيا كبيرا على جميع القضاة « يولى منهم من شاء ، ويعزل من شاء ، مطلقا فى سائر ممالك الاسلام » غير أن السيوطى لم يتول هذه الوظيفة لمعارضة الفقهاء له (٢) . وقد طلب الخليفة المتوكل من السيوطى أن « يجمع له الأحاديث النبوية والآثار الشريفة المروية المتضمنة لمناقب أهل البيت » فكتب السيوطى رساله المسماه (الأساس فى مناقب بنى العباس) احتوت على أربعين حديثا نبويا فى فضائل بنى العباس (٣) . وطلب الخليفة أيضا من السيوطى أن يكتب له مؤلفا فى الألفاظ التى وردت فى القرآن الكريم ، وذكر الصحابة والتابعون أنها بلغة الحبش أو الفرس أو غيرهم من غير العرب ، فكتب السيوطى رسالة سماها (المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية والتركية والزنجية والنبطية والقبطية والسريانية والعبرانية والرومية والبربرية) (٤) .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٩٢ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحفىق محمد مصطفى ، ح ٣

(الفاهرة ، ١٩٦٣) ، ص ٣٣٩ ؛ زيادة : المؤرخون فى مصر ، ص ٦٦ - ٦٧ .

(٣) السيوطى : الأساس فى مناقب بنى العباس ، مخطوط بالكتبة الأزهرية رقم

٤٠٢٢ تاريخ .

(٤) السيوطى : المتوكلى فيما ورد فى القرآن ، (دمشق ١٣٤٨هـ/١٩٢٩ م) . ودرس =

ويهمنا هنا أن صلة السيوطي الوثيقة بالخليفة العباسي المتوكل كانت من الأسباب التي جعلته يهتم اهتماما خاصا بتاريخ بني العباس في مصر ، ففي كتاب تاريخ الخلفاء ذكر السيوطي معلومات كثيرة عن تاريخ الخلفاء العباسيين في مصر ، بادئا بسيرة الخليفة المستنصر بالله أحمد حتى عصر الخليفة المتوكل على الله ، وسجل معظم الحوادث التي حدثت في زمن كل خليفة بطريقة مختصرة سنة وراء الأخرى ، وينهى تأريخه لعصر كل خليفة بذكر من مات في أيامه من الأعلام (١) ، وهكذا سلك السيوطي منهجا فريدا من نوعه لأن معظم أو كل مؤرخي القرن الخامس عشر الميلادي اهتموا بتاريخ سلاطين المماليك لا بتاريخ الخلفاء العباسيين ، ومما يبرهن على صحة هذا القول أن السيوطي أفرد في كتابه (حسن المحاضرة) فصلا كاملا تحت عنوان « ذكر من قام بمصر من الخلفاء العباسيين » بدأه بذكر انقراض الخلافة العباسية ببغداد ، وما جرى للمسلمين من جراء ذلك ، ثم عالج موضوع قيام الخلافة العباسية في مصر زمن السلطان الظاهر بيبرس وتاريخ الخلفاء العباسيين حتى عصره (٢) ، وعندما أرخ السيوطي لسلاطين المماليك تحدث عنهم في فصل تحت عنوان « ذكر سلاطين مصر الذين فوض اليهم خلفاء مصر العباسيون فاستبدوا بالأمر دونهم » (٣) وهو عنوان ذو مغزى يوضح ولاء السيوطي لبني العباس ، وأنه نظر الى سلاطين المماليك كحكام مستبدين ، استأثروا بالملك دون الخلفاء العباسيين .

= السيوطي أيضا ما أخذه العرب من اللغات الأخرى وأدخلوه في لغتهم في أسماء الأواني والملابس والجواهر وألوان الطيب والأشربة والأفاويه والرياحين والطيب وغيرها ، انظر السيوطي : المزهرة في علوم اللغة ، ج ١ ص ٢٦٨ - ٢٨٣ ، انظر أيضا : Grunebaum, Medieval Islam, pp. 344-5.

- (١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٧٧ - ٥١٦ .
- (٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ، ص ٤٥ - ٩٢ .
- (٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٩٥ - ١٢٤ .

أما منهج السيوطي عند تأريخه للفاطميين في مصر ، فيلاحظ أنه اتبع المنهج نفسه الذي اتبعه معظم المؤرخين السنيين مثل أبي شامة وابن كثير وغيرهما في الغرض من شأن الخلفاء الفاطميين ، واتهامهم بتهم شيعة مل الكفر والكذب والمكر والمجوسية • وحاول السيوطي أن يبرهن على أن امامة الخلفاء الفاطميين غير صحيحة فذكر أنهم غير قرشيين وليسوا بعلويين، وأن أكثرهم زنادقة خرجوا عن تعاليم الاسلام ، فمنهم من سب الأنبياء، ومنهم من أباح الخمر، ومنهم من أمر بالسجود له، وأن مبايعتهم صدرت والامام العباسي قائم فلا تصح البيعة لامامين في وقت واحد(١) • لهذا لم يلقب السيوطي الفاطميين بلقب « خلفاء » ، بل ذكر أسماءهم مجردة مثل « الظاهر العييدي صاحب مصر » و « صاحب مصر الأمر بأحكام الله » (٢) • وكتب في تاريخ الخلفاء فصلا مختصرا بعنوان « فصل في الدولة الخبيثة العبيدية » احتوى على أسماء الخلفاء الفاطميين وتواريخ حكمهم (٣) • وفي (حسن المحاضرة) كتب السيوطي فصلا آخر تحت عنوان « ذكر أمراء مصر من بنى عبيد » أسهب في ذكر قبائلهم وسوء سيرتهم (٤) • وبالتالي يجب على الباحث أن يأخذ ما كتبه السيوطي وغيره من المؤرخين السنيين عن تاريخ الفاطميين بكثير من الحذر والحبطة (٥) •

ومنهج السيوطي عند تأريخه لسلاطين المماليك ورسوم السلطنة

(١) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤ - ٦ ، انظر أبو شامة : كتاب الروضتين في أخبار الدولتين ، تحقيق محمد حلمي محمد أحمد (القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٦٢) ، ج ١ قسم ٢ ، ص ٥١٠ - ٥١٦ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، (القاهرة ١٩٣٢ - ١٩٣٩) ، ج ١٢ ، ص ٢٦٧ - ٢٦٨ •

(٢) انظر السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤١٩ ، ٤٣٥ •

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢٤ - ٥٢٥ •

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥٩٩ - ٦١٠ •

(٥) عن أهمية تاريخ الفاطميين بالنسبة للتاريخ الاسلامي بصفة عامة والتاريخ

المصري بصفة خاصة انظر :

Lewis, B., « An Interpretation of Fatimid History », in Colloque International sur l'Histoire du Caire, (1972), pp. 287-295.

يميل الى الاختصار ، لأنه - كما سبق القول - رأى أنهم قد استبدوا بالأمر دون الخلفاء العباسيين . لهذا لم يهتم السيوطى كثيرا بالحملات الحربية التى شنها سلاطين المماليك ضد الصليبيين والمغول وغيرهم ، بل اهتم بمنشآت السلاطين الدينية، ورعايتهم للفقهاء والقضاة، وبالنصائح التى كان يرسلها الفقهاء والعلماء للسلاطين مثل المكاتبات التى أرسلها الشيخ محى الدين النووى الى السلطان بيبرس يعظه فيها وينصحه بالعدل والرفق بالرعية ، ويعثه على حب الخير وازالة المكوس والعمس بالشرع (١) . وتحدث السيوطى عن جلوس السلطان فى دار العدل للنظر فى المظالم ، وذكر معلومات قيمة عن صفة المجلس وتكوينه ونظام جلوس كل فرد فيه (٢) . واعتمد السيوطى على ابن فضل الله العمري عند حديثه عن « الخلع والزى » فوصف الملابس التى كان يرتديها القضاة والعلماء ، ولم يذكر شيئاً عن زى الأمراء والجنود والوزراء ونحوهم ، مدفوعاً بتربيته ونشأته الدينية معظياً سبب ذلك «لأنها ما بين حرير وذهب وذلك محرم شرعاً ، وقد التزمت ألا أذكر فى هذا الكتاب شيئاً أسأل عنه فى الآخرة ، ان شاء الله تعالى» (٣) . واتبع السيوطى المنهج نفسه عند حديثه عن الجيش المملوكى وأرباب الوظائف الكبرى فى السلطنة المملوكية ، لذلك لم يذكر سوى معلومات بسيطة للغاية معتمداً على ابن فضل الله العمري فى كثير من الحذف والاختصار (٤) .

ومن الجدير بالذكر أن السيوطى - بحكم انتمائه لطبقة الفقهاء والعلماء - أدلى بدلوه فى مجال كان له أهميته فى عصر سلاطين المماليك وهو كتابة رسائل تحث على الحرب والجهاد . فقد كتب السيوطى

(١) انظر السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٩٧ - ١٠٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٤ .

رسالتين لحت الفرسان على تعلم الرمي بالنشاب والطنن بالرمح . وفي الرسالة الأولى وعنوانها (غرس الأبنشاب في الرمي بالنشاب) تحدث السيوطى عن أهمية الرمي بالسهم ، وحث على تعلمه ، وذكر الأمر به كما ورد في القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ثم ذكر معلومات هامة عن ترتيب أجزاء القوس والنبل وأنواع السهام وأصول الرمي . وفي الرسالة الثانية وعنوانها (السماح في أخبار الرماح) ذكر السيوطى الأحاديث النبوية في فضل الرماح ، وفوائد لغوية عن أنواع الرماح ومتعلقاتها ، وما قبل في الرمح من الشعر وما إلى ذلك من أمور كان لابد أن يعرفها المملوك عند تعلم الرمي بالسهم والطنن بالرمح في الطباة السلطانية (١) .

والسيوطى من قلائل المؤرخين الذين تحدثوا عن المؤثرات المغولية في نظم ورسوم السلطنة المملوكية . فقد نقل السيوطى عن بعض المؤرخين السابقين أن السلطان الظاهر بيبرس كان معجبا بالمغول والنظم المغولية ، وأنه أراد أن يتشبهه بجنكيزخان ، فرتب في سلطنته نظما كثيرة لم تكن معروفة قبله بديار مصر ، مثل ضرب البوقات ، والأمر بوظائف جديدة مثل أمير سلاح وأمير مجلس وغير ذلك (٢) . والسيوطى بهذه الملاحظة يشير الى المؤثرات المغولية التي حملها المغول معهم الى مصر خاصة في عصر

(١) السيوطى : غرس الأبنشاب في الرمي بالنشاب ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث بامتانبول رقم ٢٤٢٥ ، ميكروفيلم رقم ٢٩ فنون حربية بمعهد المخطوطات العربية ، ورقات ١٥٧ - ١٥٧ ، السيوطى : السماح في أخبار الرماح ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥١٧ حديث ، ورقات ٢ - ١٣ ؛ عن تعليم الرمي بالسهم والطنن بالرمح وأهميته في تدريب الفارس المملوكى انظر :

Hassanein Rabie, « The Training of the Mamluk Firis », in Parry and Yapp (Editors): War, Technology and Society in the Middle East, (London, 1975), pp. 155-161.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ١٣٣ ؛ انظر أبو الحسن بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، (القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٢) ، ج ٦ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ ، ج ٧ ، ص ١٨٢ - ١٨٣ ؛ Little, D. P., An Introduction to Mamluk Historiography, (Wiesbaden, 1970), p. 128.

السلطان بيبرس والتي أثرت في نظم السلطنة المملوكية ومظاهر الحياة الاجتماعية فيها مثل شرب القمز (لبن الخيل) وارتداء الملابس الترفيهية وما الى ذلك (١) .

وينسب للسيوطى كتاب عنوانه (تاريخ الملك الأشرف قايتباى) . غير أن هذا الكتاب لم يذكره السيوطى فى قائمة مؤلفاته (٢)، ولا نعرف شيئاً عنه سوى صفحات منه بعنوان (غزوات قبرص ورودس) نشرت سنة ١٨٨٤ م . وذكر السيوطى فى هذه الصفحات أن غزوات قبرص بدأت سنة ٨٢٦ هـ / ١٤٢٣ م عندما جهز السلطان المملوكى برسباى عدة أجناد الى سواحل دمياط والاسكندرية وغيرهما . وفى السنة التالية (٨٢٧ / ١٤٢٤ م) أرسل برسباى أربع سفن من مصر وبيروت وصيدا عليها ٦٠٠ مقاتل و ٣٠٠ فرس للاغارة على جزيرة قبرص . ثم أشار السيوطى الى حملتى قبرص الثانية والثالثة (٨٢٨ - ٨٢٩ هـ / ١٤٢٥ - ١٤٢٦ م) وذكر معلومات هامة عن أنواع السفن التى استخدمت من أعربة وقرقر وحملات، ثم تحدث عن هزيمة القبارصة وأسر ملكهم جانوس، واستيلاء المسلمين على الجزيرة ، ووصول جانوس مع غيره من الأسرى الى القاهرة (٣) . ولخص السيوطى بعد ذلك أخبار محاولات السلطان المملوكى جقمق للاستيلاء على جزيرة رودس فى سنتى ٨٤٧ - ٨٤٨ هـ /

(١) لمعرفة بعض هذه المؤثرات المغولية فى نظم سلطنة المماليك أنظر :
Fāssanein Rabie, *The Financial System of Egypt A.H. 564-741 A.D., 1169-1341*, (London, 1972), pp. 30-31 and notes; Poliak, A.N., « The Influence of Chingiz-Khan's Yasa upon the general organization of the Mamluk state » in *Bulletin of the School of Oriental and African Studies*, Vol. X (1940-2), pp. 862-76; Ayalon, D., « The Wafidiya in the Mamluk Kingdom », in *Islamic Culture*, Vol. XXV (1951), pp. 89-104.

(٢) أنظر السيوطى : كتاب التحدث بنعمة الله ، ص ١٠٥ - ١٣٦ ، حسن المحاضرة ،

ج ١ ، ص ٣٤٤ .

(٣) السيوطى : غزوات قبرص ورودس ، (ط . ق بينا ١٨٨٤) ، ص ٢ - ١٢ ، عن تفاصيل استيلاء المماليك على قبرص فى عصر السلطان برسباى ، انظر : سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ، (القاهرة ١٩٥٧) ، ص ٩٠ - ١٢٢ ؛
Ahmad Darrag : *L'Egypte sous le règne de Barsbay*, (Damas, 1961), pp. 239-267.

المعروف أن جقمق لم يستطع الاستيلاء على هذه الجزيرة التي ظلت في ١٤٤٣ - ١٤٤٤ م بقيادة الأمير تمرباي والأمير اينال العلاني . ومن أيدي الاستبارية حتى سنة ١٥٢٢ م (١) .

واهتم السيوطي أيضا اهتماما كبيرا بأخبار التراجم متأثرا بمنهج كتابه التاريخ في القرن الخامس عشر الميلادي، وهو أن لفظ التاريخ وسع غير التاريخ من العلوم والفنون كالحرليات والوفيات والتراجم والطبقات . ففي خلال القرن الخامس عشر الميلادي كتب المقرئزي كتاب (الملقى) ليكون معجما لتراجم حكام مصر ورجالها ، وكتاب (درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة) ليكون معجما لتراجم معاصريه ؛ وكتب أبو المحاسن بن تغري بردي كتاب (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) محتويا لتراجم سلاطين المماليك والأعيان والنابيين في مصر والدول المجاورة . وكتب السيخاوي كتابه (الضوء اللامع لأهل القرن التاسع) . لهذا سلك السيوطي المنهج نفسه عندما اهتم بكتب التراجم . فكتب السيوطي كتابا من أهم كتبه وهو كتاب (نظم العقيان في أعيان الأعيان) ، ذكر في مقدمته أنه قصره على « الأعيان وأفراد الزمان » (٢) . واحتوى هذا الكتاب على مائة، ترجمة لكبار أعيان العالم الاسلامي من رجال ونساء الذين عاشوا حوالي القرن التاسع الهجري (الخامس عشر الميلادي) في مصر والشام والحجاز والعراق والأندلس من سلاطين وقضاة ومقرئين ومحدثين وشعراء وغيرهم، عرف السيوطي بعضهم واتصل بهم بطريقة أو بأخرى . وكانت طريقة السيوطي في هذا الكتاب هي أن يذكر اسم المترجم حسب حروف المعجم ، ولقبه وكنيته ، وتاريخ مولده ، وأسماء شيوخه ومصنفاته وسنة

(١) السيوطي : غزوات قبرص ورودس ، ص ١٤ - ١٦ ، أنظر أيضا : سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام (القاهرة ١٩٦٥) ، ص ١٧١ - ١٧٢ ؛ سامي سلطان سعد ، الاستبارية في رودس ١٣١٠ - ١٥٢٢ ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ، سنة ١٩٧٥ .

(٢) السيوطي : نظم العقيان ، ص ١ .

وفاته • ويعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب لمعرفة أحوال مصر الاجتماعية والأدبية في أواخر عصر سلاطين المماليك •

وفي الجزء الأول من (حسن المحاضرة) ذكر السيوطي الأعلام والأعيان الذين نزلوا بمصر ، وترجم لهم تراجم موجزة مع حرصه على ذكر تواريخ الوفيات ؛ فترجم لمن دخل مصر من الصحابة والنساء الصحابيات ، ومن كان بمصر من مشاهير التابعين وصغار التابعين وأتباع التابعين الذين رووا الحديث ، ومن كان بمصر من الأئمة المجتهدين مثل الإمام الشافعي وابن دقيق العيد وغيرهما (١) • ثم أورد السيوطي تراجم مختصرة لمن كان بمصر من حفاظ الحديث ، والفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية والحنبلة ، وأئمة القراءات ، والصدحاء والزهاد والصوفية ، وأئمة النحو واللغة ، ومن كان بمصر من أرباب المعقولات وعلوم الأوائل ، والحكماء والأطباء والمنجمين ، والوعاظ والقصاص والمؤرخين والشعراء والأدباء (٢) •

وأشار السيوطي بعد ذلك الى أمراء مصر من حين الفتح الاسلامي لها الى قيام الدولة الفاطمية ، ثم سرد أسماء « أمراء مصر من بنى عبيد » يقصد الفاطميين (٣) • وفي الجزء الثاني من (حسن المحاضرة) اتبع السيوطي منهج السرد التاريخي المختصر لقضاة مصر ووزرائها وكتاب الانشاء بها من أول الفتح الاسلامي حتى عصره (٤) • وهكذا اهتم السيوطي بمصر وفقهائها وعلماؤها وسلاطينها ووزرائها وقضاتها ورجالها بطريقة ينفرد بها عن سائر المؤرخين المعاصرين •

ومصر البلد الحنون، والمراح والمكان الخصب أحبها السيوطي حبا فاق كل وصف ، وصنف كتابا سماه (بهجة الناظر ونزهة الخاطر) نقل فيه

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٦٦ - ٣٤٤ •

(٢) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٣٤٥ - ٥٧٧ •

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٥٧٨ - ٦١٠ •

(٤) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٣٥ - ٢٣٦ •

ما فيل عن مصر ونيهلها ومقياسها ومنتزهاتها وربوعها ووديانها وخلقجانها، وأن من لم يشاهدها ورأى أهلها «فما رأى الدنيا ولا الناسا» (١) * وفي كتاب (حسن المحاضرة) ذكر السيوطى المواضع التى وقع فيها ذكر مصر فى القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، ومن ملكها فى قديم الزمان ، ومن دخلها من الأنبياء والحكماء ، وآثارها القديمة كالأهرام وأبى الهول ومنازة الاسكندرية (٢) *

ومن الثابت أن السيوطى لم يكن الرائد فى دراسة خطط مصر وآثارها فقد سبقه المؤرخ أحمد بن عبد الله الأوحدى المتوفى سنة ٨١١ هـ / ١٤٠٨ م الذى كتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة (٣) * والمقرئزى صاحب كتاب (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) وغيرهما (٤) * غير أن الذى يهمنى هنا أن السيوطى لم يؤلف كتابا مستقلا فى خطط مصر وآثارها ، وإنما تحدث عن ذلك عرضا فى كتابيه حسن المحاضرة وكوكب الروضة * والسيوطى عند ذكره لاقليم مصر ، نقل من كتاب الأقاليم لابن حوقل ومن كتاب مباهج الفكر للوطواط حدود الديار المصرية ومعلومات مختصرة عن نشأة الفسطاط والقطائع والقاهرة (٥) * ونقل السيوطى من كتاب سكردان السلطان لأحمد ابن يحيى المعروف بابن حجلة (ت ٧٧٦ هـ / ١٣٧٥ م) سبب تسميتها القاهرة لوقوع المريخ فى الطالع ويسمى عند المنجمين بالقاهر (٦) * كما نقل السيوطى أيضا من كتاب مباهج الفكر ومنهاج العبر

(١) السيوطى : بهجة الناظر ونزعة الخاطر ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٢

محاميع *

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٥ - ٩٣ *

(٣) أنظر ترجمة الأوحدى فى السخاوى : الضوء اللامع ، ج ١ ، ص ٣٥٨ - ٣٥٩ *

(٤) أنظر محمد عبد الله عنان : « خطط المقرئزى بين الأصالة والنقل » فى كتاب

دراسات عن المقرئزى ، ص ٣٩ - ٤٨ *

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٣ - ٢٥ *

(٦) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ٢٥ - ٢٦ ، ابن حجلة : كتاب سكردان السلطان ،

(القاهرة ، ١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م) ، ص ٢٥ - ٢٦ *

للوطواط معلومات في غاية الأهمية عن تقسيم مصر الإداري أو المالي ، إذ قسم مصر الى قسمين مصر والقاهرة ، وذكر أن كل قسم انقسم الى كور وفري ، والكور جعلت صفقات في كل صفقه منها وال حرب ، وفاض ، وعامل خراج • وأعطى السيوطى - نقلا عن الوطواط - معلومات قيمة عن الصفقات التابعة لمصر والتابعة للقاهرة ، بمدنها ومراكزها الهامة ، وكذلك عن ثغور مصر على ساحل بحر الروم (البحر المتوسط) خاصة الفرما وتينس (١) •

ونقل السيوطى أيضا عن ابن عبد الحكم والكندى والقضاعى وابن فضل الله العمري معلومات هامة عن نشأة المدن الاسلامية الأولى (الكوفة ، البصرة ، الفسطاط) على أطراف الصحراء حتى لا يجعل المسلمون بينهم وبين الخليفة بحرا ، وعن الخطط التى سكتها القبائل فى الفسطاط ، وبناء المسجد الجامع ، والدار التى بنيت لعمر بن الخطاب ثم أصبحت سوقا، وحمام الفأر، واختطاط الجيزة (٢) • وكان لجبل المقطم نصيب من دراسة السيوطى لخطط مصر والقاهرة، الا أنه أنكر ماحدث منذ عصر السلطان الناصر محمد بن قلاون من تشييد المباني فيما بين قبة الامام الشافعى وباب القرافة • وأشار السيوطى الى فتاوى بعض العلماء بضرورة هدم كل بناء بسفح المقطم حتى يكون مقبرة لموتى المسلمين فقط كما أراد الخليفة عمر بن الخطاب (٣) • واعتمد السيوطى اعتمادا كاملا على خطط المقرئى عند حديثه عن جوامع مصر وأمهاة المدارس والخواثق بالديار المصرية (٤) •

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ٢٦ - ٢٩ ، جمال الدين الوطواط : مباحج الفكر ومناهج العبر ، مخطوط بصور بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٩ علوم طبيعية ، ورققات ٢١١ وما بعدها ، وعن تينس أنظر ابن بسام : كتاب أنيس الجليس فى أخبار تينس ، تحقيق جمال الدين الشيبان ، مجلة المحمى العلمى العراقى ، مجلد ١٤ (١٩٦٧) ، ص ١٥١ - ١٨٩ •

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٣٠ - ١٣٦ •

(٣) المصدر السابق ، ج ١ ، ص ١٣٧ - ١٤١ •

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٣٧ - ٢٧٣ ، المقرئى : كتاب المواظ =

أما كتاب كوكب الروضة للسيوطي فهو كتاب فريد من نوعه عن جغرافية ووصف جزيرة الروضة أو جزيرة مصر كما كانت تسمى . وبدأ السيوطي هذا الكتاب بذكر الأحاديث والآثار الواردة في النزعة والروضات . ثم اعتمد السيوطي على كتاب الخطط للمقريزي ومصادر أخرى مثل مؤلفات ابن رضوان وعلى بن سعيد وابن الوردى والقزويني والوطواط والتيفاني وغيرهم للتعريف بمكان جزيرة الروضة وأصل أسمها وصفاتها وما قيل فيها من شعر . ثم تحدث السيوطي عن دور صناعة السفن بالروضة والحصن الذي بناه أحمد بن طولون بها ، وقلعة السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب ، ثم أشار الى الأزهار والفواكه والخضروات والموجودة في جزيرة الروضة ، وما قيل فيها من الأشعار والألغاز (١) . وفي كتاب كوكب الروضة تحدث السيوطي أيضا عن نهر النيل ومقياسه ومنابعه ومصباته وزياداته ومسافاته ومزاياه وعجائبه ، ونقل هذه المعلومات أيضا الى كتابه حسن المحاضرة (٢) . ومن الغريب أن السيوطي أشار أيضا في حسن المحاضرة الى آثار مصر القديمة فوصف أهرامات الجيزة ، وذكر اسم من بناها ، ومحاولة الخليفة العباسي المأمون من فتح ثلثة بالهرم وما وجدته بداخله من أموات بأكفانهم ، وما قيل في الهرمين من شعر للمتنبى وعمارة الينسى وغيرهما ، وكذلك كان الحال عند حديثه عن منارة الاسكندرية وعجائبها (٣) .

أما منهج جلال الدين السيوطي في مجال التاريخ الاقتصادي فالحقبة أن الباحث يكون مبالغا اذا ظن أن السيوطي كان مؤرخا اقتصاديا

- والاعتبار (الخطط) ، (القاهرة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م) ح ٢ ، ص ٢٤٤ - ٢٥٥ ، ٢٦٥ - ٢٦٦ . ٢٧٣ - ٢٩٤ ، ٣٦٢ وما بعدها .
(١) السيوطي : كوكب الروضة ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٤ تاريخ سمور ، ورقات ٢ - ٤٩ ، ٢٥٢ وما بعدها .
(٢) السيوطي : كوكب الروضة ، ورقة ٤٩ وما بعدها ؛ حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٤٠ - ٣٧٦ .
(٣) السيوطي : حسن المحاضرة ، ح ١ ، ص ٧٠ - ٨٣ ، ٨٩ - ٩٣ .

لأنه لم يهتم بدراسه طرق الزراعة أو أنواع الحرف والصناعات أو طرق التجارة أو أنواع المتاجر وأسعارها ، غير أن السيوطى تعرض لبعض موضوعات التاريخ الاقتصادى التى اهتم بها علماء عصره لتطبيق تعاليم الشريعة مثل المكوس (الضرائب) والمعاملات النقدية وما الى ذلك. ودراسة المكوس أو الضرائب عند السيوطى تدل على نشأته الفقهية وطبيعة عمله ، فهو لم يشرح المكوس المجبأة فى مصر فى القرن الخامس عشر بل حاول أن يشرح المكس كما كان عليه الحال فى العصر الاسلامى الأول . وكتب السيوطى رسالة سماها (رسالة فى ذم المكس) (١) رأى فيها أن المكوس أمور مذمومة مكروهة ، وأن المكاسين أو الجبأة مصيرهم الى جهنم ، ونقل الحديث الشريف « لا يدخل الجنة صاحب مكس » . ويبدو أن السيوطى وجد أن الضرائب فى عصره اختلفت كل الاختلاف عن أنواع الضرائب الشرعية ورأى أن من واجبه الدعوة الى العودة الى تطبيق أحكام الشريعة فى أمور الضرائب فكتب هذه الرسالة . ولم يدرك السيوطى - دون شك - أن أكثر من ثمانية قرون من الزمان كانت كفيلة باحداث كثير من التغييرات والتعديلات فى أنواع الضرائب ومقاديرها ومواعيد جبايتها (٢) .

ومما هو جدير بالذكر أن السيوطى وقع فى خلط كبير فهو لم يفرق بين مفهوم الجزية « أى ضريبة الرأس أو الجوالى » وبين الضرائب الخراجية المفروضة على الأراضى الزراعية ، فاستخدم السيوطى أحيانا كلمة « الخراج » وهو يقصد « الجزية » ، واستخدم كلمة « الجزية » وهو يقصد « الخراج » . لذلك نجد عند حديثه عن الجزية ينقل من كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم معلومات خاصة بجباية الضرائب

(١) السيوطى : رسالة فى ذم المكس ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٤١٦ حديث ، ورقات ١١ - ٢٤ .

(٢) انظر : Hassancin Rabie, The Financial System of Egypt, p. 100.

الخراجه عند فتح العرب لمصر ، وأنهم فرضوا على أهل البلاد ضريبة خراجية « لكل فدان نصف أردب وويستين من شعير الا القرد (البرسيم) فلم يكن عليه ضريبة » . وعندما أشار السيوطى الى الاحصاء السكانى الذى أمر به الوليد بن رفاعه عندما ولى مصر سنة ١٠٩ هـ / ٧٢٧ م ، ذكر السيوطى أنه فعل ذلك حتى « ينظر فى تعديل الخراج » بينما فى الحقيقة لتقدير ضريبة الجزية (١) .

واتخذ السيوطى منهجا مشابها عند دراسته لأنواع النقود المتعامل بها فى مصر أو ما سماه (معاملة مصر) ، فنقل عن ابن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م أنواع العملات النقدية فى مصر كما آل اليها الحال فى القرن الثامن الهجرى عندما أصبح الدرهم الفضة هو أساس التعامل (٢) . ولم يكن هذا هو حقيقة العملات النقدية زمن السيوطى لأنه تطور الأمر منذ أيام السلطان المملوكى بروق (٧٨٤ - ٨٠١ هـ / ١٣٨٢ - ١٣٩٩ م) - أى قبل عصر السيوطى بحوالى نصف قرن من الزمان - الى أن أصبحت الفلوس النحاسية هى قاعدة النقد الرئيسية فى مصر واليها تنسب المبيعات ، وقل التعامل بالدرهم الفضة لندرتها ، وأصبح الدينار الذهب عملة حسابية وسلعة من السلم (٣) .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥ - ١٤٧ ؛ عن الجزية (ضريبة

الراس أو الجوال) انظر :

Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, pp. 108-113 ; Lokkegaard, F., Islamic Taxation in the Classic Period, (Copenhagen, 1950), pp. 140-141 ; Cahen, C., Articles « Djawali and Djizva » in Encyclopaedia of Islam, (2nd edition).

وعن الاحصاء السكانى فى مصر العصور الوسطى انظر :

Russell, J. C., « The Population of Medieval Egypt », in Journal of Amer. Res. Center, Egypt, Vol. V (1966), pp. 69-82.

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٣٢١ .

(٣) انظر : المقرئى : اغائة الامة بكشف الغمة . تحقيق محمد مصطفى زادة

وجمال الدين التتال ، (القاهرة ، ١٩٤٠) ، ص ٧١ - ٧٢ ، عند الرحمن فهمى : النقود

العربة ماضيا وحاضرا ، (القاهرة ١٩٦٤) ، ص ١٠٧ - ١١١ ؛ انظر أيضا :

Hassanein Rabie, The Financial System of Egypt, p. 197.

ولم يتخل السيوطى عن منهج المؤرخين المعاصرين له من الإشارة إلى الأزمات النقدية التى حدثت كثيرا طيلة العصر المملوكى ، وما كان يتبع ذلك عادة من تغيير أسعار تداول العملات، وتحرك الأسعار، واختفاء العملات الجيدة ، وتداول النقود عددا أو وزنا . وهذه الأزمات وفشل السلاطين فى حلها كان لها أكبر الأثر فى إلحاق الضرر بالاقتصاد المملوكى أواخر العصور الوسطى . ومن الأزمات النقدية التى أشار إليها السيوطى تلك التى حدثت فى مصر فى السنوات الهجرية ٦٩٣ ، ٧٢٤ ، ٧٤٠ ، ٧٨٩ ، ٧٩٤ ، ٨٠٦ ، ٨١٥ ، ٨١٧ . وشرح السيوطى الوسائل التى التجأ إليها بعض سلاطين المماليك لمواجهة هذه الأزمات النقدية مثل سك نقود جديدة جيدة العيار ، أو تغيير سعر الصرف ، أو الأمر بأن يتعامل الناس بالنقود وزنا لا عددا ، وما كان لذلك من أثر على حياة الناس المألبة والمعيشية (١) .

واهتم السيوطى أيضا فى كتابه حسن المحاضرة بأخبار النيل وذكر السنوات التى فصر فيها النيل عن الوفاء ، وما تبع ذلك من عدم وصول الماء إلى الحقول وحدوث غلاء ووباء ، وأثر ذلك كله على أحوال البلاد الاقتصادية مثلما حدث فى السنوات الهجرية ٤٦٠ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ - ٥٩٨ ، ٦٢٨ ، ٦٩٤ - ٦٩٥ ، ٧٧٥ (٢) . وسجل السيوطى كذلك تواريخ الطواعين والأوبئة التى حدثت فى مصر منذ سنة ٦٦ هـ إلى سنة ٨٤١ هـ ، وذلك عند حديثه عن الحوادث القريبة التى حدثت فى مصر (٣) . وما يدل على اهتمام السيوطى بتاريخ الطواعين أنه كتب رسالة سماها (ما رواه الواعون فى أخبار الطاعون) احتوت على أخبار الطواعين التى حدثت فى الدولة الإسلامية منذ عهد الرسول عليه الصلاة والسلام إلى سنة ٨٩٧ هـ / ١٤٩٣ م أى قبل وفاة السيوطى بحوالى ثلاث عشرة سنة . وحرص

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٧ ، ٣٠١ - ٣٠٢ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٨٧ - ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ - ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٢٧٤ ، ٢٨٧ ، ٣٠٣ ، ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

السيوطى بتبليغه الحال على دثر نصيب مصر من هذه الطواعين ، وما حدث فيها من كثرة عدد الموتان (١) .

وأدرك السيوطى - كمؤرخ - ما حدث فى عصره من انهيار نظام الوفاق فى مصر نتيجة استيلاء السلاطين والأمراء المماليك بعد عصر السلطان برقوق سى جسيغ الأراسى الموقوف فى مصر وانسحاب ربيع المنشآت الموقوفة من دور وحوانيت وحمائم وخلافه واعطاء أثمانها للمتفعين بها أو تسليمها لبيت المال ، هذا بالإضافة الى سوء الاشراف على الأوقاف الباقية مما أدى الى قلة متحصلاتها المالية (٢) . لهذا كتب جلال الدين السيوطى رسالة عنوانها (رسالة الانصاف فى تمييز الأوقاف) نادى فيها بضرورة تمييز الأوقاف بعد أن لمس المصير المظلم لهذا النظام . ويميز السيوطى بين نوعين من الأوقاف : النوع الأول أوقاف لهم تؤخذ من بيت المال بأى طريقة من الطرق ولا يمكن أن تؤول اليه مرة أخرى . وقصد السيوطى بهذا النوع الأوقاف الأهلية التى وقفها الواقفون على ذريتهم ، أو حبسوها على مصالح بيوت الصوفية والمدارس والجوامع وغير ذلك من المؤسسات . ونادى السيوطى بضرورة التشديد على أن تكون مصروفات هذا النوع من الأوقاف استيفاء لشروط الواقف ، ولا يؤول شيء منه الى بيت المال « لا يجوز تناول ذرة منه الا مع استيفاء ما شرطه الواقف » . أما النوع الثانى من الأوقاف - فى رأى السيوطى - فهو أوقاف كانت فى الأصل أملاكاً تابعة لبيت المال ، وقفها على توالى السنين خلفاء وسلاطين مثل صلاح الدين والظاهر بيبرس وغيرهما وأمراء ، فأجاز السيوطى عودة الكثير من هذه الأوقاف الى بيت المال ، لأن معظم الأشخاص الذين حبسوا هذه الأوقاف كانوا فى الأصل أمراء مماليك

(١) السيوطى : مارواه الواقفون فى اخبار الطاعون ، نشر وتحقيق كرم ، (مينا

١٨٨٠) .

(٢) انظر : المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ .

أرقاء لبيت المال • واستشهد السيوطي بما قاله شيخ الاسلام عز الدين ابن عبد السلام عندما ثار على الأمراء المماليك ونادى بيعهم فائلا أهم « أرقاء بيت المال » (١) •

ويبدو أن رسالة الانصاف في تمييز الأوقاف للسيوطي تعكس آراء الفقهاء المعاصرين أوأخر عصر سلاطين المماليك ، بأن الأوقاف الأهلية لا يمكن أن تحل بأية وسيلة من الوسائل ، بينما لا تخضع الأوقاف الأخرى لهذا الحكم • ولا حاجة للقول بأن بيع الدور والحوانيت والحمامات الموقوفة أو تحويل إيراداتها الى بيت المال أعطى ضربة قاصمة لنظام الوقف في مصر الذي كان المورد المالى لسنين طويلة للنفقة على البيمارستانات (المستشفيات) والخوانق (بيوت الصوفية) والجوامع والمساجد ، ورواتب وجرايات المدرسين وطلاب العلم في المدارس ، ورواتب قراء القرآن الكريم في المقابر ، ومرتبات الموظفين المسؤولين عن رعاية وصيانة الأوقاف مما كان له أسوأ الأثر على أحوال مصر الاقتصادية قبيل العصر العثماني (٢) •

وهكذا كان جلال الدين السيوطي مؤرخا قديرا ، أدرك مشكلات عصره وتحدث عنها ، وكان له منهجه الخاص به في كتابة التاريخ ، كما رأينا في الصفحات السابقة ، مما يجعل من الظلم أن يقاس السيوطي بمعايير ومقاييس عصرنا الحاضر •

(١) السيوطي • رسالة الانصاف في تمييز الأوقاف ، مخطوط بالملكية الأهلية بباريس رقم ٤٥٨٨ ، ورقات ٨٨ - ٨٩ ب ؛

Hassanein Rabie, « Some Financial Aspects of the Waqf System in Medieval Egypt ».

المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١٨ (١٩٧١) ، ص ٢٤ « القسم الانجليزي » •

(٢) أنظر عن نظام الوقف في عصر سلاطين المماليك : المقرئى ، الخطط ، ج ٢ ، ص ٢٩٥ - ٢٩٦ ؛ محمد محمد أمين ، تاريخ الأوقاف في مصر في عصر سلاطين المماليك (١٢٥٠ - ١٥١٧م) رسالة دكتوراه لم تشر ، كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٧٢ ؛ أنظر أيضا :

Hassanein Rabie, « Some Financial Aspects of the Waqf System », pp. 3-24 ; Mayer (L.A.), The Buildings of Qaytbay as described in the endowment deed, (London, 1918) ; Ahmad Darrag, Hujjat Waqf al-Ashraf Barsbay, (Cairo, 1963) Heffening, W., Article « Wakf » in Encyclopaedia of Islam, (1st edition).

مصادر ومراجع البحث

أولا - المصادر العربية :

- ابن الاثير (مجد آئين) : النهاية فى غريب الحديث والأثر ، (القاهرة .
(١٣١٨ هـ / ١٩٠٠ م) .
- ابن اياس (محمد بن أحمد) : بدائع الزهور فى وقائع الدهور ،
تحقيق محمد مصطفى . ج ٣ ، ج ٤ (القاهرة ١٩٦٠ ، ١٩٦٣) .
- ابن بسام (محمد بن أحمد) : كتاب أنيس الجليس فى أخبار تنيس ،
تحقيق جمال الدين الشيال . مجلة المجمع العلمى العراقى ، مجلد ١٤
(١٩٦٧) ، ص ١٥١ - ١٨٩ .
- ابن تغرى بردى (أبو المحاسن يوسف) : النجوم الزاهرة فى ملوك
مصر والقاهرة (القاهرة ١٩٢٩ - ١٩٧٢) ، ج ٦ ، ج ٧ .
- ابن حجلة (أحمد بن يحيى) : كتاب سكردان السلطان (الماهرة .
١٢٨٨ هـ / ١٨٧١ م) .
- ابن خلدون ، (عبد الرحمن بن محمد) : المقدمة . (القاهرة ١٩٣٠) .
- ابن كثير (اسماعيل بن عمر) : البداية والنهاية ، ١٤ جزء ، (القاهرة
١٩٣٢ - ١٩٣٩) .
- أبو سامه (عبد الرحمن بن اسماعيل) : الروضتين فى أخبار الدومى ،
ج ١ فى قسمين تحقيق محمد حلمى محمد أحمد (القاهرة ١٩٥٦ -
١٩٦٢) .
- السخاوى (محمد بن عبد الرحمن) : الاعلان بالنويخ لمن ذم التاريخ .
(دمشق ١٣٤٩ هـ / ١٩٣٠ م) .

- التبر المسبوك فى ذيل السلوك ، (القاهرة بدون تاريخ)
- الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع ، ١٢ جزءا (القاهرة ١٣٥٣ - ١٣٥٥هـ / ١٩٣٤ - ١٩٣٦م)

السيوطى (عبد الرحمن بن أبى بكر) :

- الاتقان فى علوم القرآن . جزءان (القاهرة ١٣١٨ هـ / ١٨٩٥ م)
- تمام الدراية لقراء النقاية ، (القاهرة ١٨٦٦)
- الأساس فى مناقب بنى العباس ، مخطوط بالمكتبة الأزهرية رقم ٤٠٢٢ تاريخ
- أصول التفسير (دمشق ١٣٣١هـ / ١٩١٣م)
- بفية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، جزءان ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (القاهرة ١٩٦٤)
- بهجة الناظر ونزهة الخاطر ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٣٢ مجاميع
- تاريخ الخلفاء ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، (القاهرة ١٩٦٤)
- تفسير الجلالين ، جزءان (القاهرة ١٩٠٩)
- الحاوى فى الفناوى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، جزءان ، (القاهرة ١٩٥٩)
- حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، جزءان (القاهرة ، ١٩٦٧)
- ذيل طبقات الحفاظ ، (دمشق ١٣٤٧ هـ / ١٩٢٨ م)
- الرد على من أخلد الى الأرض وجهل أن الاجتهاد فى كل عصر فرض ، (الجزائر ١٩٠٧)
- رسالة الانصاف فى تمييز الأوقاف ، مخطوط بالمكتبة الأهلية بباريس رقم ٤٥٨٨
- رسالة فى ذم المكس ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٤١٦ حديث ، ورقات ١ أ - ٤

- السامح فى أخبار الرماح ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥١٧ حديث .
- الشمارىخ فى علم التاريخ ، (ليدن ١٨٩٤ م) .
- طبقات الحفاظ ، مخطوط رقم ٨١ تراجم بمكتبة الحرم المكى الشريف ، ميكروفيلم رقم ١١٢٢ تاريخ بمعهد المخطوطات العربية بجامعة الدول العربية بالقاهرة .
- طبقات المفسرين (ليدن ١٨٣٩) .
- غرس الأنساب فى الرمى بالنشاب ، مخطوط بمكتبة أحمد الثالث باستانبول رقم ٢٤٢٥ ، ميكروفيلم رقم ٢٩ فنون حريرية بمعهد المخطوطات العربية .
- غزوات قبرص ورودس (ط . فيينا ١٨٨٤) .
- الكاوى على تاريخ السخاوى . مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥١٠ أدب .
- كتاب التحدث بنعمة الله ، تحقيق البزابت مارى سارتين ، (القاهرة - كمبرج ١٩٧٥) .
- كتاب التنبيه بمن يعينه الله على رأس كل مائة ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٨ مجاميع .
- كتاب فى نسب بعض الصحابة والأشراف الادريسيين وغيرهم من ملوك لتونه والموحدين ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٠٢٤ تاريخ .
- كوكب الروضة ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٥٤ تاريخ تيمور .
- اللآلى المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة (استانبول ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م) .
- لب الباب فى حرس الانساب (ط . اوريية ١٨٤٠ م) .
- لباب النقول فى أسباب النزول (القاهرة ١٣٨٢هـ / ١٩٦٢م) .
- ... من أخبار الطاعون . نشر وتحقيق كرم ، (فيينا ١٨٨٠) .
- التوكل على الله تعالى ونفسه الحشيه ومارسة الهندية والتركية والترنجه والسطيه والقبطيه والسريانية والعمرانية والأرومية ... (١٩٢٦ م) .

- المزهري في علوم اللغة وأنواعها ، حققه محمد أحمد جاد المولى وآخرون .
جزءان (القاهرة ١٩٥٨) .
- المنجم في المعجم ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٢٦ تاريخ .
- نظم العقيان في أعيان الأعيان ، تحقيق فيليب حتى (نيويورك ١٩٢٧) .
- الكافيحي (محي الدين محمد بن سليمان) : المختصر المفيد في علم
التاريخ ، مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٥٢٨ تاريخ .
- المقرئى (أحمد بن على) : اغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق محمد
مصطفى زيادة وجمال الدين الشيال ، (القاهرة ١٩٤٠) .
- الخبر عن البشر ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٩٤٧ تاريخ .
- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار « الخطط » ، جزءان
(القاهرة ١٢٧٠ هـ / ١٨٥٣ م) .
- الوطواط (جمال الدين : مباحج الفكر ومناهج العبر ، مخطوط مصور
بدار الكتب المصرية رقم ٣٥٩ علوم طبيعية .

ثانيا : المراجع العربية والترجمة :

- أسد رستم : مصطلح التاريخ (بيروت ١٩٥٥) .
- روزنتال (فرائتر) : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمى ،
ترجمة أنيس فريحة (بيروت ١٩٦١) .
- سامى سلطان سعد : الاستبارية في رودس ١٣١٠ - ١٥٢٢ م ، رساله
دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب - جامعة القاهرة ١٩٧٥ .
- سمعبد عبد الفتاح عاشور : - العصر المماليكى فى مصر والشام (القاهرة
١٩٦٥) .
- قبرس والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧) .
- عبد الرحمن فهوى : النقود العربية ماضيها وحاضرها (القاهرة
١٩٦٤) .
- قسطنطين زريق : نحن والغاريخ (بيروت ١٩٥٩) .

محمد محمد أمين : تاريخ الأوقاف في مصر في عصر سلاطين المماليك
(١٢٥٠ - ١٥١٧) ، رسالة دكتوراه لم تنشر ، كلية الآداب -
جامعة القاهرة ، ١٩٧٢ .

محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ،
(القاهرة ١٩٥٤) .

محمد مصطفى زيادة وآخرون : دراسات عن المقرئى (القاهرة ١٩٧١) .
هرثشو : علم التاريخ ، ترجمة عبد الحميد العبادى (القاهرة ١٩٤٤) .

ثالثا : المراجع الأوربية :

Ayalon, D., « The Wafidiya in the Mamluk Kingdom », in Islamic Culture, Vol. XXV (1951), pp. 89-104.

Brockelmann, Article « AL-Suyuti » in Encyclopaedia of Islam, 1st Edition.

Cahen, C., Articles « Djawali » and « Djizya » in Encyclopaedia of Islam, 2nd Edition.

Cook, M.A., Studies in the Economic History of the Middle East, (London, 1970).

Darrag (Ahmad),

1) L'Egypte sous le règne de Barsbay, (Damas, 1961).

2) Hujjat Waqf Al-Ashraf Barsbay, (Cairo, 1963).

Dunlop, D.M.,

1) Arab Civilization to A.D. 1500, (New York, 1971).

2) « Some remarks on Weil's History of the Caliphs », in Lewis and Holt (Editors), Historians of the Middle East, pp. 315-329.

Fischel, W.J., Ibn Khaldun in Egypt, (Berkeley and Los Angeles, 1967).

Grunebaum G.E. Von, Medieval Islam, (Chicago and London, 1969).

Heffening, W., Article « Wakf » in Encyclopaedia of Islam, 1st Edition.

Jarrett, H.S., History of the Caliphs, (Calcutta, 1881).

- Lewis, B.**, « An Interpretation of Fatimid History », in Colloque International sur l'Histoire du Caire, (1972), pp. 287-295.
- Lewis B. and Holt, P.**, (Editors), *Historians of the Middle East*, (London, 1962).
- Little, D.P.**, *An Introduction to Mamluk Historiography*, (Wiesbaden, 1970).
- Lokkegaard, F.**, *Islamic Taxation in the Classic Period*, (Copenhagen, 1950).
- Mayer, L.A.**, *The Buildings of Qaytbay as described in the endowment deed*, (London, 1938).
- Nicholson, R.A.**, *A Literary History of the Arabs*, (Cambridge, 1962).
- Pokjak, A.N.**, « The Influence of Chingiz-Khan's Yasa upon the general organization of the Mamluk State », in Bulletin of the School of Oriental and African Studies, Vol. X (1940 2), pp. 862-76.
- Rabic, (Hassanein)**
- 1) *The Financial System of Egypt A.H. 564-741/A.D. 1169-1341*, (Oxford University Press, London, 1972).
 - 2) « Some Financial Aspects of the Waqf System in Medieval Egypt », in
 المجلة التاريخية المصرية ، مجلد ١٨ (١٩٧١) ، ص ٣ - ٢٤
 - 3) « The Training of the Mamluk Faris », in Parry V.J. and Yapp, M.E. (Editors), *War, Technology and Society in the Middle East*, (London, 1975) pp. 155-161.
- Resenthal, F.**
- 1) *A History of Muslim Historiography*, (Leiden, 1952).
 - 2) *The Muqaddimah, An Introduction to History*, 3 vols., (Princeton, 1967).
- Russell, J.C.**, « The Population of Medieval Egypt », in *Journal of Amer. Res. Center, Egypt*, Vol. 5 (1966), pp. 69-82.
- Sartain, E.M.**, *Jalal al-Din al-Suyuti, Vol. 1, Biography and Background*, Cambridge, 1975.

رؤية السيوطي للتاريخ المصري
للأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد العدوي

أستاذ تاريخ العصور الوسطى وعميد كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

تمثل رؤية السيوطي للتاريخ المصري دراسة متكاملة للتكوين العربي والإسلامي لمصر ، وكذلك للدور الذي اضطلع به أبناء تلك البلاد في بناء الحضارة العربية الإسلامية والدفاع عن « دار الإسلام » . واستطاع السيوطي أن ينفرد بتلك الرؤية التاريخية الواسعة لاستناده في دراساته الى « نافذة مصرية » ، على نحو ما يعرف في المصطلح الحديث باسم « المنظور التاريخي » . اذ اتسمت تلك النافذة المصرية بصفتين هامتين تتيحان لصاحبها أن يقدم دراسة متكاملة وفي صورة واضحة أيضا . وتتلخص هاتان الصفتان في كون مصر قد أصبحت على عهد السيوطي في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي « جزء من مجتمع مزاجه الرسمي العام » إسلامي عربي ، وكذلك في كون الموقع الاستراتيجي لمصر قد جعلها أكثر اغراء للدولة العثمانية التي كانت تسعى لانتزاع زعامة العالم الإسلامي من مصر .

وخلقت هذه الأوضاع التي أحاطت بمصر على عهد السبوطي ، عاملين أساسيين ، أكد كل منهما أهمية «النافذة المصرية» لرؤية التاريخ المصري ، أولهما : الحاجة الى دعم الوعي المصري عن طريق جمع الدراسات

العديدة والمبعثرة التي أشادت بخصائص مصر، وجعلها ركيزة لهذا الوعي
أمام التيارات الخارجية العنيفة التي أخذت تهاجمه في القرن الخامس عشر
الميلادي • وثانيهما : الحاجة الى دعم دور مصر الفيادي في حمايه « دار
الاسلام » عن طريق بيان الجهود التي بذلتها مصر الاسلامية في ميدان
الجهاد الاسلامى ، واتخاذ هذه الدراسة التاريخية نذيرا يحذر من سوء
المواقب التي قد تنجم عن أى خلل يصيب هذا الدور القيادي المصرى •

وظهرت بذلك فى القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى
الحاجة الى مؤرخ مصرى ينظر الى تاريخ وطنه من حصيلته الثقافية
ووضع بلاده الجغرافى • وكان السيوطى هو ذلك المؤرخ الذى تكونت من
ثقافته وادراكه لجغرافية وطنه النافذة التى استطاع أن يستشق منها
المعنويات والماديات وغيرها من أصناف الحياة اليومية لبلاده ، وأن يعدل
منها أيضا فى ضوء دراسات أسلافه من مؤرخى مصر الاسلامية • ذلك
أن اختلاف النوافذ لا يغير الحقائق التاريخية أو يعدل فى ترتيبها التاريخى،
وانما معناه أن تغير النظرة اليها تغييرا كفيلا يعرض أصناف الحقائق فى
صورة تحقيق الرؤية السليمة الشاملة •

وفرضت الملابس الزمنية والأوضاع السياسية التى أحاطت بمصر
على عهد السيوطى أن يلتزم منهجا يكفل له رؤية سليمة للتاريخ المصرى
والعمل فى الوقت نفسه على أن يجتزء من المصادر المعاصرة له ، وغير
المعاصرة القدر الذى يكمل به منهجه ورؤياه ، احتراما منه للمنظور
التاريخى، ولقواعد التنسيق والتركىز • اذ سبق السيوطى حشد من
المؤرخين المصريين ، أشاد بعضهم بخصائص وطنه فى عبارات براءة
مبعثرة ، على حين تناول البعض الآخر هذه الخصائص فى عبارات غامضة
وعامة • لكن السيوطى استطاع أن يظل على التاريخ المصرى : « النافذة
المصرية » ال وحبة والمادة ، المخلوقة له ، أو المخلوق لها حتى أدرك

رؤيته لهذا التاريخ ، ثم عرضها في دراسة غدت تكون عنصرا من عناصر
سء الوعى المصرى ودعم أوتاده •

وحدد السيوطى معالم « النافذة المصرية » التى أطل منها على تاريخ
وطنه فى مقدمة كتابه حسن المحاضرة ، اذ قال :

أحمد لله الذى فاوت بين العباد • وفضل بعض خلقه على بعض
حتى فى الأمكنة والبلاد • والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفصح من
نطق بالضاد. وعلى آله وصحبة السادة الأمجاد • هذا كتاب سميته حسن
المحاضرة • فى أخبار مصر والقاهرة • أوردت فيه فوائد سنية • وغرائب
مستعذبة مرضية • تصلح لمسامرة المجلس • وتكون للوحيد نعم الأيس •
وفقنا الله لما يحب ويرضاه • وجعلنا ممن يحمد قصده ولا يخيب مسعاه •
بمنه وكرمه وقد طالعت على هذا الكتاب كتبا شتى منها فتوح مصر لابن
عبد الحكم وفضائل مصر لابن عمر والكندى وتاريخ مصر لابن زولاق
والخطط للقساعى وتاريخ مصر لابن بونس وإيقان المتغفل وإيعاظ
المتأمل لتاج الدين محمد بن عبد الوهاب بن المتوج الزبيرى والخطط
للمقرزى والمسالك لابن فضل الله ومختصره للشيخ تقي الدين الكرمانى
ومناهج الفكر ومناهج العبر لمحمد بن عبد الله الانصارى، وعنوان السير
لمحمد بن عبد الملك الهمدانى ، وتاريخ الصحابة الذين نزلوا مصر لمحمد
ابن الربيع الجيزى والتجريد فى الصحابة للذهبي والاصابة فى معرفة
الصحابة لابن حجر ورجال الكتب العشرة للحسينى وطبقات الحفاظ
للذهبي وطبقات القراء له ، وطبقات الشافعية للسبكي وللأسنوى
وطبقات المالكية لابن فرحون وطبقات الحنفية لابن دقماق ومرآة الزمان
نسب بن الجوزى وتاريخ الاسلام للذهبي والعبر له ، والبداية والنهاية
لابن كثير وأبناء العمر بأبناء العمر لابن حجر والطالع السعيد فى أخبار
الصعيد للكمال الادفوى وسجع الهديل فى أخبار النيل لاحمد بن يوسف
النيفاشى والسكردان لابن أبى حجلة وثمار الأوراق لابن حجة •

واستطاع السيوطى من تلك النافذة المصرية الواسعة أن يصل فى رؤيته للتاريخ المصرى الى ثلاثة آفاق متتالية ، كشف فى الأول منها عن أصالة ذلك التاريخ، وتتبع فى الثانى بناء الجيل العربى فى مصر الاسلامية وتناول فى الثالث والأخير منها فضائل مصر .

اصالة التاريخ المصرى :

نظر السيوطى الى تاريخ وطنه من زاوية هامة ، وهى ربط حاضر مصر المشرف فى ظل العروبة والاسلام بماضى هذه البلاد المجيد قبل الاسلام : فقد طالعت أعين السيوطى ومعاصرته بين أبناء مصر ، بلادهم المحبوبة بانوارها العظيمة التى غالبت الزمن ، ونيلها الفضل الذى يتدفق كل عام بين امرئى -معدلا- انبيها الصير والبركات . وذكرها الطيب الذى جاء فى القرآن الكريم ورددته السننهم مرارا وتكرارا كل يوم فى الصباح والمساء ، وما رواه الرسول الكريم فى أحاديثه الشريفة عن مصر والاشادة بأهلها . وأقدم السيوطى على معالجة تاريخ مصر القديم وفق منهج يستهدف بيان ما اختص به وطنه من مركز ممتاز بين بلاد العالم القديم وما قدمه وطنه كذلك من خدمات جليلة للحضارة الانسانية .

وتجلت براعة السيوطى فى رؤيته للتاريخ المصرى حين استهل عرضه لأحداث مصر القديمة بآيات من القرآن الكريم ، ثم أعقبها بأحاديث للرسول الكريم . وقد حرص السيوطى على جمع ما سبق أن قام به أسلافه من مؤرخى مصر الاسلامية فى تلك السبل ، مع بيان الزيادة التى وجدها شخصيا بشأن ذكر مصر فى القرآن الكريم . فقال السيوطى : « قال ابن زولاق ، ذكرت مصر فى القرآن فى ثمانية وعشرين موضعا » . ثم أضاف السيوطى الى ذلك معدلا فقال : « قلت بل أكثر من ثلاثين » . وأضاف السيوطى الى ذلك أيضا اجتهاده فى بيان أهمية مصر كما جاء فى القرآن الكريم ، فقال : « وعن ابن عباس وقد ذكر مصر فقال : سميت

مصر بالأرض كلها في عشرة مواضع من القرآن » • وصحح السيوطي هذه الرواية قائلا : « بل في اثني عشر موضعا أو أكثر » • وحرص السيوطي في ذكر الآيات الكريمة على التوثيق بمجد وطنه ، وما رواه المؤرخون في ذلك من آثار مجيدة • « فروى السيوطي عن الكندي : قال الله تعالى حكاية عن يوسف عليه الصلاة والسلام : قد أحسن بي . إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدو ، فجعل الشام بدوا وسمى مصر مصرا ومدينة » •

وسار السيوطي على النهج نفسه في روايته لأحاديث الرسول الكريم التي ورد فيها ذكر مصر ، ووصيته (ص) للصحابة بأهل مصر • فقال : « أخرج ابن عبد الحكم عن ابن لهيعة قال حدثني عمر مولى عفره أن رسول الله (ص) قال : الله الله في أهل الذمة السود ، الشحم الجعاد فان لهم نسا وصهرا • قال عمر مولى عفره ، صهرهم أن رسول الله (ص) تسرى منهم ، ونسبهم أن أم اسماعيل عليه الصلاة والسلام منهم • وأضاف السيوطي الى تلك الأحاديث روايات القصص من أهل مصر عن أهمية هذا النسب فقال : صاهر الى القبط من الأنبياء ثلاثة ، ابراهيم عليه الصلاة والسلام تسرى هاجر • ويوسف عليه الصلاة والسلام تزوج من بنت صاحب عين شمس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية • وصار لأهل مصر بالتالي صفة نسب وثيقة بالعرب قبل الاسلام ، وغدت تلك الصلة موضع اعتزاز الجيل العربي في مصر ، ومحل تقديرهم •

ومهد السيوطي بتلك الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي تناولت ذكر مصر السبيل لدراسة أحداث مصر القديمة نفسها ، واتخاذ هذه الدراسة مدخلا لدراسة مصر العربية الاسلامية • ولم تكن مهمة السيوطي سهلة يسيرة ، وانما كانت عملا شاقا وعسيرا ، وذلك بسبب افتقار الباحثين اذ ذلك في التاريخ المصري القديم الى الوسائل

اللازمة ، من حيث الخبرة ، بالكشوف واللغة الهيروغليفية ، وهي أمور لم يصل العلم الى كشف أسرارها الا في مطالع العصر الحديث . ولذا لم يكن عجباً بأن يلتبس هذا المؤرخ الوطني سبيله الى دراسة هذه الحقبة الخالدة من تاريخ مصر عن طريق القصص التي رددتها سفاه المعاصرين له ، والتي امتلأت بها مجالسهم الخاصة والعامه ولا يتقص من قيمة هذه المحاولة ان القصص التي سردها السيوطي حفلت بالخيال الواسع أو لأنها ابتعدت عن منهج البحث الذي نعرفه في وقتنا الحاضر . اذ يكفي هذا المؤرخ فخراً أنه نجح في اثارة حب الاستطلاع عند مواطنيه للبحث في تاريخ وطنهم القديم ، وتلمس الروابط الوثيقة العرى بين حاضرهم وبين هذا الماضي التليد .

وعالج السيوطي في ضوء هذا المنهج أصل المصريين القدماء . فطرا لافتقاره اذ ذاك الى وسائل الدراسة التي نعرفها اليوم باسم دراسات علم السلالات لجأ الى القصص التاريخي ، محاولاً ربط أهل مصر بالشجرة الكبرى التي تفرعت عنها السلالات البشرية ، وهي ادم عليه السلام ، ثم نوح عليه السلام . ولكن هذا المؤرخ المجهد انبع طرقة نذل على مندرته الفائقة في استخلاص الحقائق المتعلقة بتاريخ وطنه من بين القصص الخيالي الذي يدور حول التاريخ العام للجنس البشري . فأوضح السيوطي تسلسل الأنبياء من سلالة آدم ، حتى انتهى الى « نوح » ، قائلاً ان سكان مصر القدامى يتسبون الى أحد أحفاد نوح ، وهو « مصر بن يعسر بن حام » الذي اصطحب اخوته الى مصر ، وأن تلك البلاد سمت بهذا الاسم نسبة اليه .

وتجلت في هذه الصفحات الخاصة بتاريخ مصر القديم اعتراز السيوطي بهذه الحقبة الغابرة من وطنه . اذ روى الدعاء الذي قدمه الأنبياء لهذا النظر العزيز . والذي تؤكد مكائنها الجدللة بين أمم العالم

وأهله • ونجح السيوطى بذلك فى انارة حوافر المعاصرين له الى دراسته
وطنهم المصرى القديم ، واتخاذهم هاديا لهم وسط خضم الاعاصير التى
هبت عليهم فى القرن الخامس عشر الميلادى • وظهر اعتزاز السيوطى بهذه
المرحلة القديمة من تاريخ وطنه فى الاشادة بما كانت عليه من ازدهار
اقتصادى وحضارى ، حيث قامت السلطات المصرية بشق القنوات اللازمة
للحياة الزراعية على نفقتها دون أن تحمل أهالى البسلاد أية ضرائب
اضافية ، وبالعمل أيضا على عمرانها • فروى السيوطى : « قال أهل
التاريخ : كان فرعون اذا كمل التخصير فى كل سنة ينفذ مع قائدين من
فواده أردب قمح ، فيذهب أحدهما الى أعلى مصر والآخر الى أسفلها
فيتأمل القائد أرض كل فريه ، فان وجدوا موضعا باثرا عطلا قد أغفل بذره
كتب الى فرعون بذلك وأعلمه باسم العامل على تلك الجهة ، فاذا بلغ
فرعون ذلك أمر بضرب عنق ذلك العامل ، وأخذ ماله ، فربما عاد القائدان
ولم يجدا موضعا لبذر الأردب لتكامل العسارة واستظهار الزرع •

واختتم السيوطى رؤيته للتاريخ المصرى القديم باشادة بآثار
مصر القديمة التى طالعت أبصار مواطنيه ، تحكى لهم أمجاد هذا
القطر العريق ، وتكشف دوره الخالد فى خدمة الحضارة الانسانية •
اذ انتشرت تلك الآثار فى طول البلاد وعرضها ، كما تعددت أغراضها
ومعانيها • فتحدث السيوطى عن سور مصر العظيم الذى بناه
سيزوستريس ، وسماه « جدار العجوز » ، حيث نسب بناءه الى
احدى ملكات مصر • وكان هذا الجدار يبدأ من العريش ، ويتجه
الى القلزم (السويس) ، ثم يسير بجذاه شاطيء النيل الشرقى الى
الجنوب حتى منطقة الجنادل • وأشار السيوطى الى أخبار هذا السور
قائلا : ان الملكة بنت « جدارا أحاطت به على جميع أرض مصر كلها ،
المزارع والقرى ، وجعلت دونه خليجا فى الماء ، وأقامت القناطر والترع ،
وجعلت فيه محارس ومسالح ، على كل ثلاثة أميال محرس ومساحة ،

وفيما بين ذلك محارس صغار على كل ميل ، وجعلت في كل محرس رجالا ، وأجرت عليهم الأرزاق ، وأمرتهم أن يحرسوا بالأجراس . فاذا أتاهم أحد يخافونه ضرب بعضهم الى بعض بالأجراس ، فأتاهم الخبر من أى وجهة كان في ساعة واحدة ، فنظروا في ذلك ، فمنعت بذلك مصر ممن أرادها » .

وانتقل السيوطى بعد ذلك الى الحديث عن الآثار الأخرى من المقابر والمعابد والهياكل ، وهى التى نعتها جميعا باسم « البرابى » . وأشار الى أن بعضها خصص للعبادة ، والبعض الآخر لحماية البلاد ونقل السيوطى عن المؤرخ ابن عبد الحكيم قوله أن أحدا لم يستطع تحليل وجود هذه البرابى ، وهى من أعظم الآثار التى استرعت نظر العرب ، فقال :

« ولم أجد عند أهل المعرفة من أهل مصر فى الأهرام خبرا يثبت ، وفى ذلك يقول الشاعر .

حسرت عقول أولى النهى الأهرام واستصغرت لعظيمها الأحلام
ملس منمقة البناء شواحق قصرت لعال دونهن سهام
لم أدر حين كبا التفكير دونها واستوهمت لعجيبها الأوهام
أقبور أملاك الأعاجم هن أم نلسم رمل كن أم أعلام

بناء الجيل العربى فى مصر الإسلامية :

انتقل السيوطى انتقالا موقفا من رؤيته لتاريخ مصر القديمة الى رؤية تاريخها فى ظل العروبة والاسلام . اذ جعل هزة الوصل بين هاتين المرحلتين حدثين عظيمين ، كشف كل منهما عن ادراك العرب لأهمية مصر ، وخبرتهم الواسعة بشئونها أيضا . أما الحدث الأول فهو مجيء عمرو بن العاص الى مصر قبل ظهور الاسلام والحدث

الثانى أن الرسول الكريم اختار مصر لتكون على رأس قائمة البلاد التى بعث الى حكامها بكتبه ، يدعوهم فيها الى الاسلام •

واعتمد السيوطى فى سرد وقائع الحدث الأول على القصص التاريخية ، الذى شاع فى مصر منذ القرن الثالث الهجرى ، والذى خلد ذكرى العلاقات التجارية القديمة التى قامت بين مصر وبلاد العرب قبل الاسلام • ولكن هذا المؤرخ خطى فى عرضه لأحداث مجيء عمرو ابن العاص الى مصر خطوة هامة ، مزج فيها بين الحقائق التاريخية السليمة ، وخيال القصاص ، الذى يستهدف جذب انتباه الناس بأية صورة من الصور • أما عن الحقائق التاريخية فأثبتها السيوطى حين ذكر أن عمرو بن العاص حضر الى فلسطين ومعه نفر من اصداقائه للمتاجرة بها • والمعروف أن فلسطين أو جنوب الشام كان منتهى طريق رحلة الصيف ، التى دأبت قوافل مكة على القيام بها مرة كل سنة للمتاجرة ، وحمل سلع الشرق الى الغرب •

وفى الوقت نفسه كان تجار مصر يلتقون بتجار العرب فى أرض فلسطين ، فضلا عن أن شخصيات كثيرة من المصريين ذهبت الى تلك البلاد قبل الاسلام لزيارة أماكنها المقدسة • وهنا تفتقت موهبة السيوطى فى ميدان القصص ، اذ روى عن بن الحكم مقابلة أحد كبار المصريين لعمرو بن العاص ، ونسج حولها مجيء عمرو الى مصر • اذ حدث أن ضل هذا المصرى الطريق وهو فى زيارته لفلسطين ، والتقى بعمرو مصادفة وهو يرعى ابله ، ترويجا لها من عناء السفر • فسقى عمرو هذا المصرى ، كما أتقذه من حية كانت تريد لثغه وهو نائم بعد الاجهاد الشاق الذى لقيه من التجول والتخبط فى الطرقات •

وتتجلى براعة هذه القصة حين أظهرت فضل عمرو بن العاص على المصرى متين ، مما دعا الأخير الى أن يطلب من عمرو الحضور معه الى مصر ليجزيه على ما قدمه له من خير ، وميئنا له أنه سوف يشاهد

بلدا خصبا وافر الثراء • وهكذا نجح السيوطى فى جذب انتباه قارىء قصة مجيء عمرو الى مصر ، حيث اتقل بعد ذلك فى سهولة ويسر الى بيان مشاهدات عمرو فى مصر ، وكيف أنه وقف فى أثناء هذه الزيارة على معالم مصر وطرقها ، كما عرف الكثير عن أحوالها وأخبارها ، وهى أمور استهدف السيوطى بطريق غير مباشر ، أن يكشف بها عن أهلية عمرو بن العاص فيما بعد لقيادة الجيوش العربية الاسلامية التى فتحت مصر •

وبلغت تلك القصة أوجها فى حسن السرد حين نسب الى عمرو ابن العاص وهو فى زيارته لمصر حادثة أخرى ، أشبه بالتنبؤات التى نرشح المرء لعظيم الأمور ، وجيل الأعمال • اذ حدث أن شاهد عمرو بالاسكندرية حفلا لأبناء عليا القوم يلعبون فيه بكرة يتقاذفونها فيما بينهم ، بحيث اذا وقعت هذه الكرة فى حجر أحدهم استبشر بأنه سيكون حاكم مصر ومن أصحاب السلطة العليا فيها • وبينما هم فى حلبة اللاعب قذف أحدهم بالكرة ، التى وقعت فى حجر عمرو بن العاص • وأثار ذلك عجب اللاعبين الذين قالوا : ما كذبتنا هذه الكرة قط الا هذه المرة ، أترى هذا الاعرابى يملكنا ؟ هذا ما لا يكون أبدا • ولكن السيوطى اتخذ من هذا القول نقطة يقف عندها فى سرد قصته ، لينترك القارىء نهبا لحب الاستطلاع ، ويدفعه الشوق الى معرفة نتائج هذه النبوءة ، وهو ما سيكون موضوع تولى عمرو بن العاص للجيوش العربية التى توجهت لفتح مصر ، وبدأت رؤية السيوطى للتاريخ المصرى تتخلص رويدا رويدا من الاعتماد على القصص التاريخى الى جمع الأخبار التاريخية السلبية ، وجعلها مدخلا لدراساته القيمة عن فتح العرب لمصر ، وانتشار الاسلام بها فاتخذ من الكتب التى بعث بها الرسول الكريم الى حكام البلاد الكبرى ، ودعوهم فيها الى الاسلام ، نقطة لنجرره من خبال القصص ، وادانة لانطلاقه فى البحث التاريخى

الخالص • وهنا أثبت السيوطى موهبة تاريخية فريدة ، جعلته حرياً بأن يلقب باستاذ مؤرخى مصر الاسلامية • اذ سرد فى ايجاز كتب الرسول الكريم الى سائر حكام البلاد الكبرى مثل فارس ودولة الروم ، على حين خص كتابه الكريم الى المقوقس فى مصر بالتفصيل ، وشرح الظروف والملابسات التى أحاطت بوصول مبعوث النبى الكريم مصر •

وتجلى فى عرض السيوطى لموضوع كتاب الرسول الى المقوقس قدرته على سرد الوقائع التى تعلو من شأن وطنه ، وتظهر مفاخره فى هذه المرحلة المبكرة من تاريخه فى صدر الاسلام ، اذ أشار الى الهدية التى بعث بها المقوقس الى الرسول الكريم ، وكيف أنها اشتملت فيما اشتملت عليه على عسل من اتساج بنها ، وثياب مما اشتهرت بها مصر ، والتى عرفت باسم «القباطى» • اذ امتدح الرسول الكريم عسل بنها ، كما أبدى رغبته لصحبه ، أن يكفن بعد موته فى « ثياب مصر » التى ظل يحتفظ بها •

ثم أكد السيوطى فى دراساته الموضوع السالف الذكر ، حقيقة أخرى هامة ، وهى زواج الرسول الكريم من مارية ، وهى احدى بنات مصر ، من قرية حفن ، كانت تابعة لمقاطعة اسمها أنصنا وموقعها الآن مدينة النصلة ، بمركز ملوى فى محافظة أسيوط ، اذ استهدف السيوطى بذكر هذا الزواج بيان قوة الروابط التى أخذت تنمو بين مصر وبلاد العرب فى صدر الاسلام ، وأن العرب حين وفدوا لفتح مصر وجدوا بها أصهارا وأرحاما ، وأنهم امتزجوا بأهلها فى سرعة مدهشة ، كتبت لمصر جيلا جديدا وعهدا جديدا قوامه العروبة والاسلام •

واستعرض السيوطى الفتح الاسلامى لمصر ، متتبعا الزحف الذى قام به عمرو بن العاص من العريش قاصدا فتح مصر كلها ، وذلك فى اسلوب يدعو الى الاعجاب والتقدير • اذ لم يقف هذا المؤرخ عند

مجرد سرد الحقائق وانما ألقى عليها أضواء جاءت وليدة الدراسة المستفيضة والجهد العظيم . فأوضح أن فتح مصر لم يكن الا معارك بين العرب والروم ، وأن المصريين وقفوا منذ اللحظة الأولى نتيجة نصيحة أسقفهم بنيامين وتعاليمه لهم موقف المرحب بالجيوش العربية، ونظروا اليها نظرة المحرر لهم من ربة الروم واستعمارهم .

وأجاد السيوطى الربط بين هذا الأسقف وبين أحداث الفتح العربى لمصر ، وهو الأمر الذى يوضح منهجه العلمى فى معالجة أسباب ترحيب المصريين بالعرب المسلمين . اذ ما كاد الأسقف بنيامين يعلم بدخول عمرو بن العاص أرض مصر ، حتى كتب لأهل البلاد يبشرهم بأن عهد طغيان الروم قد انتهى ، وأن عصرا جديدا من الحرية أخذ يشرق على البلاد ، ويطلب منهم فى الوقت نفسه باعتباره زعيمهم ورئيسهم الأعلى ، تقديم كل معونة لعمرو بن العاص .

وأشار السيوطى مرة أخرى الى مساعدات المصريين للجيش العربى بعد استيلائه على حصن بابلون ، وزحفه الى الاسكندرية ، وكانت عاصمة البلاد اذ ذلك . اذ بادر أهالى القرى والمدن التى مر بها الجند العرب الى مدادهم بالمئون ، وتسهيل الطرق لهم ، واصلاح الجسور التى خربها الروم فى أثناء تقهقرهم الى الاسكندرية . وكان لهذه المساعدة أثرها فى سرعة زحف عمرو بن العاص ووصوله الى الاسكندرية دون أن يخشى كمائن الروم أو أية هجمات فجائية . ذلك أن بعض الفدائيين الروم حاولوا الخروج من الاسكندرية خلسة ، والانتفاض على نقط الحراسة العربية ، ولكنهم سرعان ما ارتدوا خاسرين لأنهم لم يلقوا أية مساعدات من الأهالى ، وأحسوا بالتالى بعجزهم عن ائزال الفوضى فى صفوف الحند العرب .

وعمد السيوطى الى مزج الأحداث التاريخية بالمرح الجغرافى

لببلاد عند وصفه لحصار العرب للاسكندرية • اذا أوضح أن تلك المدينة تمتعت بحصون قوية متصلة الأطراف ، تعلوها المجانيق الهائلة، لصد الهجوم الذي يأتيها من الجانب البرى ، على حين يقف البحر من خلفها حارسا يدفع عنها أى عدوان بحرى • ولما كان الجيش العربى يفتقر اذ ذاك الى السفن البحرية التى تعزز حركاته البرية فان حصاره للاسكندرية طال ، حتى خشى الخليفة عمر بن الخطاب أن يكون السبب فى ذلك هو ركون الجند العرب الى الدعة ، أو أن حماستهم للقتال قد فترت • وبعث بكتاب الى عمرو بن العاص يظهر فيه دهشته من ابطائه فى فتح الاسكندرية ، وحدد له بنفسه وقتا يبادر فيه بالهجوم على الاسكندرية والعمل على فتحها •

وبرر السيوطى ابطاء الفتح بمنعة الاسكندرية ، ملتصقا بالأعدار لعمرو بن العاص ، كما أوضح أن هرقل امبراطور الروم ، أخذ يستعد بنفسه للخروج على رأس امدادات هائلة لنجدة الاسكندرية • غير أن الموت فاجأه ، مما أدى الى اضطراب الأمور فى دولة الروم ، وانهيار الروح المعنوية بين جندها فى الاسكندرية ، واضطرارهم الى قبول الصلح ، وتسليم المدينة الى عمرو بن العاص • وعرض السيوطى تسليم الاسكندرية وتلقى الخليفة عمر بن الخطاب لهذا النبأ فى أسلوب شائق ، يدل على قوته فى الربط بين الأحداث المختلفة ، وتجنيد القارئ التيه وسط الاستطراد أو الاعتماد على سرد الحقائق المجردة •

فذكر السيوطى انتداب عمرو بن العاص لأحد رجاله المخلصين وهو معاوية بن حديج ليزف الى الخليفة فى المدينة بالحجاز بشرى الاستيلاء على الاسكندرية • اذ طلب معاوية من عمرو أن يكتب له رسالة تصف للخليفة ما تم من نصر مؤزر ، ولكن عمرو رفض هذا الطلب ، وقال فى ثقة واعتزاز لمعاوية بن حديج : وما أصنع بالكتابة ،

ألست رجلا عربيا ، تبلغ الرسالة ، وما رأيت وحضرت ؟ » • واستهدف السيوطى من الاستشهاد بهذا القول اظهار قدرة العرب على نقل الروايات فى ثقة وأمانة ، والاشادة بعلو كعبهم فى هذا الميدان من قوة الذاكرة ، وهو الأمر الذى حفظ للتاريخ العربى الكثير من أحداثه وتطوراته •

وقد أوضح هذا الوصف الدقيق الذى أورده السيوطى نقلا عن معاوية بن حديج تلهف الخليفة عمر بن الخطاب على سماع أخبار مصر ، وفرحه العظيم بدخول هذه القاعدة الكبرى فى رجاب العروبة ، وإن فى ذلك عزة للعرب ، مصدقا للحديث الشريف ، الذى نقله السيوطى عن ابن عبد الحكم فى ذكر فضائل مصر ، حيث قال الرسول الكريم « انكم سقتمون على قوم ، جعد رؤوسهم (يعنى أهل مصر) ، فاستوصوا بهم خيرا ، فانهم قوة لكم ، وبلاغ الى عدوكم باذن الله » • وبذلك ترك السيوطى دراسة قيمة عن فتح العرب لمصر ، تشهد له بصفات المؤرخ الكبير ، وتؤكد ما تمتع به هذا العالم الفذ من خصال حميدة ، وقدرات عالية على الدرس والتحصيل •

وبدأت تتسع رؤية السيوطى فى تدوين التاريخ المحض لوطنه ، والكشف عما تحلى به من صفات عالية من حيث النظر الثاقب ، والفتنة المتوقدة ، والصبر الطويل من أجل جمع المعلومات ، ثم عرضها بحيث يستفيد منها أبناء الوطن •

واختار السيوطى ثلاثة مواضع عالج عن طريقها التاريخ المحلى لمصر ، مستهدفا بالأول منها الكشف عن نواحي الضعف الواجب اتخاذ الحيطة لها ، واعداد العدة لوقايتها وحمايتها ، وبالثانى اظهار مواطن القوة والاشادة بها لتكون حافزا لمواطنيه على التغنى بامجاد الآباء والأجداد ، والسير قدما فى طريقهم للاعلاء من شأن بلادهم •

وبالثالث بيان صلة الجوار بين وطنه وما يحيط به من بلاد ، وذكر ما تتطلبه تلك العلاقات من يقظة وحب للسلام .

وعالج السيوطى الموضوع الأول عقب فراغه من دراسة فتح العرب لمصر . فقد فرضت الملائمات الزمنية نفسها اذ ذلك على وطنه، ورسمت للأهالى والسلطات الحاكمة به طرق التفكير السليم لحماية وضعهم الجديد ، الذى جاء بدخولهم فى دائرة العروبة والاسلام . وجمع السيوطى مادته التاريخية المتعلقة بهذا الموضوع من ثنايا الأحداث التى دارت رحاها حول محاولات الروم لاسترداد مصر ، والقضاء على سلطان العرب بها . اذ كشف هذا المؤرخ عن حقيقة لا يدرك أهميتها الا كل راغب فى حماية وطنه ، حريص على تدوين تاريخه المحلى بما يبصر المواطنين بالأخطار التى تكمن لهم ، ويرشدهم عن طريق عرض النماذج التى يختارها الى أمثل السبل للنجاة والأمان . وكانت تلك الحقيقة هى أن الروم لم ينسوا مصر وخيراتها على الرغم من الهزائم التى نزلت بهم على يد العرب ، وظلوا يمنون النفس بالعودة الى تلك البلاد ، دون اهتمام بآراية المصريين لهم كذلك .

وأشار السيوطى الى أن مطامع الروم تمخضت عن حملة قاموا بها على مصر سنة ٢٥ هـ / ٦٤٥ م ، وتولى قيادتها رجل يدعى منويل وهو ممن سبق أن حارب العرب فى مصر ، وصار خبيراً بأساليبهم فى القتال . ثم عرض هذا المؤرخ تفاصيل تلك الحملة فى أمانة ونزاهة ، حتى يكشف لمواطنيه عن نواحي الضعف فى وطنهم ، ويحملهم بالتالى على حراستها والدفاع عنها . فأوضح أن الروم نزلوا الاسكندرية على حين غرة من حمايتها ، واستولوا عليها . واتخذوها قاعدة لاسترداد البلاد كلها . وكان السبب فى نجاح خطة الروم هو افتقار العرب الى

الأساطيل اللازمة لحراسة الشواطئ المصرية ، ورد أى عدوان قبل
الاقتراب منها •

أما الموضوع الآخر الذى درسه السيوطى لتوضيح جوانب
التاريخ المحلى لوطنه فقد أفرده لبيان علاقات مصر بجيرانها فى الجنوب
والغرب أى فى السودان ، أو بلاد النوبة كما سماها هو نفسه بذلك
الاسم ، وفى أفريقية ، وهى تونس الحالية • وأكد هذا المؤرخ ببحته
الجديد فى ميدان العلاقات الخارجية أهمية موقع وطنه الجغرافى ،
وأنه يحتم على السلطات الحاكمة فى مصر أن ترسم سياستها الأفريقية
على أساس حماية جيرانها من كل خطر أو عدوان خارجى ، وأن تمد
يد المساعدة لهم ، وتعمل على ما يحفظ لهم هويتهم وكرامتهم •

وأشار السيوطى الى حقائق هامة فى هذا الميدان العظيم من
ميادين علاقة مصر بجيرانها ، وهو أمر لا يتاح الا للمؤرخ وطنى ، عاش
فى هذا البلد الأمين ، وكرس جهده لدراسة نظمه ومعاملاته • وأول
هذه الحقائق أن مصر حفلت بعدد كبير من أهل النوبة أو السودان
حضرها للمتاجرة فيها ، وأنهم نعموا بالشروط نفسها التى عامل بها
عمر بن العاص أهل مصر بعد انتصاره على الروم •

وعلى هذا النحو من الدراسة القيمة تابع السيوطى أبحاثه فى
علاقة وطنه بجيرانه فى الغرب ، أى بأهل أفريقية ، وهى تونس الحالية •
وأوضح هذا المؤرخ - مرة أخرى - أن سبب اتجاه السلطات
العربية نحو أفريقية ، والاهتمام بشئونها ، هو بقاء الروم أعداء
العرب بها ، وأن الأمر يتطلب اذ ذاك حماية الباب الغربى لمصر من
خطر أولئك الأعداء ، ريثما تتم العدة لطردهم نهائيا ، وتحرير بلاد
المغرب من مفسدهم • ومن ثم تعتبر دراسة السيوطى لشئون أفريقية
امتدادا لبحته فى تاريخ وطنه ، وتأكيدا منه لقوة الروابط الجغرافية
والاجتماعية بين مصر وشمال أفريقية •

وقد ركز السيوطى فى رؤيته للتاريخ المحلى المصرى على حقيقة هامة ظهرت منذ فجر مصر الاسلامية وهى : أن رخاء وطنه يتوقف على أمور ثلاثة : هى ادارة سليمة تعرف حاجات البلاد وأهلها ، ومالية متوازنة تمثل الموارد الثابتة والمصروفات الحقيقية ، ثم رقابة ادارية توجه العاملين الى الطريق القويم . ومن ثم يمثل هذا الموضوع أساسا متينا للباحثين فى تاريخ الاقتصاد المصرى ، يمكن أن يشيدوا عليه بدراساتهم فى ثقة واطمئنان . والظاهرة الكبرى التى تبادر القارىء لما كتبه السيوطى عن تلك الادارة المبكرة فى مصر ، هو سيادة الشعور بالطمأنينة عند الناس ، وهو شرط لازم لاقبالهم على العمل والانتاج . ثم أن الجميع شارك فى ادارة وطنه ، وتحمل مسئوليات محددة ، هدفها المحافظة على سلامة بلده وأهله .

وتناول السيوطى هذه الظاهرة الجديدة فى حياة وطنه موضحا أن الادارة العربية اتخذت من المصريين سندا لها ، ووكلت مقاليد الأمور اليهم ، ليديروا شئون بلادهم بما يكفل لها الرخاء والتقدم . وعدا بطريق مصر ، وهو بنيامين ، الذى سبق أن فر من طغيان الروم موضع احترام رجال الادارة العربية ، ويستشيره فى مهام الأمور . إذ طلب الخليفة عمر بن الخطاب من عمرو بن العاص أن يستشير هذا البطريق فى خير وسيلة لحكم البلاد وتنظيم ماليتها . وأشار بنيامين باتباع ما يلى :

١ - أن يستخرج خراج مصر فى آن واحد عند فراغ الناس من الزراعة .

٢ - أن يرفع خراجها فى آن واحد عند فراغ أهلها من عصر كرومهم .

٣ - أن تحفر خلجانها كل عام .

٤ - أن تصلح جسورها وتسد ترعها .

٥ - ألا يختار عامل ظالم ليلبي أمور الناس .

وشرح السيوطي نفلا عن ابن عبد الحكيم طريقة اشراك الأهالي في الادارة قائلا : « أن عمرو بن العاص ترك المصريين على جباية الخراج ، و كانت جبايتهم بالتعديل اذا عمرت القرية ، وكثر أهلها زيد عليهم ، وان فل اهلها وخربت نقصوا ، فيجتمع عرفاء كل قرية ، ومازوتها (وهى كلمة تعنى مشايخ القرى) ورؤساء أهلها ، فيتناظرون في العمارة والخراب ، حتى اذا أقروا من القسم بالزيادة انصرفوا بتلك القسمة الى الكور . ثم اجتمعوا هم ورؤساء القرى فوزعوا ذلك على احتمال القرى وسعة المزارع ثم ترجع كل قرية بقسمهم ، فيجمعون قسمهم وخراج كل قرية وما فيها من الأرض العامرة فيبذرون ، فيخرجون من الأرض فدادين لكنائسهم وحماماتهم ومعدياتهم ، من جملة الأرض ، ثم يخرج منها عدد الضيافة للمسلمين ونزول السلطان ، فاذا فرغوا نظروا الى ما فى كل قرية من الصناع والأجراء ، فقسّموا عليهم بقدر احتمالهم فان كانت فيها جالية قسموا عليها بقدر احتمالها . ثم ينظرون ما بقى من الخراج فيقسونه على عدد الأرض . ثم يقسمون ذلك بين ما يريد الزرع منهم على قدر طاقتهم ، فان عجز أحد وشكنا ضعفا من زرع أرضه ، وزعوا ما عجز عنه على الاحتمال ، وان كان منهم من يريد الزيادة أعطى ما عجز عنه أهل الضعف ، فان تشاحوا فسموا ذلك على عدتهم ، وكانت قسمتهم على قراريط الدينار ، أربعة وعشرين قيراطا ، يقسمون الأرض على ذلك » .

وكشف السيوطي فى دراساته لهذه الفترة المبكرة من تاريخ مصر الاسلامية عن خاصية فريدة اتسمت بها مصر ، وهى قدرتها على تسخير الوافدين اليها على سنن الوانهم ، واشباعهم بروح محبتها والولاء لها . واستعرض السيوطي هذه الظاهرة عن شرحه للادارة

التي وضعها عمرو بن العاص لمصر . اذ حرص هذا الوالى على مراعاة مصلحة البلاد ، وذلك على نحو ما تجلّى في المراسلات التي تبادلها مع الخليفة عمر بن الخطاب بشأن خراج مصر . ذلك أنّ الخليفة استرعى نظره أنّ موارد مصر نقصت في عهد الادارة العربية عمسا . كانت عليه أيام حكم الروم وظن أنّ السبب في ذلك سوء تدبير عمرو بن العاص ، ومن معه في ادارته ، وكتب اليه خطابا ملاءه بالتهديد . غير أنّ عمرو بن العاص أجاب الخليفة بخطاب يدفع فيه عن نفسه التهم والشكوك .

وتعتبر المراسلات التي أورد السيوطى نصوصها ، والتي تبادلها كل من الخليفة وعمرو بن العاص مقارنة طريفة بين وجهتين من وجهات نظر الحكم ، وبيان الأسانيد التي اعتمد عليها كل حاكم في تبرير رأيه وتصرفاته . أما وجهة نظر عمر بن الخطاب فشرحها السيوطى شرحا وافيا ، موضحا فيها اتهام الخليفة لعمرو بن العاص بالابطاء في ارسال الخراج ، وخلفه في المواعيد التي حددها لموصول هذا الخراج ، فضلا عن تهديده بالعقاب اذا لم يبادر بعزل عمال السوء الذين التفوا حوله ، وحجبوا الحقيقة عنه . وفي الوقت نفسه أجاد السيوطى في ييسان دفاع عمرو بن العاص عن نفسه . اذ شرح للخليفة أنّ سبب تأخير ارسال الخراج هو انتظار مواعيد فيضان النيل ، وأنه يعلم تماما شؤون الادارة في بلاده ، وليس لعمال السوء مكانة عنده .

وصور السيوطى أيضا في المراسلات التي تبادلها الخليفة عمر ابن الخطاب وعمرو بن العاص النظم المالية في مصر في فجر تاريخها في ظل الاسلام ، وقارن بين هذه النظم اذ ذلك وبين ما كانت عليه أيام الروم ، وأيام الفراعنة أنفسهم كذلك . وكشف هذا المؤرخ بطريق غير مباشر عن معلومات لم يكن من المستطاع معرفتها في هذه المرحلة من تاريخ مصر ، وترك بالتالى أساسا طيبا للباحثين في التاريخ المالى لمصر ، ودراسة التطورات التي تعرضت لها الادارة المالية .

فأهم شيء أظهره السيوطي هو أن الإدارة المالية لمصر على عهد
الفرعنة كانت تسير في الاتجاه الصحيح من حيث مراعاة موارد البلاد،
وإتفاق ما تتطلبه مرافق هذه البلاد من رعاية وإصلاح . وانتقل
السيوطي من ذلك إلى شرح حالة مصر أيام الروم ، وذلك كما صورها
عمرو بن العاص للخليفة : وهو الذي ولي شؤون البلاد مباشرة بعد
زوال حكمهم البغيض . إذ كان هدف الروم ابتزاز موارد البلاد دون
العناية بمواقفها وأحوالها ، وهو أمر أوضحت الدراسات الحديثة
صدق الروايات التي ذكرها السيوطي بشأنها .

وأخذ السيوطي - في ضوء هذه الرؤية الشاملة لانتقال مصر إلى
حظيرة الإسلام يستعرض في تفصيل دقيق بناء الجيل العربي في مصر،
ثم شرح المساهمات التي قدمها هذا الجيل في دعم أوتار الحضارة
العربية الإسلامية وفي الدفاع أيضا عن دار الإسلام . واستهل هذه
الدراسة ببيان الامتزاج السلمي الذي بدأ بين العرب الذين فتحوا
مصر وبين أهل البلاد ، وهذا الامتزاج الذي بدأ على عهد عمرو
بن العاص في ظل التنظيم الاجتماعي الذي اشتهر في مصر باسم
« نظام الارتباع » . إذ كانت القبائل العربية تخرج بمقتضى هذا
النظام من معسكراتها بالفسطاط إلى القرى المصرية في كل ربيع ، حيث
يمارس أفرادها الصيد والتدريب .

وتمت عملية الارتباع وفق قواعد محددة ، بعيدة عن الارتجال ،
وحسب نظم تنسق مجراها العام دون انحراف أو أضرار . وجاءت
الخطوط الرئيسية لنظام الارتباع في خطب عمرو بن العاص التي
دأب على القائها على جنده في مطلع كل ربيع حين يأتي موعد هذا
النظام . ومن ذلك قوله في إحدى تلك الخطب لجنده :

« يامعشر الناس انه قد تدلت الجوزاء ، وذكت الشعري ،
وأقلعت السماد وارتفع الوباء ، وقل الندى ، وطاب المرعى . . فحى

لكم على بركة الله الى ريفكم ، فسالوا من خيره ولبنه وخرافه.
وصيده » ••

« واستوصوا بمن جاورتموه من القبط خيرا ، وايأى .
والمشمومات والمعسولات فانهن يفسدن الدين ويقصرن الهمم • حدثني .
عمر أمير المؤمنين أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أن .
الله سيفتح عليكم بعدى مصر ، فاستوصوا بقبطها خيرا ، فإن لكم منهم
صهرا وذمة ••

« واحمدوا الله معشر الناس على ما أولاكم ، فتمتعوا في ريفكم .
ما طاب لكم • فاذا يبس العود وسخن العمود ، وكثر الذباب ، وحمض .
اللبن ، وانقطع الورد من الشجر فحى على فسطاطكم على بركة الله •
ولا يقدمن أحد منكم ذو عيال على عياله الا ومعه تحفة لعياله .
على ما أطاق من سعته أو عسرته •

وصار نظام الارتباع وتكراره كل سنة وسيلة لتوسيع الروابط .
الاجتماعية بين القبائل العربية وبين أهالى البلاد المحليين اذ كانت .
السلطات الاسلامية تحدد للقبائل الأماكن التى تتجه اليها كل ربيع ،
وغدت الفسطاط أشبه بمركز الدائرة لنظام الارتباع ، حيث تقضى
ثلاثة أو أربعة شهور ثم تعود الى الفسطاط • ولكن لم تلبث بعض
القبائل ان اتخذت من مناطق الارتباع أماكن دائمة لها ، حتى غدت
الديار المصرية تشهد مجتمعا جديدا يتكون نتيجة الارتباع واختلاط
القبائل العربية مع أهالى البلاد المحليين •

ودعم هذه القاعدة العريضة الجديدة للمجتمع العربى الاسلامى .
في مصر ، مجيء كثير من صحابة الرسول الكريم ، الى تلك البلاد ،
واسهامهم في نشر الاسلام والعروبة بين أهاليها • واقتصر السيوطى على
تدوين تاريخ أولئك الصحابة الذين وفدوا الى مصر ، وذكر مختارات .

من أحاديثهم ، مع بيان المناسبات التي وردت فيها تلك الأحاديث .
وشرح السيوطى رؤيته لدور أولئك الصحابة في ضوء السابقين له من
المؤرخين المصريين فقال :

« قد ألف الأمام محمد بن الربيع الجيزى فى ذلك كتابا فى مجلد
ذكر فيه مائة ونيفا وأربعين صحابيا ، وقد فاته مثل ما ذكر أو أكثر .
وقد الفت فى ذلك تأليفا استوعبت فيه ما ذكره ، وزدت عليه ما فاته من
تاريخ ابن عبد الحكم وتاريخ ابن يونس وطبقات ابن سعد وتجريد
الذهبى وغيرها ، فزاد فى العدة على ثلاثمائة . وها أنا أسوق كتابى
المذكور برمته ليستفاد ، وهو هذا: در الصحابة فيمن دخل مصر من
الصحابة » .

وحرص السيوطى عند عرضه لأولئك الصحابة ونشاطهم بيان
حبه لوطنهم الجديد وأشارتهم به ، وبيان ما انفردوا به من علم واسع،
حتى أن غيرهم من الصحابة فى سائر الأمصار الاسلامية شدوا اليهم
الرحال ، للافادة مما لديهم من أحاديث شريفة . وكانت حركة الانتقال
الى مصر سببا فى دعم قواعد الحضارة العربية منذ فجر مصر الاسلامية،
وتوسيع الدور الذى أسهم به علماء تلك البلاد فى صرح هذه الحضارة
والاعلاء من شأنها .

وسار السيوطى على هذا النهج فى رؤيته لتطور الجيل العربى
الاسلامى فى مصر ، وتسجيله لقادة هذا الجيل فى شتى الميادين من
الفقهاء والمجاهدين والمؤرخين وكذلك الشعراء والأدباء . وامتنع
الخادج النى عزز بها دراساته بمحبة هذه الجماعات على اختلاف
ألوانها بوطنهم المصرى ، وحنينهم اليه إذا ما اضطرتهم الظروف الى
مفارقتة ، وحرصهم على العودة الى وطنه . وتلك الحقيقة التى سجلها
السيوطى ما زالت سبمة من سمات المصريين وحنينهم الى الوطن . .

فروى السيوطى عن شاعر اسمه كشاجم ، غادر مصر ولكنه ظلل
يتشوق اليها حتى عاد اليها قائلاً :

قد كان شوقى الى مصر يؤرقنى فالآن عدت وعادت مصر لى دارا

وتابع السيوطى رؤيته للتاريخ المصرى مبينا الدور السياسى
الذى قام به أبناء الجيل العربى فى مصر الاسلامية من جهاد فى سبيل
حماية دار الاسلام . وحرص السيوطى فى هذا العرض التاريخى على
الاشارة بمكانة مصر حين انتقل اليها مقر الخلافة بعد أن دمر المغول
بغداد . فقال : « واعلم أن مصر حين صارت دار الخلافة عظم أمرها ،
وكرت شعائر الاسلام فيها ، وعلت فيها السنة وعفت منها البدعة
وصارت محل سكن العلماء ومحط الرجال الفضلاء . . . وجاء هذا
القول نتيجة هامة أراد السيوطى أن يؤكد بها زعامة مصر على عبده
لدار الاسلام وحضارته ، وصيحة مدوية تستهدف ايقاظ مواطنيه الى
هذه الزعامة ، والعمل على دعم أوتارها .

فضائل مصر :

واختتم السيوطى رؤيته للتاريخ المصرى بالحديث عن فضائل
مصر ، مستهدفا تحديد الأبعاد النهائية لتلك الرؤية وربط أطرافها
مع بعضها البعض ، حتى تكون تلك الرؤية واضحة المعالم . واتخذ
السيوطى من وصف مصر سبيلا لبيان ما نعمت به من فضائل وحافزا
لبث العزة فى نفوس أبنائها ، وذلك حسب منهج التربية السياسية
فى تلك المرحلة الانتقالية من حياة مصر فى القرن التاسع الهجرى /
الخامس عشر الميلادى . وجعل السيوطى لهذه المرحلة الأخيرة من
رؤيته للتاريخ المصرى عنوانا هو ذكر بقية لطائف مصر .

وجاءت هذه المرحلة الأخيرة من رؤية السيوطى للتاريخ المصرى
حافلة بالأقوال الماثورة التى جاءت على لسان الأنبياء والعلماء والفقهاء

وغيرهم من كبار رجال الفكر ، والتي تشيد كلها بفضائل مصر ، وتفوقها على غيرها من بلاد دار الاسلام . فقال السيوطى نقلا عن بعض العلماء « ومصر عند الحكماء العالم الصغير سليل العالم الكبير ، لأنه ليس في بلد غنى غريب الا وفيها مثله وأغرب منه ، وتفضل على البلدان بكثره عجائبها » .

ووجد السيوطى أمامه مادة دسمة وفريدة تتحدث عن فضائل مصر . وأول شيء تناوله السيوطى من تلك الفضائل هو الاشادة بخصوصية أرض مصر وما تفيض به من خير عظيم ، وما تحفل به من صناعات عديدة راقية . فروى السيوطى عن ابن عبد الحكم قول عمرو بن العاص فى وصف مصر :
ينظر الى مثلها فى الدنيا فلينظر الى
وتنمو ثمارها » .

واتقى السيوطى عددا من الأقوال الماثورة ثم عرضها بحيث توضح دراساته عن فضائل مصر ، اقتصاديا واجتماعيا . فقال السيوطى نقلا عن الكندى : « جعل الله مصر متوسطة الدنيا وهى فى الاقليم الثالث والرابع ، فسلمت من حر الأول والثانى ومن برد الاقليم الخامس والسادس ، فطاب هواها وضعف حرها وخف بردها . فسلم أهلها من مشاتى الجبال ومصائف عمان وصواعق تهامة ، ودمايل الجزيرة ، وجرب اليمن ، وطواحين الشام ، وغلا العراق ، وعقارب عسكر مكرم ، وحمى خبير ، وأمنوا من غارات الترك . . . وشوق الأنهار وقحط الأمطار ، وقد اكتنفها معادن رزقها وقرب تصرفها فكثر خصبها ورغد عشها ورخص سعرها . وقال الجاحظ فى مصر : ان أهلها يستغنون عن كل بلد حتى لو حذب بنهه . بين بلاد الدنيا سور ، كفى أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا » .

وعزز السيوطى هذه الأقوال ببعض الروايات التاريخية . فقال

ان على بن ابي طالب رضى الله عنه بعث محمد بن ابي بكر الصديق الى مصر قال : انى وجهتك الى فردوس الدنيا ... وحين أشار السيوطى بمنتجات مصر وصناعاتها قال : وبمصر الثياب الصدفية والأكسية المرعز ، وليس هى فى الدنيا الا بمصر . ويحكى أن معاوية لما كبر كان لا يدفا ، فاتفقوا أن لا يدفنه الا أكسية تعمل فى مصر من صوفها المرعز العسلى غير مصبوغ . فعمل له منها عدد ، فما احتاج منها الا الى واحدة » .

وأوضح السيوطى اعتزاز مواطنيه ببلدهم فى أثناء ذكره لمواردها وأحوالها . فقال ان بمصر « من التناج العجيب من الخيل والبغال والحمير ما يفوق تناج أهل الدنيا ... ويحكى أن الوليد عزم على اجراء فكتب الى الأمصار أن يوجه اليه بخيار خيل كل بلد ، فلما اجتمعت عرضت عليه ، فمرت عليه المصرية ، فلما رآها دقيقة العصب . لينة المفاصل والاعطاف قال : هذه خيل ما عندها كائل فقال له عمر بن عبد العزيز وأين الخير كله الا لهذه ، فقال له : ما ترك تعصبك لمصر يا أبا جعفر . فلما أجريت الخيل جاءت المصرية كلها سابقة ما خالطها غيرها » .

وظهر اعتزاز المصريين بوطنهم وفضائلها أيضا فى كل مناسبة دون خوف أو وجل . فروى السيوطى قائلا : « حكى عن المأمون لما دخل مصر قال : قبح الله فرعون اذ قال : أليس لى ملك مصر ، فلو رأى العراق ، فقال له سعيد بن عفير : لا تقل هذا يا أمير المؤمنين ، فان الله تعالى قال : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » ، فما ظنك بشىء دمره الله هذه بقيته . فقال : ما قصرت يا سعيد . ثم قلت : يا أمير المؤمنين لقد بلغنا أنه لم تكن أرض أعظم من مصر ، وجميع الأرض يحتاجون اليها ... وكانت البساتين بحاقتى النيل من أوله الى آخره ما بين أسوان الى رشيد لا ينقطع ... ونقد

كانت المرأة تضع المِكتل على رأسها فيمتلىء مما يسقط فيه من الشجر» •

وخصص السيوطى فى ذكره لفضائل مصر دراسه مستفيضة لنهر النيل باعتباره شريان حياة البلاد ووريدها • ونجبت روح الوصية عند السيوطى حين جمع الروايات التى سيد بهذا النهر وتوضح اهميته وامجاده • والتى تفضل النيل على غيره من الأنهار فى العالم • وأشار السيوطى فى دراساته عن النيل الى القصص التى ردها مواطنوه عن المقاليد التى ارتبطت بفيضان هذا النهر • واختار هذا المؤرخ قصة عروس النيل التى تروى أن أهل مصر كانوا يلقون بعروس بكر فى النيل عند فيضانه ، وأن عمرو بن العاص أبطل هذه العادة عند دخوله مصر •

وبلغت رؤية السيوطى لفضائل مصر روعتها فى الدعوات التى بارك فيها الأنبياء والصالحون ووطنه العزيز • وغدت بمثابة شـحذ لهمم مواطنيه وسبيلا لرفع روحهم المعنوية وسط التهديدات التى كادت تطبق على بلادهم من جانب الأتراك العثمانيين ومحاولاتهم لانتزاع زعامة العالم الاسلامى من مصر • فروى السيوطى عن أبى رهم السماعى قال : لا تزال مصر معافاة من القتن مدفوعا عن أهلها كل الأذى ما لم يغلب عليها غيرهم : فاذا كانت كذلك لعبت بهم يميناً وشمالاً • واختتم السيوطى رؤيته لفضائل مصر وللتاريخ المصرى ادعاء لسيدنا ابراهيم سجله فى فصل فى آثار أوردها المؤلفون فى أخبار مصر ، أوردها ابن زولاق وغيره عن عبد الله بن عسر قال :

لما خلق الله آدم مثل له الدنيا شرقها وغربها وسهلها وجبالها وأنهارها وبحارها وبناءها وخرابها ومن يسكنها من الأمم من يسلكها من الملوك فلما رأى مصر رأى أرضاً سهلة ذات نهر جار مادته من الجنة تنحدر فيه البركة وتمزحه الرحمة ورأى جبلاً من جبالها مكسوا

نورا لا يخلو من نظر الرب اليه بالرحمة في سفحه أشجار مشرة
وروعها في الجنة تسقى بماء الرحمة فدعا آدم في النيل بالبركة ودعا في
أرض مصر بالرحمة والبر والتقوى وبارك على نيلها وجبلها سبع
مرات وقال يا أيها الجبل المرحوم سفحك جنة وتربتك مسك يدفن
فيها غراس الجنة أرض حافظة مطيعة رحيمة لا خلتك يا مصر بركة
ولا زال بك حفظ ولا زال منك ملك وعزيا أرض فيك الخباء والكنوز
ولك البر والثروة سال نهرك عسلا كثر الله زرعك ودر زرعك وزكا
نباتك وعظمت بركتك وخصبت ولا زال فيك الخير ما لم تتجبرى
وتتكبرى أو تخونى وتسخرى فاذا فعلت ذلك عراك شر ثم يعود
خيرك • فكان آدم أول من دعا لمصر بالرحمة والخصب والبركة
والرأفة •

القسم الثالث
مؤلفات السيوطي

مؤلفات السيوطي
للدكتور عصام الدين عبد الرؤوف

أستاذ مساعد التاريخ الاسلامي بكلية الآداب
جامعة اسيوط

مؤلفات السيوطي

تمهيد :

قبل أن نتحدث عن مؤلفات السيوطي يجدر بنا أن نشير بإيجاز شديد الى حياة هذا الرجل ، لما في ذلك من علاقة وثيقة بمؤلفاته -
موضوع بحثنا .

هو جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد جلال الدين الخضيرى الشافعى ولد في رجب سنة ٨٤٩ هـ / أكتوبر ١٤٤٥ م بالقاهرة ، وينتهى نسبه الى أسرة فارسية - كما حدث عن نفسه في كتابه « طبقات المفسرين » (١) ، و « حسن المحاضرة » (٢) وكانت هذه الأسرة تعيش قبل قدومها الى مصر في حى الخضيرية في بغداد (٣) ، واستقر بها المقام في أسيوط ، قبل مولد صاحبنا بعشرة أجيال على الأقل ، وعلى الأرجح في زمن الأيوبيين ، وأطلقت هذه الأسرة على الحى الذى عاشت فيه بأسيوط ، الخضيرية .

(١) طبعات المفسرين ص ٢١ .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) الخضيرية : محلة في بغداد لى الجانب الشرقى مجاورة لمشهد الامام أبى حنيفة

والجامع . ياقوت : معجم البلدان ج ٣ ص ١١٢ .

ظلت أسرة السيوطى فى أسىوط جىلا بعد جىل ، وظهر منها رجال كان لهم شأن كىبر فى المجتمع الأسىوطى ، منهم القاضى والمحتسب والتاجر (١) . أما والد السىوطى فهو كمال الدىن أبو بكر ، ولد بأسىوط ، وتولى القضاء فىها ونزح الى القاهرة قىل مىلاد صانحىنا بأربع وعشرىن سنة : انقطع لطلب العلم واسلمىم ، وتولى تدرىس الفقه فى الجامع الشىخونى ، والخلافة فى جامع ابن طولون ، وكان بىته بجزىرة الروضة جنوب القاهرة وتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١ م ، وذكر ابنه عبد الرحمن مؤلفاته ، ولكنها - فىما ىدو - لم تكن على قدر كىبر من الأهمىة ، بدالىل أن عبد الرحمن لم ىوضح أهمىتها ، بل اكتفى بذكر أسائها فقط (٢) .

توفى والد عبد الرحمن ، وشىخنا لا ىزال فى الخامسة من عمره فكفل الغلام صدىق لأبىه من الصوفىة ، وشمله بعناىته ورعاىته ، وأخلص فى تربىته ، وظهرت على السىوطى منذ نعومة أظفاره علامات الفطنة وأمارات الذكاء ، فحفظ القرآن الكرىم وهو ابن ثمان سنىن ، ثم حفظ متون الفقه والنحو ، وأخذ العلم عن مشاىخ وقته ، فلزم العلامة شىخ الاسلام عام الدىن البلقىنى فى الفقه الى أن توفى ، ثم لزم ابنه من بعده ، فلما توفى ابن البلقىنى لزم الشىخ المىاوى ، ودرس عله علوم الدىن واللغة ، ىقول فى كتابه « حسن المحاضرة » (٣) ، وأما مشاىخى فى الرواية سماعا واجازة فكثىر ، أوردتهم فى المعجم الذى جىعتهم فبه وعددهم نحو مائة وخسسىن شىخا ، وبسمى « حاطب لىل وجارف سىل » وللسىوطى أىضا معجم صغىر ىسمى « المتفق » ومعجم فى مرواياته ىسمى « زاد المسىر فى الفهرست الصغىر » .

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٧ ص ٢٨٤ .

(٢) السىوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٠٨ - ٢٠٩ .

(٣) ج ١ ص ١٥٦ .

وظل السيوطى يواصل الدراسة حتى تفقه فى علوم عصره (١)
وأجيز بتدريس العربية ، وهو فى نحو السابعة عشرة من عمره ،
وأجيز بالتصدي لتدريس الفقه والفتيا وهو فى نحو السابعة
والعشرين (٢)

ولقد بلغ عبد الرحمن هذه المنزلة العلمية الرفيعة منذ صغره بفضل
نشأته العلمية ، كما أنه من بيت علم ، فبرع فى علوم الدين واللغة
والتاريخ ، ولم يكنف بالدراسة فى القاهرة ، بل قام بعدة رحلات فى
مدن مصر ، واتصل برجال العلم بها ، وأخذ عنهم فرحل الى الفيوم
ودمياط والمحلة الكبرى، والاسكندرية ، ثم رحل الى البلاد العربية الى
الشام والحجاز واليمن والمغرب ، كما رحل الى الهند ومالى وبلاد
التكرور ، وقد تجمعت لديه فى أثناء هذه الرحلات براءات واجازات
كثيرة بالتدريس • (٣)

أشتغل السيوطى فى أول الأمر ببذل المشورة فى المسائل الفقهية
وتولى سنة ٨٧٢ هـ / ١٤٦٧ م منصب المشيخة - الذى كان يتولاه
أبوه من قبل فى المدرسة الشيخونية - بتوصية من شيخه البلقيني ،
ثم تولى مشيخة الصوفية بتدبير برقوق - نائب الشام - وتقع بباب
القرافة الحالية ، وفى سنة ٨٩١ هـ / ١٤٨٠ م انتقل الى مشيخة المدرسة
البيبرسية - وهى أكبر خوانق القاهرة وأوسعها أوقافا فى عصره (٤)
ولما ولى محمد بن قايتباى السلطنة - عنها ، ذلك لأن جمعا من
المشايخ الصوفية - الذين كانوا بالمدرسة البيبرسية اعترضوا عليه
لأنه أساء معاملتهم ، وحرّمهم من بعض الوظائف التى كانوا يشغلونها

(١) السيوطى : طبقات المفسرين ص ٢٢ •

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٦ •

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٩ •

(٤) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٢ •

ومن بعض الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها (١) ، فانعزل عن الناس وزهد في الدنيا ، وانقطع بسكنه في الروضه وأقبل على الله تعالى ودان حينئذ يناهز الاربعين ، و ألف أكثر مؤلفاته في عزلته هذه التي استمرت حوالي عشرين عاما حتى توفي (٢) ، ورفض في خلال هذه الفترة أن يستقبل أحدا من مريديه ، وأغلق نوافذ بيته المطلة على النيل، وكتب في ذلك رسالة أسماها « تأخير الظلّامة الى يوم القيامة » ولما تولى طومانباي السلطنة سنة ١٥٠٠ م خشى السيوطى أن يتعرض لاضطهاده فأخفى حتى توفي هذا السلطان (٣) ومن ثم عاد الى منزله بالروضه ، وقد عرض عليه السلطان الجديد قانصوة الغورى وظيفه المشيخة بمدرسة البيرسية ، لكنه رفض وآثر العزلة والبعد عن الحياة العامة حتى وفاته سنة ١٥٠٥ م (٤)

اتجاه السيوطى الى التأليف

تدهورت الحياة الثقافية في العراق وايران بعد ان استولى عليهما المغول واستبدوا بالبلاد ، وهاجر العلماء والأدباء الى مصر والشام ، وكان سلاطين المماليك يتفاخرون باظهار التقوى والورع حتى يغطوا الظلم الذى كانوا يلحقونه بالناس ، فأقاموا الخواثق والرباطات ، وجبسوا عليها المال والضياع قفا على طلبة العلم وترفيها عنهم ، من ذلك خانقاه شيخون ، وغصت المدارس بخزائن الكتب التى تحوى نفائس المصنفات ، ووفد عليها طلاب العلم من كل مكان ، وشجع المماليك العلماء والأدباء على التأليف ، وعلماء هذا العصر لم يقتصروا على التأليف فى فن واحد ، بل ألفوا فى فنون متعددة ، فكان المؤلف

-
- (١) السيوطى : طبقات المعشرين ص ٢٦ .
(٢) الشمرانى : دليل الطبقات الكبرى ج ٢١ .
(٣) ابن اياس : دلائع الزهور ج ٢ ص ٢٠٧ .
(٤) ابن العماد الحنبلى : سدراب الذهب ج ٨ ص ٥٢ .

منهم مؤرخا وفيها وعالما في اللغة أو الحديث أو الرياضة وغير ذلك ، ولم يؤخرهم عن طلب العلم ما كان يحيط عصرهم من مؤثرات الظلم او نزاع الامراء والوزراء ، فصدر عنهم الجليل من المصنفات ، حتى أصبح هذا العصر يسمى عصر المجاميع والموسوعات ، وأشهر هؤلاء العلماء الموسوعيين النويري ت ٥٧٣٣ هـ ، وابن فضل الله العمري ت ٥٧٤٨ هـ ، والسيوطي ت ٥٩١١ هـ ، الذي جاء في آخر هذا العصر ، وهو صاحب الأخبار الطوال ، وكان أعظمهم همة وأكثرهم نشاطا وانتاجا ، بل لعله أغزر كتاب العربية قاطبة انتاجا .

نشأ السيوطي بين الكتب ، حتى أنه لقب بابن الكتب ، ترك له أبوه مكتبة زاخرة بالمصنفات وكان يتردد منذ صغره على المدرسة المحمودية وبها مكتبة كبيرة ، وقد أنشئت هذه المدرسة سنة ٧٩٧ هـ ، وتنسب الى محمود بن علي الأستاذار ، وقال المقرئ (٣) . كان بها من الكتب الاسلامية من كل فن ، وهذه المدرسة من أحسن المدارس وقتها ، وقال الحافظ بن حجر ، ان الكتب التي بها كثيرة جدا ومن أنفس الكتب الموجودة بالقاهرة . اشتراها محمود الأستاذار ومن أحد العلماء ووقفها ، واشترط أن لا يخرج منها شيء من مدرسته ، وكان بها نحو أربعة آلاف مجلد وفهرسها ابن حجر ، والسيوطي له فيها فهراس تسمى « بذل المجهود في خزانة محمود » (٣) .

تميز النشاط الذي بدأه السيوطي في التأليف بالتنوع ، اذ تناول فروع المعرفة بالدراسة والكتابة ، وقد عوضت مصنفاته الكثيرة المسلمين عن الكتب التي فقدوها في الحروب والاضطرابات ، فاشتملت مؤلفاته على علوم القرآن والفقهاء والحديث والأدب والتاريخ والمعارف العامة .

-
- (١) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٣ .
(٢) المرائظ والاعتبار ج ٢ ص ٤١٧ .
(٣) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٣ .

بلغت مؤلفات السيوطي حين ألف كتاب « حسن المحاضرة » نحواً من ثلاثمائة مؤلف (١) ، ما بين كبير في مجلد ، وفي كراريس ، وفي اوراق ، وفي صفحات ، بل وفي صفحة واحدة (٢) ، وقد اختلف الكتاب في احصاء عدد مؤلفات السيوطي ، فيذكر البعض أنها بلغت ستمائة (٣) ، وذكر آخرون أنها تزيد على أربعمائة (٤) ، وقد أحصى انه فلو كل ٥٦١ مؤلفاً (٥) ، وهذا العدد الكبير - كما ذكرنا - بعضه يقع في صفحات أو حتى في صفحة واحدة في مسألة من المسائل ، أو اجابة عن سؤال ، ويعتبرها السيوطي - على الرغم من ذلك - مؤلفات ، ويضمها الى قائمة مؤلفاته في كتابه حسن المحاضرة ، ويقول بفخر واعزاز ، وبلغت مؤلفاتي الآن ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ، ورجعت عنه (٦) ، ولقد جمع في كتابه « الحاوي للفتاوى » الذي يقع في ٩٨٠ صفحة ، ٧٨ مؤلفاً منفرداً ، وأغلبها فتاوى أو أبحاث منفردة (٧) .

على أن مؤلفات السيوطي اشتملت على كتب قيمة تحوى أجزاء متعددة ، وتقع في مجلدات كبيرة مثل « الأشباه والنظائر » و « الاقتراح في أصول النحو » و « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » ويقع في أربعة أجزاء و « لباب الألباب » في ثلاثة أجزاء و « حسن المحاضرة » في جزأين و « المزهر في علوم اللغة وأنواعها » و « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » .

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) العيروسى : النور الساخر ص ٥٦ .

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٦٣ .

(٤) بروكلمان : تاريخ الادب العربى ج ٢ ص ١٤٥ .

(٥) ج ١ ص ١٥٧ .

(٦) الحاوى في الفتاوى ج ١ ص ٩٩ ، ١٤٦ .

والى جانب المصنفات القيمة التى وصفها السيوطى نراه يؤلف فى موضوعات تافهة ربما أراد أن يتسلى بكتابتها ، ويشغل وقته بتناولها ، ومن بين هذه الكتب :

— الطرثوث فى فوائد البرغوث

— بلوغ المآرب فى قتل العقارب

— فصل الخطاب فى قتل الكلاب

— الوديك فى فضل الديك

— ما رواه السادة فى الاتكاء على الوسادة

— المصاييح فى صلاة التراويح (١)

وكان السيوطى شديد الغضب ، تكلفه الغضبة الواحدة رسالة أو أكثر يكتبها فى يوم أو ليلة ليرويها على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه ، وفى ذلك يقول : وخالفنى أهل عصرى فى خمسين مسألة ، فألفت فى كل مسألة مؤلفا ، بينت فيه وجه الحق (٢) .

والسيوطى كان يؤلف الكتاب الواحد ثم يعود الى تقسيمه وتجزئته الى عدة كتب وفى مصنفاته التاريخية يترجم بحسب الطبقات ، مما جعله يؤلف ثلاثة عشر كتابا لطبقات مختلفة هم ، الأنبياء ، الصحابة ، المفسرون ، الحفاظ ، اللغويون ، النحاة ، الأصوليون الأولياء . . الخ .

وذكر الداودى — تلميذ صاحبنا ، أن السيوطى كان فى سرعة الكتابة آية كبرى من آيات الله ويقول : « وقد عاينت الشيخ ، وقد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفا وتحريرا ، وكان مع ذلك — يملئ الحديث ، ويجيب عن المتعارض منه بأجوبة حسنة » (٣) .

(١) كشف الظنون ج ٦ ص ٦٧٧ — ٦٨٧ .

(٢) ابن اياس : مدائع الزهور ج ٢ ص ٢٨١ .

(٣) السيوطى : تدريب الراوى ص/ح .

على أن الغالب في مؤلفات السيوطي تلخيص كتب الآخرين ،
والتضارب الواضح بين آرائه وبين ما يكتب انما مرده الى اختلاف
آراء المؤلفين الذين يختصر مؤلفاتهم عن آرائه هو ، لأنه كان لا يعنى
بفحص آراء هؤلاء المؤلفين ودراستها ، وترجيح الراجح منها (١) .

ولا يقلل - في اعتقادنا - تلخيصه للكتب السابقة من أهمية
جهوده ، اذ حفظ لنا هذا الشيخ الجليل كتباً قيمة لولاه لاندثرت ،
وضاعت مثل غيرها من الكتب ، التي فقدت في العالم الاسلامي في
العصور الوسطى حينما تعرض لغزوات المغول المدمرة ، فجهوده العلمية
- بلا شك - أسهمت في حفظ العلم للخلف ، وتيسير سبل المعرفة
عن السلف .

وأهم الكتب التي اختصرها السيوطي ، معجم البلدان لياقوت
الحموي والاحكام السلطانية للماوردي « وطبقات الحفاظ » للذهبي
و « احياء علوم الدين للغزالي » وطبقات ابن سعد و « أسد الغابة »
لابن الأثير و « البداية والنهاية » لابن كثير الدمشقي و « الدرر الكامنة
في أعيان المائة الثامنة » لأبى شامة .

وكان السيوطي أميناً فيما يكتب ، لا ينسب كتب الآخرين الى
نفسه ، بل حرص على أن ينسب ما اقتبسه من الكتاب اليهم ، فمثلاً
في كتابه « الاقتراح » (٢) يقول : لقد اطلعت على كتاب « الكمال »
لابن الأنباري وقد أخذت من الكتاب الأول اللباب وأدخلته معزوا
اليه في ثنايا هذا الكتاب ، وضممت خلاصة الثاني في مباحث العلة
ولم أتقل من كتبه حرفاً الا مقروناً بالعزو اليه ، ليعرف مقام كتابي من
كتابه . ويذكر في « حسن المحاضرة » (٣) المصادر التي اعتمد عليها ،

(١) الموسوعة العربية الميسرة ١٠٥٩ .

(٢) مقدمة كتاب الاقتراح .

(٣) مقدمة كتاب بغية الوعاء .

وتباع حوالى خمسة وعشرين ويقول : لقد طالعت فتوح مصر لابن عبد الحكم ، وتاريخ مصر لابن زولاقي و « فضائل مصر » لابن عمر الكندى ، والخطط للقضاى .

وفى كتابه « بغية الوعاى فى طبقات اللغويين والنحاه » يقول أنه اطلع على كتاب « البصريين » لابن سعيد السيرافى ، ثم كتاب « مراتب النحويين » لابن الطيب عبد الواحد اللغوى ، ثم على « طبقات النحاه » لابي بكر محمد بن الحسن الزبيدى (١) وأنه قرأ أكثر من ثلاثمائة كتاب ، واعتمد عليها فى تأليف هذا الكتاب ، واعتمد على أكثر من مائة وتسعين مرجعا فى تأليف كتاب « الاتقان » .

ويقول فى كتابه « در السحابة فىمن دخل مصر من الصحابة » : ألف الامام محمد بن ربيع الجيزى فى ذلك كتابا فى مجلد ، ذكر فيه مائة ونيف وأربعين صحابيا ، وقد فاته مثل ما ذكر أو أكثر ، وقد ألفت كتابا استوعبت فيه ما ذكره ، وزدت عليه ما فاته من تاريخ ابن عبد الحكم وتاريخ ابن يونس ، وطبقات ابن سعد ، وتجريد الذهنى وغيرها ، فزدت على ما ذكره ثلاثمائة (٢) .

والسيوطى طريقة فى التأليف فريدة فى بابها ، اذ يقدم فى أول الكتاب منهجه الذى يسير عليه فى الكتاب ، الأمر الذى ينير الطريق للقارئ ونلاحظ أن منهجه فى تحليل المسألة يبرز فيه الأقوال التى جاءت فيها ، والردود التى وردت باسم صاحبها فى كتابه ، مما يدل على عمقه وثبته ، وحرصه على دراسة الموضوع من كل ناحية ، ولقد نهج على طريقة مثلى فى التأليف ، فكان يقول : قال شيخنا كذا ، وقال آخر فى كتابه كذا ، وقال ثالث وقال رابع . وبذلك يعرض جميع الآراء ،

(١) مقدمة كتاب بغية الوعاى .

(٢) در السحابة فىمن دخل مصر من الصحابة ص ٧٢ .

التي قيلت في المسألة الواحدة ، مما يدل على سعة اطلاعه (١) .

والسيوطي شديد الاعتزاز بمؤلفاته ، فخورا بما بلغه من سعة في العلم ، بل يبالي في ابراز أهمية كتبه ، ويكثر بمدحها ، وهذا يتمشى مع طبيعة العصر الذي كان يعيش فيه حيث تدهورت الحياة الثقافية وانحطت واشتدت المنافسة بين العلماء .

وقال السيوطي أنه رزق التبخر في سبعة علوم ، التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، وقال : ان العلوم التي اطلعت عليها لم ينف عليها أحد من مشايخي ، فضلا عن دونهم ، وصنف العلوم على حسب مقدرته على دراساتها ، فقال : ودون هذه العلوم التي اطلعت عليها في المعرفة ، أصول الفقه والجدل والصرف ودونهما الانشاء والترسل والفرائض ، ودونهما القراءات ، ولم آخذها عن شيخ ، ودونها الطب ، وأما الحساب فأعسر شيء على ، وأبعده عن ذهني ، وإذا نظرت في مسألة أجد في حلها صعوبة كبيرة ، أو على حد تعبيره « كأنما أحاول جبلا أحمله » (٢) .

ويقول عن علم المنطق أنه قرأ منه شيئا ثم ألقى الله كراهته في قلبه حتى اذا سمع أن ابن الصلاح أفتى بتحريمه تركه تماما ، ولم يكتف السيوطي بذلك ، بل ألف رسالة في أسباب تحريم المنطق أسماها « القول المشرق في تحريم الاشتغال بالمنطق » (٣) وفي ذلك يقول في كتابه « صون المنطق والكلام عن فن المنطق والكلام » ، « وبعد ، فقد كنت قديما في سنة سبع أو ثمان وستين وثمانمائة ألفت كتابا في تحريم الاشتغال بفن المنطق سميته « القول المشرق » ضمنته قول أئمة

(١) تدريب الراوي ص/ع - ف .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٥ .

(٣) السيوطي : صون المنطق والكلام ج ١ .

الاسلام في ذمة وتحريمه ، وذكرت فيه أن شيخ الاسلام أحد المجتهدين تقى الدين بن تيمية ألف كتابا في نقض قواعده ، ولم آكن اذ ذلك وقفت عليه ، ومضى على ذلك عشرون سنة ، فلما كان في هذا العام ، وتحدثت بسا أنعم الله على من الوصول الى رتبة الاجتهاد « ذكر ذاكر أن من شروط الاجتهاد في معرفة فن المنطق ، يعنى وقد فقد هذا الشرط عندى بزعمه ، وما شعر المسكين أنى أحسنه أكثر ممن يدعيه ، ويناضل عليه ، وأعرف أصول قواعده ، وما بنيت عليه ، وما يتولد منها معرفة ما وصل اليها شيوخ المناطقة الآن ... فتطلبت كتاب ابن تيمية « فرأيته سماه « نصيحة أهل الايمان في الرد على منطلق اليونان » وأحسن فيه القول ما شاء من نقض قواعده قاعدة قاعدة ، وبيان فساد أصولها ، فلخصته في تأليف لطيف « جهد القريحة في تجديد النصيحة » (١) •

واعتقد السيوطى في نفسه أنه بلغ درجة الاجتهاد ، يتضح من ذلك قوله : وقد كملت عندى آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى ، ولو تثت أن أكتب في كل مسألة تصنيفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها ونقوضها وأجوبتها ، والمقارنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك ، وكان علماء عصره يرتبون له ألوف الاسئلة فيكتب عنها أجوبته على طريقة الاجتهاد (٢) •

واعتقد في نفسه أنه مبعوث على رأس المائة التاسعة مجددا للدين ، وذلك طبقا للحديث : ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها ، واقتدى بالغزالي في هذا القول الذى أدعى فيه أنه المبعوث على رأس المائة الخامسة ومن حسبهم المسلمون أنهم المجددون في الاسلام ، الأشعري والشافعى وعمر بن عبد العزيز وفكرة السيوطى نشأت وتطورات في ذهنه من كثرة كتاباته حيث

(١) المصدر السابق ج ٢ •

(٢) الحاوى ج ٣ ص ٢٤٨ •

انه اختار ترجمته لنفسه في كتابه « حسن المحاضرة » من بين تراجم المجتهدين ، ودونها بعد ترجمة البلقيني الذي وصفه بأنه المبعوث على رأس المائة الثامنة (١) ، ثم قال وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة من أهل مصر وفي كتابه «الرد على من آخذ الى الأرض» و « نظم العقيان » مهد السبيل لنشر دعوته عن نفسه ثم اختمرت الفكرة في ذهنه ، وجاهر بها في رسالته « رسالة فيمن يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة » (٢) قال فيه : انى ترجيت من نعم الله وفضله كما ترجى الغزالي لنفسه أنى المبعوث على هذه المائة التاسعة لافرادى عليها بالتبحر في أنواع العلوم ، ويقول في رسالته « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف » جولوا في الناس جولة ، فانه من ينفخ أشدافه ، ويدعى مناظرتى ، وينكر على دعوى الاجتهاد والتفرد بالعلم على رأس هذه المائة ، ويزعم أنه يعارضنى ، ويستجيش على بمن لو اجتمع هو وهم في صعيد واحد ، وتفتخت عليه نفخة صار هباء منشورا (٣) •

ودافع السيوطى عن دعواه في بعض مؤلفاته فقال في كتابه « من آخذ الى الأرض » أن الناس قد غلب عليهم الجهل وعمهم ، وأعماهم حب العناد وأصمهم فاستعظموا دعوى الاجتهاد ، وعدوه منكرى بين العباد ، ولم يشعر هؤلاء الجهلة أن الاجتهاد فرض من فروض الكفايات في كل عصر ، وواجب على أهل كل زمان أن يقوم به طائفة في كل قطر » ويقع الكتاب في أربعة أبواب ، الباب الأول في ذكر نصوص العلماء على أن الاجتهاد في كل عصر فرض من فروض الكفايات ، والباب الثانى في ذكر نصوص العلماء على أن الدهر لا يخلو من مجتهد ، وأنه لا يجوز عقلا خلو العصر منه ، والباب الثالث في ذكر من حث

(١) الحاوى ج ٢ ص ٢٤٨ •

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ •

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٥ •

على الاجتهاد وأمر به ، وذم التقليد ونهى عنه (١) ، والباب الرابع في فرائد الاجتهاد ، ويقول في رسالته « تعريف الفئة بأجوبة الأسئلة المائة » وبعد : فاني رجل حبب الى العلم والنظر فيه دقيقه وجليله ، والغوص على حقائقه ، والتطلع الى دقائقه ، والفحص عن أصوله ، وجبت على ذلك فليس في منبت شعره الا وهى مححونة بذلك ، وقد أوذيت على ذلك أذى كثيرا من الجاهلين والقاصرين ، وذلك سنة الله في العلماء السابقين (٢) .

والحق أن السيوطى أهل للاجتهاد المطلق ، فقد جاء في كتاب تدريب الراوى أن صاحبنا كملت عنده أدوات الاجتهاد على ما اشترطه الأصوليون ، وأنه كان عالما بآيات الاحكام وأحاديث الاحكام وشروط القياس ومعرفة مواقع الاجماع والخلاف ، وان كان ذكر في بعض كتبه أنه اقتصر في معرفتها أيضا ، غير أنه لم يجتهد بالفعل الا اجتهاد المذهب بالترجيح على مذهب الامام الشافعى (٣) .

وكان السيوطى يتمتع بشخصية قوية ، ويتجلى ذلك في مدى اعتزازه بمؤلفاته وآرائه التى يبرزها في كتبه ، ومن صفاته التمسك بما يرى أنه الحق حتى ولو أغضب السلطان ، فقد توجه الى السلطان قايتباى - وعلى رأسه الطيلسان - الأمر الذى يخالف التقاليد المرعية في ذلك العصر ، وعوتب على ذلك ، الا أنه أصر على صحة موقفه ، وكتب في ذلك رسالة أسماها « الأحاديث الحسان في فضل الطيلسان » (٤) ، ورفض بعد ذلك أن يذهب مع العلماء لتهنئة السلطان بالشفاء من مرض ألم به ، محتجا بأن عدم طلوع العلماء للملوك سنة ، وألف

(١) السيوطى : الرد على من اخلد الى الارض ص ٢ ، ٣ ، ٢٦ ، ٤٢ ،

(٢) الحاوى ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٣) تدريب الراوى ص/ص .

(٤) الشعرائى : ذيل الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٩ .

في ذلك كتابا أسماه « رواية الأساطين في عدم المجيء الى السلاطين (١) وعلى الرغم من ذلك ظل السيوطي محتفظا بوظيفته بالمدرسة البيروسية حتى وفاة قايتباي (٢) .

على انه لم يلبث أن عزل عن هذه المدرسة بسبب خلافاته مع الصوفية ، و جدير بالذكر أن نفوذهم ازداد في عصر المماليك ، وأصبح لهم مكانة كبيرة ، وتودد لهم الأمراء وعامة الشعب ، وظهر منهم طائفة المجاذيب أو الدراويش الذين كانوا أصحاب أفعال عجيبة ليست من الدين في شيء ، وكان السيوطي - كما ذكرنا - قد نشأ برعاية أحد مشايخ الصوفية من أصدقاء أبيه ، وكان من مريدي الصوفية الحقة ، ودافع في مؤلفاته عن الصوفية « قمع المعارض في نصره ابن الفارض » و « تنبيه الغبي الى تبرة ابن عربي » ، كما ألف كثيرا من الرسائل التي يرد فيها على أسئلة الصوفية مثل « هل يكره الجهر بالذكر » ولكنه قلب عليهم ظهر المجن لما تأكد أنهم منحرفون عن الدين الصحيح ، وقطع عطاءهم بالخائنة البيروسية لأنهم - في رأيه - ضلوا الطريق ، فثارت ثأرتهم عليه ، وكادوا يقتلونه ، وحوكم السيوطي ، وثبت لدى قضاته أن طمعه أفسده ، أو أن استيلاءه على مستحقات الصوفية ، جعله غير صالح للبقاء في المشيخة ، ولذا عزل ، وألف السيوطي في ذلك كتاب « التنقيح في ترك الفتيا والتدريس » (٣) عبر فيه عن اعتزاله الحياة العامة والانتقال الى العبادة والتأليف ، وتخليه عن الفتيا التي تصدى لها سبع عشرة سنة خلالها سارت فتاواه مسير الشمس في النهار ، ورزق القبول من علماء الأمصار ، وذكر شبخنا في مقامه « الاستنصار بالواحد القهار » أنه قاسى كثيرا من جراء الفتوى حتى

(١) ابن اياس بدائع الزهور ج ٢ ص ١١٩ .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ١٢٠ .

(٣) ابن العماد الحنبل : شذرات الذهب ج ٨ ص ٥١ .

نال به سبب ذلك ما يصلح أن يكون عذرا له ، وأنه لا يفتى أبسدا ، ولا يجيب سائلا عن مسألة ، وذكر ذلك أيضا في « تنوير الحوالك مع شرح الموطأ » وفي « المقامات اللؤلؤية » (١) .

وكان للسيوطي اعتقاد في علم الباطن وقال أنه بعد التضلع من علوم الظاهر اشتغل بتحصيل علم الباطن واستفادتها من أهلها بالصحبة والخدمة والسلوك وحسن الاعتقاد والاخلاص والتخلية من الرذائل والتحلية بالفضائل وقال السيوطي انه رأى الرسول في اليقظة والمنام (٢) .

وكتب السيوطي كتبا في مسائل العالم الآخر من بينها كتاب « شرح الصدور في شرح حال الموتى في القبور » واختصره في كتاب أسماه « بشرى الكئيب بقاء الحبيب » وللسيوطي أرجوزة في حساب الميت في القبر عنوانها « التثبيت عند التثبيت » ، وله أيضا كتاب « الدر الحسان في البعث ونعيم الجنان » .

وثمة ظاهرة واضحة كل الوضوح في مؤلفات السيوطي ، وهو أنه يبدوها بالثناء عليها أو يختمها بابرار انفرادها عن غيرها بالأهمية والقيمة العلمية فمثلا يقول السيوطي عن كتاب الاتقان : « وقد من الله على باتمام هذا الكتاب البديع المثال المنيع المنال الفائق بحسن نظمه ... » (٣) ويقول في آخر شرحه لألفية ابن مالك : « فدونك مؤلفا كأنه سبيكة عسجد أو در منضد ، برز في أبان الشباب ، وتميز عند الصدور أولى الالباب » ويقول عن حاشيته لكتاب المعنى : « أودعتها من الفوائد والفرائد والغرائب والزوائد ما لورامه غيرى ثم يكون له الى ذلك سبيل ، ولا فيه نصيب » (٤) وعن المزهر يقول

(١) تدريب الراوى ص/ك - ل .

(٢) ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٨ ص ٥١ .

(٣) الاتقان ج ، ص ٣٠٧ .

(٤) شرح شواهد المعنى ص ٢ .

« ان هذا المجموع لم يسبقنى اليه سابق ، ولا طرق سبيله طارق .
وقال عنه ايضا : «علم اخترعته لم أسبق اليه ، وهو خمسون نوعا على
نمط أنواع علوم الحديث» (١) وفي خاتمة كتاب بغية الوعاء يقول :
« وقد من الله تبارك وتعالى باكمال هذا الكتاب ، الطافح بكثرة جمعه
على البحر العباب ، الجامع من كل شريدة ووريدة العجب العجاب » (٢)
ومن قوله في كتابه : « الرد على من أخذ الى الارض » « وليس على
وجه الأرض من مشرقها الى مغربها أعلم بالحديث والعربية منى الا أن
يكون الخضر أو التطب أو وليا لله تعالى ... » (٣) ، ويواصل ثناءه
على مؤلفاته ، وما تناولها فيه ، فيذكر أنه اخترع علم أصول اللغة ،
ولم يسبقه عالم فيه على نهج علم أصول الفقه وعلم الحديث ويقول :
وصارت مصنفاى وعلومى فى سائر الاقطار ووصلت الى الشام والروم
والعجم والحجاز واليمن والهند والحبشة والمغرب والتكروور وامتدت
الى البحر المحيط ولا مشاركة لى فى مجموع ما ذكرته (٤) .

ويقول السيوطى فى كتابه « الجامع الصغير فى أحاديث البشير
النذير » : « الحمد لله الذى بعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه
الأممة أمر دينها وأقام فى كل عصر من يحوط هذه الملة بتشييد أركانها
وتأييد سنتها وتبيينها » .

« هذا كتاب أودعت فيه من الكلم النبوية ألوفا ومن الحكم
المصطفوية صنوفا ، اقتصرت فيه على الأحاديث الوجيزة أو بالغت فى
تحرير التخرج ، فتركت القشر وأخذت اللباب وصننته عما تفرد به
وضاع .. ففاق بذلك الكتب المؤلفة فى هذا النوع .. وحوى من

(١) كشف الظنون عن اسامى الكتب والفنون ج ٦ ص ٦٧٦ - ٦٧٨ .

(٢) الوعاء ص ٤٦٠ .

(٣) ندرية الراوى - المقدمة ص/ ط .

(٤) السخاوى . الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٦ .

نفايس الصناعة الحديثة ما لم يودع قبله في كتاب (١) * «

كان السيوطى موضع تقدير الكثير من معاصريه ، غير أنه تعرض لحملة شديدة تزعمها السخاوى وبعض تلاميذه ، وتعرضوا لمؤلفاته بالنقد الشديد ، ومن الغريب أن السخاوى كان يقدر صاحبه يوم أن كان يافعا من طبقة تلاميذه حيث قال في ترجمة والده : « وهو والد الفاضل جلال الدين عبد الرحمن أحد من أكثر التردد على ومدخنى نظما وشرا ، نفع الله به * * » (٢) كما أثنى عليه في مناسبات متعددة ولكنه عاد فتحامل عليه في كتابه الضوء اللامع ، واتهمه بالحقم والسرقة ، واستمر حتى آخر أيامه كلما وجد مناسبة تحامل عليه وذمة ، وكان السخاوى كثير التحامل على أقرانه وفي ذلك يقول الشوكانى : السخاوى متحامل على أكابر أقرانه ، ولا يسلم غالبهم منه ، ولا جرم فذلك دأبه في جميع الفضلاء من أقرانه ويوافق ابن اياس (٣) الشوكانى في حديثه عن السخاوى اذ يقول : « ان السخاوى ألف تاريخا فيه كثير من المساوىء في حق الناس من تصغير الكبير ، وتحقير الصغير » *

على أن السيوطى لم يتغاض عن حملات السخاوى عليه ، بل سخر منه وتحامل عليه في مؤلفاته ، بل أفرد مؤلفا للنيل عن السخاوى ، أسماه « الكاوى في تاريخ السخاوى » وجاء في هذا الكتاب على لسان السيوطى قوله : « نزهت فيها أعراض الناس وهدمت ما بناه في تاريخه من أساس » *

وقال السيوطى عن صاحبه في كتاب « مسالك الحنفا » : « وانى بحمد الله قد اجتمع عندى الحديث والفقه والأصول وسائر الآلات من العربية ، فأنا أعرف كيف أتكلم ، وكيف أقول ، وكيف أستدل وكيف

(١) السيوطى : الجامع الصغير ص ٢ *

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٦ *

(٣) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٢٢ *

أرجح ، وما أنت يا أخى ، وفقنى الله وإياك ، فلا يصح لك ذلك ، لأنك لا تدرى الفقه ، ولا الأصول ، ولا شيئاً من الآلات والكلام فى الحديث والاستدلال العسير الهين ، ولا يحل لك الاقدام على التكلم فيه . . . فاقصر على ما أتاك الله ، وهو أنك اذا سئلت عن حديث تقول : ورد أم لم يرد ، وصححه الحافظ . . . ولا يحل لك الافتاء ما سوى هذا القدر وخل ما عدا هذا لأهله (١) .

وألف السيوطى عدة كتب فى الرد على اتهامات السخاوى وانصاره من بينها - كما ذكرنا - كتاب « الكاوى فى تاريخ السخاوى » يضاف الى ذلك كتب ، « الزكى عن جماعة ابن الكرنى » و « القول المجمل فى الرد على المهمل » و « الدوران الفلكى » و « الجهر بمنع البروز على شاطئ النهر » ، ومقامة تسمى المقامة على القشاش ، والمقامة اللؤلؤية و « الانتصار بالواحد القهار » . وقال عن السخاوى : « أطلق لسانه وقلمه فى شيوخة » وما ترون فى رجل ألف تاريخاً جمع فيه أكابر وأعيان ، ونصب لكل لحومهم خواناً بذكر المساوىء ، وثلب الأعراض ، جعل لحم المسلمين جملة طعامه وأدمه ، واستغرق فى أكلها أوقات فطره وصيامه ، ولم يفرق بين جليل وحقير » (٢) .

واتهم السخاوى صاحبه بأنه اختلس مؤلفاته منه حين كان يتردد عليه ، فأخذ عنه - كما يقول - الخصال الموجبة للضلال ، والأسماء النبوية ، والصلاة على النبى . . . الخ بل أخذ من مكتبة المدرسة المحمودية وغيرها كثيراً من التصانيف القديمة التى لا عهد لكثير من المعاصرين بها ، وقدم وآخر ونسبها الى نفسه ، وهول فى مقدماتها « مما يتوهم فيه الجاهل شيئاً مما لا يوفى ببعضه ، فأخذ من ابن تيمية ومن كتابه فى تحريم المنطق » (٣) .

(١) الكاوى فى تاريخ السخاوى .

(٢) ابن اياس : بدائع الزهور ج ٢ ص ٣٢٢ .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٥ .

على أننا لا نعتقد في صحة التهمة التي وجهها السخاوي للسيوطي
بإختلاس ذلك أن صاحبنا كان يذكر عادة الكتب التي اعتمد عليها في
مؤلفاته ، ولأفوال التي تردت في الموضوع الذي ينتب فيه ، ولما
اتهم السيوطي بإختلاس من غيره ، فقد وجهت التهمة نفسها لكثير من
المؤلفين الذين سبقوه مثل المقرئزي وأبي المحاسن من مؤرخي القرن
الخامس عشر الميلادي البارزين ، وإذا كان السيوطي قد لحص كتب
السابعين ، فهذا لا يعتبر إختلاسا ، لأن كتاب ذلك العصر الذي انحطت
فيه الثقافة لم يكن عندهم المقدرة على الابتكار أو التجديد ، وإنما
اقتصروا جهودهم على إختصار كتب السابقين ، ومهما يكن من أمر فلم
ينسب السيوطي مادة أخذها من غيره ، وإنما حرص على ذكر روايتها ،
وحفظ لنا بجهده هذا الكثير من الكتب ، ولولاه لضاعت ، وكان
السيوطي يعيب على الحافظ القسطلاني النقل من البيهقي من غير أن
يعزو إليه النقل منه .

وقيل أن السيوطي إختلس من تصانيف الحافظ ابن حجر ،
ونسخها على غير وجهها وادعاها لنفسه ، ومن ذلك « عين الاصابة »
و « النكت البديعيات على الموضوعات » و نشر العبير في تخريج احاديث
الشرح الكبير ، و « كشف النقاب عن الالقباب ، » و تحفة النابه في
تلخيص المنتشابه » و لباب النقول في أسباب النزول » وغير ذلك .

والأرجح أن هذه افتراءات على السيوطي لأنه بكفاءته وسعة علمه
يستطيع أن يصنف كتابا لا تقل عن هذه الكتب ، وأن استمداده اللاحق
من السابق ضروري ، وهناك فرق بين التأليف والجمع ، وبين السرقة
والإختلاس ، وللسيوطي في ذلك « الفارق بين المؤلف والسارق » (١) .
وقد زعم القسطلاني المتوفى سنة ٩٢٣ هـ أن جلال الدين السيوطي

(١) تدرييب الروى ص/ع ، ف .

كان ينقصه ويسرق من كتبه ، ويستمد منها ، وينسب النقل اليه ، ولكن الشيخ القسطلاني أدرك أن هذا الادعاء باطل وان السيوطي أمين من الناحية العلمية ، وينسب الي غيره ما استمده منه ، فأراد ان يكفر عن خطئه ، وازالة ما في خاطر شيخنا ، فمشى من القاهرة الى الروضة وكان السيوطي معتزلا عن الناس بها فوصل الي بابه ودقه ، فقيل له من أنت ، فقال أنا القسطلاني جئت اليك حافيا ليطيب خاطرک ، فقال له السيوطي قد طاب ولم يفتح له الباب • (١) •

ومما قاله السيوطي في نقاده « ومما أنعم الله به علي أن أقام لي عدوا يؤذيني ويمزق في عرضي ليكون لي أسوة بالأنبياء والأولياء •• (٢) وأعلم أنه ما كان كبير في عصر قط الا كان له عدو ، ومن السفلة أذى الأشراف لم تزل تبنتلى بالاطراف ، فكان لآدم عليه السلام ابليس ولنوح حام ولد داود جالوط وأحزابه ، وكان لسليمان صخر ولعيسى في حياته الأولى بختنصر وفي الثانية الدجال ، ولابراهيم النمرود ولموسى فرعون وكان لأشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أبو جهل • وكان لابن عمر عدو يعبث به ، كلما مر عليه ، وقد نسب عبد الله الزبير الي الرياء ، والنفاق في صلاته ، فصبوا على رأسه ماء حميما فسلخ وجهه ورأسه وهو لا يشعر فلما سلم من صلاته قال ما شأنى ، فذكروا له القصة ، فقال حسبنا الله ونعم الوكيل •

وكان لابن عباس رضى الله عنه ، نافع بن الأرواق كان يؤذيه أشد الأذى ، ويقول انه يفسر القرآن من غير علم « (٣) •

وهذه التهم التي وجهت للسيوطي باطلة في أساسها لأننا رأينا حرصه على ذكر المراجع التي ينقل منها ، واذا كانت مهمته هي تلخيص

(١) كشف الظنون ج ٢ ص ٣٦٥ •

(٢) السيوطي : التحدث بالنعمة ص ٤٧ - ٤٨ •

(٣) المصدر السابق ص ٤٩ •

الكتب أو اختصارها ، فهذه كانت طبيعة التأليف في ذلك العصر ، ولا يدهشنا كثرة مؤلفات السيوطي لأن الكثير منها كان في صفحات أو في صفحة واحدة ، أو كتاب واحد قسمه الى عدة أجزاء ، وأسمى كل جزء كتابا ، ومما لا شك فيه أن السيوطي كان عنده، الوقت الكافي لتأليف هذا العدد الكبير من الكتب ، فقد انعزل عن الناس قرابة عشرين عاما قضاها في التأليف ، كما أنه بدأ التأليف في سن مبكر في السابع عشر من العمر . ونستطيع أن نؤكد أن السيوطي من كبار المؤلفين في العربية ، وأنه ذو قدرة كبيرة على التدوين والسرعة في التأليف ، بل كان في ذلك آية اعجاب .

والحق أن السيوطي صاحب فنون وامام في كثير من العلوم ، وهو أحفظ للمتون واستنباط الاحكام الشرعية من السخاوي وله أيضا الباع الطويل في العربية والتفسير بالمأثور وجمع المتون ، والاطلاع على كثير من المؤلفات التي لم يطلع عليها علماء عصره وانتفع به في الافتاء والتأليف . (١)

شرح السيوطي في التأليف بعد عامين من مباشرته التعليم، وباكورة مؤلفاته « شرح البسمللة والاستعاذة » (٢) ألفه سنة ٨٩٢ هـ ، ثم واصل التأليف ، وبدأ أول ما بدأ في الاشتغال بدراسة اللغة والكتابة فيها ، ولقد أوضح ذلك في مقدمة « الاشباه والنظائر » حيث يقول : ان الفنون العربية على اختلاف أنواعها ، هي أول فنوني ، ومبتدأ الاخبار التي كانت في أحاديث سحري وشجوني ، طالما سهرت في تتبع شواردها عيوني ، وأسعى في تحصيل ما دثر منها سعيا حثيثا الى أن وقفت منها على الجم الغفير ، وأحطت بغالب الموجود مطالعة وتأملا بحيث لم يفتني.

(١) تدريب الراوي ص/ت .

(٢) السخاوي : الضوء اللامع ج ٤ ص ٦٩ .

منها الا النزر اليسير (١) ، وقال ان هذا الكلام ينطبق على ناليه واجتهاده وتحقيقه ، وفي كتابه « الاشباه والنظائر » ما يدل على تفنيته وابصاره في تسميم الفن وترتيب فصوله ، وتسلسل اقسامه اولا باول الى السابع من الفنون ، فالفن الأول : درس القواعد النحوية ، وسار في هذه الدراسة على طريقة الحروف الابجدية ، والفن الثاني : في الاعراب ، والفن الثالث : في كلام العرب والفن الرابع : في الفروق العلمية ، والخامس : في الأفراد والغرائب ، والسادس : في المناظرات والمجالسات والمذكرات والمراجعات والمحاورات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات ، والفن السابع : في بعض المسائل العملية الغريبة . ومثل هذا النظام جرى تأليفه في كتاب « المزهر في علوم اللغة » ثم كتاب « الاقتراح في علوم اللغة » الذي يدل على علمه وسبقه على أهل زمانه في الابداع ، فلقد وضع الأسس الأولى لهذا العلم الذي ضمته بعض الحوث الشيفة المفيدة . وعنى المستشرقون بها حتى انهم ترجموها الى لغاتهم .

ويعتبر كتابه « المزهر في علوم اللغة » من روائع كتبه، ويقع في جزءين ، الأول منها يبحث في الألفاظ اللغوية وأصلها وصححها ومتواترها ، والمرسل والمنقطع ، والضعيف والمنكر والردىء ، والثاني في أوزان الكلام وهو كتاب عظيم الأهمية للباحث اللغوى أو الناظر في فلسفة اللغة . (٢)

وللسوطى في النحو كتاب أوضح فيه بداية علم النحو يسمى « الأخبار المروية في سبب وضع العربية » ، كما صنف كتاب « البهجة المرضية » شرح فيه ألفية ابن مالك وله كتاب في النحو يسمى « الفريدة في النحو والتصريف والخط » (٣) .

(١) أنظر مقدمة الاشباه ، والنظائر .

(٢) طبع بصر سنة ١٢٨٢ هـ .

(٣) أنظر دائرة المعارف الاسلامية .

وللسيوطى مؤلفات قيمة فى التفسير ، فجمع الأحاديث التى تتناول تفسير القرآن الكريم فى كتابه « ترجمان القرآن فى تفسير المسند » وقد اختصره بإبراز المصادر الأدبية بدلا من الاسناد ، وذلك فى كتابه « الدر المنثور فى التفسير بالمأثور » ويقع فى ست مجلدات ، وهذا كتاب عظيم النفع حوى علوم القرآن التى اندثرت ، ولولاه لطفى عليها ، وضاعت فائدتها مثل باقى المعارف التى حوتها بطون الكتب ، وفقدت حين غزا المغول بغداد ، وبلغت فصوله ثمانين فصلا ، رتبها بحيث يتضمن كل فصل علما أو علمين (١) ونقحه من الأساطير وعبث الاسرائيليات .

وصنف السيوطى فى التفسير كتاب « مفحمت الاقران فى مبهمات القرآن » تناول فيه بالشرح بعض المسائل التى يجد الناس صعوبة فى فهمها ، وله ايضا كتاب « لباب التفرول فى أسباب النزول » وبحث فيه الدوافع والأسباب التى أدت الى نزول سور القرآن سورة سورة ، وكان دور السيوطى فى هذا الكتاب مكملا لشيخه المحلى جلال الدين المتوفى سنة ٨٦٤هـ / ١٤٥٩ م ، لذا عرف هذا الكتاب «تفسير الجلالين» وله فى التفسير أيضا كتاب « مجمع البحرين ومطلع البدرين » و « التخيير فى علوم التفسير » . (٢)

والسيوطى كان عالما بالحديث وفنونه ، وروى عن نفسه أنه يحفظ هاتئى ألف حديث ، وقال لو وجدت أكثر من ذلك لحفظت (٣) .

وللسيوطى كتاب قيم فى الحديث يسمى « تدريب الراوى فى شرح تقريب النواوى » يقول فى مقدمته : « فان علم الحديث رفيع القدر عظيم الفخر شريف الذكر لا يقتنى به الا كل حبر ولا يحرمه الا

(١) السيوطى : تدريب الراوى ص ٢
(٢) حاجى خليفة : كشف الطنون ج ٦ ص ٢٣٤ .
(٣) السيوطى : تدريب الراوى ج ٢ .

كل غمر ولا تغنى حماسته على مسر الدهور ، وكنت ممن عبر الى لجة
فاموسه حيث وقف غيرى بشاطئته (١) •

ولا يصلح الحديث للجان الى غير ذلك من علوم المعاني والبيان
التي لبلاغه الكتاب والحديث تبيان ، وقد الفت في كل ذلك مؤلفات
وحررت فيها قواعد ومهمات ، ولم أكن كغيرى ممن يدعى الحديث بغير
علم وقصارى أمره كثرة السماع على طلب شيخ أو عجوز غير متلفت
الى معرفة ما يحتاج المحدث اليه أن يجوز ولا مكتثر بالبحث عما يمنع
أو يجوز ثم ظن الانفراد بجمع الكتب والضن بها على طلابها ••• ان
سئل عن مسألة في المصطلح لم يهتد الى جوابها أو عرضت له مسألة
في دينه لم يعرف خطأها من صوابها أو تلفظ بكلمة من الحديث لم يأمن
أن يزل في اعرابها فصار بذلك ضحكه للناظرين وهزأة
للساخرين •••••» (٢)

وللسيوطى في الحديث كتاب « جامع المسانيد ، واختصره في
كتاب الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير » ويقول فيه « هذا
كتاب اودعت فيه من الكلم النبوية ألوفاً ومن الحكم المصطفوية سنونفاً ،
اقتضرت فيه على الاحاديث الوجيزة ••• وصننته عما تفرد به
وضاع •• » (٣) •

ومن أهم كتب السيوطى « النقاية » وهو موسوعة في أربعة عشر
تأ ، يسمى مجمرها « الاصول المهمة في علوم جبه » تبحث في
التفسير وأصول الدين والتشريع والبديع والبيان والمعاني والخط ،
والصرف والنحو والفرائض وأصول الفقه والحديث والتصرف والطب
ولها شرح اسمه « اتمام الدرار » •

(١) المصدر السابق ص ٣ •

(٢) المصدر السابق ص ٣ •

(٣) السيوطى • الجامع الصغير ص ٢ •

وعنى السيوطى كذلك بالبديع وله فى ذلك مصنفات منها كتاب « النظم البديع فى مدح الشفيق » وهو بديعية ، وله عليه شرح يسمى « الجمع والتفريق » وله رسالة « فتح الجليل للعبء الذليل » تتضمن ١٢٠ نوعا من أنواع البديع فى آية واحدة من القرآن (١) .

يقول السيوطى : فقد وقع الكلام فى قوله تعالى (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات الى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور الى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) .

قال قررت فيها بضعة عشر نوعا من الأنواع البديعية ثم وقع التأمل فيها بعد ذلك ففتح الله بزيادة على ذلك حتى جاوزت الأربعين ثم قدحت الفكر ، فلم تزل تستخرج وتنمو الى أن وصلت بحمد الله مائة وعشرين نوعا ، فقد أردت تدوينها فى هذه الكراسة ليستفيد بها من له غرض فى الوقوف على أسرار التنزيل راجيا من الله الهداية الى أقوم سبيل ، ثم فى الآية مما يتعلق بالمعاني الاتيان بالجملة الاسمية فى أربع جمل لدلالاتها على الثبوت والاستقرار ، وكذلك بالفعلية فى أربع جمل لان الايمان والكفر والاخراج مما يحدث ويتجدد (٢) .

ثم فى الآية من علم الاصول الدين اثبات التوحيد به وحده ونفى كل ما يعبد من دونه ، وفيها أنه لا وساطة بين المؤمن والكافر ولا بين الضلال والهدى خلافا للمعتزلة وفيها اثبات الكسب لهم فى آمنوا وكفروا خلافا للجبرية ، وفيها اثبات خلق الافعال له فى يخرجهم خلافا لمن خالف فى ذلك ، وفيها من علم أصول الفقه جواز استعمال اللفظ فى حقيقته ومجازه ، وفيها من علم الفقه ، أنه لا يرث المسلم الكافر ولا عكسه ، وفيها جواز هجرهم وؤمهم ، وفيها من علم النحو بعض القواعد

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون ج ٦ ص ٢٣٤ .

(٢) فتح الجليل للعبء الذليل .

الهامة ، وفي الآية من علم السلوك الانقطاع الى الله وحده واتخاذها وليا
يعتصم به ويلجأ اليه . (١)

درس السيوطى علوم البلاغة مثل المعانى والبيان ونظريات
العلماء فيها وآرائهم ازاءها والأسلوب الذى لم يتغير والأمثال التى لم
تجدد حتى فى شكل شاحب هزيل فابتكر ببراغته كتاب « عقود الجمان
فى علم المعانى والبيان » جمع فيه كل الأبواب التى تشتمل عليها هذه
العلوم ، واستطاع أن يعالج فى كتبه كثيرا من المسائل شأنه فى ذلك
شأن العالم المجدد (٢)

وللسيوطى مؤلفات كثيرة فى التاريخ من بينها « حسن المحاضرة »
و « تاريخ الخلفاء » و « الشماريخ فى التاريخ » و « طبقات الحفاظ »
و « طبقات اللغويين والنحاة » و « طبقات الفقهاء الشافعية » و « بغية
الوعاء » و « تاريخ أسيوط » و « كوكب الروضة » وهو تاريخ
لجزيرة الروضة ، وأخذ فيه عن المقرئى كثيرا .

وكتاب تاريخ السلطان الأشرف قايتباى ، وكتاب بدائع الزهور فى
وقائع الدهور « وهو تاريخ عام ، وكتاب العمر ، وهو ذيل على كتاب
أبناء العمر لابن حجر ، وكتاب المنتقى لتاريخ ابن عساكر ، وللسيوطى
مؤلف فى جامع عمرو بن العاص ، ومؤلف فى جامع ابن طولون وله
كتاب « الصحيفة بمناقب الامام ابى حنيفة » و « تزيين المماليك بمناقب
الامام مالك » (٣)

ويختلف كتاب حسن المحاضرة عن كتاب بغية الوعاء ، فى الأول
سار على تأليف العصور الوسطى ، أما الثانى فقد ترجم للعلماء على

(١) المصدر السابق .

(٢) الطريحي : زعماء أسيوط ص ١٩ - ٢١ .

(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون ح ٦ ص ٦٧٩ .

طريقته المحببة ، طريقة حروف المعجم وأول ما ابتدأ في كتابه « حسن المحاضرة » البسملة ثم الحمد ثم ذكر من سبقه من الكتاب عن فتوح مصر ما يقرب من ثلاثين كتابا قبل تأليف الكتاب . (١)

ويقع كتاب « حسن المحاضرة بأخبار مصر والقاهرة » في جزئين ، وهو تاريخ البلاد المصرية والقاهرة حاضرتها مع بعض الفصول الاضافية في النظم المملوكية وأساليبها ، وطبقات العلماء والصوفية في مصر (٢) . أما كتاب تاريخ الخلفاء فتحدث فيه عن الدول التي تعاقبت منذ بدء الخليقة ، وأبرز فيه سير الخلفاء وأعمالهم في ايجاز . على أن كتاب السماريخ في علم التاريخ رسالة صغيرة في أصل اتفاق المسلمين على جعل الهجرة النبوية مبدأ التاريخ الاسلامي ، واجمعهم على اعتبارهم المحرم أول الشهور مع شرح وتعليل لأسماء الشهور الهجرية ، وأشهر كتب السيوطي التاريخية في التراجم والطبقات ، كتاب « نظم العقبان في أعيان الأعيان » و « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » (٣) .

ويريز الاستاذ فيليب حتى اهمية كتاب نظم العقبان الذي نشره ، ويقول أهمية الكتاب في أنه جمع لنا مائتي سيرة من كبار أعيان العالم الاسلامي من رجال ونساء عاشوا حوالى القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر الميلادى) في مصر وسورية والحجاز والعراق والاندلس من سلاطين عشائين ومغول وغيرهم وقضاة ومقرئين ومحدثين وشعراء وفلكيين ورجال السياسة ومما يجعل لهذه التراجم أهمية خاصة أن أكثرهم ممن عاصرهم السيوطي بنفسه والطريقة التي سار عليها المؤلف في وضع التراجم أنه ذكر بعد اسم المترجم ولقبه وكنيته سنة ميلاده واسماء شيوخه ومصنفاته وسنة وفاته . وكان بعض المترجمين لم يزل

(١) أنظر الكتاب .

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ .

(٣) محمد مصطفي زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادى ص ٦٤ -

حيا عند تصنيف الكتاب •• وما يزيد في أهمية الكتاب أن بعض المترجمين لا نجد أثرا لسيرهم في غير هذا المصدر فضلا عن ذلك فإن هذا الكتاب مرآة تتجلى فيها الأحوال الاجتماعية والأدبية في أواخر عصر المماليك الذى كان عصر جمود عقلى وسياسى (١) •

انتشرت مؤلفات السيوطى فى سائر أنحاء العالم الاسلامى، وأقبل الطلاب والدارسون على دراستها، وقد أذن السيوطى لتلميذه الداودى برواية مؤلفاته، واشتهرت مصنفاته فى الحجاز والشام واليمن والهند والتكرور، وبعض كتبه مفقود، والبعض الآخر لا يزال مخطوطا، وكثير من مصنفاته طبع ونشر فى كثير من البلدان الاسلامية، وقد شغلت مؤلفات شيخنا السيوطى فراغا كبيرا فى المكتبة الاسلامية. خصوصا فى العصر الذى أعقب وفاته - أقصد العصر العثمانى - حيث انحط التأليف أو انعدم، وفى جامعاتنا الآن يتناول طلاب الدراسات الدينية واللغوية بصفة خاصة مؤلفات السيوطى بالبحث والدرس •

وصفوة القول أن السيوطى عالم كبير، وهب حياته للعلم والتأليف بشغف منقطع النظير، ولم يبغ من وراء ذلك مغنما ولا نقعا، وإنما أراد أن يشبع رغبة ملحة فى نفسه أفنى فيها عمره الا وهى الدراسة والبحث • وكان السيوطى متعقفا طوال حياته عن اموال وهبات الأمراء، وكانوا يأتون لزيارته، ويعرضون عليه أعطيائهم، فيردها (٢)، وأرسل اليه السلطان الغورى مرة خصيا وألف دينار، فرد الدنانير، وأخذ الخصى وأعتقه وقال لرسول السلطان: لاتعد تأئينا قط بهدية، فإن الله أغنانا عن مثل ذلك (٣) •

توفى السيوطى سنة ٩١١ هـ / ١٥٠٥ م بعد مرض استمر سبعة

(١) مقدمة كتاب نظم المعيان •

(٢) الزمر ص ٦٦٣ •

(٣) تدريب الراوى ص/ث/خ •

أيام ، وكان في حوالى اثنائية والستين من العمر ، ودفن بحوش قوصون خارج باب القرافة ، ودلت زمن السلطان العورى ، وكان زمانه زمان جور وظلم ، ولكن العورى لم يتعرض لتركته ، وقال : لهم يقبل الشيخ منا تسيئا في حياته ، فلا تتعرض لتركته (١) .

عرف الناس فضل السيوطى ، فكان يقصد ضريحه العلماء والأمراء من سائر الافطار العربية للتبرك به ، وكان الناس يقيمون حضرة له كل اسبوع ، تم اقتصر على مولد له في شعبان في مدينة أسيوط ، علما بأنه مدفون في مصر ، وليس للسيوطى جلال الدين صلة بهذا الضريح الذى في المسجد المسمى بمسجد سيدى جلال الكائن بأسيوط ولدن هذا الضريح لأحد أجداده ، وقد ذكر السيوطى ذلك في كتابه « حسن المحاضرة » في ترجمته لنفسه ، وقال : ان احد اجداده بناه بأسيوط ، ووقف عليه أوقافا ، فيكون الضريح الذى في هذا المسجد هو لصاحبه الذى بناه أو لأحد ذريته ، ثم بمرور الزمن نسب الى السيوطى نفسه لشهرته (٢) . ومما يجدر ذكره أن بأسيوط الآن أسرة كبيرة تسمى الجلالين ومقرهم حى الخضرية وغيره من انحاء أسيوط ، ويعرف كل فرد منهم بالجلالى .

(١) تدريب الراى ص/ث/خ .

(٢) رسالة تيمور فى قبر السيوطى ص ٢٥ .

دراسة نقدية لكتاب

”حسن المحاضرة“ للسيوطي

للأستاذة الدكتورة سيدة إسماعيل كاشف

أستاذة التاريخ الإسلامي ورئيسة قسم التاريخ

بجامعة عين شمس

ولد المؤرخ والعالم والامام أبو الفضل جلال الدين عبد الرحمن ابن محمد السيوطي الشافعي في سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) في القاهرة في عصر الماليك ، وظهر نبوغه في الدرس والتحصيل منذ طفولته . وقد رجم السيوطي لنفسه في كتابه « حسن المحاضرة » (١) واعتبر نفسه من الأئمة المجتهدين ، وذكر انه ترجم لنفسه اقتداء بالمحدثين قبله « فقل أن ألفت أحد منهم تاريخا الا وذكر ترجمته فيه ، وممن وقع له ذلك الامام عبد الغافر الفارسي في تاريخ نيسابور ، وياقوت الحموي في معجم الادباء ، ولسان الدين ابن الخطيب في تاريخ غرناطة ، والحافظ تقي الدين الفارسي في تاريخ مكة ، والحافظ ابو الفضل ابن حجر في قضاة مصر ، وابو شامة في الروضتين » (٢) وفي اعتقادنا أن كتاب حسن المحاضرة للسيوطي كان من آخر الكتب التي ألفها وصنفها السيوطي ، اذ انه أورد في ترجمته في هذا الكتاب أسماء مصنفاته في مختلف العلوم والفنون ، والمعروفة لدينا الآن سواء أكانت مطبوعة أو مخطوطة ، أو تلك التي لم نعر عليها بعد . ويؤكد قولنا

(١) السيوطي . حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ - ١٦١ .
(مطبعة الموسعات - القاهرة ١٣٣١ هـ) .
(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٥ .

هذا أنه هو نفسه يقول في ترجمته * * «وقد أذف الرحيل، وبدأ الشيب
 وذهب أطيب العمر * » (١) ولهذا نرجح أن تصنيف كتاب حسن
 المحاضرة كان في أواخر القرن التاسع الهجري أو في مطلع القرن العاشر
 الهجري « أواخر القرن الخامس عشر الميلادي » أى قبيل وفاة السيوطي
 بأكثر من عشر سنوات * وظهر في هذا الكتاب تمنيات السيوطي بأن
 يكون المبعوث على رأس المائة التاسعة الذي يجدد للأمة دينها ، فقد
 ذكر في ترجمته لشيخ الاسلام سراج الدين عمر البلقيني ، الذي توفي
 سنة ٨٠٥ هـ ، انه مجتهد عصره وعالم المائة الثامنة ، (٢) وذكر انه سمع
 « ان الله يبعث على رأس كل مائة لهذه الأمة من يجدد لها دينها * * *
 ومن اللطائف ان شرط المبعوثين على رءوس القرون مصريون :
 عمر بن العزيز في الأولى ، والشافعي في الثانية ، وابن دقيق العيد في
 السابعة ، والبلقيني في الثامنة ، وعسى أن يكون المبعوث على رأس المائة
 التاسعة من أهل مصر * » (٣) ثم نرى السيوطي يترجم لنفسه بعد
 ترجمته للبلقيني ، ثم يقول : « وقد كملت عندي الآن آلات الاجتهاد
 بحمد الله تعالى * » (٤)

والحق أن السيوطي أشار الى مسألة اجتهاده ومبعوثيته اشارات
 خفيفة في بعض كتبه ولمح الى ذلك تلميحا صريحا في كتب أخرى * وحين
 ترجم لنفسه في حسن المحاضرة أشار الى تفوقه ونوعه في الفقه والتفسير
 والحديث ، والنحو ، واللغة ، والمعاني والبيان ، والبديع * والتاريخ
 والأدب والجغرافيا ، الطب ، الفلسفة ، كما وضح بتفصيل قصة حياته
 العلمية التي بدأت بحفظ القرآن وهو دون ثمان سنين * ووضح

-
- (١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ *
 (٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٠ *
 (٣) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥١ *
 (٤) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٧ *

السيوطى ان حياته العلمية الغنية ونتاجه الغزير كان نتيجة لدراسته العلمية المتواصلة ، ودراسته على كثير من شيوخ عصره ، وسفره الى انحاء البلاد المصرية ، والى خارج الديار المصرية ، فسافر الى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكروير . وقرر السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة أن مؤلفاته بلغت « الى الان ثلاثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه » (١) وعد له المستشرق بروكلمان ٤١٥ مصنفا ، أما المستشرق فلوجل فذكر له ٥٦٠ مصنفا . وعلى أية حال فان السيوطى ترجم لنفسه كما ترجم له تلاميذه والمؤرخون المعاصرون له والمتأخرون ، وترجم له المحدثون . ولم يتواضع السيوطى فى الكلام عن مركزه العلمى وما أنتجه من حيث الكم والكيف .

أما مؤلفات السيوطى فى التاريخ فهى قليلة بالنسبة لمؤلفاته فى سائر العلوم الأخرى . ومن هذه المؤلفات التاريخية كتاب « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » . ونلاحظ أن معظم مؤلفات السيوطى فى التاريخ وفى سائر العلوم والفنون كانت أبحاثا صغيرة (٢) ، كما أن معظم مؤلفاته الكبيرة منها والصغيرة كانت مختصرات لكتب سابقة ، أو شرحا لها ، أو تفسيرا ، أو تكملة ، مثل مختصر معجم البلدان لياقوت ، ومثل مختصر تهذيب الأسماء للنوى ، ومثل تحفة المذاكر فى المنتقى من تاريخ بن عساكر ، ومثل مختصر شفاء العليل فى ذم صاحب الخليل . ونلاحظ أن السيوطى نشر كتابه « در السحابة فىمن دخل مصر من الصحابة » ضمن كتابه الكبير « حسن المحاضرة » وهذا الكتاب يقع فى ست وثلاثين صفحة من كتاب حسن المحاضرة (٣) . ويقول السيوطى بهذه المناسبة ان الامام محمد بن الربيع

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٥٧ .

(٢) أنظر مجموعة مؤلفات السيوطى الصغرى ، بدار الكتب المصرية تحت رقم ٦٨

مجاميع .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ - ١١٧ .

الجبزى صاحب الامام الشافعى - ألف كتابا فيمن دخل مصر من الصحابة فى مجلد ، فأورد فيه مائة وثيفا وأربعين رجلا ، وأورد فيه أحاديثهم وما رواه أهل مصر ، ويذكر السيوطى أنه فاته جماعة لم يذكرهم ذكر بعضهم ابن عبد الحكم فى كتابه فتوح مصر ، وذكر بعضهم ابن يونس فى تاريخ مصر . وذكر بعضهم بن سعد فى طبقاته . ولهذا السبب يقول السيوطى : «وقد أردت أن الخص كتاب محمد بن الربيع الجبزى وأضم اليه ما فاته مرفوعا عليه صورة كوارثه على حروف المعجم ، وأزيد التراجم فاذا ذكر الاسم والكنية واللقب واسم الأب والجد والنسب والسن والوفاة وما تفرد الصحابى بروايته وقد أوردنا درة أو غريبة أو كرامة ، وسميته در الصحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » . (١)

أما كتابه « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » فقد طبع فى جزئين ، طبع حجر فى مصر سنة ١٨٦٠ م (١٢٢٧ هـ) ، وطبع فى جزئين ، طبع حروف فى مطبعة الوطن العربى فى القاهرة سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢ م) ، ومطبعة الموسوعات فى مصر سنة ١٣٢١ هـ (١٩٠٣ م) ، وفى مطبعة السعادة فى مصر سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦ م) . كذلك طبع من كتاب حسن المحاضرة جزء صغير مع ترجمة لاتينية فى خمسين صفحة فى أويسالا سنة ١٨٣٤ م باعثناء ترنبرج . أما الطبعة التى اعتمدنا عليها فى دراستنا النقدية لكتاب حسن المحاضرة فهى طبعة مطبعة الموسوعات فى مصر سنة ١٣٢١ هـ . وقد ذكر السيوطى أنه طالع كتابا شتى ليخرج كتاب « حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة » ، وعدد هذه الكتب ثلاثين كتابا مثل فتوح مصر لابن عبد الحكم . وفضائل مصر للكندى ، وتاريخ مصر لابن زولاق ، والخطط للقضاعى ، والخطط للمقريزى ، وتاريخ الاسلام للذهبى .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٨١ .

والحق أن القارئ لكتاب حسن المحاضرة يتبين له سعة اطلاع السيوطي ودقته وتحسنه لكتابة تاريخ مصر طوال العصور التاريخية .
ومما يزيد في قيمة هذا الكتاب أن بعض مصادره لم تصل إلينا إلا عن طريق كتاب آخرين مثل خطط القضاء وبعضها لم يصل إلينا - فيما نعلم الآن - مثل سجع الهديل في أخبار النيل لأحمد بن يوسف التيفاشي ، والسكردان لابن أبي حجلة (١) . كذلك يشير السيوطي إلى مؤلفات لم تصل إلينا ولم نسمع بها إلا منه ، فهو حين يحدثنا عن تقي الدين السبكي والد تاج الدين السبكي صاحب طبقات الشافعية ، والمتوفى سنة ٧٥٦ هـ يذكر كثيرا من مؤلفاته التي لم تصلنا لأن في أحكام التشريع الإسلامي والتي ترفعه إلى رتبة الاجتهاد ، بل إن بعض هذه المصنفات تتعلق بأحكام أهل الذمة مثل « كشف الدسائس في هدم الكنائس » ، « وكشف الغمة في ميراث أهل الذمة » (٢) .
والحق أننا لا نكاد نقرأ رواية من روايات كتاب «حسن المحاضرة» دون أن يسندها السيوطي إلى صاحبها على طريقة الإسناد في الحديث ، أو دون أن يرجعها إلى المصدر أو المؤلف الذي استقى منه .

وكتاب « حسن المحاضرة » في نظرنا هو دائرة معارف لمصر الإسلامية اتبع السيوطي في تأليفه المنهج العلمي المعروف في كتابة التاريخ في العصر الإسلامي ، فقد نقل كثيرا من مؤلفات الذين عاصروه والذين سبقوه ، وكان النقل مألوفاً في العصور الوسطى ، وربما دعا إلى ذلك قلة النسخ التي كانت تكتب من المؤلفات وعدم انتشارها انتشاراً كافياً بسبب غلاء الورق وعدم اختراع الطباعة .
كذلك كان المؤرخون يميلون إلى ذكر الأساطير العجيبة والخرافات والأشياء الخارقة للعادة ، كما كانوا يبالغون في الإحصاءات المختلفة

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ .

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

وكانت هذه المبالغات ظاهرة بوجه خاص حين يتحدثون عن عصور ما قبل الاسلام .

ولا يترك السيوطى الحكم والرأى لقارىء كتابه حسن المحاضرة، واما يذكر على عادة بعض مؤرخى مصر الاسلامية، وغيرهم من مؤرخى العصور الوسطى عامة، سبب تأليف هذا الكتاب فيقول : « هذا كتاب سميته حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة أوردت فيه فوائد سننية، وغرائب مستعذبه مرضية، تصلح لمسامرة الجليس، وتكون للوحيد نعم الانيس . . . » (١)

والحق أن القارىء لكتاب حسن المحاضرة لا يمل قراءته لتنوع فصوله ولأن المؤلف يعمد فى كثير من الأحيان الى الاختصار المفيد . ونلاحظ أن السيوطى يلتزم بالعناوين التى يوردها ولا يستطرد كثيرا عنى العكس من معظم المؤرخين فى ديار الاسلام . الذين كانوا لا يتقيدون بالعناوين التى يضعونها وانما يخرجون عن الموضوعات الرئيسية الى موضوعات جانبية كثيرة حتى ان الاستطراد يكاد يكون سمة من سمات التأليف فى العصور الوسطى، أما أسلوب السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة، فهو أسلوب سهل ممتع، وينعكس فى هذا الكتاب دراسة السيوطى وتبحره فى علوم اللغة فهو يهتم بالنحو وبالأسلوب وباللغة، كما أنه يورد الأشعار التى قيلت فى مناسبات المدح أو الثناء أو الرثاء . ووضح لنا أن السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة اهتم باظهار أهمية مصر منذ العصور القديمة فيشير الى ما ذكر فى فضائل مصر فى القرآن الكريم، (وأن مصر وردت فى القرآن الكريم بوصفها « ربوة ذات قرار ومعين » (٢)) وأشار إليها أيضا فى القرآن الكريم بكلمة «الأرض»، بل ان مصر سميت « الأرض »

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢ .

في مواضع كثيرة من القرآن الكريم (١) * وذكر السيوطي أن «المدينة»
في بعض الآيات القرآنية يراد بها « منف » عاصمة مصر القديمة
مثل قوله تعالى : (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى) (٢) *

كذلك حاول السيوطي جمع الأحاديث النبوية الشريفة التي ورد
فيها ذكر مصر ، وأتى بالأحاديث التي أئرت عن النبي عليه الصلاة
والسلام في التوصية بقبط مصر خيرا ، ومن هذه الأحاديث حديث
الرسول الكريم لقومه : « ان الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا
بقبطها خيرا فان لكم منهم صهرا وذمة » (٣) *

ثم يوضح السيوطي مسألة المصاهرة بين القبط والعرب فيقول :
« صاهر الى القبط من الأنبياء ثلاث : ابراهيم عليه الصلاة والسلام
تسرى هاجر ، ويوسف عليه الصلاة والسلام تزوج بنت صاحب عين
شمس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم تسرى مارية » (٤) *

وأورد السيوطي ما روى عن الصحابة والتابعين في فضائل مصر
وفي خيراتها وفي أهمية موقعها الجغرافي والحربي وفي كرم أهلها
وسماحتهم ، وممن روى عنهم في هذا الشأن ابو بكر الصديق الخليفة
الأول في الاسلام ، وعمر بن الخطاب الخليفة الثاني في الاسلام ،
وعبد الله بن عمرو بن العاص مؤسس مدرسة مصر الدينية عقب الفتح
العربي لها ، وعبد الله بن لهيعة فقيه مصر ومحدثها في القرن الثاني
الهجرى (الثامن الميلادى) (٥) *

وقد اهتم السيوطي اهتماما كبيرا بابرار أهمية تاريخ مصر

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣ *

(٢) انظر : السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣ *

(٣) فيما يختص بالأحاديث النبوية التي ورد فيها ذكر مصر ، انظر : السيوطي :

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣ *

(٥) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥ - ١٠ *

الفرعونى خاصة وتاريخها القديم عامة فحدثنا عن أهرام الجيزة ودهشور وميدوم ، وعن كنوز الفراعنة ، وأورد مختلف القصص الخاصة باعجاب المسلمين بعظمة آثار الفراعنة ومحاولة بعض أولى الأمر فى مصر الاسلامية فتح الاهرام أو استخدام حجارة منها . كذلك أورد السيوطى ما قيل من أشعار فى الاهرام والآثار القديمة (١) .

كذلك يطيل السيوطى الكلام عن الاسكندرية وآثارها ومنها المنارة التى حظيت بعناية السلطان الظاهر بيبرس ، وعمود السوارى، والمستان ، والمعب الذى قيل ان عمرو بن العاص دخله حين أتى الى مصر لتجارة فى زمن الجاهلية (٢) . وقد أتى السيوطى بالقصة التى أوردها بن عبد الحكم ، وهى أن عمرو بن العاص - بطل فتح مصر - زار الاسكندرية فى الجاهلية وأعجب بعظمة المدينة وعمارتها وجودة بنائها وكثرة أهلها وما بها من الأموال والخير ، تسترسل القصة التاريخية فتقول انه وافق دخول عمرو الاسكندرية عيدا عظيما يجتمع فيه الملوك والعظماء ويترامون بكره من الذهب يلتقونها بأكمهم وكانوا يعتقدون أنه اذا استقرت الكرة فى كم أحد لم يمت حتى يملك مصر ، وتذكر القصة أنه حين جلس عمرو فى ذلك المجلس رمى رجل منهم بالكرة فأقبلت تهوى حتى وقعت فى كم عمرو بن العاص فعجب القوم وقالوا ان الكرة لم تكذبهم الا هذه المرة وقالوا : « أترى هذا الاعرابى يملكنا ، هذا ما لا يكون كذلك يقول السيوطى عن الاسكندرية » فانها « مدينة على مدينة على مدينة ثلاث طبقات ٠٠٠ » (٣) .

والحق ان ما أورده السيوطى عن تاريخ مصر القديم وآثارها

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٢٦ - ٤٠ .

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢ - ٤٥ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٥ - ٤٧ . وابن عبد الحكم : فتوح مصر

وأخبارها ص ٥٠ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة سنة ١٩١٤ م) .

(٤) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٢ .

يستحق دراسة علماء الآثار والمصريات ، ومطابقة التاريخ المذكور بالبحوث الأثرية والتاريخية العلمية الحديثة .

أما بخصوص مدينة الاسكندرية في العصر الاسلامى فان السيوطى كان له فضل كبير في ابراز أهمية مدرسة الاسكندرية الدينية منذ فجر الاسلام في مصر . والمعروف أن الاسكندرية كانت زمن الفتح العربى من أهم مراكز الثقافة اليونانية الرومانية ، لكن سرعان ما ازدهرت الثقافة العربية الاسلامية فيها ولم يمض على الفتح العربى لـ مصر قرنان من الزمان (١) . فكانت الاسكندرية منذ القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) مركزا ثقافيا عربيا مشعا ، وكانت ملتقى للفقهاء المالكية المصريين الذين نشروا مذهب الامام مالك في مصر . ويذكر المقرئى أن « أول من قدم بعلم مالك الى مصر عبد الرحيم ابن خالد بن يزيد ابن يحيى مولى جمح ، وكان فقيها روى عنه الليث وابن وهب ورشيد ابن سعد وتوفى بالاسكندرية سنة ١٦٣ هـ ، ثم نشره بمصر عبد الرحمن ابن القاسم فاشتهر مذهب مالك بمصر أكثر من مذهب أبى حنيفة لتوفر أصحاب مالك بمصر ، ولم يكن مذهب أبى حنيفة رحمه الله يعرف بمصر » (٢) .

ويبرز السيوطى أهمية مدرسة الاسكندرية الدينية منذ الفتح العربى حتى زمانه وذلك بذكر مشاهير الصحابة والتابعين ، والطبقات التى تليهم ، والائمة المجتهدين ، الذين عاشوا في الاسكندرية والذين أخذ عنهم العلماء والفقهاء في مصر وفي غيرها من بلدان العالم الاسلامى . ونذكر على سبيل المثال وليس الحصر ، علقمة بن يزيد المرادى ثم الغطيفى الصحابى الذى شهد فتح مصر وولى الاسكندرية زمن معاوية

(١) : د : سيدة كاشف : تعريب مجتمع الاسكندرية (ضمن كتاب مجتمع الاسكندرية عبر الصور) ص ٢٠٣ - ٢٠٥ (مطبعة جامعة الاسكندرية ١٩٧٥ م) .
(٢) المقرئى : الخطوط ج ٢ ص ٣٣٤ (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) .

ابن أبى سفيان (١) * ومن الصحابة الذين شهدوا فتح مصر وروى عنهم الأحاديث ، المستورد بن سلامة بن عمرو الفهري الذى توفى بالاسكندرية سنة ٤٥ هـ (٢) * ومن مشاهير التابعين فى الاسكندرية طلحة بن ابى سعيد الاسكندراني ، أبو عبد الملك المصرى وقد أخذ عنه الليث بن سعد وابن وهب (٣) *

ومن التابعين الذين روى الحديث العلاء بن كثير الاسكندراني مولى قريش توفى بالاسكندرية سنة ١٤٤ هـ (٤) * ومن مشاهير اتباع التابعين الذين خرج لهم أصحاب الكتب الستة فى الحديث ضمام ابن اسماعيل المصرى الذى توفى بالاسكندرية سنة ١٨٥ هـ (٥) * والمعروف أن أسرة المؤرخ المصرى ابى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ابن عبد الحكم عاشت فى الاسكندرية قبل أن يستقر المقام بها فى مدينة القسطنطينية عاصمة مصر * فقد سكن عبد الحكم الاسكندرية وتوفى فيها فى سنة ١٥٤ هـ ، ولد لعبد الحكم ابنه عبد الله والد بن عبد الحكم المؤرخ * وكان عبد الحكم - جد عبد الرحمن بن عبد الحكم المؤرخ - معاصرا للإمام مالك ، وتفقه عبد الحكم على مذهب الامام مالك فى الاسكندرية وتوفى بالاسكندرية سنة ١٧١ هـ (٦) * واشتهر من فقهاء المالكية فى الاسكندرية ، طايب بن كامل اللخمي ، الذى كان من كبار أصحاب مالك ، عاش بالاسكندرية وروى عنه بن القاسم وابن وهب ، وتفقه عنه بن القاسم قبل رحلته الى مالك ، ومات طلاب فى حياة مالك

(١) السوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٠٤ *

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٠٩ *

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٤ *

(٤) السوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٢٥ *

(٥) المرجع السابق ص ١٢٦ *

(٦) أنظر : د . سده كامف . تريب مجتمع الاسكندرية ص : ٢ *

بالاسكندرية سنة ١٧٣ هـ (١) ومن فهاء المالكية في الاسكندرية سعيد بن عبد الله بن اسعد المعافري المصري ، كان من كبار اصحاب مالك وبو في بالاسكندرية سنة ١٧٣ هـ (٢) . وان كنا بصدد مدرسة الاسكندرية الدينية العلمية فان السيوطي نجح في اظهار قوة ونشاط الحركة العلمية الدينية في مصر بصفه عامة وذلك منذ دخولها في الفلك العربي الاسلامي وطوال العصور الاسلامية . واهتم السيوطي بابراز تفرق المصريين في الدراسات الفقهية وفي العلوم الدينية وكيف كان المصريون اساتذة لعلماء المشرق والمغرب . وذكر السيوطي مشاهير اتباع التابعين المصريين الذين خرج لهم أصحاب الكتب الستة . واستغرق الكلام على علماء مصر وفقهائها جزءا كبيرا من كتاب حسن المناظرة فجاءت تراجمهم في كتابه « در السحابة فيمن دخل مصر من الصحابة » والذي اشتمل على ست وثلاثين صفحة من كتاب حسن المناظرة كما ذكرنا سابقا (٣) . ثم كتب السيوطي فصلا أسماه « ذكر من كان بمصر من مشاهير التابعين الذين رووا الحديث » وذلك في سبع صفحات (٤) . ثم ذكر « طبقة أخرى أصغر من التي قبلها » في ثلاث صفحات (٥) . وبعد ذلك ذكر « مشاهير اتباع التابعين الذين خرج لهم أصحاب الكتب الستة من أهل مصر » في صفحتين (٦) ثم ذكر الطبقات التي تلي هذه الطبقة في أربع صفحات (٧) . وبعد ذلك ذكر السيوطي « من كان بمصر من الأئمة المجتهدين » في ثلاثين صفحة تضمنت ترجمة حياته باعتباره من الأئمة المجتهدين (٨) . ثم ذكر

-
- (١) السيوطي : حسن المناظرة ج ١ ص ١٣٥ .
(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٢١٠ .
(٣) السيوطي : حسن المناظرة ج ١ ص ٨١ - ١١٧ .
(٤) المرجع السابق ج ١ ص ١١٧ - ١٢٣ .
(٥) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٣ - ١٢٦ .
(٦) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٦ - ١٢٨ .
(٧) المرجع السابق ج ١ ص ١٢٨ - ١٣٢ .
(٨) المرجع السابق ج ١ ص ١٣٢ - ١٦١ .

السيوطى من كان بمصر من حفاظ الحديث ونقاده ، ومن كان بها من المحدثين المفردين بعلو الاسناد ، وذلك فى خمس وعشرين صفحة (١) * وأردف السيوطى ذلك بذكر من كان بمصر من الفقهاء الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، وأئمة الفقهاء الحنابلة وذلك فى ست وأربعين صفحة (٢) * ثم ذكر السيوطى من كان بمصر من أئمة القراءات فى اثنتا عشرة صفحة (٣) *

والحق ان السيوطى نجح نجاحا كبيرا فى الترجمة لعلماء مصر الاسلامية والتعريف بنشاطهم العلمى وذلك منذ فجر الاسلام فى مصر . ولا شك أن ذلك الاهتمام يعكس دراسات السيوطى وتفوقه فى الدراسات الفقهية وغيرها من الدراسات *

ولم يقتصر السيوطى على اظهار تفوق مصر العلمى فى النواحي الفقهية والدينية بل عرض أيضا لتفوقها فى الدراسات النحوية واللغوية كما عرض لتفوقها فى العلوم الطبيعية والرياضية والأدبية ، أى فى الطب والفلك والفلسفة والتاريخ وسائر العلوم ، ولم يقتصر حديثه على العصر الاسلامى فقط وانما شمل تفوق مصر العلمى منذ العصور القديمة (٤) *

وعلى الرغم من أن السيوطى توفى قبيل الغزو العثمانى لمصر بنحو اثنتى عشرة سنة الا أنه يهتم اهتماما كبيرا بذكر حوادث فتح مصر على يد العرب ، وبذكر صلة شبه جزيرة العرب بمصر قبل الفتح وبعده ، ولم يغفل السيوطى ذكر كتاب الرسول عليه الصلاة والسلام الى المقوقس وهدية المقوقس الى النبى الكريم (٥) * والمعروف أن الدولة

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٦١ - ١٨٥ *

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٨٥ - ٢٣٠ *

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٢٣٠ - ٢٤٣ *

(٤) أنظر مثلا : السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٩ ، ص ٢٥٤ - ٢٧٧ *

(٥) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٤٥ - ٦٥ *

البيزنطية اتبعت سياسة عدم تجنيد المصريين أو القبط في جيش مصر، وكانت هذه السياسة استمرارا لسياسة الرومان حين احتلوا البلاد . وظل الاعتقاد سائدا بين المؤرخين - مسلمين وغير مسلمين ، عرب ومستشرقين ، قدماء ومحدثين - أن مواجهة العرب في مصر اقتضت على الروم أى البيزنطيين ، وأن المصريين كانوا يعيدون عن الجيش وعن الاشتباك مع العرب حين أتوا لفتح مصر . وقد دلت أوراق البردى التى كشفت فى العصر الحديث أن معظم الجند فى جيش مصر قبيل الفتح العربى لها كانوا من القبط . وكان هؤلاء الجند من المصريون يجندون اما بالاقتراع أو بالتطوع أو بالوراثة (١) . ولعل وجود مصريين كثيرين فى جيش البيزنطيين المدافع عن مصر كان من أسباب فشله فى حمايتها من العرب لأنهم لم يخلصوا فى الدفاع عنها .

ويكاد يؤكد قولنا هذه الروايات العديدة التى ذكرها المؤرخون - ومن بينهم السيوطى - والتى تدل على أن غالبية المصريين كانوا أعوانا للعرب منذ دخولهم الأراضى المصرية حتى أتموا فتح مصر (٢) . وقد أكد السيوطى - وقد عاش قرب نهاية العصور الوسطى الاسلامية فى مصر - فى رواياته التاريخية أن القبط اشتركوا مع الروم فى الدفاع عن حصن بابليون ضد العرب حين أتوا لفتح مصر (٣) . تلك الحقيقة التى أثبتتها الأوراق البردية حديثا ، مما يبين لنا الجديدة فى دراساته التاريخية ، وفيما كتبه من أحداث التاريخ .

(١) انظر : سيدة كاشف : مصر فى فجر الاسلام ص ١٠ . وما ذكرته من مراجع (الطبعة الاولى . القاهرة ١٩٤٧ م) .

(٢) انظر مثلا : حنا النقبوسى : تاريخ ص ٦٥٠ . (Paris 1883)

ابن عبد الحكم : فوح مصر واخبارها ص ٥٣ - ٥٤ (طبعة المعهد العلمى الفرنسى بالقاهرة ١٩١٤ م) ، والمقرئى : الخطط ج ١ ص ٢٨٩ (طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ) ، وأبو الحسن : النجوم الزاهرة ج ١ ص ٧ (طبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٩ م) ، والسيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٢ .

(٣) السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٦ .

أما حدود مصر الشرقية فقد ذكر من دراساته التاريخية والجغرافية أنها قرية بين رفح والعريش (١) •

وفصل السيوطي الحديث عن الجزية وعن أهل الذمة في مصر ، وأطلق السيوطي اصطلاح أهل الذمة على المصريين قبل الاسلام بمعنى تبعيتهم للروم ، أو دخولهم في ذمة الروم ، مقابل حماية الروم لهم وفي نظير أن يدفع المصريين ضريبة للروم كل عام ، (٢) وهو ما حدث أيضا بعدفتح العرب لمصر • وحين يفصل السيوطي الحديث عن الجزية وسائر الضرائب التي فرضت على المصريين بعد الفتح العربي لا نراه يتفق في رواياته مع سائر المؤرخين والفقهاء ، فالجزية فرضت في مصر وفي غيرها من ديار الاسلام على أهل الذمة (أى غير المسلمين) في مقابل الدفاع عنهم ومنحهم الأمان على أرضهم وأنفسهم وأموالهم ، ويعنى منها الشيخ الفاني والصغير الذى لم يبلغ الحلم ، والنساء (٣) •

والقارىء لكتاب حسن المحاضرة لا يفتقد دقائق المعلومات عن فتح مصر على الرغم من بعد السيوطي عن زمان الفتح كما ذكرنا •

ويتضح من الروايات المختلفة أن تفوق العرب على الروم لا يرجع الى عددهم وعنادهم والا لخسر العرب معاركهم ، اذ لم يتجاوز عدد العرب اثنتى عشر ألف مقاتل بينما تجاوز عدد المحاربين من الروم مائة ألف ومعهم العدة والعناد ، وهذا مما أثار دهشة واستنكار الامبراطور هرقل فى كتابه للشموقس حين علم بعقد المقوقس صلح بابليون مع العرب (٤) • وكان رد المقوقس للروم فى مصر تعليقا على كتاب هرقل : **« أنهم على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا ، ان**

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٢ •

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٥ •

(٣) نفس المرجع ج ١ ص ٥٥ - ٥٧ •

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٥٧ •

الرجل الواحد منهم ليعدل مائة رجل منا وذلك انهم قوم الموت أحب اليهم من الحياة •••» (١)

أما عن اليهود في مصر فيذكر السيوطي مثل سائر مؤرخي مصر الإسلامية ان عمرو بن العاص حين فتح الاسكندرية كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يقول ان بها أربعين الف يهودى ويذكر السيوطي انه قيل ترحل في الليلة التي دخل فيها عمرو بن العاص الاسكندرية ، أو في الليلة التي خافوا فيها دخول عمرو بن العاص سبعون الف يهودى (٢) •

ونلاحظ أنه ليس هناك تطابق أو تجانس في طول الفصول أو قصرها التي يوردها السيوطي في حسن المحاضرة ، وانما يتوقف طول الفصول أو قصرها على حسب الروايات والمعلومات التي يعتقد أنها توفى بالعرض • ومع ذلك فان اختصار السيوطي لبعض الحوادث أو الروايات لا يعنى أنه اختصار غير مفيد ، فحين يختصر السيوطي بخرج القارىء بلب الموضوع وجوهره ، وعلى سبيل المثال وليس الحصر ، ما يذكره السيوطي عن فتح العرب لبرقة والنوبة (٣) •

واهتم السيوطي اهتماما كبيرا بالكتابة عن نهر النيل وذلك في سمان وعشرين صفحة من كتاب حسن المحاضرة (٤) • فحدثنا عن مزاياه وعن مجراه ، بل ان السيوطي رسم خريطة جغرافية لنهر النيل (٥) • وذكر السيوطي ما قيل في النيل من الاشعار ، ونلاحظ أن السيوطي يعتبر الشعر المنشور ، أو النثر المسجوع من الاشعار ، فيورد كلام القاضى الفاضل في المنشور في وصف النيل المصرى ضمن ما قيل في

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٥٨ •

(٢) السيوطي : حسن المحاضرة ج ١ ص ٦٠ •

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٧٠ •

(٤) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ٢٠٠ - ٢٢٨ •

(٥) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٠٨ •

النيل من أشعار (١) • ويهتم السيوطى أيضا بذكر البشارة بوفاء النيل ، ويأتى بانشاء القاضى الفاضل فى وفاء النيل عن السلطان صلاح الدين بن ايوب (٢) ، كما يورد ما كتبه الأديب تفى الدين ابو بكر ابن حجة ، بشارة عن السلطان المملوكى الملك المؤيد شيخ فى سنة ٨١٩ هـ (٣) • واهتم السيوطى بالحديث عن مقياس النيل (٤) ، والمصريون منذ عصر الفراعنة يهتمون بمقاييس النيل لمعرفة حالة الرى والزراعة ، ومقدار الضرائب على الأرض الزراعية ، وغير ذلك مما يترتب على ارتفاع نهر النيل أو انخفاضه • ولا نشك أن الحديث عن مصر وعن حياتها الاقتصادية والسياسية يرتبط ارتباطا مباشرا بحالة النيل لأن النيل هو الشريان الرئيسى الذى يمد مصر بالحياة ، وفى الوقت نفسه استطاعت مصر منذ أقدم الأزمنة أن تطوع نهر النيل وأن تهذبه وان تستغله استغلالا علميا وعمليا مفيدا • والسيوطى يعتبر حلقة من حلقات المؤرخين المصريين فى العصور الوسطى الذين اهتموا بأمر النيل • وقد بدأ هذه الحلقة عبد الرحمن بن عبد الحكم أقدم مؤرخ مصرى اسلامى (توفى ٢٥٧ هـ) ، واهتم عبد الله بن أيبك الدوادارى (ت ٧١٣ هـ) فى كتابه « كنز الدرر وجامع الغرر » اهتماما كبيرا بأمر النيل ، فبدأ الكتاب فى كل سنة عن أحوال النيل وقياسه فى تلك السنة والسنة التى قبلها وذلك قبل أن يؤرخ للسنة المذكورة • كذلك اهتم المقرئى بنهر النيل (ت ٨٤٥ هـ) ، أما ابو المحاسن بن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ) فكان ينهى الكلام عن حوادث كل سنة بذكر قياس النيل فى تلك السنة وذلك فى كتابه « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » وقد ذكر السيوطى فى كتابه « حسن المحاضرة »

(١) المرجع السابق ح ٢ ص ٢١٠ - ٢١٦ •

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٦ - ٢١٧ •

(٣) المرجع السابق ج ٢ ص ٢١٩ - ٢٢٠ •

(٤) المرجع السابق ح ٢ ص ٢٢٠ - ٢٢١ •

أسماء امراء مصر وحكامها الذين تولوا الحكم فيها منذ قدوم عمرو
أبن العاص اليها فاتحا • أما الخلفاء الفاطميون في مصر فيسميهم
« بنى عبيد » نسبة الى عبيد الله المهدي وليس الى السيدة فاطمة
الزهراء بنت الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو في هذا مثل المؤرخين
الذين ينكرون نسب الفاطميين أو يشكون في صحته مثل ابن خلكان ،
وابى المحاسن ، وابى الفدا بعكس الذين يؤيدون صحة النسب من
القدماء مثل بن الأثير ، وابن خلدون ، والمقرئزي • وقد توفي السيوطي
في سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥ م) أيام سلطنة قنصوة الغوري (٩٠٦ -
٩٢٢ هـ) ، ولكن نلاحظ أن سلسلة حكام مصر مكتملة حتى دخول
السلطان سليم العثماني مصر سنة ٩٢٣ هـ ، وتستمر سلسلة حكام
مصر ممثلة في ولاية مصر العثمانيين أيام السلطان سليم ، وأيام السلطان
سليمان مما يدل على أن شخصا أكمل السلسلة التي كتبها السيوطي
حتى سنة ٩٢٨ هـ •

كذلك حدثنا السيوطي عن قضاة مصر ، وعن وزرائها ، وعن
كتاب السر فيها • أما كتاب السر فقد تحدث السيوطي عن وظيفة
كاتب السر من أيام الرسول عليه الصلاة والسلام الى أن ولي هذه
الوظيفة في سنة ٨٩٣ هـ القاضي بدر الدين بعد وفاة أبيه القاضي تقي
الدين أبو بكر (١) •

واهتم السيوطي بالحديث عن جوامع مصر مبتدئا بجامعة عمرو
ابن العاص ، كما وصف أمهات المدارس والخانقاة منذ العصر الأيوبي
مما يفيد دارسي الآثار والتاريخ الاسلامي فائدة عظيمة • والحق أن
كتاب حسن المحاضرة يعتبر موسوعة قيمة لدارسي تاريخ مصر
الاسلامية طوال العصور الوسطى ، فلم يترك السيوطي جانبا من

(١) السيوطي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١٤٥ - ١٤٨ •

جوانب تاريخ مصر وحضارتها الا وذكره * وحاول السيوطى جهده
فى هذا الكتاب تغطية كل نواحى تاريخ مصر مبينا علو قدم مصر فى
مختلف نواحى الحضارة البشرية معتزا بمصريته منذ أقدم العصور الى
عصره *

دراسات نقدية وتحليلية
لكتاب "تاريخ الخلفاء" للسيوطي
للدكتور علي حسني الخربوطلي

استاذ التاريخ الاسلامي
كلية البنات - جامعة عين شمس

تعريف موجز بالسيوطي :

ساهم الامام الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن محمد الخضيرى السيوطي (المتوفى سنة ٩١١ هـ) فى النهضة بالثقافة الاسلامية ، وفى تقديم الفكر العربى ، مما جعله جديرا بالتقدير والدارسة *

ولا شك ان ظروف النشأة والاسرة والبيئة، تؤثر كلها فى شخصية العالم ، وفى نفسيته وعقليته ، ثم فى اتجاهاته الفكرية . وكان مولد السيوطى فى شهر رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة بعد الهجرة ، وكان أبوه من العلماء البارزين المشهورين بالتدين والعلم . وقد برز أبوه فى عهد المستكفي بالله ، الخليفة العباسى بالقاهرة ، وتولى الأب كتابة العهد لهذا الخليفة * وفقد السيوطى اباه وهو فى السادسة من عمره ، فأصبح فى رعاية الخليفة العباسى المستكفي وجماعة من العلماء ، وقد عاونوه على أن يتم الرسالة العلمية الكبيرة التى بدأها أبوه ، ولذا عاونوه حتى حفظ القرآن الكريم وهو لا يزال غلاما فى الثامنة من عمره . وتلقى السيوطى العلم على أيدي واحد وخمسين من العلماء

المتخصصين في الدراسات الدينية والأدبية والتاريخية • وأخفق
السيوطى في دراسة علمى المنطق والحساب اللذين اعتبرهما من أصعب
العلوم •

وأصبح السيوطى فى مقدمة علماء التفسير والفقه واللغة والأدب
وتفوق فى علم الحديث النبوى وما يرتبط به من دراسات • وأهله
حصيلته العلمية الكبيرة للقيام بالتدريس أولاً ، سنة أربع وستين
وثمانمائة ، ثم للقيام بالتأليف ثانياً بعد عامين • ثم تولى الإفتاء سنة
أحدى وسبعين وثمانمائة •

وأراد السيوطى توسيع آفاقه العلمية • والخروج بها من النطاق
المحلى ، فخرج الى الأراضى المقدسة بالحجاز لأداء فريضة الحج ، ثم
قام بجولات فى بلاد الشام واليمن والهند والمغرب وغربى افريقية •
وأثرت هذه الرحلات فى تفكيره العلمى ثم فى مؤلفاته •

وحينما أصبح السيوطى فى الأربعين من عمره ، بدأت مرحلة
جديدة متميزة فى حياته العلمية ، فقد رأى الزهد والتصوف والانقطاع
عن الحياة الدنيوية والتفرغ للتأليف ، ولزم داره فى روضة المقياس قرب
نهر النيل ، ووضع مؤلفاته القيمة التى زاد عددها على الثلاثمائة ،
فى الدين ، والأدب ، والتاريخ ، ورفض دعوة السلطان الغورى
والامراء والاعيان ، كما رفض أموالهم وهداياهم •

وقد تميزت الفترة التاريخية التى عاصرها السيوطى بانتشار روح
الزهد والتصوف ، وشهدت مصر قدوم كثير من المتصوفة ، وكان كثير
من المسلمين يلجأون الى حياة الانقطاع عن العالم الخارجى والنصرع
للتعبد • وقد حاول السلطان الغورى انتزاع السيوطى من هذه العزلة ،
فلم تنجح جهوده • وقد كان الغورى من المهتمين بالنهضة الفكرية •
فكان يعقد المجالس الدينية والعلمية بالقلعة مرة أو مرتين اسبوعياً ،
كما اهتم الغورى بإنشاء كثير من المدارس فى مصر والشام والحجاز •

وكان كتاب (تاريخ الخلفاء) من انتاج هذه المرحلة البارزة من مراحل حياة السيوطى . وهو واحد من كتب كثيرة فى التاريخ قدمها السيوطى لمكتبتنا العربية ، معظمها يندرج تحت دراسة التراجم والطبقات . فقد اهتم السيوطى فى دراساته التاريخية بالتراجم ، وهو يرى أن « الاحاطة بتراجم أعيان الأمة مطلوبة ولذوى المعارف محبوبة » . وتنقل السيوطى بين دراساته للأنبيا ، والصحابة ، والخلفاء ، والمفسرين ، والحفاظ ، والنحاة واللغويين ، وقد ازدهرت دراسة التراجم فى عصر المماليك ، وهى تحتاج الى موهبة خاصة ، وقد امتلك السيوطى هذه الموهبة فعلا . وكانت التراجم تمثل أبرز موضوعات التدريس التى تدرس فى الجوامع حينئذ وتستهوى السامعين وقد كان السيوطى يقوم بالتدريس فى جامع أحمد بن طولون .

تصدى السيوطى للتراجم ، وتخصص فيها وأجاد دراستها ، ورأى أنه من العسير تحقيق أمله فى اخراج موسوعة كبيرة تضم تراجم (أعيان الأمة) كما أراد ، فان فى ذلك كما ذكر السيوطى ما (يوجب الطول والملال) ، ولذا رأى تقسيمهم الى طوائف . وعند حديثه عن كل طائفة يقسمهم الى (طبقات) . فهناك كتاب لطبقات الحفاظ ، وآخر عن طبقات النحاة واللغويين وثالث عن طبقات الأولياء ، وهكذا . وقد فسر لسان العرب لفظ (طبقات) فقال : «اناس يرجعون الى طبقة أو صنف فى تعاقب زمنى للأجيال » . واختلفت المعاجم فى التحديد الزمنى لمدة الطبقة فتراوحت المدة بين عشر سنوات أو عشرين سنة . وهذا التقسيم الى (طبقات) يرتبط بدراسة (التراجم) ، وقد بدأت دراسة الطبقات فى أول الأمر ، كدراسة تخدم علم الحديث ، كما فعل ابن سعد ، ثم تطور الأمر الى الترجمة لمختلف الفئات من علماء وخلفاء وشعراء .

وهكذا ركز السيوطى جانبا كبيرا من دراساته العلمية الى اخراج

موسوعة كبرى لأعيان الأمة في أجزاء متعددة • يضم كل جزء تراجما لشخصيات معروفة في فرع واحد من فروع الفكر • وأصبح كتاب (تاريخ الخلفاء) جزءا من أجزاء هذه الموسوعة ، وان كان لا يترجم في هذا الجزء لعلماء أو لمفكرين • كما نرى في الأجزاء الأخرى بل يترجم لعدد كبير من الخلفاء تولوا رئاسة الأمة الاسلامية في عصور وأقاليم مختلفة • وهكذا قسم السيوطى موسوعته الكبيرة تقسيما موضوعيا •

كما يحافظ أيضا على تسلسل الأحداث التاريخية عند دراسته لتاريخ كل خليفة •

الملاحح العامة لكتاب (تاريخ الخلفاء)

اولا : هدف الكتاب :

حدد السيوطى هدفه من تأليف كتاب (تاريخ الخلفاء) فقال : « فهذا تاريخ لطيف ، ترجمت فيه للخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة من عهد أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - الى عهدنا هذا ، على ترتيب زمانهم ، الأول فالأول ، وذكرت في ترجمة كل منهم ما وقع في أيامه من الحوادث المستغربة ، ومن كان في أيامه من أئمة الدين وأعلام الأمة » •

ثانيا : يلاحظ أن السيوطى لم يتعرض للترجمة للخلفاء الا بعد أن فرغ تماما من دراساته عن سائر الطبقات • فقد وضع كتباً عن الأنبياء ، والصحابة ، والمفسرين ، والحفاظ ، والنحاة واللغويين ، والأدوليين : والأولياء ، والبيانين ، والكتاب ، وأهل الخط ، وشعراء العرب ، ثم رأى السيوطى أن يكمل موسوعة تراجمه بدراسة تواريخ الخلفاء وهو يدرك أن هذه الدراسة تتصف بالتشويق وجاذبية القراءة، لأنها تهم عامة الناس قبل خاصتهم ، بينما تراجمه للطبقات السابقة

تهم الخاصة ، فيقول السيوطى : « ولم يبق من الأعيان غير الخلفاء
مع تشوق النفوس الى أخبارهم » •

ثالثا : لم يهتم السيوطى بتاريخ الدول ، فهو يدرس تواريخ
الخلفاء على التعاقب والتسلسل دون الاهتمام بتوضيح النتائج
السياسية والاجتماعية المترتبة على تغير الدول ، فلا يشعر القارئ
حين يقرأ ترجمة السيوطى لمعاوية بن أبى سفيان بأنه انتقل من عصر
الخلافة الراشدة الى عصر الدولة الأموية • وانما معاوية عند القارئ
هو سادس الخلفاء بعد وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ، فالسيوطى
يجعل الحسن بن على الخامس فى سلسلة الخلفاء • ولا يشعر القارئ
أيضا حين يطلع على ترجمة أبى العباس السفاح أنه انتقل من عصر
أموى الى عصر عباسى • ولكل عصر منهما خصائصه المتميزة فقد ركز
السيوطى اهتمامه بالترجمة للخلفاء ، وبأحداث وأعلام عصورهم •
ولم يهتم السيوطى بالدولة ، وتغير الدول • وهو يستخدم لفظ
(الأمة) دون (الدولة) ، فيعلن أنه يريد « الاحاطة بتراجم اعيان
الأمة » ، ويخصص كتابه لتراجم « الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر
الأمة » • وان كنا فى عصرنا الحديث نفرق بين (الدولة) و (الأمة) •
فان السيوطى لم يفتن الى مدى التطابق والافتراق • ورغم ان
جماعات كبيرة من الامة الاسلامية كانت فى العصر العباسى تعيش فى
ظلال خلفاء آخرين غير الخلفاء العباسيين • مثل الخلفاء الفاطميين
بمصر والخلفاء الامويين بالاندلس الا أن عدم اعتراف السيوطى
بشرعية هؤلاء الخلفاء الفاطميين والامويين • يجعله يركز دراسته على
الخلفاء العباسيين • فالسيوطى - كما سنرى - يؤمن بنظرية خاصة
حول الخلافة • فهو لا يؤمن بقيام امامين فى وقت واحد • فضلا
عن انكاره لنسب الفاطميين ، ولذا فهو يركز الحديث عن الخلفاء
العباسيين الذين يعترف بصحة خلافتهم •

ومقياس السيوطى فى صحة خلافة كل خليفة انتسابه الى قبيله قريش وعدم توليته الخلافة فى وقت سبقه فيه خليفة آخر الى البيعة بالخلافة ، ويشترط السيوطى أيضا اشتراك الغالبية العظمى من المسلمين فى هذه البيعة • فالسيوطى يذكر خلافة الحسن بن على بعد خلافة أبيه على بن أبى طالب ثم ينتقل الى خلافة معاوية بن أبى سفيان • وبعد دراسته لخلافة كل من يزيد بن معاوية ومعاوية الثانى ، يتحدث عن خلافة عبد الله بن الزبير • وهو يعتبره خليفة شرعيا وليس خارجا على طاعة الدولة الأموية • بل ينكر السيوطى صحة خلافة مروان ابن الحكم ولا يذكره ضمن الخلفاء • كما لا يعترف بشرعية عهده لابنه عبد الملك • ثم يدرس السيوطى خلافة عبد الملك بن مروان بعد مصرع بن الزبير •

ويبدو اهتمام السيوطى بالأمة أكثر من اهتمامه بالدولة • فى أنه لم يغفل ابدا تاريخ مصر فى العصر الفاطمى • فالمصريون - ولاشك - يستلون ركنا بارزا من أركان الأمة الاسلاميه • مما يوجب على السيوطى - كسؤرخ - الاهتمام بأحوالهم • وان كان لا يعترف بصحة خلفائهم الفاطميين •

ولأن نجد فى دراسة السيوطى للخلفاء العباسيين فى بغداد وسامراء اشارات محدودة توضح تطور العصور وانتقال الدولة العباسية بين عصور النفوذ التركى والبويهى والسلجوقى • والسيوطى فى ذلك يسير على نهج كثير من المؤرخين الذين يرون ان شخصيات الخلفاء تؤثر فى ابعاد السياسة حتى أصبحت الدولة هى انعكاسات لخصائص الخلفاء النفسية والعقلية والخلقية •

رابعا : وضع السيوطى كتابه (تاريخ الخلفاء) فى أواخر حياته بعد أن وضع تراجمه لسائر الطبقات • وقد غلبت عليه فى هذه المرحلة

من حياته النزعة الدينية • وما تؤدي اليه من زهد وتصوف وانصراف عن عرض الدنيا • وقد انعكست هذه النزعة على صفحات هذا الكتاب بل نستطيع أن نقول أن السيوطي كان في كتابه (تاريخ الخلفاء) عالم دين أكثر منه مؤرخا • فقد دون السيوطي تراجمه للخلفاء بروح الايمان وكان الدين هو ميزان نفعه لسياسة الخلفاء • كما جعل السيوطي - في كثير من مواضع كتابه التاريخ في خدمة علم الحديث النبوي • ولذا نلمس في الكتاب اهتماما واضحا بعلماء الدين وبالدراسات الدينية المختلفة • واهتم السيوطي برواية الخلفاء للاحاديث النبوية وذكر عدد الأحاديث المروية عنهم • وهو أيضا يتلمس بعض الأحاديث النبوية التي تفسر الأحداث التاريخية • وخاصة قيام الدولتين الأموية والعباسية ، واستئثار الأتراك بالسلطة في العصر العباسي • وأثرت هذه الاتجاهات في اغفال السيوطي للتفاصيل العسكرية ولحركات الجيوش ودراسة المواقع الحربية الفاصلة • كما فعل الطبري وابن الأثير مثلا والسيوطي يوجز دائما أخبار الفتوحات الاسلامية في كلمات قليلة • كما نجد السيوطي لا يهتم بالأخبار الاجتماعية والاقتصادية اهتمامه بالأمور الدينية والأخبار العلمية والفكرية •

خامسا : اشتهر السيوطي بأنه أديب كبير وشاعر مجيد ، ويبدو هذا النبوع الأديبي واضحا في كتاب (تاريخ الخلفاء) ، فالاسلوب سلس واضح شيق وتمتلىء صفحات الكتاب بأبيات من الشعر • مما يصل أحيانا الى حد الاسراف ويثبت السيوطي في كتابه تفوقه في الشعر • فهو يختم كتابه بقصيدة طويلة من نظمه يصفها بأنها « أرجوزة في أسماء الخلفاء ووفياتهم » • ونجد في الترجمة للخلفاء الأمويين والعباسيين كثيرا من أخبار الشعراء والمعنيين والمطربات •

سادسا : تأثر السيوطي في منهجه التاريخي بكثير من المؤرخين • وخاصة ابن الأثير وابن كثير • ويظهر هذا التأثر في نقل الروايات

واسنادها • فالسيوطى يذكر دائما اسم المؤرخ الذى ينقل عنه • ويذكر أحيانا اسم كتابه • ثم يمضى فى نقل الرواية وإذا أراد إضافة رأى خاص أو تعليق وهذا نادر جدا • استخدم لفظ (قلت) ثم يضيف ما يريد إضافته • ولكن الغالبية العظمى من صفحات السيوطى هى نقل لعديد من الروايات من عدد كبير من المصادر • ويحرص السيوطى غالبا على ذكر المصادر • وعلى اسناد الرواية الى رواها المتعددين • وهو يستخدم تعبيرين عند ذكر الروايات • فيذكر أحيانا (قال فلان) وأحيانا أخرى (اخرج عن فلان) •

سابعاً • أهتم السيوطى فى آخر كتابه بذكر مصادره • وهو ينهج فى ذلك منهج المؤرخين المحدثين • ويحرص أيضا على ذكر عدد مجلدات كل كتاب رجع اليه • ولكن السيوطى لم يذكر كل مصادره بل اكتفى بأهمها بالنسبة اليه • وهو يقسم المصادر الى فرعين : مصادر اعتمد عليها فى نقل أخبار « الحوادث » ومصادر رجع اليها فى « غير الحوادث » •

فيقول السيوطى : « وهذا آخر ما تيسر جمعه فى هذا التاريخ، وقد اعتمدت فى الحوادث على تاريخ الذهبى وانتهى الى سنة سبعمائة • ثم على المسالك وذيله الى سنة ثلاث وسبعين • ثم على أبناء العمر لأن حجر الى سنة خمسين وثمانمائة • وأما فى غير الحوادث ، فطالعت عليه تاريخ بغداد للخطيب عشر مجلدات • وتاريخ دمشق لابن عساكر سبعة وخمسين مجلدا • والأوراق للعسولى سبع مجلدات • والطبوريات ثلاث مجلدات • والتحلية لأبى نعيم تسع مجلدات • والمجالسة للدينورى والكامل للبرد مجلدين وآهالى نلب مجلد ، وغير ذلك » •

ويتدرج تحت (غير ذلك) كثير من المصادر • فقد استفاد السيوطى كثيرا من طبقات بن سعد • وخاصة فى الجزء المطول بالخلفاء الراشدين

كما رجع الى كتب الطبرى ، والمسعودى ، وابن الأثير والبيهقى وابن الجوزى عند دراسته للخلفاء الأمويين والعباسيين . وتكاد تخلو دراسة السيوطى للخلفاء العباسيين بالقاهرة من المصادر فقد كان السيوطى معاصرا قريبا من المعاصرة لهم .

ثمنا : اعترف السيوطى ان مهمته كانت (الجمع) وتركزت جهوده فى انتقاء هذه المجموعة . ولكنه لم يرتب ما جمعه ترتيبا موضوعيا . فتعددت موضوعات الروايات كما لم يخضع السيوطى الروايات للنقد التاريخى فكثيرا ما نقل روايات متناقضة دون ترجيح احداها . وتعليقات السيوطى الخاصة التى يبدأها بكلمة (قلت) قليلة جدا ، وتتضاءل كثيرا الى جانب الروايات المنقولة . ولكن هناك محاور رئيسية حرصا لسيوطى على التزامها حين ترجم للخلفاء . فهو يبدأ عادة بذكر سنة الميلاد . وتاريخ تولية الخلافة . وكنية الخليفة . واسم أمة ، وهل هى حرة أم جارية ، وجنسيتها ، ثم يذكر مدة الخلافة ويقدم السيوطى أيضا صورة جسمانية واخلاقية ونفسية للخليفة . ثم يحرص على ذكر الحوادث الغريبة فى عصره ، ويلخص الاحداث التاريخية ويرتبها حسب سنوات حدوثها . ثم ينتهى السيوطى بتقديم قائمة بالاعلام الذين توفوا فى عصر ذلك الخليفة .

واهتم السيوطى أحيانا بالنقد التاريخى فى عبارات موجزه . ولكنه اهتمام محدود ولا نلمسه الا فى مواضع قليلة من الكتاب . والسيوطى أحيانا يضيف معلوماته الخاصة الى الروايات التى ينقلها من مصادره . ولكن السيوطى لم يهتم أبدا بفلسفة التاريخ كما فعل غيره . كابن خلدون أو المقرئى .

تاسعا : ذكرنا أن السيوطى كان لا يجب علم المنطق . ونجا . فى صفحات كتاب (تاريخ الخلفاء) روايات لا تنفق أبدا مع المنطق والعقل . وقد نهج السيوطى نهج كثير من المؤرخين الذين حشدوا فى

كتيهم ما هو غريب وعجيب • وكان دوافع معظمهم خلق أو افتعال
جاذبية القراء مما يشوق القراء • والسيوطى فى ترجمته لمعظم الخلفاء
يذكر أحداثا غريبة • وخارقة للطبيعة أحيانا • لا يمكن للعقل قبولها •
ونرى أن النزعة الدينية عند السيوطى جعلته يورد هذه العجائب •
فقد أراد أن يثبت قدرة الله عز وجل •

وقد اهتم السيوطى أيضا بإيراد أخبار الظواهر الطبيعية • من
زلازل ، وفيضانات وتأثيراتها فى حياة الناس الاجتماعية والاقتصادية •
ولكنه لم يربط النتائج بالمسببات • واعتبرها من الخوارق أو المعجزات •
كما أسرف السيوطى فى إيراد أخبار الأوبئة والمجاعات • وقدم صوراً
قائمة تثير الألم أحيانا • والاشمئزاز أحيانا أخرى •

واعترف السيوطى فى أول كتابه باهتمامه بهذه العجائب • وذكر
أنه نقلها بإيجاز عن الذهبى • ويضع مسؤولية عدم اتفاق هذه الأحداث
مع المنطق والحقيقة على الذهبى فيقول السيوطى : « وما أوردته من
الوفائع الغريبة والحوادث العجيبة ، فهو ملخص من تاريخ الحفاظ
للذهبى • والعهد فى أمره عليه • والله المستعان » •

عاشرا : أسرف السيوطى فى اهتمامه بالأوائل • فهو يريد أن
يجعل كل خليفة هو الأول فى فعل كذا أو كذا • ويبدو ذلك واضحا
فى تراجمه للخلفاء الراشدين والأمويين ولكننا نلمس أحيانا كثيرا من
المبالغة والافتعال • ونجد أحيانا خليفتين يشتركان فى انهما الأول فى
القيام بأمر معين • وامتد الاهتمام أيضا الى (الأواخر) وان كان هذا
الاهتمام أقل من الاهتمام بالأوائل •

واهتم السيوطى أيضا بمسائل احصائية ورقمية لا تستحق
الأهمية • فقد اهتم السيوطى بمن تولى الخلافة فى حياة أمه أو حياة
أبيه • وعدد أولاد كل خليفة الذين تولوا الخلافة بعده • واهتم بمن
اسمه (مثنى) وليس (مفردا) وقام باحصاء للألقاب المشتركة بين

العباسيين والفاطميين • وتأثير بعض الألقاب على مصائر اصحابها ، كما بحث السيوطى عن تأثير رقم (ستة) فى عزل الخلفاء ، وذكر ان الخلفاء الذين تجمع الأمة عليهم اثنى عشر خليفة فحسب ، واجتهد فى تحديد أسماء هؤلاء الخلفاء •

حادى عشر : يلتزم السيوطى غالبا الى الحياض التاريخى • مما يجعله أحيانا ينقل بعض الروايات المتناقضة التى تعبر عن مختلف الآراء ولكن السيوطى كان متعصبا كل التعصب ضد الخلفاء الفاطميين • وهو يسمى الخليفة منهم (صاحب مصر) وقد عقد السيوطى فى اول كتابه فصلا هاجم فيه الخلفاء الفاطميين هجوما شديدا ، وسماههم بالخلفاء العبيديين واجتهد فى ايراد ادلة عدم شرعية خلافتهم والسيوطى يصفهم بأقذع الالفاظ • فيسسيهم المجوس والزنادقة والرافضة ، ويصف الناس المعترفين بهم بالجهل • وجعل السيوطى الفاطميين أخطر على الأمة الاسلامية من التتار ، مما نراه مبالغة واضحة ، فالدولة الفاطمية لها تراثها الحضارى العظيم • ويجب الفصل بين حقيقة نسب الفاطميين وتقييم التراث الفاطمى الحضارى •

ويبدو تحيز السيوطى للخلافة العباسية واضحا فى جميع صفحات كتابه وقد نجد العذر له • فهو يعاصر الخلفاء العباسيين بالقاهرة • وهو يعتبر خلافتهم امتداد للخلافة العباسية بالعراق • • وقد كان ابوه اماما لاحد هؤلاء الخلفاء ، وهو المستكفى بالله • وقد نشأ السيوطى فى رعاية هذا الخليفة • والسيوطى لا يهتم بالخلفاء الأمويين بالاندلس وان كان لم يجرحهم كما جرح الفاطميين • واكنفى السيوطى بذكر اسماء الخلفاء واهم أعمالهم وصفاتهم فى سطور قليلة • فى فصل صغير فى آخر الكتاب • وهو يتحدث عنهم ايضا فى مقدمة كتابه فى ثلاثة سطور فيقول عنهم : « المتسمون بالخلافة من الأمويين بالمغرب كانوا أحسن حالا من العبيديين بكثير اسلاما وسنة وفضلا وعملا وغزوا ،

وهم كثير حتى انه اجتمع بالاندلس في عصر واحد ستة كلهم تسمى بالخلافة» •

وهذه العبارة للسيوطى • وان كانت ترجح كفة الأمويين بالاندلس على كفة العبيديين الا انها تستهين أيضا بهؤلاء الأمويين • فهو لا يعترف بصراحة بشرعية خلافتهم • كما هو يخلط بين الخلفاء الامويين • والواخر وملوك الطوائف • كما ان السيوطى فى الفصل الذى عقده فى آخر كتابه عن الامويين بالاندلس يخلط بين الامارة والخلافة فى الأندلس - فهو يذكر ان عبد الرحمن الداخل (بويج بالخلافة) سنة ١٣٨ هـ • وان عبد الرحمن الناصر « أول من فخم الملك بالاندلس من الأموية وكساه أبهة الخلافة والجلالة » •

تانى عشر : اهتم السيوطى من خلال ترجمته للخلفاء الأمويين والعباسيين بذكر أحوال وطنه مصر • فقد حرص دائما على ذكر أحوال نهر النيل • ومدى انخفاض أو ارتفاع فيضانه • وما حدث فى مصر من أوبئة أو مجاعات • أو ظواهر طبيعية • وتعرض لمصر لخطر الصليبيين الذين يسميهم دائما (الفرنج) ويتحدث عن كسوة الكعبة التى يرسلها المصريون • وكتاب السيوطى هو خير الكتب التى تدرس تاريخ الخلافة العباسية فى القاهرة • والعلاقات بين الخلفاء العباسيين وسلطين المماليك •

دراسة نقدية تحليلية تفصيلية لكتاب الخلفاء

أصبح الخلفاء محاورا لدراسة السيوطى • وتفاوتت دراساته للخلفاء بين التفصيل والايجاز واهتم السيوطى بتفصيل دراسته للخلفاء الراشدين الأربعة • وبعض الخلفاء الأمويين والعباسيين • ونجد السيوطى فى هذه الدراسات المفصلة يعقد فصولا صغيرة تدرس بعض

الموضوعات المرتبطة بتاريخ ذلك الخليفة الذي يترجم السيوطى له وهكذا نجد احيانا بعض الدراسات الموضوعية المحدودة من خلال تراجم الخلفاء •

ويمكننا ان نقسم كتاب (تاريخ الخلفاء) الى اقسام متميزة :
القسم الأول : ويشمل المقدمة وبعض فصول عقدها السيوطى فى أول كتابه مثل ترجمته للخلفاء ، والقسم الثانى : ترجمة السيوطى للخلفاء الراشدين وللحسن بن على • والقسم الثالث : تراجم خلفاء العصر الأموى • والقسم الرابع : تراجم الخلفاء العباسيين بالعراق • والقسم الخامس : تراجم الخلفاء العباسيين بالقاهرة •

القسم الأول : المقدمة والفصول الأولية :

ذكر السيوطى فى المقدمة انه سيقدم للخلفاء ، بادئا بأبى بكر • وانه يذكر فى كل ترجمة (ما وقع فى أيامه من الحوادث المستغربة • ومن كان فى أيامه من أئمة الدين وأعلام الأمة) • وكان السيوطى وفيما يعهده • ولكنه أسرف اسرافا كبيرا فى ذكر هذه «الحوادث المستغربة» • أما أئمة الدين وأعلام الأمة • فقد ذكر السيوطى أسماء من توفوا منهم فى عهود سائر الخلفاء • دون أن يقدم غالبا دراسة موجزة أو نبذات عنهم • واكتفى بذكر اسمائهم •

ثم تحدث السيوطى فى مقدمته عن هدف الكتاب ، وهو دراسة تواريخ الخلفاء بعد ترجمته لسائر الطبقات • ثم اعلن السيوطى انه لم يورد أحدا من الخلفاء العبيديين لعدة أسباب : أولها ان امامتهم غير صحيحة • فهم غير قرشيين • والسبب الثانى « أن أكثرهم زنادقة خارجون عن الاسلام • ومنهم من أظهر سب الأنبياء ومنهم من أباح الخمر ومنهم من أمر بالسجود له • والخير منهم رامضى خبيث لثيم يأمر بسب الصحابة رضى الله عنهم • ومثل هؤلاء لا تتعقد لهم بيعة •

ولا تصح لهم امامة » • والسبب الثالث أن البيعة للفاطميين « صدرت والامام العباسى قائم موجود سابق البيعة فلا تصح اذ لا تصح البيعة لامامين فى وقت واحد » • ولم يقدم السيوطى دراسة وافية شافية يحقق من خلالها نسب الفاطميين • مما يدعم رأيه فيهم • كما فعل غيره من المؤرخين الذين اهتموا بحقيقة نسب الفاطميين • كالمقرئزى مثلا •

وهكذا لا يعترف السيوطى بأى نظام للخلافة بعد تولى العباسيين للخلافة ويرى السيوطى أن العباسيين يحتفظون بالخلافة حتى يسلموها الى عيسى أو المهدي •

ثم يعقد السيوطى فصلا قصيرا فى نحو صفحتين بعنوان (فصل فى بيان كونه صلى الله عليه وسلم يستخلف وسر ذلك) • ويذكر السيوطى روايات متعددة تنتهى كلها الى أن الرسول عليه الصلاة والسلام لم يستخلف أحدا بعده • ويرفض السيوطى رأى الشيعة (ويسميهم الرافضة) الذى يذهب الى أن على بن أبى طالب هو وصى الرسول ووليه • وحجة السيوطى فى رفضه هى أن أبابكر لو علم بذلك لرفض أن يتولى الخلافة •

والفصل الثانى فى نحو صفحة واحدة ، وعنوانه (فصل فى بيان ان الائمة من قريش والخلافة فيهم) وذكر السيوطى عدة روايات تختلف فى الفاظها لحديث نبوى ينص على أحقية قريش بالامامة أو الملك أو الخلافة أو الامارة •

والفصل الثالث فى نحو ثلاث صفحات بعنوان (فصل فى مدة الخلافة فى الاسلام) ويضم دراسات موجزة حول بعض الاحاديث النبوية • فيها : « الخلافة ثلاثون عاما ثم يكون بعد ذلك الملك » • ويرى السيوطى أن هذه الاحاديث النبوية : « لا يزال الاسلام عزيزا

منيعا الى اثني عشر خليفة » • ويحاول السيوطي جاهدا أن يثبت أن هؤلاء الخلفاء الاثني عشر لا يتولون الخلافة على التعاقب ، ويذكر السيوطي منهم الحلفاء الراشدين الاربعه • والحسن ومعاوية • وابن الزبير • وعمر بن عبد العزيز • والمهتدي العباسي ، والطاهر العباسي • ويذكر أن الاثني الباقيين سيظهران فيما بعد ، وهكذا كان السيوطي يأمل في استمرار الخلافة العباسية • حتى يظهر من بين خلفائها امامان من هؤلاء الائمة الاثني عشر • ولم يكن السيوطي يعلم ان الخلافة العباسية ستنتفضى بعد أعوام قليلة حين يفتح السلطان العثماني سليم الأول مصر •

ثم يعقد السيوطي فصلين متتالين •• يذكر في الفصل الأول «الأحاديث المنذرة بخلافة بنى امية» • ويذكر الفصل الثاني «الأحاديث المبشرة بخلافة بنى العباسي » • ولاشك أن هناك فارق بين كلمة « المنذرة » وكلمة « المبشرة » ويذكر السيوطي في الفصل الأول استنكار الرسول عليه الصلاة والسلام لرؤيته بنى امية على منبره • ويذكر في الفصل الثاني سرور النبي لرؤية بنى العباسي على منبره ويذكر السيوطي عدة أحاديث كلها تتنبأ بتولية بنى العباس الخلافة ، ولا يجد السيوطي حرجا في أن يعترف بضعف معظم الاحاديث النبوية التي ذكرها • ولكنه مصر على تأييد رأيه بأحقية العباسيين في الخلافة • ويعقد السيوطي فصلا بعنوان « في شأن البردة النبوية التي تداولها الخلفاء الى آخر وقت » ويقص السيوطي قصة البردة التي منحها الرسول صلى الله عليه وسلم للشاعر كعب بن زهير حين انشده القصيدة العصماء التي مطلعها (بانث سعاد) ثم شراء معاوية لهذه البردة من أولاد كعب وتداول الخلفاء الأمويين لهذه البردة ثم يدرس السيوطي مسألة لها أهميتها • فيؤكد أن هذه البردة « التي اشتراها معاوية فقدت عند زوال دولة بنى امية » • ويذكر السيوطي أن البردة التي تداولها العباسيون هي بردة اخرى للنبي كان قد منحها عليه

الصلاة والسلام لأهل آيله مع كتاب الأمان فأشترها ابر العباس
بثشائة دينار • ويرجح السيوطى ضياع هذه البردة (فى فتنه التتار) •

ثم يقدم السيوطى فصلا آخرا بعنوان (فصل فى فوائد منثورة
تقع فى التراجم ولكن ذكرها فى موضوع واحد أنسب وأفيد) • ثم
ينقل السيوطى عن أبى الجوزى رأيا يذهب الى ان (كل سادس يقوم
لنناس يخلع) فقد خلع كل من الحسن ، وابن الزبير ، والوليد
بن يزيد ، والأمين ، والمستعين ، والمقتدر ، والطائع ، والراشد • ثم
ينقل السيوطى رأيا للذهبى يهدم فيه رأى ابن الجوزى ويؤيد
السيوطى رأى ابن الجوزى ويدلل عليه بأمثلة من تاريخ الخلفاء
العباسيين بالقاهرة •

وفى هذا الفصل يذكر السيوطى عددا من المعلومات الطريفة •
يسمىها (فوائد وهى تشبه ما نراه فى الصحف اليوم تحت عنوان
طرائف أو عجائب وليس لهذه الطرائف قيمة حقيقية • ويحاول السيوطى
بها الربط بين الخلفاء • وهو ربط مفتعل • فالسيوطى يذكر مثلا أن
الخلفاء العباسيين كلهم أبناء سرارى عدا السفاح والمهدى والأمين •
وانه لم يل الخلافة هاشمى ابن هاشمية سوى على والحسين والأمين
ولم يتول الخلافة من أسمه على سوى على بن أبى طالب وعلى المكتفى
العباسى • ويتحدث السيوطى عن الألقاب المشتركة بين الخلفاء العباسيين
والفاطميين ويذكر ان كل من تسمى بالقاهر والمستكفى والمستعين كان
مصيره مؤلما • • الخ •

ومن المسائل التى اثارها السيوطى فى هذا الفصل تساؤل : هل
كان للخلفاء الأمويين القاب كألقاب الخلفاء العباسيين؟ ويؤكد السيوطى
أن الأمويين اتخذوا ألقابا • ولقب معاوية هو (الناصر لدين الله) •
ولقب يزيد هو (المستنصر) ولقب معاوية الثانى (الراجع الى الحق)
ولقب مروان (المؤتمن بالله) ولقب عبد الملك (الموفق لأمر الله) ولقب

للوليد (المنتقم بالله) ولقب عمر بن العزيز (المعصوم بالله) ولقب يزيد بن عبد الملك (القادر بصنع الله) ولقب يزيد الناقص (الشاكر لانعم الله) .

وفي آخر هذه الفصول يذكر السيوطى الكتب التى درست نفس موضوعه أى تاريخ الخلفاء . فيذكر خمسة كتب . اعتمد على اثنين منهما ، فيقول السيوطى : « افرد تواريخ الخلفاء بالتأليف جماعة من المتقدمين : منها تاريخ الخلفاء لنفوطية النحوى مجلدان ، انتهى الى أيام القاهر . والأوراق للصولى . ذكر العباسيين فقط وانتهى اليه . قلت : وقد وقت عليه . وتاريخ خلفاء بنى العباس لابن الجوزى . رأيته أيضا انتهى الى أيام الناصر . وتاريخ الخلفاء لأبى الفضل احمد بن أبى طاهر المرزوى الكاتب أحد فحول الشعراء مات فى سنة ثمانين ومائتين . وتاريخ خلفاء بنى العباس للأمير ابى موسى هارون بن محمد العباسى » .

وهذه الفصول التى بدأ بها السيوطى تراجمه لسائر الخلفاء هى مجموعة من (الطرائف) قصد بها السيوطى أن تكون (فاتحة شهية) للقارئ . وكان الجدير به ان يبدأ تراجمه بفلسفة لنظام الخلافة . أو بدراسة مقارنة بين الخلافة الأموية والخلافة العباسية . أو بدراسة مظاهر التنافس بين بنى أمية وبنى هاشم حول الخلافة عبر العصور . كما فعل المقرئى فى كتابه (النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم) وتزدحم هذه الفصول القصيرة بالأحاديث النبوية التى يعترف السيوطى بضعف بعضها ولا يجد السيوطى - رغم ذلك - حرجا فى ذكرها وجعلها أساسا لدراساته المختلفة .

القسم الثانى : الخلفاء الراشدون والحسن بن علي

١ - نال أبو بكر الصديق نصيبا من الدراسة أكثر من نصيب باقى الخلفاء . فتقع الترجمة له فى نحو سبعين صفحة . وذكر السيوطى أنه تعمد (بسط ترجمة الصديق) .

٢ - اهتم السيوطى بدراسة القاب الخلفاء • فأفاض فى تفسير لقبى (عتيق) والصدىق وقد تلقب بهما أبو بكر • ولقب الفاروق وهو لقب عمر • ولقب ذى النورين وهو لقب عثمان • ولقب (أبو السبطين) وهو لقب على • ولقب (ريحانة الرسول) وهو لقب الحسن •

٣ - يعتبر السيوطى ابا بكر أشجع وأجود وأعلم وأذكى وأفضل الصحابة •

٤ - اهتم السيوطى بذكر الاحاديث النبوية المرتبطة بالخلفاء الخمسة • وبعض الاحاديث يشترك فيها أبو بكر وعمر • ويهتم السيوطى بالاحاديث التى تشير الى خلافة أبى بكر وعمر ويذكر السيوطى بعض الأحاديث التى ترضى الشيعة رغم أن السيوطى قد نقلها عن أئمة السنة ومنها حديث النبى يوم غدیر فم •

٥ - ويهتم السيوطى أيضا بذكر آيات قرآنية يربط بينها وبين أبى بكر وعمر • فيذكر بعض آيات يرى انها نزلت فى أبى بكر • ثم يقول عن عمر انه « كان يرى رأى فينزل به القرآن » ، وذكر السيوطى عشرين مثالا •

٦ - يهتم السيوطى باحصاء الأحاديث النبوية التى رواها كل من الخلفاء الخمسة •

٧ - حاول السيوطى الدفاع عن عثمان ونسب الأخطاء الى مروان بن الحكم •

٨ - أبدى السيوطى حرجه فى الحديث عن الفتن • وخاصة موقعة الجمل وحرب صفين •

٩ - لا يجد السيوطى حرجا فى تنازل الحسن بن على عن الخلافة • وهو يجوز التنازل عن الوظائف •

- ١٠ - عقد السيوطى دراسة مقارنة واحدة بين الخلفاء الراشدين الأربعة فى مجالات الشعر • وحكم لعلى بالتفوق •
- ١١ - يبالغ السيوطى فى ذكر (الأوائى) فى ترجمته للخلفاء الراشدين ، ويقع السيوطى فى مأزق التناقض أحيانا • فهو يجعل كلا من أبى بكر وعمر « أول من اتخذ بيت المال » •
- ١٢ - يهتم السيوطى بشخصيات الخلفاء أكثر كثيرا من اهتمامه بأحداث الدولة التاريخية وكان السيوطى فى هذا القسم عالم دين ، وأديبا أكثر منه مؤرخا •

القسم الثالث : خلفاء العصر الأموى

أولا : التزم السيوطى الحياد • وانصف منهجه بالاعتدال فى تقييم الخلفاء الأمويين وسياستهم فذكر مالهم وما عليهم • ونال كل من معاوية وعبد الله بن الزبير وعمر بن عبد العزيز اهتمام السيوطى أكثر من غيرهم من الخلفاء • وهو يعترف بشرعية خلافة ابن الزبير ويترجم له بعد ترجمته لمعاوية الثانى • ويهمل تماما الترجمة لمروان بن الحكم مما يخالف مناهج معظم المؤرخين الذين ارخوا للعصر الأموى •

ثانيا : ركز السيوطى بالترجمة للخلفاء ، ولم يهتم - كعادته - بالدولة أو بالأمة أو بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية • وإذا أشار السيوطى الى أحداث أو فتوحات فهو يذكرها فى كلمات قليلة • بحيث تبدو هذه الأحداث كلها نابعة من هؤلاء الخلفاء

ثالثا : لا نجد فى التراجم أى اشارات الى الفرق والأحزاب الاسلامية ، فلا نجد أى اشارة الى جماعتى الشيعة والخوارج ، وهما أكبر الفرق الاسلامية فى العصر الأموى ، وكان لثورات الفرقتين المتوالية أكبر الأثر فى سقوط الدولة الأموية وقد اقتصر السيوطى

في ذكر حركات الشيعة على حركة الحسين بن علي وبايجاز شديد .
ولا نجد ذكرا اطلاقا لمحمد بن الحنفية ، وزيد بن علي وابنه
يحيى ، وحركة عبد الله بن معاوية حفيد جعفر ابي طالب ، كما
لا نجد ذكرا للأئمة على زين العابدين ومحمد الباقر وجعفر
الصادق الذين اتجهوا الى الامامة الروحية . وكان لهم نشاط
علمي وفقهي ملحوظ . أما فرق الخوارج فقد أهملها السيوطي
تماما رغم دورها الكبير في التاريخ الأموي ورغم أن السيوطي
- مثلا - فصل تاريخ عمر بن عبد العزيز الا انه لم يذكر شيئا
عن موقف عمر من الخوارج وحواره معهم وركون الخوارج
الى الهدوء في عهده . مع أهمية هذه الأحداث التاريخية .
ونستطيع أن نقول ان قلم السيوطي عاش في قصر الخليفة الأموي
في العاصمة دمشق فلم يهتم بمجريات الأحداث في ولايات
الدولة .

رابعا : لم يهتم السيوطي بتتبع تطور الأحداث التاريخية ، ولم يربط
بين المسببات والنتائج . فيفاجئنا السيوطي في ترجمته للخليفة
الأموي الأخير مروان بن محمد بالحديث عن مصرعه بأيدي
العباسيين . ولم نر في تراجمه السابقة لأسلافه الخلفاء أى اشارة
الى بنى العباس - رسم أن الدعوة العباسية بدأت منذ سنة دائة
بعد الهجرة . ولا نجد أى ذكر لقضية (ميراث الكيسانية)
ولجهود ابي مسلم الخرساني . كما أهمل السيوطي الربط بين
احداث الفتوحات الاسلامية ، فنجد أخبارها موجزه ، ومجزأة ،
ورغم اهتمام السيوطي مثلا بتفاصيل احداث عهد عمر بن
عبد العزيز ، فهو لا يشير الى سياسة عمر في الفتوح ، وقد كانت
الجوش الاسلامية حينئذ تحاصر القسطنطينية .

خامسا : لم يهتم السيوطي بالشئون السياسية والادارية ، وبالأحوال

الاجتماعية ، والظروف الاقتصادية ، وان كان معظم المؤرخين الاقدمين لا يهتمون كثيرا بهذه الامور ، الا انهم يذكرون لنا من الروايات والأخبار ما يصبح مادة خصبة نجد فيها حاجاتنا لدراسة هذه الجوانب التاريخية الهامة . فلم يهتم السيوطي بما احدثه الخلفاء الأمويين من تغييرات في النظم الادارية ، وفي تقسيم الدولة الى ولايات ، وفي تطوير الدواوين الحكومية ، كما لا نجد اشارات الى اصلاحات اقتصادية أو مالية . كما لا نجد ما يفيدنا في دراسة مشكلة (الموالى) التى كانت من عوامل سقوط الدولة الأموية ، فقد أهمل السيوطي تماما حركات الموالى المعروفة ، مثل حركة المختار الثقفى وحركة عبد الرحمن ابن الاشعث ، ولا نجد في كتاب السيوطي ما نراه في الكتب الأخرى التى تمدنا بصور اجتماعية لأحوال عناصر المجتمع من عرب وموال وأهل زمة ورقيق ، كما نفتقر الى دراسة تطور العلاقات بين العرب اليمانيين والعرب الحجازيين ، رغم تدخل الخلفاء الأمويين فى اذكاء نيران العصية بين الشعبيين . واقتصر اهتمام السيوطي بالجوانب الفكرية والثقافية على ذكر رواية بعض الخلفاء للاحداث النبوية ، وذكر اعلام الفكر فى قائمة المترفين التقليدية ، دون اشارة الى جهودهم العلمية ، أو الى اتناهم الفكرى .

سادس . أهمل السيوطي فى ترجمته للخلفاء الأمويين دراسة تطور العلاقات بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية وتلافى السيوطي هذا النقص حينما بدأ يترجم بعد ذلك للخلفاء العباسيين .

القسم الرابع : الخلفاء العباسيون فى العراق

أولا : بدأ السيوطي تراجمه للخلفاء العباسيين بالعراق بترجمته لأبى

العباس السفاح • فيترجم له على انه « اول خلفاء بنى العباس »
ولا يشعر الفارىء - من خلال هذه الترجمة - بالتغيرات
الجذرية الكبيرة التى حدثت فى العالم الاسلامى نتيجة انتقال
السلطة من البيت الأموى الى البيت العباسى فلا نجد - فعلا -
اشارات لعوامل اختيار العراق مركزا للخلافة العباسية كما لانجد
أى تفاصيل عن تطور الدعوة العباسية • ونجاحها ، ثم قيام
خلافة بنى العباس •

ويؤيد السيوطى أحقية العباسيين بالخلافة • ونحن لا ننسى
انه يعيش فى ظلهم ورعايتهم بالقاهرة ويهتم السيوطى بالإشارة
الى ان الرسول عليه الصلاة والسلام قد أفضى الى عمه العباس
بن عبد المطلب « ان الخلافة تؤول الى ولده ، فلم يزل ولده
يتوقعون ذلك » •

ثانيا : تتصف تراجم السيوطى للخلفاء العباسيين بأنها أكثر أهمية
واستفاضة من ترجمته للخلفاء الأمويين • فمعاصرته للخلفاء
العباسيين بالقاهرة تجعل اهتمامه بالخلافة العباسية أوضح من
اهتمامه بالخلافة الأموية • ولما كان العصر العباسى هو عصر
تدوين التاريخ • فقد وجد السيوطى حاجاته من المادة العامية •

وبرزت صفة السيوطى كمؤرخ أكثر مما رأيناه فى تراجمه
للخلفاء الأمويين فنجده يعلق على الاحداث التاريخية وينقدها
ويبدى رأيه فى بعض القضايا ولا يجد حرجا فى انتقاد بعض
الخلفاء العباسيين وابرار ضعفهم أو مظالمهم •

ويلخص السيوطى فى ترجمته للخليفة العباسى الأول
أبى العباسى خصائص العصر العباسى فيقول : فى دولة
بنى العباسى افرقت كلمة الاسلام وسقط اسم العرب •

الديوان ، وادخل الاتراك في الديوان واستولت الديلم ، تم الاتراك ، وصارت لهم دولة عظيمة ، وانقسمت ممالك الارض عدة أقسام ، وصار بكل قطر قائم يأخذ الناس بالعسف، ويملكهم بالقهر» *

ثالثا : تنوعت مناهج السيوطى واتجاهاته واحكامه في تراجمه للخلفاء العباسيين بالعراق نبيجه كثرة عددهم وطول مدة حكم الدولة العباسية وتفاوت هؤلاء الخلفاء في القوة والضعف ونتيجة لتغير ظروف العصور . مما يجعلنا لا نجد منهجا واحدا ثابتا محددًا ، تخضع له تراجم السيوطى لسائر الخلفاء العباسيين ونلاحظ اهتمام السيوطى بتفصيل ترجمته للخلفاء العباسيين العشرة الأوائل ولكنه يتجه الى الايجاز بعد انتهائه من الترجمة للخليفة العاشر المتوكل ، نتيجة قصر مدة حكم معظم الخلفاء التالين ، وتدخل العناصر الأجنبية في عزلهم أو قتلهم *

وحافظ السيوطى على بعض خصائص منهجه في دراسة سائر التراجم فهو يقدم نبذه عن أسرة الخليفة . ثم صورة جسمانية وخلقية ونفسية كما يقدم في نهاية الترجمة القائمة التقليدية بالأعلام المتوفين في عهد كل خليفة . ولكن السيوطى في تراجمه للخلفاء العباسيين يهتم احيانا باعطاء نبذات موجزه عن بعض هؤلاء الأعلام المشهورين . ويسرف السيوطى في هذا القسم العباسى ، في ذكر الأحداث العجيبة ، الخارقة للطبيعة والتي تتصف غالبا بالخرافة والوهم *

رابعا : لا يهتم السيوطى في ترجمته للخلفاء العباسيين بنظام الوزارة رغم قيام هذا النظام في العصر العباسى . بحيث أصبح من خصائص هذا العصر فقد ظهر وزراء تفويض سيطروا على

الدولة • وتضاءل نفوذ بعض الخلفاء الى جانب نفوذ وزراءهم • هذا بينما تآمر اهتمام ابن طباطبا في كتابه (الفضرى في الآداب السلطانية) بنظام الوزارة اهتماما واسعا مفيدا • فلا نجد في ترجمة السيوطى للخليفة ابي العباس السفاح أى ذكر للوزير العباسى الأول أبى سلمة الخلال ، كما اغفل السيوطى تماما دور الوزير الفارسى الفضل بن سهل في الاحداث التاريخية في عصر المأمون فقد كان العامل الأول في اقامة المأمون في مرو وبخراسان ست سنوات وما ترتب على ذلك من اضطرابات في بغداد كما كان الفضل صاحب مشروع البيعة بولاية العهد للإمام العلوى على الرضا ، وهو بذلك ينقل الخلافة من البيت العباسى الى البيت العلوى •

والى جانب اغفال السيوطى للوزارة والوزراء في العصر العباسى • فقد أهمل أيضا توضيح أبعاد سلطات (أمير الامراء) وصراع العناصر الجنسية المختلفة حول هذا المنصب الكبير • كما لم يهتم السيوطى بابرار انتقال السلطة من الأتراك الى البويهيين ثم الى السلاجقة •

خامسا : لم يهتم السيوطى بالعواصم والمدن العباسية • فلم يدرس أسباب تحول الخليفة الأول أبى العباس عن الكوفة الى الأنبار • ثم اختيار الخليفة الثانى المنصور الهاشمية الكوفة • وتحدث عن بناء بغداد في خمس كلمات من خلال اشارته الى احداث عصر المنصور حسب سنوات حدوثها •

والسيوطى يحدد سنة أربعين بداية بناء بغداد ، مخالفا بذلك معظم مؤرخى العصر العباسى • ولم يقدم السيوطى دراسة عن بناء كل من بغداد وسامراء أو صورة وصفية للعاصمتين •

سادسا : اهتم السيوطى بالجوانب الأدبية ويجد الأديب صورا أدبيه عديدة من خلال التراجم للخلفاء العباسيين وخاصة فى تراجمه للخلفاء المهدي ، والرشيدي ، والمأمون . كما قدم السيوطى أيضا صورا للمجالس الأدبية والعلمية الى جانب اهتمام السيوطى المعتاد بالجوانب الدينية . وخاصة بما يرتبط بعلم الحديث النبوى كما نجد أيضا بعض الصور الاجتماعية وان كانت محدودة . وقد بدأ السيوطى فى هذه التراجم للعباسيين يهتم ببعض الجوانب الاقتصادية . فنجدته يتحدث عن عمال الحسبة وقراراتهم الاقتصادية كما يتحدث عن العملات المتداولة . ومستوى الاسعار . ويهتم السيوطى كثيرا بتاريخ واخبار الائمة . أبى حنيفة . ومالك وأحمد بن حنبل . ويدرس موقف الخلفاء العباسيين منهم . ويقدم السيوطى دراسة مطولة عن قضية (خلق القرآن) وموقف الامام ابن حنبل منها .

سابعا : بدأ السيوطى فى ترجمة للخلفاء العباسيين اهتماما بجاعات الشيعة ونشاطهم السياسى . ولكنه اهتمام محدود ولا يشبع حاجة الباحث فى تاريخ الشيعة . فهو فى ترجمته لأبى العباس يتحدث عن مطالبة عبد الله بن الحسن للخليفة أبى العباس بحقه المشروع . ويتحدث السيوطى فى ترجمته للخليفة المنصور عن حركة الأخوين محمد و ابراهيم ابنى عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن علي بن أبى طالب فى سطور قليلة . ويبدى السيوطى عطفه عليهما اذ كان مصيرهما القتل . ويتهم السيوطى الخليفة المنصور فيقول : « وكان المنصور أول من أوقع الفتنة بين العباسيين والعلويين وكانوا قبل شيئا واحد ، وأذى المنصور خلقا من العلماء ممن خرج معهما أو أمر بالخروج قتلا وضربا وغير ذلك . منهم : أبو حنيفة . وعبد الحميد بن جعفر

وابن عجلان وممن أفتى بجواز الخروج مع محمد على المنصور
مالك بن أنس رحمه الله • وقيل له : ان في اعناقنا بيعة
للمنصور ، فقال : انما بايعتم مكروهين • وليس مكروه يمين •»

ولا نجد في تراجم السيوطي ذكرا للامام جعفر الصادق •
رغم دوره البارز في مطلع العصر العباسي ، ولم يهتم السيوطي
بدراسة تطور علاقة الصادق بالخليفة المنصور • كما لم يهتم
السيوطي بالاشارة الى الرسالة التي بعثها الوزير العباسي الأول
ابو سلمة الخلال الى الامام الصادق • والى عبد الله ابن الحسن •
وزعيم علوي آخر ، يعرض عليهم تحويل الخلافة الى العلويين .
ورغم تطرق السيوطي الى موضوعات كثيرة في ترجمته للخليفة
موسى الهادي الا انه لم يذكر شيئا اطلاقا عن حركة الزعيم العلوي
الحسين بن علي في الحجاز ونهاية حياته في موقعة فح التي
يشبهها المؤرخون عادة بفاجعة كربلاء • وقد ترتب على هذه
الموقعة التاريخية الهامة قيام حركة يحيى ابن عبد الله في بلاد
الديلم • وقيام حركة ادريس بن عبد الله في المغرب التي كانت
بداية قيام دولة الأدارسة العلوية • كما لا نجد أى اشارة الى
انقسام الشيعة بعد الامام جعفر الصادق ، وما ترتب عليه من
ظهور فرقة الاسماعيلية وفرقة الاثنى عشرية •

واهتم السيوطي بدراسة بيعة المأمون للامام العلوي
على الرضا بن موسى كاظم بن جعفر الصادق بولاية العهد
وتكثرت دراسة موجزة في سطور قليلة • وأهمل السيوطي - كما
ذكرنا آنفا - دور الوزير الفارسي الفاضل بن سهل في هذه البيعة
بتشجيع المأمون • فقال عن المأمون : « حمله على ذلك افراطه في
التشجيع حتى قيل أنه هم أن يخلع نفسه ويفوض الأمر اليه ، وهو

الذى لقبه الرضا ، وضرب الدراهم باسمه وزوجه ابنته وكتب
الى الآفاق بذلك وأمر بترك السواد ولبس الخضرة .

وقد ذكر المؤرخون الأقدسون الآخرون دوافعا أخرى أهملها
السيوطى ولا نجد فى التراجم التالية لترجمته للمأمون أى اشارات
نحو حركات الشيعة ونشاطهم السياسى . رغم أن فرق الشيعة
كان لها دورها الكبير فى التاريخ العباسى .

ثامنا : اهتم السيوطى بأخبار الفاطميين فى اشارات موجزة وغير دقيقة
من الناحية العلمية . فنجد السيوطى فى ترجمته للخليفة العباسى
المعتمد على الله ، يقول فى أخبار سنة ٢٧٠ هـ : « وفيها ظهرت
دعوة المهدي عبيد الله بن عبيد جد بنى عبيد خلفاء المصريين .
الروافض فى اليمن . وأقام على ذلك الى سنة ثمان وسبعين .
فحج تلك السنة واجتمع بقبيلة من كتامة فأعجبهم حاله . فصحبهم
الى مصر . ورأى منهم طاعة وقوة فصحبهم الى المغرب . فكان
ذلك أول شأن المهدي » .

وهذه العبارة لا تتفق مع الواقع التاريخى فالدعوة
الاسماعيلية التى قامت سنة ٢٧٠ هـ فى اليمن قام بها ابن حوشب
وابن فضل . وفى عهد الامام محمد الحبيب . والذى خرج من
اليمن الى الحجاز والتقى بقبيلة كتامة فى موسم الحج . هو
الداعى الفاطمى المشهور ابو عبدالله الشيعى فى عهد الامام الحبيبى
أيضا وهو الذى رحل الى مصر ثم الى المغرب مع كتامة . وكان
وصوله الى المغرب سنة ٢٨٠ هـ . وكان قدوم الامام
عبيد الله المهدي الى المغرب سنة ٢٩٦ هـ . وتم الافراج عنه من
سجن سجلماسة فى ذى الحجة سنة ٢٩٦ هـ . كما يذكر بن الأثير .
ويستمر اهتمام السيوطى بأخبار الدولة الفاطمية . وهو

في أخبار سنة ٢٨٢ هـ - وفي ترجمته للخليفة المقتدر بالله • يشير الى قيام الدولة الفاطمية • ويمتدح الخليفة المهدي ويشير الى عدله • ويتحدث عن خروج بلاد المغرب عن طاعة الدولة العباسية • فيقول : « غلب أمر المهدي بالمغرب • ويسلم عليه بالامامة • ودعى له بالخلافة وبسط في الناس العدل والاحسان ، فأنحرفوا اليه • وتمهدت له المغرب ، وعظم ملكه ، وبنى المهديا وهرب أمير افريقية زيادة بن الأغب الى مصر ، ثم أتى الى العراق • وخرجت المغرب عن أمر بنى العباس من هذا التاريخ • فكانت مدة ملكهم جميع الممالك الاسلامية مائة وبضعا وستين سنة • ومن هنا دخل النقص عليهم » • والمعروف أن قيام الدولة الفاطمية كان سنة ٢٩٧ هـ ، وليس في سنة ٢٨٢ هـ كما ذكر السيوطي •

وفي ترجمة السيوطي للمقتدر أيضا • يذكر محاولة الفاطميين الأولى لفتح مصر فيشير اليها ضمن أخبار سنة ٣٠١ هـ • ويرى السيوطي أن نهر النيل هو الذي حال بين الفاطميين • وفتح مصر • فيقول : « سار المهدي الفاطمي يريد مصر في أربعين ألفا من البربر • فحال النيل بينه وبينها • فرجع الى الاسكندرية • وأفسد فيها وقتل • ثم رجع فسار اليها جيش المقتدر الى برقة وجرت لهم حروب ثم ملك الفاطمي الاسكندرية والقيوم من هذا العام » • والمعروف تاريخيا أن الجيش الفاطمي الذي قدم الى مصر سنة ٣٠١ هـ • كان بقيادة القائم ولي عهد المهدي • كما يذكر معظم المؤرخين أو بقيادة حساسة بن يوسف كما يذكر بعض المؤرخين أو بقيادتهما معا • كما يذكر فريق ثالث من المؤرخين ولكن المهدي لم يتول قيادة هذا الجيش الفاطمي • ويتحدث السيوطي عن المحاولة الفاطمية الثانية لفتح مصر •

فيجعلها في سنة ٣٠٦ هـ • بقيادة القائم بن المهدي • بينما يذكر الكندي وعريب بن سعد أن هذه الحملة كانت في سنة ٣٠٧ هـ • ومهما كان الرأي فاخبار الحملات الفاطمية الأولى السابقة لفتح جوهر الصقلي لمصر • مضطربة في معظم المصادر التاريخية •

تاسعا : أهتم السيوطي بحركتين ثوريتين قامتا في العصر العباسي وهما حركة الزنج وحركة القرامطة • ولكن دراسة السيوطي للحركتين تتصف بالايجاز والقصور •• ففي دراسته لثورة الزنج في عهد الخليفة المعتمد على الله يقول السيوطي : « وفي أيامه دخلت الزنج البصرة واعمالها وأخربوها • وبذلوا السيف ، وأحرقوا وسبوا ، وجرى بينهم وبين عسكره عدة وقعات وأمير عسكره في أكثرها الموفق أخوه •• واستمر القتال من حين تولى المعتمد سنة ست وخسين (٢٥٦ هـ) الى سنة سبعين (٢٧٠ هـ) فقتل فيها رأس الزنج لعنه الله واسمه بهوذ • وكان ادعى انه ارسل الى الخلق فرد الرسالة • وأنه مطلع على المغيبات •• وكان له منبر في مدينته يصعد عليه ويسب عثمان • وعليا ومعاوية وطلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم • وكان ينادى على المرأة العلوية في عسكره بدرهمين وثلاثة •• » •

ولا شك أن هذه السطور القليلة لا تمد الباحث أو القارئ بصورة حقيقية مفصلة عن تلك الثورة الخطيرة • فقد أهمل السيوطي العوامل الاقتصادية والاجتماعية التي أدت الى هذه الثورة • كما أغفل تأثير الزنج بتعاليم الخوارج • مما كان السبب لقيام الزنج بسبب هؤلاء الصحابة الأجلاء • كما أغفل السيوطي تأثير الزنج بتعاليم القرامطة ولم يذكر السيوطي أن زعيم الزنج (على بن محمد) الذي يسميه السيوطي (بهوذ) قد زعم انه من ولد على زين العابدين بن الحسين بن على وأنه نادى بأراء

الخوارج وخاصة النعالم انى تتصف بالديمقراطية وتحديث
السيوطى عن مدينه الزنج ولم يذكر ان اسمها (المختارة) ولم
يفدم لنا صورة عن هذه المدينه الغربيه واغفل السيوطى دراسة
مشكله الرقيق والتفرقة العنصرية مما كان من عوامل الثورة •

واهم السيوطى بحرده القرامطه • فقا عنهم فى أخبار
سنه ٢٧٨ هـ • فى ترجمته للخليفه المعتمد على الله : « وفيها
ظهرت القرامطة بالدوفه وهم نوع من الملاحدة يدعون انه
لا غسل من الجنابة • وان الخمر حلال ويزيدون فى آذانهم (وان
محمد بن الحنفية رسول الله) وان الصوم فى السنة يومان :
يوم النيروز ويوم المهرجان وان الحج والقبلة الى بيت المقدس •
وأشياء أخرى ، وفق قولهم على الجهال ، وأهل البر وتعب الناس
بهم » •

وهكذا نظر السيوطى الى القرامطة على أنهم (ملاحدة)
فحسب ، ولم يذكر أنهم فرقة متطرفة من فرق الشيعة الاسماعيلية •
ولم يذكر آراءهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية كما نسب
اليهم اضافة فى الأذان والمعروف ان القرامطة شيعة اسماعيلية
وليسوا كيسانية • والمعروف أيضا أن محمد بن الحنفية هو
امام الكيسانية • ولم يهتم السيوطى بإيراد التفاصيل عن حركات
القرامطة فى العراق والشام والبحرين • وتهديدهم لمصر ، وان
كان قد تحدث عن دور الهجرة التى أقامها القرامطة • وعن فظائع
القرامطية • ورعب الخليفة • واخفاق محاولاته لصددهم ، وانقطاع
الحج ، وهو يعتبر الحسين الحلاج من القرامطة •

عاشرا : واهتم السيوطى أيضا بالدولة الأموية بالاندلس ولكن فى
حدود ضيقة وهو أحيانا يحاول الربط بين تاريخ الأمويين فى
الاندلس وتاريخ العباسيين فى المشرق • وتحدث السيوطى عن

بيعة عبد الرحمن الناصر بالخلافة وهو ينسب ذلك الى ضعف وانحلال الدولة العباسية . وفي الحقيقة كان لقيام الخلافة الفاطمية في المغرب أثره في اعلان الخلافة الأموية بالاندلس . ويمتدح السيوطي عبد الرحمن الناصر . ولكنه لا يعترف بخلافته بل يسميه (صاحب الاندلس) .

فيقول السيوطي في ترجمته للخليفة الراضي بالله : « وفي سنة خمس وعشرين (٣٢٥ هـ) اختل الأمر جدا ، وصارت البلاد بين خارجي قد تغلب عليها . أو عامل لا يحمل مالا وصاروا مثل ملوك الطوائف ولم يبق بيد الراضي غير بغداد والسواد مع كون يد بن رائق عليه ولما ضعف أمر الخلافة في هذه الأزمان ووهب أركان الدولة العباسية . وتغلبت القرامطة والمبتدعة على الأقاليم . قويت همة صاحب الاندلس الأمير عبد الرحمن بن محمد الاموي المرواني . وقال : أنا أولى الناس بالخلافة وتسمى بأمر المؤمنين الناصر لدين الله ، واستولى على أكثر الأندلس ، وكانت له الهبة الزائدة والجهاد والغزو والسيرة المحمودة ، استأصل المتغلبين وفتح سبعين حصنا فصار المسمون بأمر المؤمنين في الدنيا ثلاثة : العباسي ببغداد ، وهذا بالاندلس ، والمهدي بالقيروان » .

حادى عشر : وبعثنى السيوطي بتتبع أخبار الحملات الصليبية على الشام ومصر وفي ترجمته للخليفة المستنصر بالله وفي أحداث سنة ٤٩٠ هـ ، يعتبر فتح الصليبيين لمدينة نيقية بداية الحملات الصليبية ، وهو يسمي الصليبيين دائما بالفرنج ، ويتهم السبوطي الفاطميين بتحريض الصليبيين على غزو الشام ، حينما استولى السلاجقة على هذه البلاد .

فيقول السيوطي : « وفيها - أي سنة ٤٩٠ هـ - جاءت

الفرنج فأخذوا نيقية ، وهو أول بلد أخذوه ووصلوا الى كفر طاب واستباحوا تلك النواحي . فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام . قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم . وانزعجت الملوك والرعية ، وعظم الخطب ، فقيل : أن صاحب مصر لما رأى قوة السلجوقية واستيلائهم على الشام كاتب الفرنج يدعوهم الى المجيء الى الشام ليملكوها ، وكثر على التغير على الفرنج من كل جهة » .

ويبدى السيوطى ألمه - ثرا وشعرا - لاستيلاء الصليبيين على بيت المقدس ، ويرى أن انقسام حكام المسلمين هو سبب توطيد الصليبيين لاقدامهم في الشام ، فيقول : « وفيها - أى سنة ٤٩٢ هـ - أخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف ، وقتلوا به أكثر من سبعين ألفا . منهم جماعة من العلماء والعباد والزهاد . وهدموا المشاهد وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم . وورد المستنفرون الى بغداد فأوردوا كلاما أبكى العيون ، واختلفت السلاطين فتمكنت الفرنج من الشام » .

ويستمر السيوطى في تتبعه للغزو الصليبي . فيتحدث عن استيلائهم على طرابلس سنة ٥٠٣ هـ . ويذكر في أخبار سنة ٥٠٤ هـ : « عظم بلاء المسلمين بالفرنج وتيقنوا استيلائهم على أكثر الشام . وطلب المسلمون الهدنة . فامتعت الفرنج ، وصالحوهم بألوف دنانير كثيرة ، فهادنوا ثم غدروا ، لعنهم الله » .

ويهتم السيوطى بالربط بين الصليبيين في المشرق والمسيحيين بالاندلس وهو يسميهم أيضا بالفرنج ويبدى سروره لاتتصار المسلمين في الاندلس مما قد يعوض هزائمهم في الشام . فقول السيوطى « فيها - أى سنة ٥٠٤ هـ - كانت ملحمة كبيرة بين الفرنج وبين بن تاشفين صاحب الاندلس ، نصر فيها المسلمون » .

وقتلوا ، وأسروا وغنموا ما لا يعبر عنه ، وبادت شجعان
الفرنج » *

ويبدى السيوطى أمله لانتقام المسلمين الذى استفاد
الصلبيون ، منه فيقول : « وفى سنة سبع - أى ٥٠٧ هـ - جاء
مودود صاحب الموصل بعسكر ليقاتل ملك الفرنج الذى
بأندلس * فوقع بينهم معركة هائلة * ثم رجع مودود الى دمشق
فصلى الجمعة يوما فى الجامع * واذا بإطنى وثب عليه فجرحه *
فمات من يومه * فكتب ملك الفرنج الى صاحب دمشق كتابا فيه :
« وان أمة قتلت عميدها فى يوم عيد فى بيت معبودها لحقيق على
الله أن يبيدها » *

وتختفى أخبار الصليبيين فى تراجم الخليفين المسترشد
والراشد وتظهر مرة أخرى فى ترجمة الخليفة المقتضى فيتحدث
عن جهود نور الدين محمود بن زنكى ، فيقول : « وفى سنة ثلاث
وأربعين - أى ٥٤٣ هـ - حاصرت الفرنج دمشق * فوصل اليها
نور الدين محمود بن زنكى وهو صاحب حلب يومئذ * وأخوه
غازى صاحب الموصل فنصر المسلمون ولله الحمد ، وهزم الفرنج
واستمر نور الدين فى قتال الفرنج وأخذ ما استولوا عليه من
بلاد المسلمين » *

وفى ترجمة السيوطى أيضا للخليفة المقتضى يربط بين
العباسيين والفاطميين والصلبيين فيتحدث عن تولية الخليفة
الفاطمى الفائز وكان صيبا صغيرا * فضعفت فى عهده الدولة
الفاطمية وانتهر الخليفة العباسى هذه الفرصة لاسترداد مصر
وكلف بذلك نور الدين زنكى ، فيقول السيوطى : « وفى سنة
تسع وأربعين - أى ٥٤٩ هـ - قتل بمصر صاحبها الظافر بالله
العبيدى وأقاموا ابنه الفائز عيسى صيبا صغيرا ، ووهى أمر

المصريين ، فكتب المقتضى تقليدا ، وأمره بالمسير الى مصر ،
ولقبه بالملك العادل وعظم سلطان المقتفى واشتدت شوكته ،
واستظهر على المخالفين ، وأجمع على قصد الجهات المخالفة
لأمره • ولم يزل أمره في تزايد وعلو الى أن مات •• « •

وفي الترجمة التالية ، وهي للخليفة المستنجد بالله ، يتحدث
السيوطى عن موت الخليفة الفاطمى الفاضل وتولية الخليفة الأخير
العاضد كما تحدث عن حملتى أسد الدين شيركوه الى مصر ،
ونجاحه فى اجلاء الصليبيين ثم تولية الخليفة الفاطمى العاضد
الفاطمية واتهز الخليفة العباسى هذه الفرصة لاسترداد مصر وكلف
الوزارة لشيركوه ثم لابن أخيه صلاح الدين وقد لقبه الخليفة
بلقب « الملك الناصر » وفى الترجمة للخليفة المستنجد يتحدث
السيوطى عن نهاية الدولة الفاطمية ، وأفراح بغداد ، وعودة
الخطبة للعباسيين الى مصر ، ويبدى السيوطى سروره لذلك •

وفى ترجمة السيوطى للخليفة التالى الناصر لدين الله يشيد
بجهود صلاح الدين الايوبى ضد الصليبيين وفتح بيت المقدس
بعد سيطرة الصليبيين عليها احدى وتسعين سنة • ومن المسائل
الطريفة التى ذكرها السيوطى فى هذا المجال عتاب الخليفة
الناصر لصلاح الدين لانه تسمى بالملك الناصر •• « مع علمه أن
الخليفة أختار لنفسه هذه التسمية » •

ولا يجد السيوطى فى حديثه عن الحروب الصليبية حرجا
فى أن يذكر بعض الغرائب فهو مولع دائما بكل ما هو غريب
وعجيب • « فيقول السيوطى : » ومن الغرائب ان ابن برجان
ذكر فى تفسير (آلم غلبت الروم) ان بيت المقدس يبقى فى يد
الروم الى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة • ثم يغلبون
ويفتح دار اسلم الى آخر الأبد أخذنا من حساب

الآية • فكان كذلك » ونحن نتمنى ان نرى الآن ابن برجان يحدد لنا موعد استرداد العرب والمسلمين لبيت المقدس من أيدي الاسرائيليين البغاة وندعوا الله عز وجل أن يكون موعدا قريبا جدا •

وفي نفس الترجمة للخليفة الناصر يتحدث السيوطى عن حملة صليبية على مصر فيذكر أن الصليبيين فى سنة ستمائة هاجموا رشيد ودخلوا مدينة (فوة) فنهوها ثم جلوا عنها تم استولوا سنة ٦١٦ هـ على دمياط • وقد ضعف الملك الكامل الايوبى عن مقاومتهم وقيام الكامل بائشاء مدينة المنصورة ويحيط بها سور منيع لمواجهة الصليبيين •

وحيثما ترجم السيوطى للخليفة العباسى الأخير المستعصم بالله تابع أخبار الصليبيين فتحدث عن استيلاء الصليبيين على دمياط سنة ٦٤٧ هـ • وموت السلطان الأيوبى الأخير الصالح أيوب • وجهود زوجته شجرة الدر • ثم تولى عز الدين أيبك التركمانى واسترداد دمياط سنة ٦٤٨ هـ •

ثانى عشر : ونجد فى تراجم السيوطى للخلفاء العباسيين بالعراق كثيرا من أخبار المغول الذين يسميهم (التتر) أو التتار - والسيوطى فى ترجمته للخليفة الناصر يجعل سنة ٦٠٦ هـ • « ابتداء أمر التتار » وتختفى أخبار التتار فى ترجمة الخليفة الظاهر لتعود مرة أخرى فى ترجمة الخليفة المستنصر بالله • فيذكر السيوطى أن التتار هددوا الحدود العباسية فأرسل المستنصر اليهم جيشا هزمهم « هزيمة عظيمة » ثم يتحدث السيوطى عن أخ للخليفة كان يريد تركيز جهوده لقتال التتار لو تولى الخلافة ، ولكن ضياع آماله أضر بمصالح المسلمين • فيقول السيوطى :
« وكان له - أى المستنصر - أخ يقال له الخفاجى فيه

شهادة زائفة • وكان يقول : لئن وليت لأعبرن بالعسكر نهر جيحون ، وأخذ البلاد من أيدي التتار وأستأصلهم فلما مات المستنصر لم ير الدويدار ولا الشرابي الخفاجي خوفا منه • وإفاما ابنه أبا أحمد للينه وضعف رأيه ليكون لهما الأمر ليقضى الله أمرا كان مفعولا من هلاك المسلمين في مدته • وتغلب التتار فانا لله وانا اليه راجعون » •

ثم نقرأ في ترجمة السيوطي للخليفة العباسي الأخير المستعصم بالله وصفا تاريخيا لسقوط الدولة العباسية نتيجة للغزو التتاري • ويعقد السيوطي فصلا خاصا عن التتار يجعل عنوانه (شرح حال التتار) ملخصا في نحو عشر صفحات • فيقدم السيوطي وصفا جسيما وأخلاقيا ونفسيا للتتار • ويصف ملابسهم وطعامهم ونساءهم وعقائدهم ويرى أن التتار هدفوا الى إبادة الجنس البشري • فيقول السيوطي : « وليس في قتلهم استثناء ولا إبقاء يقتلون الرجال والنساء والأطفال وكان قصدهم افناء النوع وإبادة العالم لا قصد الملك والمال » • وقدم السيوطي دراسة للوطن الأول للتتار ودراسة لجنكيز خان ويستنكر السيوطي اقدام السلطان (خوارزم شاه) على قتل رسل جنكيز خان فيقول : « فيالها من حركة لما أهدرت من دماء المسلمين وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم » •

ويعقد السيوطي دراسات مقارنة فيقارن بين فظائع التتار في المدن الاسلامية وبين ما فعل بختنصر ببنى اسرائيل بالبيت المقدس ، ويقارن بين سرعة الفتوحات التتارية وفتوح الاسكندر والنتائج المترتبة على كل من الفتوحات •

ثم يقدم السيوطي صورا قائمة مؤلفة لسقوط بغداد وفظائع التتار في الشام ويشيد بجهود المصريين في وقف تيار الزحف التتاري في عين جالوت •

القسم الخامس : الخلفاء العباسيون بالقاهرة

لا شك أن هذا القسم الاخير يتفوق في أهميته التاريخية على الأقسام الأخرى السابقة • فقد كان السيوطى معاصرا لبعض هؤلاء الخلفاء • وقريبا من المعاصرة لسائر الخلفاء • مما يجعل دراسة السيوطى للخلافة العباسية بالقاهرة مصدرا أساسيا للباحثين في تاريخ هذه الخلافة •

ويجعل السيوطى أيضا الخلفاء العباسيين بالقاهرة محاورا لدراسته وهو يتحدث عن سلاطين المماليك من خلال تراجمه للخلفاء • ولا يجد حرجا في انتقاد السلاطين الذين أساءوا الى بعض الخلفاء • ويرتب السيوطى الأحداث التى وقعت فى العالم الاسلامى من خلال تراجمه • حسب سنوات حدوثها •

ولذا تعتبر دراسة السيوطى للخلفاء العباسيين بالقاهرة هى امتداد لدراسته للخلفاء العباسيين بالعراق • فلا يوجد فاصل بين الدراستين ولا يضع عنوانا مميزا ، فالخلافة العباسية فى نظر السيوطى قائمة ، وان انتقل مقرها من بغداد الى القاهرة والخطبة للخليفة مستمرة ، واسم الخليفة ينقش على السكة • وان كان سلاطين المماليك قد استأثروا بالسلطات الحقيقية ، فقد سيطر قبلهم الأتراك والبويهيون والسلاجقة على النفوذ والسلطة فى الدولة • والسيوطى يتألم كثيرا لانقطاع الخلافة ثلاث سنوات ونصف سنة ، فهو لا يتصور خلو العالم الاسلامى من الخلافة والخلافة العباسية بالذات •

ويقدم السيوطى صورة تاريخية وافية لقيام الخلافة العباسية بالقاهرة فى عهد السلطان المملوكى الظاهر بيبرس ولكنه لا يذكر دوافع السلطان السياسية الى احياء الخلافة • فالسيوطى يرى أن استمرار الخلافة العباسية أمر حتمى واجب • ليس له دوافع سياسية • ويروى

السيوطى قصة خروج الخليفة العباسى الأول المستنصر من القاهرة الى العراق لاقامة الخلافة بها • ثم ما كان من مصرعه • ولم يذكر السيوطى ما تعرفه من عدول السلطان الظاهر بيبرس عن تأييد عودة الخليفة العباسى الى بغداد •

ويقدم السيوطى دراسة متسلسلة لتطور العلاقات بين الخلفاء العباسيين بالقاهرة وسلاطين المماليك ويتتبع موجات المد والجزر فى سلطات الخلفاء • فهو يمدح السلطان الأشرف صلاح الدين خليل ابن السلطان قلاوون لأنه « أظهر أمر الخليفة وكان خاملا فى أيام أبيه • حتى أن أباه لم يطلب منه تقليدا بالملك » • واتهم الخليفة العباسى الحاكم بأمر الله هذه الفرصة ليخطب فى الناس « خطبة جهادية » طالب فيها السلطان والناس باسترداد بغداد لتنتقل الخلافة إليها • ويتحدث السيوطى أيضا عن سوء العلاقات بين الخليفة المستكفى والسلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وقبض السلطان على الخليفة ، واعتقله ومنعه من لقاء الناس • ثم نفيه سنة ٩٠٧ هـ الى قوص • • ويبدى السيوطى ألمه الشديد لهذه الأحداث فهو يتعاطف دائما مع الخلفاء العباسيين •

وينتقد السيوطى موقف السلطان الناصر حين تجاهل عهد الخليفة المستكفى لابنه ويبعته للخليفة الواثق بالله حفيد الخليفة الحاكم بأمر الله الذى لم يكن - فى رأى السيوطى - جديرا بالخلافة لسوء اخلاقه وانصرافه الى اللهو ، ويطيل السيوطى فى انتقاد هذا الخليفة • ثم يتحدث السيوطى عن سعى قاضى القضاة • فى تحويل الخلافة الى أحمد بن المستكفى ورأى السلطان فى الاستغناء تماما عن الخلافة • ويبدى السيوطى ألمه الشديد لخلو القاهرة من الخلافة • حتى اذا قارب السلطان الوفاة ، وافق على عودة الحق الى صاحبه • فتولى احمد بن المستكفى واتخذ لقب الحاكم بأمر الله • ويكتب السيوطى

سطور كثيرة يبدى فيها سروره لعودة الخلافة • ويهتم السيوطى بذكر صيغة المبالغة لهذا الخليفة وهى صيغة طويلة تقع فى نحو ثمان صفحات •

ويستمر السيوطى فى دراسة تطور العلاقات بين الخلفاء والسلاطين فيتحدث عن عزل السلطان برفوق للخليفة المتوكل وسجنه له بقلمة الجبل والبيعة لآخر باسم الواثق بالله • ويتحدث السيوطى أيضا عن الخليفة المستعين بالله الذى جمع بين الخلافة والسلطنة بعد مصرع السلطان الناصر فرج بن برفوق ويذكر السيوطى ان هذا الخليفة قبل السلطنة بالحاح شديد من امراء المماليك وبعد قسمهم له على الطاعة ويذكر السيوطى القصيدة الطويلة التى مدح بها (ابن حجر) هذا الخليفة السلطان •

ويمدح السيوطى الخليفة المستكفى بالله • فقد كان والد المؤرخ أما ما لهذا الخليفة وقد نشأ السيوطى فى بيت الخليفة وفضله • ويقول السيوطى عنه : « وما اظن أنه وجد على ظهر الأرض خليفة بعد آل عمر بن عبد العزيز أعبدًا من آل بيت هذا الخليفة » • يتحدث السيوطى عن موت أبيه بعد أربعين يوما من وفاة هذا الخليفة سنة ٩٥٤ هـ • ويذكر السيوطى أسم أبيه ضمن قائمة الأعلام التقليدية التى تضم أسماء المنتقلين الى جوار الله تعالى •

ويقدم السيوطى فى هذا القسم صورا فكرية عديدة • فهو يتحدث عن قيام المدارس ودورها فى النشاط العلمى • كما يصور لنا النشاط الثقافى فى جوامع مصر كما قدم السيوطى صورا لتنافس وصراع أمراء المماليك حول السلطنة ومراسم تقليدهم السلطنة وتحدث عن نظامى القضاء والحسبة فى مصر • وتطرق الى بعض الموضوعات الاقتصادية وخاصة ضرب الدنانير والدرهم ووزنها وقيمتها • كما رسم بعض الصور الاجتماعية وخاصة ما يرتبط بملابس أهل الذمة

في مصر • ويعيب هذا القسم أيضا تلك العجائب والغرائب التي حرص
السيوطى على ذكرها ، والتي لا تتفق مع العقل والمنطق •

وفي آخر هذا القسم • يشير السيوطى لأول مرة الى الدولة
العثمانية وهو يسمي السلطان العثمانى (ملك الروم) ويتحدث عن
تنافس أميرين عثمانيين على السلطنة والتجاء احدهما الى مصر •
وهذا الخبر هو الوحيد الذى يذكره السيوطى عن العثمانيين • فيقول:
وفيها - اى سنة ٨٨٦ هـ - ورد الخبر بسوت السلطان محمد
ابن عثمان ملك الروم • وان ولديه اقتتلا على الملك • فغضب أحدهما
واستقر فى المملكة وقدم الآخر الى مصر • فآكرمه السلطان غاية الاكرام •
وانزله ثم توجه من الشام الى الحجاز برسم الحج » •
وفي خاتمة الكتاب يذكر السيوطى قصيدة طويلة من نظمه •
تضم أسماء معظم الخلفاء وأهم أحداث عصورهم • ويذكر أن قصيدته
أفضل من الأراجيز الاخرى المماثلة •

وبعد •• فهذه دراسة تحليلية نقدية لكتاب (تاريخ الخلفاء)
للسيوطى ونستطيع أن نقرر أن السيوطى كان فى مقدمة المشتغلين
بالدراسات التاريخية • فقد خصص جانبا بارزا من اتجاhe الفكرى
لدراسة التاريخ • وقد أبدى تفوقا واضحا فى (التراجم) وهى لون
من ألوان الدراسات التاريخية وتحتاج الى موهبة خاصة • وقد لا نجد
فى مكتبتنا العربية كتابا يضم مثل هذه التراجم العديدة للخلفاء ،
يادئا بابى بكر ومنتهيا خلفاء العباسيين بالقاهرة • ويتصف الكتاب
غالبا بالاعتدال فى تقرير الاحكام • وفى النقد • كما يقدم الكتاب
صورا فكرية عديدة متنوعة • وخاصة الصور الدينية والأدبية • كما
تنصف الكتاب بجازية القراءة والسلاسة والتشويق •• وهو مكتوب
بروح الايمان العميق •

وان كان السيوطي لا يتفوق كثيرا على غيره من المؤرخين الا
اننا نجل السيوطي ونقدره * فهو من المؤرخين الهواة * وليس من
المحترفين * فقد انقطع السيوطي عن هذه الحياة * يعرضها ومادياتها
ومغرياتها للتأليف والبحث والاستقصاء ولم يكن له حرفة يرتزق منها *
واتصف السيوطي بأنه (عالم) تتوفر له أركان ومقومات هذا اللفظ *
فهو يكرس وقته وجهده للبحث عن المعرفة * ويجد السعادة في الكتابة
والدراسة * ولم يضع السيوطي مؤلفاته ليقدّمها الى السلطان أو حاكم
أو عين من الأعيان بل كتبها خدمة للفكر الاسلامي * واتخذ من
التاريخ وسيلة لنشر أفكاره وتطبيق دراساته الاخرى مبتغيا وجه
الله تعالى وثوابه *

وان كان السيوطي يلقى الآن كل تقدير واجلال من الباحثين
والدارسين والقراء * فاننا ندعو له أيضا بحسن الجزاء في الآخرة *
والله عز وجل ولي التوفيق *

المرأة في كتابات السيوطي

للدكتور أحمد عبد الرازق

مدرس التاريخ الاسلامي بكلية الآداب

جامعة عين شمس

المرأة فى كتابات السيوطى

يحسن بنا قبل أن نتعرض لموضوع المرأة فى كتابات السيوطى أن نعرف فى شىء من الايجاز بهذا العالم الفذ (١) الذى يعد على حد قول أحد المستشرقين من أخصب كتاب مصر المملوكية (٢) .

والسيوطى هو أبو النسل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ، جلال الدين الخضيرى الشافعى ، ولد بالقاهرة أول شهر رجب سنة ١٤٤٥/٨٤٩ ، من أسرة ينتهى أصلها الى الشيخ همام الدين الخضيرى الذى يقال أنه نزع من بغداد ليقوم بمدينة أسىوط فى أيام الدولة الأيوبية (٣) حيث طابت الإقامة له ولبقية أفراد أسرته التى استقرت هناك حتى أيام محمد والد جلال الدين السيوطى الذى اضطر الى تركها سعيا وراء العلم والمعرفة فرحل منذ حداثة الى مدينة القاهرة وتولى التدريس بالمدرسة الشىخونية (٤) وخطب بجامع أحمد بن طولون ، ووضع الكثير من التأليف فى الفقه والنحو وظل مقيما فى وظيفته بالمدرسة الشىخونية الى أن فاجأته المنية فى شهر صفر سنة ١٤٥١/٨٥٥ وابنه جلال الدين لم يزل فى السادسة من عمره (٥) فكفله أحد تلاميذ أبيه ، حيث أستطاع أن يختم القرآن وهو دون الثامنة

من عمره ، ولا عجب في هذا فقد عنى والده بتعليمه وحفظه جزءا كبيرا من القرآن في حياته ، بل واستنصحه انتر من مره الى مجلس الشيخ بن حجر في الحديث * على ايه حال سعى جلال الدين في طلب العلم بأنواعه ، فلم يتعاص عليه فرع أو يتعاضمه فن ، الا الحساب ، فانه نهل عليه النظر فيه لعدم ملاءمته طبيعته وكذا المنطق فانه كرهه وعزف عنه لسبب مشابه كما جاء على لسانه شخصيا * أما عن علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو ، والمعاني ، والبيان ، والبديع ، نفسه يقول أنه درسها حتى بلغ فيها درجات متفاوتة في الكمال ، وأنه رزق النبحر في السبعة الأولى منها حتى فاق أشياخه كلهم ، وأنه اخترع علم أصول اللغة وورثه وأنه وصل الى مرتبة « المجتهد المطلق » في الحديث والفقه والعربية باجتماع « آلات الاجتهاد » كلها لديه ، ولو شاء أن يكتب في أية مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ، ومداركها وتقوصها وأجوبتها ، مع الموازنة بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدر على ذلك كله تماما في غير عناء (٦) *

والحق ان جلال الدين السيوطي قد بلغ تلك المكانة الرفيعة من العلم والمعرفة نتيجة لحياة دراسية حافلة بدأها سنة ١٨٦٤/١٤٦٠ حيث درس على يد ستمائة شيخ من شيوخ عصره بمختلف البلاد المصرية ، اذ سافر الى مراكز العلم بدمياط والاسكندرية والمحلة الكبرى والفيوم ، ومكة حيث حج سنة ١٨٧٦/١٤٦٣ وجاور عاما كاملا (٧) * وتذكر المصادر أن أول شيء ألفه كان كتاب في شرح الاستعاذة والبسملة حيث وضعه وهو في السابعة عشر من عمره ، كما أنه باشر تدريس الفقه بالمدرسة الشيخونية الذي لم تنقطع عنه وظيفته منذ وفاة أبيه ، وكان تعيينه هناك بسفارة شيخه العلم البلقيني سنة ١٨٧٢/١٤٧٦ الذي سبق أن أجاز له بالتدريس (٨) *

بيد أن عمله لم يقتصر فقط على التدريس بالشيخونية بل تصدى

للافتاء واملاء الحديث بجامعة أحمد بن طولون ، وتولى أيضا مشيخة التصوف بتربة برقوق نائب الشام التي توجد الآن بصحراء قايتباي (٩)، وذلك بسفارة أحد أقاربه وهو أبو الطيب السيوطي (٩٩) .

وفي سنة ١٤٨٦/٨٩١ انتقل الى مشيخة الخانقاة البييرسية وكانت تعد حينذاك من أكبر خوانق القاهرة (١٠) وأوسعها أوقافا وقد تم له ذلك بسفارة الخليفة المتوكل على الله عبد العزيز العباس (١١) ، حيث أعانتة تلك الوظيفة على التفرغ للكتابة والتأليف ، بيد أنه حدث في عام ١٤٩٧/٩٠٣ أن قطع جلال الدين السيوطي جعيلة الصوفية بالخانقاة البييرسية بحجة أنهم خانوا طريقتهم ونسوا صوفيتهم ، فثاروا عليه ، وكادوا أن يقتلوه ، كما يذكر ابن اياس ، وحملوه بأثوابه ورموه في الفسقية ، وجرى بسبب ذلك أمور يطول شرحها (١٢) ، ويبدو أن أعداءه قد انتهزوا هذه الفرصة وكان على رأسهم الأمير طومان باي الدوادار الذي كان محظا عليه ، ومن ثم فقد جرت محاكمة للسيوطي ثبت من خلالها أن طمعه قد أفسده وأن تفكيره في الاستيلاء على دراهم الصوفية جعله غير أهل لمشيخة الخانقاة البييرسية فعزل في شهر رجب سنة ١٥٠١/٩٠٦ ، واعتكف في بيت له بجزيرة الروضة وقيل أنه لم يفتح شبايكه المظلة على النيل مدة بل اضطر في النهاية الى الاختفاء فترة عندما تطلبه السلطان طومان باي الدوادار ليفتك به لما كان في نفسه منه قبل سلطنته (١٣) . وظل السبوطي مختفيا لا يعرف له أحد مكانا حتى وفاة السلطان طومان باي فعاد بعدها الى بيته بجزيرة الروضة في غضون شهر شوال من السنة المذكورة ايشيع بين معارفه أنه رأى الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام وأنه بشره بقرب زوال دولة السلطان طومان باي (١٤) .

بعدها اعتزال العمل الحكومي والاعتكاف في بيته وفي ذلك يقول
ومن الواضح أن تلك الحادثة قد تركت أثرا في نفسه إذ قرر

الشعرانى : أن السلطان الغورى قد عرض عليه رئاسة مشيخة مدرسته
بالقبة الزرقاء (١٥) فرفض السيوطى وفضل البقاء فى عزلته (١٦) .
ولم يقبل بأى حال من الأحوال أن يجرب حظه من جديد ويعود الى
الحياة العامة وظل بعد انزوائه حتى لقي ربه فى ١٩ جمادى الأولى سنة
١٥٠٥/٩١١ ودفن بجوار خانقاة قوصون خارج باب القرافة
بالقاهرة (١٧) .

أما عن مؤلفات هذا العالم الذى قال عنه المؤرخ بن اياس أنه
« نادرة فى عصره ، بقية السلف ، وعمدة الخلف (١٨) » ، فقد تضاربت
الآراء بصددتها اذ ورد على لسانه وعلى لسان زميله ومعاصره
السخاوى وهو يؤرخ له أن عددها أربى على ثلثمائة سوى ما غسله
ورجع عنه (١٩) ، على حين ذكر بن اياس أن مصنفاته بلغت نحواً من
ستمائة تأليف (٢٠) وصلنا منها ما يقرب من هذا العدد أذ أحصى له
الاستاذ فلوجل سنة ١٨٨٢ ما يقرب من ٥٦١ مؤلفاً امدا بروكلمان
بأسماء ٤١٥ تصنيفاً منها (٢١) مما حدا ببعض الباحثين الى الربط
بينه وبين رامون لول الأسبانى أحد كتاب العصور الوسطى الغريبة
فى كثرة المؤلفات اذ بلغت مؤلفات هذا الأخير ما يقرب من خمسمائة
مصنفاً (٢٢) .

غير أنه مهما قيل فى عدد مؤلفات جلال الدين السيوطى فان
الذى يهنا منها فى الوقت الحاضر هو ما كان متعلقاً بالمرأة وبذكر
المرأة وهو فى الواقع قليل اذا قورن بهذا الانتاج الضخم ولا زال أغلبه
مخطوطاً يرقد جيبس الأدراج ، والأضابير ولذا فقد رأينا أن نقدم
له فى هذه المناسبة دون التعرض لاحتوياته فى شىء من التفصيل خاصة
وأن غالبية هذا الانتاج لا يزال مبعثراً فى مكتبات الشرق الاسلامى
والغرب الأوروبى مما يزيد من صعوبة اعطاء تحليل كامل لتلك

المصنفات ووضعها في مكانها الصحيح بين مؤلفات جلال الدين السيوطي وكذا التحقق من صدق نسبتها اليه •

المخطوطات :

تأتى المخطوطات على رأس تلك المجموعة القليلة من المؤلفات وهى تتسم بأن غالبيتها لا يعدو كراسة أو رسالة مختصرة قد يكون السيوطى وضعها ليدعم أقواله أو ليرد على من أغضبه أو خالفه أو سخر منه ، اذ من المسلم به أن السيوطى عاش غضوبا (٢٣) • وقد راعينا فى عرض تلك المجموعة الترتيب الأبجدي للحروف العربية •

- اسبيل النساء (٢٤) على النساء :

وهو يتعرض لموضوع رؤية البارى فى الجنة هل تحدث للنساء أم لا ؟ ويذكر حاجى خليفة أن الشيخ الجوجرى قد منعه وحرّم تداوله ، ثم قام بتلخيصه فى كراسة صغيرة تحت عنوان وقع الأسى على النساء (٢٥) •

- الاحتفال بالأطفال (٢٦) •

وهو يتناول موضوعا من الموضوعات المتعلقة بالأسرة ويتحدث عن كيفية الاحتفال بمقدم طفل من الأطفال وما يجب على الأم اتباعه والاحتفالات الشرعية فى هذا الصدد.ومن الواضح أن هذه الرسالة قد وضعها السيوطى للرد على بعض المستفسرين •

- الأس فى من رأس فى ٠٠٠ من المطايبات (٢٧) •

من الصعب التعرض هنا لموضوع هذا المصنف طالما أننا لم نعر عليه فى المكتبات المعروفة لنا ، وان كنا نستشف من عنوانه ، والكتاب كما يقول المثل يقرأ من عنوانه ، يتناول موضوعات خاصة بالمزاح ، والجماع ، والأكل ، والخمر وما الى ذلك كما تشير بذلك لفظة المطايبات (٢٨) •

- الإفصاح في أسماء النكاح (٢٩) *

النسخة الوحيدة من هذا المجلد محفوظة في كمبردج تحت رقم ١٠٠٨ ملحق ، لذلك من الصعب التعرض لمتن هذا المجلد وان كان حاجي خليفة قد أشار بصدده أنه عبارة عن « لغة صرف مبسوط بنقوله وشواهد في مجلد (٣٠) » *

- الآيات في معرفة ٠٠٠ (٣١) *

وهو عبارة عن كراسة صغيرة نفع في اثنين وثلاثين ورقة وتتناول موضوع الجماع وكيفية الاستمتاع أثناء العملية الجنسية بأسلوب يجعلنا نتساءل عن مدى جدية نسبة هذه الرسالة للعالم جلال الدين السيوطي ا على أية حال ، هذه الكراسة عبارة عن مختصر للكتاب الذي وضعه السيوطي نفسه تحت اسم الوشاح في فوائد النكاح الذي سوف نشير اليه فيما بعد والذي يعتبر أيضا بمثابة ملخص لكتاب مباسم الملاح ومناسم الصباح في مواسم النكاح الذي سوف نعرض له في حينه *

- تحفة المجلساء بروية الله تعالى للنساء (٤٢) *

وهو من كتب الأحاديث ، اذ يحتوى على العديد من الأحاديث النبوية المتعلقة بالنساء بعضها يرفع من قدرهن والبعض الآخر ينال منهن ويلاحظ أيضا أنه شبيه في موضوعه بموضوع اسبال الكساء على النساء الذي سبق أن أشرنا اليه *

- الثغور الباسمة في مناقب السيدة آمنة (٣٣) *

وهو أيضا من الكتب الخاصة بفن الحديث ومتعلقاته كما صنفه المؤلف نفسه في كتاب حسن المحاضرة حيث يضمن فيه الأحاديث التي ذكرت في مآثر السيدة آمنة والدة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو شبيه في موضوعه ببعض موضوعات كتاب

الفوائد الكامنة في ايمان السيدة آمنة المعروف باسم التعظيم
والمنة في أن أبوى النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة للمؤلف
نفسه كما سوف نشير عند التعرض له *

٠ تلج الفؤاد في أحاديث لبس السواد (٣٤) *

وهو يتناول أحد الموضوعات الهامة بالنسبة للحياة
الاجتماعية زمن العصور الوسطى وهو عادة ارتداء النساء
للسواد كعلامة من علامات الحزن تلك الظاهرة التي لا زالت
قائمة بين طهرانينا الى اليوم ، واحكام الشرع فيما يتعلق بهذه
العادة القديمة * وهو نظير لمؤلفه المعروف باسم فضل الجلد
عند فقد الولد الذي سوف نشير اليه فيما بعد *

٠ الدرارى في أبناء السرارى (٣٥) *

وهو عبارة عن رسالة في الفقه تتعلق بأولاد السرارى اللاتى
يطلق عليهن في كتب الفقه أمهات الولد ونظرة الشرع الى
أبنائهن بعد موت الآباء *

٠ رسالة فى أحكام دخول الحشفة بالفرج (٣٦) *

لسنا فى حاجة الى شرح محتويات هذه الرسالة ، فكما
يقول المثل الكتاب يقرأ من عنوانه ، لكن الذى لا شك فيه أنها
تتناول أيضا بعض المسائل المتعلقة ببعض القضايا الاجتماعية مثل
قضية اثبات الزنا *

٠ رسالة فى استعمال الحنة (٣٧) *

لم نعرش على نسخ مخطوطة من هذه الرسالة سوى ما ذكره
عنها بروكلمان ولذلك فمن المرجح أنها كانت ضمن أحد مؤلفاته
العديدة التى وصلنا بعض أسمائها فقط *

— رسالة في تزويج فاطمة (٣٨) .

وهي تتحدث عن تزويج الرسول لابنته فاطمة الزهراء بعلی ابن أبي طالب ، ووصايا الرسول لها في هذا الصدد فضلا عن الاشارة الى بعض مناقب السيدة فاطمة .

— الروض الأريض في طهر المحيض (٣٩) .

وهو من الرسائل الهامة في فن التفسير ، اذ يتناول موضوع محيض النساء وطهارتهن كما جاء في سورة البقرة « ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ، فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن ، فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ، ان الله يحب التوابين ويحب المتطهرين (٤٠) » .

— ضوء الصباح في لغات النكاح (٤١) .

لم نعر على أية نسخة من هذا المخطوط في المكتبات المعروفة لنا ، وعلى هذا فمن المستحسن عدم التعرض لمتن هذا التصنيف ، وان كنا نميل الى الترجيح في الوقت ذاته ، أنه يتناول نفس الموضوع القديم الذي سبق لجلال الدين السيوطي أن تعرض له في كتب : الافصاح في أسماء النكاح الذي سبقت الاشارة اليه ، وفي الايضاح في أسرار النكاح الذي سوف تعرض له في الصفحات التالية .

— العجالة الزرنيبية (٤٢) في السلالة الزينبية (٤٣) .

وهو من المؤلفات التي تتناول عرض سلالة السيدة زينب رضي الله عنها ابنة فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلي بن أبي طالب .

- عين الاصابة فيما استدركت عائشة من الصحابة (٤٤) *

أشار اليه جلال الدين السيوطي في مؤلفاته في فن الحديث (٤٥) وهو يتناول الكلام عن فريق الصحابة المعاصرين للسيدة عائشة زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعض الأحاديث التي أخذوها عنها *

- فضل الجلد في فقد الولد (٤٦) *

وهو عبارة عن رسالة أورد فيها أحاديث ذكرها الرسول للنساء عند فقد أولادهن ، كما اشتمل على نخب وحكايات واعتبارات ويذكر حاجي خليفة أنه ثالث مؤلف ألفه جلال الدين السيوطي ، كما أشار الى تأليفه لتصانيف أخرى في هذا المعنى مثل كتابه تلج الفوائد في أحاديث لبس السواد التي سبقت الإشارة اليه ومن المعروف أن هذه الرسالة مطبوعة تحت عنوان « برد الأكباد عند فقد الأولاد » وتشتمل على بعض أشعار السيدة فاطمة الزهراء التي أنشدتها على قبر الرسول عقب دفنه :

« أمس نجدى للدموع رسوم

أسفا عليك وفي الفؤاد كلوم (٤٧) »

- الفوائد الكامنة في إيمان السيدة آمنة (٤٨) *

وهو يختص بالحديث عن أم النبي صلى الله عليه وسلم فقد روت عائشة رضي الله عنها حديثين أحدهما أن الرسول لما حج بقبر أمه السيدة آمنة فسأل الله عز وجل فأحيها فأمنت. فردها الى حفرتها ، كما يشير الي بكاء الرسول على قبر أمه فيقول علي لسان الرسول الكريم « ان القبر الذي رأيتموني أناجيه فيه ، قبر آمنة بنت وهب واني استأذنت ربي في زيارتها فأذن لي فاستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي » كما يشتمل

هذا الكتاب على بعض النصوص الخاصة بدخول السيده آمنة
أم الرسول الجنة ، ومن المعروف ان هذا الكتاب طبع في القاهرة
تحت اسم « التعظيم والمنة في أن أبوى رسول الله في
الجنة (٤٩) » كما جاء على لسان جلال الدين السيوطى في كتابه
حسن المحاضرة (٥٠) .

— مباسم الملاح ومناسم الصبح فى مواسم النكاح (٥١) .

وهو يشتمل على سبعة فنون : الأول فى الحديث والآثار ،
والثانى فى اللغة ، والثالث فى النوادر والأخبار ، والرابع فى
السجع والأشعار والخامس فى التشريح ، والسادس فى الطب ،
والسابع فى الباء الذى لا يستطيع المرء أن يقرأه دون أن تعلق
وجوه حمرة الخجل ، ويبدو أن جلال الدين السيوطى قد
استطاع هذا المصنف فلخصه فى نحو عشرين كراسه وسماه
الوشاح فى فوائد النكاح ، الذى اختصره بدوره تحت اسم
الأيك فى معرفة ... الذى سبق أن قدمنا له . ولا غرابة فى هذا
فإن الحقبة الأخيرة من عصر المماليك كانت تعتبر بمثابة عصر
الجمع والتلخيص والتكميل والشرح (٥٢) مما حدى بالفيلسوف
ابن خلدون أن يذم هذا النوع من التأليف فى الفصل الذى
عقده فى مقدمته بعنوان « فى أن كثرة الاختصارات المؤلفة فى
العلوم مخلة بالتعليم » .

— منتقى الينبوع فيما زاد على الروضة من الفروع (٥٣) .

وهو من المؤلفات التى يتعرض فيها السيوطى لموقف الاسلام
من دخول الحمام فهو يبيحه للرجال بشروط ، ويقول أنه مكروه
للنساء الا فى حالات خاصة مستندا فى ذلك الى قول الرسول
الكريم « ... ومن كانت تؤمن بالله واليوم الآخر من اناث
أمتى فلا تدخل الحمام الا مريضة أو نفساء » .

• نزهة لاعمر فى التفضيل بين البيض والسود والسمر (٥٤) •

ومن المؤلفات الطريفة الجامعة التى وضعها السيوطى ليرد بها على كل من كتب فى هذا الموضوع ، اد من المعروف أن جماعة من الأدباء قد ألقوا فى موضوع التفضيل بين البيض والسود أو بين السود والبيض ومن بينهم ابن الرزبان الذى وضع كتاب « السودان وفضلهم على البيض » ، كما أشار المنذرى فى تاريخه الى قصة النزاع بين رجلين فى فضائل البيض والسود مما دفع أبا العباس الناشئ الى تأليف رسالة موضوعها تفضيل السود على البيض •

• النقول المشرقة فى مسألة النفقة (٥٥) •

وهو من الرسائل الهامة المتعلقة بحقوق المرأة اذ تعرض لموضوع النفقة على الزوجة والأولاد فيقول « ... وأخذ علينا العهد العزم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن ننفق على زوجاتنا وعيالتنا وبناتنا ونؤدبهن ونصبر عليهن فى النفقة • وقد قالوا أقبح من كل قبيح صوفي شحيح ، فاعل يا أخى على تحصيل النفقة عليك وعلى عيالك كل يوم بيوم ، ولا تدخر شيئاً الا لعذر شرعى والله فى عون العبد ما كان العبد فى عون أخيه (٥٦) •

• الوشاح فى فوائد النكاح (٥٧) •

وهو عبارة عن ملخص لكتاب مباسم الملاح ومناسم الصباح فى مواسم النكاح الذى كتبه جلال الدين السيوطى فى نحو خمسين كراسة ، ثم استظالها فعمد الى تلخيصها فى ما يقرب من عشر كراريس ، وأطلق عليه أسم الوشاح ، كما اختصر هذا الأخير أيضاً فى موجز صغير عرف باسم الأيك فى معرفة ... كما سبق أن فوهنا من قبل •

المطبوعات :

نتقل الآن الى الكتب المطبوعة التي تتناول موضوعات خاصة بالمرأة أو تعرض فيها السيوطى للنساء من خلال بعض فصولها وسنحاول أيضا ترتيبها حسب الحروف الهجائية للغة العربية تيسيرا على الباحث والاقتصار على الهام منها .

- الايضاح فى علم النكاح (٥٨) .

وهو عبارة عن دراسة صغيرة تتألف من ست عشرة صفحة، لا يستطيع المرء ان يقرأ ما فيها دون ان يخجل لما جاء فيها من الفاظ بذينة مما تستحى منه الأذن والعين ، ألفاظ لا تليق بالمرأة التي ساهمت بنصيب وافر فى الحياة الاجتماعية على عصر مؤلف هذا الكتيب (٥٩) ، الذى يفهم من سطور مصنفه ، أنه ينظر اليها كأداة متعة فقط وهذا يبدو واضحا من تلك الأبيات التي ينشدها على لسان أحد شعراء القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى فيقول :

عليك بمضمون الكتاب فاننا وجدناه حقا عندنا بالتجارب
يزيدك فى الانعاط بطشا وقوة ويحظيك عند الغايات الكواعب
بقى أن نشير ، والحق يقال ، أن بعض الباحثين قد نفى عن جلال الدين السيوطى تهمة وضع هذا الكتيب وذكر أنه منسوب اليه (٦٠) . بيد اننا لا نجد حرجا فى نسبته اليه خاصة ونحن نعلم أن له باعا طويلا فى مثل هذه التأليف كما سبق أن أوضحنا فى القسم الخاص بالمخطوطات .

- التعظيم والمثنة فى أن أبوى رسول الله فى الجنة (٦١) .

يعرف هذا الكتاب أيضا باسم « الفوائد الكامنة فى ايمان السيدة آمنة كما جاء على لسان المؤلف نفسه فى الفصل الذى

عقده في كتابه حسن المحاضرة (٦٢) وكما سبق أن ذكرنا في القسم
الخاص بالمخطوطات •

— حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة (٦٣) •

وتكمن أهمية هذا المصنف من ناحية احتوائه على خمس
عشرة ترجمة لنساء عشن بمصر زمن العصور الوسطى مثل :
مارية بنت شمعون القبطية أم ابراهيم بن رسول الله صلى
الله عليه وسلم ، وسيرين أخت مارية المذكورة ، أهداها المقوقس
لرسول الله ، فوهبها لحسان بن ثابت ، وأم زكريا الجارية ،
وأم عبد الله نبيه بن الحجاج امرأة عمرو بن العاص ، وأم ذر
زوجة أبي ذر الغفاري ، وفاضله الانصارية ، امرأة بن أنيس
الجهني ، وسودة بنت أبي خبيس الجهنية ، وفاطمة بنت عباس
البغدادية ، وموفقية بنت عبد الوهاب المحدثه ، وأخت المزني
الفقيهية الشافعية ، ووجيهة بنت علي بن يحيى الانصارية المحدثه،
والسيدة نقيسة بنت حسن الأمير زيد الصوفية ، وفاطمة بنت
عبد الرحمن بن أبي صالح الحرائية الصوفية المعروفة بأم محمد،
وأخيرا عزة بنت جميل بن حفص ، أم عمرو الضمرية ، هذا عدا
ما جاء فيه من بعض المعلومات المتعلقة بنساء عصر الماليك
وأحوالهن الاجتماعية (٦٤) •

— وشف الزلازل من السحر الحلال (٦٥) •

وهو يعرف أيضا بمقامة النساء ويحتوى على عشرين مقامة
تدور بين عشرين عالما تزوج كل منهم ووصف أول ليلة قضاها
مع زوجته موريا بألفاظ علمه • ويمكننا تصنيفه من بين
الموضوعات الواهية التافهة التي أقبل جلال الدين السيوطي
عليها في بعض الأحيان ، شأنه في هذا شأن كتاب الأسفار عن قلم
الإطفاقار ، وكتاب بلوغ المآرب في قص الشارب ، وكتاب الوديك

في فضل الديك ، وكتاب مسألة ضربى زيدا قائما • ومن الملاحظ
أن الكثير منها لا يتجاوز الكراسة أو الورقة أحيانا (٦٦) •
- مسالك الخفاء في والدى المصطفى (٦٧) •

وهو لا يخرج في مضمونه عن كتاب التعظيم والمنة في آن
أبوى رسول الله في الجنة الذى ذكرنا انه عرف أيضا باسم
الفوائد الكامنة في ايمان السيدة آمنه ، كما جاء على لسان
السيوطى نفسه (٦٨) أى أنه يتعرض لسيرة أبوى رسول الله
صلى الله عليه وسلم •

- المستظرف من أخبار الجوارى (٦٩) •

وهو من المؤلفات التى خصصها السيوطى للحديث عن
شهيرات الجوارى اللاتى لعبن دورا هاما في التاريخ الاسلامى
ونخص منهن بالذكر شجرة الدر وذلك لقرب عهدها بالعصر
الذى عاش فيه مؤلف هذا الكتاب ، اذ يصفها بأنها كانت
« صعبة الغلق قوية البأس » لأنها استطاعت أن تنقذ البلاد
وتدير شؤونها في فترة عصيبة من أخرج فترات التاريخ المصرى
فضلا عن أنها تولت عرش الديار المصرية وقضت فيه ثمانين يوما،
برهنت خلالها على كياسة عظيمة وذكاء وافر •

- نزهة الجلساء في اشعار النساء (٧٠) •

من المؤسف حقا أننا لم نستطع التوصل الى هذا الكتاب،
وعلى هذا فان الأمانة العلية تسلم علينا عدم الخوض في مضمون
هذا الكتاب ، وان كنا نستطيع أن نستشف من عنوانه أنه مليء
بأشعار النساء وبعض أخبار شاعرات العصر الاسلامى •

- نظم العقين في اعيان اذعيان (٧١) •

وهو من كتب التراجم التى وضعها جلال الدين السيوطى

وأشار فيه الى خمس تراجم نسائية أغلبها لفقيهات أو محدثات
وهن : آمنة بنت المستكفي ، وبركة بنت الحافظ العراقي ،
وجويرية بنت العراقي ، وزينب بنت العراقي ، وأخيرا زينب بنت
السبكي (٧٢) *

- الوسائل الى مسامرة الأوائل (٧٣) *

وهو من الكتب الهامة المليئة بالموضوعات المتعددة المتعلقة
بالنساء وأخبارهن اذ نجد أن بعض فصوله قد خصصت للحديث
عن النكاح ، والصداق ، والمزل عن النساء ، والخطايا ، والزنا ،
والسحاق ، واللباس ، والمرض ، وتفشى الطواعين ، وأبواب
الجنائز ، والندب ، والمقابر ، والمآتم ، فضلا عن أخبار أخرى
مبشرة عن النساء متعلقة بالبيوع والتجارة والوقف والصدقات
والأسواق وغيرها *

وبعد فهذا قليل من كثير كتبه جلال الدين السيوطي وتعرض
فيه للمرأة من قريب ومن بعيد ، تعرض لها في دراسات جادة هادفة ،
وتعرض لها في دراسات ملؤها السخرية والاستخفاف الأمر الذي
بدفعنا الى الترجيح بأن السيوطي شأنه شأن معاصريه كان ينظر الى
المرأة نظرة الازدراء والاستخفاف ، كان ينظر اليها كأداة للمتعة
والاستغلال ، كان يعتبرها بمثابة دمية خلقها الله للذة والاستمتاع ،
بدليل ما جاء في مصنفاة عن النكاح التي لا يستطيع المرء أن يقرأها
دون أن تعلق وجهه حمرة الخجل لما جاء فيها من معلومات لا تليق
بتلك التي ساهمت بنصيب وافر في الحياة الاجتماعية على عصره خاصة ،
لا يستطيع المرء قراءتها دون أن تخدش عينه قبل أذنه تلك الألفاظ
البذيئة التي وردت في هذه المؤلفات بل في عناوينها أحيانا *

لقد حاول السيوطي في هذه المجموعة الهزلية من المؤلفات أن

يعرض بالمرأة متناسيا سر وجوده ، لانه لولا المرأة ما كان جلال الدين السيوطى الذى يصف بين صفوف علماء العصور الوسطى ، لقد نسى هذا العالم الهام أمه التى أعطته الحياة ، لقد نسى تلك التى حملته وهنا على وهن ، لقد نسى تلك التى رعته صغيرا وسهرت الليالى على راحته وتربيته ، لقد ننكر لكل هذا بعد أن شب وبلغ مبلغ الرجال وأخذ ينظر الى المرأة نظرة المتعة والاستمتاع . ومع هذا فهو يناقض نفسه عندما يشير الى تراجم بعض شهيرات النساء ، يناقض نفسه عندما يشير اليهن بين صفوف العلماء والأفاضل من بنى جلدته . يناقض نفسه عندما يشير الى كل من زينب بنت سليمان الاسعدية وموقية بنت عبد الوهاب ، بين طبقة المحدثين المنفردين بعلو الاسناد (٧٤) .

والسؤال هنا هل من الممكن أن تكون هذه المصنفات قد دست على جلال الدين السيوطى خاصة ونحن نعرف كاتبها آخر باسم السيوطى وهو محمد بن ناصر الدين أبوبكر يعقوبى ، الذى كان يكبره سنا ، والذى عاش فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى / الخامس عشر الميلادى واعتبره بروكلمان جدا له (٧٥) أم تراه أى جلال الدين السيوطى قد قام بنقلها ونسبها الى نفسه (٧٦) وهو غير واع الى ما فيها ، رغبة فى الاكثار من اتاجه ، وعملا على ذبوع أسمه فى عصر تبارى فيه المؤلفون فى التأليف والتصنيف فى شتى الموضوعات، خاصة وان الذى يقرأ ما كتبه عن فاطمة بنت عباس البغدادية من أنها كانت « عالمة فقيهة ، زاهدة قاتنة واعظة ، سيدة نساء زمانها ، وافرة العلم ، حريصة على النفع والتذكير ، ذات اخلاص وحشمة وأمر بالمعروف ، اصلح بها نساء دمشق ثم نساء مصر (٧٧) » ، من يقرأ هذا لا يستطيع أن يقبل بسهولة تلك الصورة التى رسمها للمرأة فى بعض مؤلفاته وبصفة خاصة فى كتب النكاح !

للدرد على هذه التساؤلات ينبغى أن نعرف السبب وراء اقبال

السيوطى على الكتابة فى مثل تلك الموضوعات ، وهو بكل اسف ما لا نستطيع التوصل اليه لعدم اشارة السيوطى الى ذلك صراحة فى احد أحد من مصنفاته ، بل يكفيننا أن نتذكر فى هذا المجال عبارته الشهيرة حين قال :

« والآن قد كملت عندى الآت الاجتهاد بحمدالله تعالى . . .
وتو شئت أن أكتب فى كل مسألة مصنفًا بأقوالها وأدلتها
الثنية وانقياسية . . . لقدرت على ذلك من فضل (٧٨) . . . »

أترام اذا قد أراد أن يتبت لعلماء عصره أنه قادر على التصنيف فى مثل هذه الموضوعات الهزلية ، تم تنبذ فجاه الى مدى فداحة الخطأ الذى وقع فيه ، فقرر أن يتنكر لمثل هذه المؤلفات بدليل ما جاء فى ترجمته حياته من أن مؤلفاته قد بلغت وقت وضعه لكتاب حسن المحاضرة ، ثلاثمائة كتاب سوى ما غسله ورجع عنه (٧٩) . اذ تقودنا عبارته الأخيرة الى التأكيد بأنه قد ندم على التأليف فى عدد من الموضوعات فقرر الرجوع عنها وغسل يده منها ، لكننا نجهل مع الأسف نوعية هذه الموضوعات التى مجدها جلال الدين السيوطى ونفض يده منها ، وان كنا نبيل الى الترجيح فى الوقت ذاته الى أنها لا بد وان تكون من شاكله تلك الموضوعات التى حاول فيها جلال الدين السيوطى أن يظهر أن الله قد خلق المرأة للذة والاستمتاع فقط .

بيد أنه ليس من النصفه فى شىء أن نقيس السيوطى ، وهو المحسوب نابغة زمانه وأشهر علماء عصره بمقاييس اليوم ، لأنه من الأخطاء الشائعة التى يقع فيها كثير من الباحثين عند دراسة التاريخ هو أن يتكلموا على العصور السابقة بعقلية العصر ومنطق العصر الذى يعيشون فيه ، متناسين ذلك التراث الضخم من العادات والتقاليد

التي كانت تسود مجتمعات العصور السابقة والتي لم يتبق منها مجرد الأثر في مجتمع العصر الحديث ، وحسبنا دليلا على ذلك أن من يقرأ ما ذكره السيوطي عن نفسه في ترجمة حياته ليشعر من الوهلة الأولى بمدى ادعاء هذا العالم وبمدى غروره (٨٠) .

الحواشي

- ١ - السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، القاهرة ١٨٨١ - ١٨٨٢ ، ج ١ ، ص ١٥٥ - ١٦١ ، السخاوي ، الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، القاهرة ١٣٢٥ - ١٣٥٥ هـ ، ج ٤ ، ص ٦٥ - ٧٠ ، ابن العماد ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ١٩١٢ - ١٩٣٣ ، ج ٨ ، ص ٥١ - ٥٥ ، ابن اياس ، بدائع الزهور في وقائع الدهور ، طبعة محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ج ٤ ، ص ٨٣ ، الزركلي ، الاعلام ، القاهرة ١٩٥٤ ، ج ٤ ، ص ٧٠ - ٧١ ، عمر رضا كحالة ، معجم المؤلفين ، القاهرة ١٩٥٨ ، ج ٥ ، ص ١٢٨ - ١٣١ .
- ٢ - Encyclopédie de l'Islam, Leiden 1934, art. as-Suyûti, IV, p. 60r. .
- ٣ - محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٥٦ .
- ٤ - عن هذه المدرسة أنظر ، المقرئزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، بولاق ١٢٧٠ هـ ، ج ١ ، ص ٣١٣ ، ٤٢٠ ، السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، سعاد محمد حسن ، أعمال الأمير شينخو العمري الناصري المعمارية بالقاهرة ، (رسالة ماجستير - جامعة القاهرة ١٩٧٥) ، فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة ، القاهرة ١٩٥١ ، أثر رقم ١٤٧ .
- ٥ - رجم السيوطي لأبيه في كتاب ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٥ ، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، وأيضا في كتاب ، بغية الوعاة في طبقات النحاة ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ص ٢٠٦ - ٢٠٧ .
- ٦ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٧ وما بعدها . السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٧ .
- ٧ - Encyclopédie de l'Islam, art. as-Suyûti. .
- ٨ - يوسف سرقيس ، معجم المطبوعات العربية والمصرية ، القاهرة ١٩٢٨ ، ص ١٠٧٤ ، السخاوي ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٥ .

٩ - أنظر ، فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة ، اثر رقم ١٤٩ وهى المعروفة باسم خانقاه الماصر فرج بن برقوق .

١٩ - السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٧ .

١٠ - هى خانقاه يبيرس الجاشنكير التى شيدها سنة ١٣٠٦/٧٠٦ ، أنظر ، فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة ، اثر رقم ٣٢ ، المقريزى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ج ٢ ، ص ٤١٦ .

- ١١

ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، بولاق ١٨٩٣ - ١٨٩٥ ، ج ٢ ، ص ٢٢٦ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٦٩ .

١٢ - ابن اياس ، بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، القاهرة ١٩٦٣ ، ج ٣ ، ص ٣٨٨ ، السخاوى ، الضوء اللامع ، ج ٤ ، ص ٧٠ .

١٣ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٣ ، ص ٤٧١ .

١٤ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٦ .

١٥ - المنصود بها مدرسة السلطان الغورى التى شيدها سنة ١٥٠٤/٩٠٩ بأول شارع الغوريه ، أنظر فهرس الآثار الاسلامية بمدينة القاهرة ، اثر رقم ١٨٩ .

١٦ - الشعرانى ، ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٢١ .

١٧ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٨٣ ، يوسف سر كيس ، معجم المطبوعات ، ص ١٠٧٤ ، محمد مصطفى زياده ، المؤرخون فى مصر ، ص ٦٨ .
وأنظر أيضا أحمد تيمور ، قبر السيوطى وتحقيق موقعه ، مخطوط بدار الكتب المصرية - رقم ٢٤٥٢ تيمور .

١٨ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

١٩ - السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٧ .

٢٠ - ابن اياس ، بدائع الزهور ، ج ٤ ، ص ٨٣ .

- ٢١

٢٢ - محمد مصطفى زياده ، المؤرخون ، ص ٦٠ ،

٢٣ - فال السيوطى نقلا عن الشعرانى « خالفنى أهل عصرى فى حمسن مسألة ، فالفت فى كل مسألة مؤلفا بينت فيه وجه الحق ، أنظر الشعرانى ، ذيل الطبقات الكبرى ، ص ٤ .

٢٤ - ورد فى هدية العارفين للبهنادى تحت اسم اسجبال الكاء على النساء ، أنظر ، البهنادى ، هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وأثار المصنفين ، ج ١ ، ص ٥٣٥ .

- والكفاء هو الضعف والجبن كما جاء في قاموس الصحاح في اللغة ، ج ١ ، ص ٧٠
- ١٥ - حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون ، القاهرة ١٩٤١ - ١٩٤٣ ، ج ١ ، ص ٧٧ .
- ٢٦ - البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٥ .
- ٢٧ - البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٥ .
- ٢٨ - الجوهرى ، الصحاح في اللغة ، ج ١ ، ص ١٧٣ .
- ٢٩ - حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ١٣٣ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٥ ،
- الذى ذكره تحت اسم الانصاح بأحاديث النكاح .
- ٣٠ - حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ١٣٣ .
- ٣١ - فؤاد السيد ، نوادر المخطوطات في مكتبة طلعت ، مجلة معهد المخطوطات العربية ، المجلد الثالث ، نوفمبر ١٩٥٧ ، ص ٢١٦ ، وقد ذكره بروكلمان تحت اسمين : نوادر الأيك ، وكتاب الأيك في علم ٠٠ أنظر على حين أشار إليه حاجي خليفة تحت اسم نواصر الأيك في ٠٠ ، أنظر ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٩٨١ .
- ٣٢ - حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٣٦٤ - ٣٦٥ ، البغدادي هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٧ ،
- ٣٣ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، على حين ذكره كل من البغدادي وبيروكلمان وحاجي خليفة تحت اسم الثغور الباسمة في مناقب السيدة فاطمة أنظر ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٧ - ٥٣٨ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٥٢١ ،
- ٣٤ - أنظر ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٥٢٣ ، البغدادي هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٢٨ .
- ٣٥ - الزركلي ، الأعلام ، ج ٤ ، ص ٧٢ . Brockelmann, Geschichte II supp., p. 197 فهارس رامبور ، ج ١ ، ص ٦٢٨ فهارس دار الكتب ، ج ١ ، ص ١١٥ .
- ٣٦ - ذكرها السيوطي في حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٩ ، تحت اسم المستظرفة في أحكام دخول الحشفة ، أنظر ، Brockelmann Geschichte, II supp., p. 192 ; Voorhoeve, Handlist of Arabic manuscripts, Leyden, 1957, p. 6.
- ٣٧ - Brockelmann, Geschichte, II supp., p. 189.
- ٣٨ - وهى تعرف أيضا باسم وصية النبي لابنته فاطمة أنظر ، Brockelmann, Geschichte, II supp., pp. 188-189.
- ٣٩ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٩ ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٩١٦ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٣٩ .

- ٤٠ - قرآن كريم ، سورة البقرة رقم ٢٢٢ .
- ٤١ - حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ١٠٨٩ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤٠ .
- ٤٢ - ذكر النجوى أن الزرنب هو صرب من النبات طيب الرائحة ، انظر ، الصحاح فى اللغة ، ج ١ ، ص ١٤٣ .
- ٤٣ - Brockelmann, Geschichte, II supp., p. 191; Voorhoeve, Handlist of Arabic Manuscripts, p. 318.
الذى ذكره نحت اسم رسالة السدالة الزيبية .
- ٤٤ - فهارس دار الكتب المصرية ، ج ١ ، ص ١٩٢ ، فهارس مكتبة لامبور ، ج ٢ ، ص ٢١٧ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٨٨١ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤ .
Brockelmann, Geschichte, II supp., p. 189.
- ٤٥ - السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ .
- ٤٦ - فهارس دار الكتب المصرية ، ج ١ ، ص ١٣٥ ، حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٢٧٨ - ١٢٧٩ ،
Voorhoeve, Handlist of Arabic manuscripts, p. 74.
- ٤٧ - السيوطى ، برد الاكباد عند فقد الأولاد ، القاير ١٣٠٤ هـ ، ص ٣٤ .
- ٤٨ - السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤١ .
- ٤٩ - السيوطى ، التعظيم والمنة فى أن أبى رسول الله فى الجنة ، القايرة ١٣١٧ هـ .
- ٥٠ - السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ .
- ٥١ - حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٥٧٩ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤٢ .
- ٥٢ - محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون فى مصر ، ص ٦١ .
- ٥٣ - السيوطى ، منتقى الينبوع فيما زاد على الروضة من لغزوع - مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٥٢١ ، حسن المحاضرة ج ١/١٥٩ .
- ٥٤ - فهارس دار الكتب المصرية ، ج ٣ ، ص ٤٠٩ ، حاجى خليفة ، ج ٢ ، ص ١٩٤٤ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤٣ ،
- ٥٥ - Brockelmann, Geschichte, II supp., p. 193.
- ٥٦ - نستطيع أن نقرا هذه العبارة بالصى فى احدى كتب الشعرانى وهو كتاب ، لواقع الأنواع القدسية فى بيان المهود المحمدية ، القايرة ١٣١١ هـ ، ج ٢ ، ص ٣٥ - ٣٦ ، مما يوضح لنا الصلة بين السيوطى والشعرانى اذ اعتمد الأخير على رسالة الاول دون الاشارة ليه من قريب أو بعيد .

- حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ٢ ، ص ١٩٨١ ، البغدادي ، هدية العارفين ، ج ١ ، ص ٥٤٤ ، الذي ذكره تحت اسم الوشاح في معرفة النكاح .
- ٥٨ - السيوطي ، الايضاح في علم النكاح ، القاهرة ١٢٧٩ هـ ، هذا ويشير اليه حاجي خليفة تحت اسم ، الايضاح في أسرار النكاح ، أنظر ، حاجي خليفة ، كشف الظنون ، ج ١ ، ص ٢٠٩ .
- ٥٩ - أحمد عبد الرازق ، المرأة في مصر المملوكية ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٢١ .
- ٦٠ - الياس سركيس ، معجم المطبوعات العربية ، ج ١ ، ص ١٠٧٦ .
- ٦١ - السيوطي ، التعظيم والمنة في أن أبوى رسول الله في الجنة ، حيدر آباد ١٣١٧ هـ .
- ٦٢ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٥٨ .
- ٦٣ - طبع هذا الكتاب عدة طبعات ، يشيخ في معظمها التصحيف والتحريف والخطأ ، الأولى بمصر سنة ١٨٦٠ ، والثانية في مطبعة الوطن سنة ١٢٩٩ هـ ، والثالثة بمطبعة الموسوعات سنة ١٣٢٤ هـ ، والرابعة بمطبعة السعادة سنة ١٣٢٤ هـ ، والخامسة بالمطبعة الشرفية سنة ١٣٢٧ ، والأخيرة بالقاهرة سنة ١٩٦٧ - ١٩٦٨ .
- ٦٤ - أنظر ما جاء به بصدد فمصان النساء الواسعة في ج ٢ ، ص ٢١٧ ، أحمد عبد الرازق ، المرأة في مصر المملوكية ، ص ١٧٤ .
- ٦٥ - أنظر ، سركيس ، معجم المؤلفين ، ج ١ ، ص ١٠٨ ، الزركلي ، الاعلام ، ج ٤ ، ص ٧٢ ، حيث ذكرنا أنه طبع بمصر طبعة حجر .
- ٦٦ - محمد مصطفى زيادة ، المؤرخون في مصر ، ص ٦٣ .
- ٦٧ - طبع هذا الكتاب في حيدر آباد سنة ١٣١٦ هـ .
- ٦٨ - أنظر الحاشية رقم (٥٠) ، ورفم (٦٢) .
- ٦٩ - قام بنشر هذا الكتاب وتحقيقه الدكتور صلاح الدين المنجد ، أنظر رجاء محمود السامري ، الروضة الفبيحاء في تواريخ النساء ، بغداد ١٩٦٦ ، ص ٣٣ .
- ٧٠ - عني بنشر هذا الكتاب أيضا وتحفيظه الدكتور صلاح الدين المنجد كما جاء في مقدمة الروضة الفبيحاء في تواريخ النساء لرجاء محمود السامري ، ص ٣٣ .
- ٧١ - قام بنشر هذا الكتاب فيليب حى حيث صدر في نيويورك سنة ١٩٢٧ .
- ٧٢ - السيوطي ، نظم العقيان ، ص ٩٣ ، ١٠١ ، ١٠٣ ، ١١٤ .
- ٧٣ - قام بنشر هذا الكتاب الدكتور سعد أطللس في بغداد سنة ١٩٥٠ .
- ٧٤ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، طبعة محمد أبو الفضل ، ج ١ ، ص ٣٨٧ ، ٣٨٩ .

٧٦ - من طريف ما يذكر في هذا المجال ما أورده السخاوي في ترجمة السيوطي من أن :
« أخذ من كتب المحمودية وغيرها كثيرا من التصانيف المتقدمة التي لا عهد لكثير من
العصرين بها ، فغير فيها يسيرا وقدم وأخر ونسبها لنفسه وهول في مقدماتها ،
بما يتوهم منه الجاهل شيئا ، مما لا يوفى بعضه » أنظر السخاوي ، الضوء اللامع ،
ج ٤ ، ص ٦٦ ، فؤاد السيد ، نصاب قديمان في اعادة الكتب ، مجلة معهد
المخطوطات ، مايو ١٩٥٨ ، ص ١٢٩ .

٧٧ - السيوطي ، حسن المحاضرة ، طبعة محمد أبو الفضل ، ج ١ ، ص ٣٩٠ .

٧٨ - راجع الحاشية رقم (٦) .

٧٩ - راجع الحاشية رقم (١٦) .

٨٠ - السيوطي ، نظم العقيان ، ص ر .

القسم الرابع
السِّيَوطِيُّ وَالْعُلُومُ الدِّيْنِيَّةُ

السِّيَوطِيّ والدراسات القرآنيّة

للأستاذ الدكتور أحمد شبلي

استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

السيوطى : الفكر الموسوعى

ان الدارس لحياة السيوطى واتجاهاته الفكرية يدرك بيسر أنه يمكن أن يطلق عليه «المفكر الموسوعى» ذلك لأن دراساته قد تعددت وشملت أكثر فروع المعرفة التى عرفها عصره ، وكان السيوطى كثير الاطلاع ، سريع الاستيعاب ، كما كان كثير الأساتذة والشيوخ ، وكل هذا العكس على حياة السيوطى فتبحر فى العلوم والمعارف ، وأصبح من أساطين المفكرين •

ومن ناحية أخرى كان للسيوطى قدرات عالية فى مجال الكلمة مقولة ومكتوبة ، ومن هنا سهل عليه أن يسكب فكره فى عدد كبير من المؤلفات •

وناحية ثالثة : هى أن السيوطى عندما بلغ الأربعين من عمره اعتزل الناس وعاش فى خلوة بجزيرة الروضة وتفرغ للكتابة زاهدا عن الكسب وراغبا عن الدنيا ومتطلعا للذكر الدائم والعمل الباقى ، وفى هذه العزلة تعفف عما بأيدي الناس ورد هدايا الملوك والعظماء ، فقد رأى فى العلم كل ثراء يطمع فيه الانسان العاقل •

ومن هنا بلغت مؤلفات السيوطى عدة مئات ، وهو يقول عنها

« بلغت مؤلفاتي حتى الآن ثلثمائة كتاب سوى ما غسلته ورجعت عنه » وهذه الجملة تقيدها أنه بالاضافة الى كثرة العدد كان السيوطي دائم المراجعة لما كتب ، فهو يحسنه ويضيف عليه أو يرجع عنه فيزيله . ويبدو ان السيوطي كتب كتبا كثيرة أخرى بعد أن قال قولته السابقة، لأن الباحثين المحدثين يعدون له أكثر من خمسمائة كتاب كما قال بروكلمان وفلوجل .

وقد صنّف السيوطي مؤلفاته فجعلها أربع مجموعات :
المجموعة الأولى : المجموعة القرآنية وتشمل دراسات عن القرآن والتفسير .

المجموعة الثانية : فن الحديث وتعلقاته .

المجموعة الثالثة : فن الفقه وتعلقاته .

المجموعة الرابعة : الأجزاء المفردة كاللغة والتاريخ .

وكان للسيوطي في المجال التاريخي باع طويل فقد كتب في عدة اتجاهات تاريخية ؛ كفن التاريخ الذي كتب فيه « الشماريخ في علم التاريخ » وكالتاريخ العام الذي كتب فيه « تاريخ الخلفاء » وكتاريخ مصر الذي كتب فيه « حسن المحاضرة في أخبار مصر والفاخرة » وكدراسته عن الطبقات حيث كتب « بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة » وكذلك « طبقات المفسرين » وكتب كذلك في الأنساب كتابه « نب الالباب في تحرير الانساب » وفي التراجم كتب عدة كتب منها « أنباء الأذكيااء لحياة الأنبياء » و « در السحابة فيمن وصل مصر من الصحابة » و « مناقب أبي حنيفة » و « تزيين الممالك بمناقب الامام مالك » .

ولا تزال هناك مخطوطات تاريخية للسيوطي لم تنشر بعد ، منها « تراجم شيوخ السيوطي » و « نسب بعض الصحابة وبعض الاشراف من ملوك لمتونة والموحدين » و « تاريخ جزيرة الروضة » وغيرها .

وعندما انجبه العزم انى أن يكون السيوطى موضوع الندوة التى تقيمها هذا العام (١٩٧٦) الجمعية المصرية للدراسات التاريخية خطر يبالى أن أكثر الزملاء من الأساتذة والمؤرخين قد يتجهون بأبحاثهم عن السيوطى الى الناحية التاريخية ليعرضوا فكره واتجاهاته التاريخية ، فاتجهت لجانب مهم من جوانب السيوطى وهو جانب الدراسات القرآنية عنده ، وقد هالنى أنه كتب فى هذا المجال مجموعة ضخمة من المؤلفات التى تعد مراجع مهمة للباحثين والدارسين وأهمها :

- ١ - الاتقان فى علوم القرآن *
- ٢ - الأكليل فى أسباب التنزيل *
- ٣ - لباب النقول فى أسباب النزول *
- ٤ - متشابه القرآن *
- ٥ - مفحومات القرآن فى مبهمات القرآن *
- ٦ - معترك الأقران فى اعجاز القرآن *
- ٧ - مجاز الفرسان الى مجاز القرآن *
- ٨ - مراصد المطالع فى تناسب المقاطع والمطالع *
- ٩ - تناسب الدرر فى تناسب السور *
- ١٠ - تفسير الجلالين (بالاشتراك مع الامام جلال الدين المحلى) *

وقد وضعت هذه الكتب أمامى ورحت أتدارس عن طريقها اتجاهات السيوطى فى مجال الدراسات القرآنية ويسرنى أن أقدم منها شعاعا لعله يعكس فكرة موجزة عن العمل الكبير الذى قام به السيوطى فى هذا المجال ، مع ملاحظة أن آراء السيوطى فى بعض الموضوعات عن القرآن الكريم ألزمتنى أن أعود لمراجع أخرى ، وذلك للمقارنة أو لاستكمال فكرة البحث ، ولكننى حرصت على أن يظل السيوطى أساس العمل بحيث لا تتجاوزته الى غيره الا لمسيس الحاجة *

وقبل أن ندخل مجال البحث أحب أن أوضح نقطتين مهمتين :

النقطة الأولى : عدد مؤلفات السيوطي :

ذكرنا آنفا أن عدد مؤلفات السيوطي وصل الى عدة مئات ، ومرجع هذه الكثرة الهائلة يرجع في نمديرى الى عاملين : أولهما ان كتيرا من مؤلفات السيوطي رسائل صغيرة وقد تداخلت أحيانا بعضها في بعض ، فمثلا كتابه « مفحّمات الاقران في مبهمات القرآن » نجده . كنه أو خلاسته في كتاب « معترك الاقران » ثم نجد « معترك الاقران » جزءا من كتاب « الاتقان » بل يمكن القول بدون خوف أن كتاب « الاتقان في علوم القرآن » يحوى أكثر ما كتبه السيوطي عن القرآن . في كتبه الأخرى ، فكأنه كتبها رسائل عن مباحث مختلفة ترتبط بالقرآن . من أسباب التنزيل الى التشابه فالمبهمات وتناسب السور ... ثم جمعها كلها في « الاتقان في علوم القرآن » الذى جبل اسمه أميل الى الشمول ليضم مختلف البحوث الأخرى التى اتجه كل منها الى مبحث خاص .

والعامل الثانى فى كثرة مؤلفات السيوطي هو الذى أشرنا اليه سابقا من أنه اعتزل الناس وتفرغ للتأليف عندما بلغ الأربعين ، وأين هذا من الصراع الذى يدور فيه أكثر الباحثين اليوم للجري خلف المال أو الجاه مما لا يترك وقتا للتفكير أو الدرس والتدوين .

النقطة الثانية : موقف السيوطي من مؤلفات الآخرين :

كثير من الناس يبههم العدد الرهيب لمؤلفات السيوطي ، فيتخذون من ذلك وسيلة للنيل من الرجل أو اتهامه بأنه سطا على مؤلفات الآخرين .

والحق أن الذى يعمن النظر فى مؤلفات السيوطي يجعله عن هذا

الوصف ، او يرى فيه باحثا أقرب ما يكون الى الباحثين المعاصرين ،
والى طرق بحثهم ، فهو يختار المشكلة التى تحتاج الى بحث ، ويدرس
كل ما كتب عنها ، ويبرز نواحي النقص ، ويعد باكمال ما فات ، ويضع
خطة بناء على ذلك ، ويحلل مراجعة تحليليا دقيقا ، وينسب كل اقتباس
الى صاحبه ، والفرق بينه وبين المنهج الجديد هو أنه لا يذكر صفحات
الكتب التى يقتبس منها ، وله فى ذلك عذره طبعاً فلم تكن هناك
طباعات يعتمد عليها على نحو ما هو واقع الآن .

وقد خطر لى أن أورد هنا بعض نماذج من عمل السيوطى ،
ولكنى رأيت أن ذلك يحتاج الى فراغ واسع لطول ما شرح وتكلم
عن مراجعه ، وحسبك أن تقرأ مقدمة « الاتقان » الطويلة لترى مراجعه
وتحليلها ونقدها ، ولتسمعه بعد أن رسم خطته يقول « ان هذه المباحث
التي سأخوضها ، فيها تصانيف مفردة وقفت على كثير منها ، ولكنها فى
الحقيقية ليست كالمنهج الذى رسمته ولا قربا منه ، وانما هى طائفة
يسيرة ونبد قصيرة مثل : فنون الأفتان فى علوم القرآن لابن الجوزى ،
وجمال القراء للسخاوى والمشد الوجيز فى علوم تتعلق بالقرآن العزيز
لابى شامة والبرهان فى مشكلات القرآن لابی المعالى عبد الملك ،
وكلها بالنسبة الى « الاتقان » كحبة رمل بجانب رمل عالج ، ونقطة
قطر فى حبال بحر زاخر .

ويمتاز السيوطى فى ذكر مراجعه بتصنيفها ، فهو لا يذكرها كلها
جملة واحدة ، وانما يصنفها طبقا لموضوعاتها ، وقد صنف مراجعه فى
الاتقان الى ثقلية ، والى كتب المقراءات وتعلقات الاداء ، وكتب اللغات
والغريب والعربية والاعراب ، والى كتب الأحكام وتعلقاتها ، والى
الكتب المتعلقة بالاعجاز وفنون البلاغة ، والى كتب الرسم ، ثم تفاسير
غير المحدثين ، ثم يختمها بما أسماه الكتب فيما سوى ذلك من الأنواع

وتحت كل قسم من هذه الأقسام يذكر عشرات الكتب التي قرأها وانتفع بها • (١)

فاذا تركنا مقدمة الكتاب وذهبنا الى مباحثه داخل « الاتقان » وجدناه يفتح أى مبحث بذكر من دون فيه ، فهو فى أسباب النزول يبدأ بأن يقول : « أفردته بالتأليف جماعة أقدمهم على بن المدينى شيخ البخارى ، ومن أشهرها كتاب الواحدى على ما فيه من أعواز ، وقد اختصره الجعبرى فحذف أساسيده ولم يزد عليه شيئاً ، وألف فيه شيخ الاسلام أبو الفضل بن حجر كتاباً مات عنه مسودة ، فلم تقف عليه كاملاً ، وقد ألفت فيه كتاباً حافلاً موجزاً محرراً لم يؤلف مثله فى هذا النوع سميته لباب النقول فى أسباب النزول • قال الجعبرى : نزول القرآن على نسيمته •• (٢)

وهذا النسق هو طبيعة عمل السيوطى وهو لا يكتفى بالإشارة الموجزة المكتاب ، وإنما يحدد اقتباساته منه ويقبلها أو ينقدها ، فهو فى الحديث عن مشكل القرآن وموهمه يقول : (٣) •• قال أبو اسحق الاسفرائينى ••• وقال الصرفى ••• وقال الكرمانى •• وفى حقيقة القرآن ومجازه يقول (٤) •• وقال الفارسى •• وقال ابن جنى ••• وقال المخشبرى ••• وقال الكواشى ••• وقال ابن عبد السلام ••• وقال الفراء •••

وهكذا تراه دائماً يذكر مراجعه فى كل باب (٥) ويحللها ويقتبس منها أحياناً وينقدها أحياناً أخرى مما يدل على علو قدم فى كتابه البحث وتدوين الأفكار •

(١) أنظر الصفحات من ٢ الى ١٢ من الاتقان

(٢) الاتقان ج ١ ص ٤٨ •

(٣) الاتقان ج ٢ ص ٤٤ وما بعدها •

(٤) الاتقان ج ٢ ص ٦٤ - ٦٥ •

(٥) أنظر مراجعة فى التشبيه والاستعارة ومناسبة الآيات والسور ومراجعته فى اعجاز

القرآن وغير ذلك من البحوث •

هذا وللسيوطى فضل عظيم في أنه حفظ لنا مجموعة كبيرة من أفكار السابقين فيما اقتبس عنهم ، فهناك مراجع كثيرة لا تعرفها المكتبة العربية الا عن طريق ذكرها في مؤلفاته *

السيوطى والدراسات القرآنية

وبعد ذلك نجى للحديث عن جهد السيوطى فى الدراسات القرآنية (١) ، والحق أن نشاط السيوطى فى هذا المجال كان واسع المدى كما تنبىء عن ذلك مؤلفاته التى أشرنا إليها وما تحويه من مباحث واسعة وشاملة تبدأ بالملكى من القرآن والمدنى منه ثم تستمر فى الكلام عن الحضرى والسفرى والنهارى والليلى ، والصيفى والشتائى ، وتبين أول ما نزل وآخر ما نزل وأسباب النزول، وما تكرر نزوله ، وما تأخر حكمه عن نزوله ، وما تأخر نزوله عن حكمه ، وتشرح أسماء السور ، وجمع القرآن وترتيبه ، ويفيض فى الحديث عن وسائل اعجازه ، وعن مجمله ومبينه ، وناسخه ومنسوخه وعن انقراءات والمبهمات ، والتطريب به ، وطبقات مفسريه ، وغير ذلك مما لم يدع شيئاً عنه دون حديث شاق ووصف مفصل *

وسنلم فيما يلى المسامة خفيفة ببعض النقاط التى عرضها السيوطى أو اقتبسها من السابقين الذين اعتمد عليهم وأشار لجهدهم:

مراحل جمع القرآن :

يلخص السيوطى مراحل جمع القرآن فيقرر نقلاً عن بعض شيوخه أن القرآن جمع ثلاث مرات :

الأولى : فى عهد الرسول وكان ذلك بمثابة وضع الآيات فى أمكنتها من كل سورة ، ويقرر الخطابى أن الرسول لم يجمع القرآن

(١) لمعرفة مزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع يراجع القارئ الجزء السابع من « موسوعة النظم والحضارة الاسلامية » للدكتور أحمد شلى .

في مصحف بسبب ما كان يمكن أن يحدث من ورود نسخ لبعض آياته •

الثانية : في عهد أبي بكر وكان ذلك بمثابة جمع القرآن كله في مصحف واحد •

الثالثة : في عهد عثمان وكان ذلك بمثابة نشر لهذا المخطوط في محاولة توحيد القراءة في المناطق الاسلامية المختلفة (١) •

القراءات :

عقد السيوطي (٢) فصلاً عن الأخذ بافراد القراءات أو جمعها ، وذكر أن الذي عليه السلف هو أخذ كل ختمة برواية ، فما كانوا يجمعون رواية الى غيرها حتى المائة الخامسة ، ثم ظهر جمع القراءات في الختمة الواحدة ، ولم يكونوا يسمحون بذلك الا لمن أفرد القراءات وأتقن طرقها ، وقرأ لكل قارئ بختمة على حدة •

وتنتيجة ذلك هي :

١ - السلف الصالح لم يعرفوا الروايات مجتمعة ، بل كان الذي يقرأ يقرأ برواية واحدة ، وظل ذلك حتى القرن الخامس •

٢ - القراءة بروايات متعددة أجيبت بعد ذلك للتعلم ، أي كان القارئ يقرأ ليتعلم هذه القراءات •

٣ - لم أقابل في المراجع التي بين يدي على كثرتها من يجيز القراءات للناس بروايات متعددة ، بل لا يوجد من يقرأ لمجموعة من الناس برواية غير معروفة لهم •

(١) أنظر الاتقان ج ١ ص ٩٨ - ١٠٢ بايجاز •

(٢) الاتقان ج ٢ ص ١٧٦ •

القرآن والعلم :

رفع القرآن الكريم شأن العلم ووضعه في مكانة سامية جليلة ، وأكبر دليل على ذلك أن أول سورتين نزلتا من الذكر الحكيم تقرران قيمة الكلمة المقروءة والكلمة المكتوبة ، والسورة الأولى التي تتكلم عن الكلية المقروءة هي قوله تعالى :

« اقرأ باسم ربك الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم (١) » وتلك أول آيات نزلت من القرآن ، والسورة التي نزلت بعد سورة اقرأ بناء على رأى الأكثرين (٢) هي سورة « ن » التي مطلعها :

« ن والقلم وما يسطرون (٣) » وعلى هذا فالآيات الأولى تتكلم عن القراءة ، والآيات الثانية تتكلم عن الكتابة ، وذلك قمة التقدير للفكر مقولا أو مكتوبا *

وبعد ذلك تجيء في القرآن الكريم آيات كثيرة تثبت جلال العلم ومكانة العلماء ، ومنها قوله تعالى :

— شهد الله أنه لا اله الا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط (٤) *

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون (٥) *

— يرفع الله الذين آمنو منكم والذين أوتوا العلم درجات (٦) *

(١) سورة العلق : الآيات ١ - ٥ .

(٢) السيوطي : الاتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ٤٢ .

(٣) سورة القلم الآية الأولى .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٨ .

(٥) سورة الزمر الآية التاسعة .

(٦) سورة المجادلة الآية ١١ .

— وما يعلم تأويله الا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به
كل من عند ربنا وما يذكر الا أولو الأبواب (١) *

ذلك قدر اجمالى يبرز مكانة العلم والعلماء كما وردت في القرآن
الكريم ، ولكن ينبغي أن يكون واضحا أن القرآن الكريم ليس كتابا
في الدراسات العلمية طبية أو فلكية أو نحوها ، وفي ذلك يقول
الامام محمد عبده (٢) : انه ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل
المدرسين ومعلمى الصناعات * * * « ولكن القرآن مع ذلك حوى بعض
اللمحات العلمية التى أثبت العلم الحديث دقتها ، ومن ذلك قوله
تعالى : « خلق الانسان من علق » (٣) *

فالعالم الاسلامى القديم كان لا يفهم من هذه الآية الا ظاهرها
اللفظى فكان يقول فى تفسيرها : العلق جمع علقه ، أو يقول عنها
الدم المتجمد ، ثم ينتقل سريعا الى غيرها من الآيات ، ولكن عندما
ظهر الميكروسكوب فى العصر الحديث تبين لنا أن هذا الماء الذى ينتقل
من الذكر الى الأنثى ، والذى هو أصل الحياة البشرية ليس فى
حقيقته الا ملايين الملايين من الحيوانات المنوية الدقيقة التى تشبهه
العاق فى شكلها ، وهكذا ينجلي هذا السر الرائع الذى تنطوى عليه
هذه الآية والذى لم يظهره لنا الا الكشوف العلمية الحديثة *

وشبيه بهذه الآية آية أخرى لم يدرك الأقدمون معناها الحقيقى
وكانوا يفسرونها تفسيرا مجملا ، وهى قوله تعالى : « وأرسلنا الرياح
لواقح (٤) » فما كان البشر يعرفون من قبل أن النبات كائن حى

(١) سورة آل عمران الآية السابعة *

(٢) رسالة التوحيد (عند الكلام عن الرسل) وانظر كذلك كتاب « الاسلام » من
- اسئلة مقارنة الأديان للدكتور أحمد شلى ص ١٠٧ من الطبعة الخامسة *

(٣) سورة العلق الآية الثانية *

(٤) سورة الحجر الآية ٢٢ *

كالإنسان والحيوان ، وأنه يتألف من ذكر وأُنثى ، وأنه يتلاقح كما تتلاقح بقية الأحياء ، وأن الرياح في كثير من الأحيان هي واسطة هذا التلاقح (١) .

وهكذا تتضح لنا اشراقات جديدة كل يوم من آيات القرآن الكريم كلما استطاع العلم أن يصل الى كنه ما يحويه .

اعجاز القرآن

المخرقة والكرامة والمعجزة :

لعل من الخير ان نبدأ حديثنا عن اعجاز القرآن بإبراز الفرق بين المخرقة والكرامة والمعجزة ، وقد تحدث الفيروز ابادى عن المعجزة فذكر معناها وقارنها بالمظاهر غير العادية كالمخرقة والكرامة ، وسرد بوجه عام الاتجاهات حول اعجاز القرآن ، وهالك موجز ما قال (٢) :

يقصد بالمخرقة الأمور الخارقة للعادة بحيلة أو سحر أو آلة أو ما يشبه ذلك والفرق بينها وبين المعجزة أن المخرقة لا حقيقة لها ولا بقاء ، وانما هي وهم زائل ، ولكن المعجزة حقيقة واقعة باقية لا تنقض . والمخرقة يعجز عنها العامة ولكن الحذاق والأذكياء لا يعجزون عنها ، واما المعجزة فالخواص والعوام على درجة واحدة في العجز عن الاتيان بمثلها .

والمخرقة متداولة بين الناس في جميع الأزمان ، واما المعجزة فمختصة بزمان النبوة .

واما الفرق بين المعجزة والكرامة فهو ان المعجزة مختصة

(١) أنظر كتاب « الاسلام ورسوله بلغة العصر » للأستاذ أحمد حسين ص ١٨٩

وما بعدها .

(٢) بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز ج ١ ص ٦٥ - ٦٧ .

بالانبياء ، ويبرزها النبي ويتحدى بها ، وتحصل منحة من الله وأحيانا ترتبط بالدعاء ، ولا يمكن تحصيلها بالكسب والجهد • واما الكرامة فلا يتحدى بها من ظهرت على يده وكتمانها واجب وان حاول اظهارها واشاعتها زالت وبطلت •

وأفضل معجزات محمد عليه السلام وأكملها وأجلها وأعظمها القرآن الذي نزل عليه بأفصح اللغات وأصحها وأبلغها ، بعد أن لم يكن كاتباً ولا شاعراً ولا قارئاً ، وقد تحدى البلغاء والفصحاء ان يأتوا بسورة من مثله ولكنهم عجزوا تماماً فثبت ان القرآن معجز بدون شك •

اتجاهات الاعجاز :

ومع اتفاق المسلمين على أن القرآن معجز اختلفوا في كيفية الاعجاز :

فقال بعضهم (١) ان الاعجاز هو أن الله صرف همة الناس وحبس أسنتهم وسلب قدرتهم على الاتيان بمثل القرآن • وذلك الرأي مردود لأنه لا يشمل تفوقاً ذاتياً للقرآن ، وقد حاول مسيلمة الكذاب وعدد من الفصحاء والبلغاء معارضة القرآن فلم يأتوا الا بما تمجعه الأسماع وتنفر منه الطباع (٢) ، وقد روى أن ابن المقفع رام ذلك وطلبه وشرع فيه ، ثم مر بصبي يقرأ قوله تعالى « وقيل يا أرضى ابلعى ماءك وياسماء أقلعى ، وغيض الماء ، وقضى الأمر ، واستوت على الجودي » •• (٣) فرجع ومحا ما عمل وقال : أشهد أن هذا لا يعارض وما هو من كلام البشر (٤) وروى ان يحيى بن حكيم

(١) ممن قال بذلك النظام المعتزلي ولكن تلميذه الجاحظ رد عليه هذا الاتجاه ووضح

ان اعجاز القرآن ايجابي وليس سلبيًا •

(٢) السيوطي : الاتقان ج ٢ ص ٢٠٢ •

(٣) سورة هود الآية ٢٤٤ •

(٤) السيوطي : معتدك الاقران ص ٢٤٣ •

الغزال بليغ الأندلس في زمنه اتجه الى معارضة القرآن ، ووضع
سورة الاخلاص امامه ليحذو حذوها ولكنه سرعان ما اضطرب
واحتوته خشية فعاد يتوب وينوب (١) *

وقال بعض الباحثين ان عجز الأدباء والمفكرين عن معارضة القرآن
كان لعدم قدرتهم على الآتيان بمثل معانى القرآن وتشريعاته وأفكاره ،
ونم يكن عجزا عن الآتيان بمثل لفظه (٢) *

وأورد السيوطى آراء كثير من علماء المسلمين في وجه الاعجاز
فقال (٣)

قال قوم : وجه اعجازه ما فيه من الأخبار عن الغيوب المستقبلية
ولم يكن ذلك من شأن العرب *

وقال آخرون : ما تضمنه من الأخبار عن قصص الأولين ، وسائر
المتقدمين حكاية من شاهدها وحضرها *

وقال آخرون : ما تضمنه من الأخبار عما يستره الناس ،
ولا يظهرونه بقول أو فعل كقوله تعالى « اذ همت طائفتان منكم أن
تفثلا » (٤) * وقوله :

« ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله » (٥) *

وقال القاضى أبو بكر : وجه اعجازه ما فيه من النظم والتأليف
والترصيف ، وانه خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب
ومباين لأساليب خطاباتهم ، وقرر القاضى أبو بكر اعتقاده ان الاعجاز
في بعض القرآن اظهر ، وفي بعضه أدق وأغمض *

(١) السيوطى : معترك الاقران ص ٢٤٤ *

(٢) رفض الخطابى في رسالته « في اعجاز القرآن » وعبد الفاهر في « دلائل الاعجاز »

(٣) الاتقان : ج ٢ ص ٢٠٠ ، ٢٥١ *

(٤) سورة عمران : الآية ١٢٢ *

(٥) سورة المجادلة الآية الثامنة *

وقال الامام فخر الدين : وجه الاعجاز الفصاحة وغرابة الأسلوب
والسلامة من جميع العيوب •

وقال ابن عطية : الصحيح الذى عليه الجمهور والحذاق فى وجه
اعجازه انه نظم وصحة معانيه ، وتوالى فصاحة ألفاظه ، وذلك ان الله
أحاط بكل شىء علما وأحاط بالكلام كله ، فاختر لكل معنى اللفظ
الذى يعبر عنه أدق تعبير ، وسار هذا المنهج فى القرآن كله من أوله
الى آخره ، وذلك مالا يستطيعه البشر ، فهؤلاء لا يمكن ان يتخلصوا
من الجهل والنسيان والذهول ، ولذلك نجد البليغ ينقح القصيدة أو
الخطبة حولا ثم لا يزال يغير ويبدل ، اما كتاب الله فلو نزلت منه
الفظه ثم أدير لسان العرب لنجد لفظة أحسن منها ما أمكن ذلك •

الامام السيوطى واعجاز القرآن

عاش الامام السيوطى مع القرآن الكريم حياة حافلة مثمرة ،
قرأه ووعاه ، وقرأ مئات الكتب التى كتبت عنه ووعاها ، ثم راح
يكتب عنه اقتباسا من الآخرين أو ابداعا من فكره ، فتكاملت له
مؤلفات قيمة يقف عندها كل من يريد ان يكتب عن اعجاز القرآن
وقفات طويلة ، وقد ذكرنا فى المقدمة بعض هذه المؤلفات ، ولعل فى
قمتها « الاتقان فى علوم القرآن » فقد جمع فيه أكثر ما ورد هنا
وهناك فى كتبه الأخرى ، على ان للسيوطى كتابا مباشرا وخاصة فى
اعجاز القرآن وهو « معترك الاقران فى اعجاز القرآن » وسنقتبس
رأى السيوطى عن كيفية الاعجاز من هذا المصدر المباشر بعد ان نلم
المامة سريعة بابرار ما جاء فى « الاتقان » من نواحي الاعجاز البلاغى ،
وفى الاتقان ابرز السيوطى صورا رائعة من الاتجاهات البلاغية فى
القرآن الكريم ، وجعل ذلك أخص جهات الاعجاز ، لأن الكتب
الساوية الأخرى حوت غيبات وأحكاما كما حوت كثيرا من قصص

الأولين فهي تشارك القرآن الكريم في هذه النواحي ، ولكن القرآن اختص بجانبه البلاغى الذى لم يوجد فى سواء ، فكان هذا الجانب هو أقوى جوانب الاعجاز فيه ، وقد اقتبس السيوطى من القرآن الكريم نماذج بالغة الروعة عن المجاز فى القرآن وعن التشبيه فيه ، وعن الكتابة والتعريض ، وعن الأمثال فى القرآن ما كان منها ظاهرا مصرحا به أو كامنا لا ذكر للمثل فيه •

وتحدث السيوطى (١) عن طريق الحصر فى القرآن الكريم ، وعن الإيجاز والاطناب وعن ذكر أركان الجملة ، أو حذف بعض الأركان كما تحدث عن الخبر والانشاء فى القرآن الكريم ، وهو فى كل ذلك يعطى اقتباسات رائعة ممتعة ، بلغت الغاية فى الجودة والابداع ، وقد عقد فصلا خاصا عن بدائع القرآن (٢) وفى هذا الفصل يورد السيوطى اقتباسات عن ألوان البدائع من بسط ، وإيغال ، واستقصاء ، وتذليل ، وأرداف ، وتمثل ، وكلها قمم فى الجودة والجمال •

ومن اتجاهات السيوطى فى الاتقان ترى أنه يميل الى إبراز اعجاز القرآن فى أسلوبه ونظمه ، ذلك النسق الذى يضع القرآن بعيدا بعيدا عن أقوال البشر •

معترك الأقران فى اعجاز القرآن

وننتقل الآن الى كتاب « معترك الأقران فى اعجاز القرآن » لنقتبس منه بعض فقراته مما يتصل بموضوعنا •
القرآن والمعجزات السابقة :

يتحدث السيوطى عن مكانة معجزة القرآن بين معجزات الأنبياء فيقول (٣) : جعل الله معجزة القرآن عقلية لفرط ذكاء أمة محمد ،

(١) الاتقان ج ٢ ص ٨٢ وما بعدها •

(٢) الفصل الثامن والخمسون •

(٣) معترك الأقران ص ١ - ٣ بتصرف •

وكمال افهامهم ، وفضلهم على من تقدمهم ، فقد كانت معجزات أولئك
حسية لتناسب قدر ذكائهم *

ونقطة أخرى هي أن القرآن الكريم معجزة باقية بخلاف
معجزة الأنبياء السابقين التي كانت مرتبطة بحياتهم ، أما القرآن
فيفي أبدا الدهر ليراه ذوو البصائر في كل عهد ومكان *

والقرآن هو كلام الله ، وهو محفوظ في الصدور ، مقروء
باللسنة ، مكتوب في المصاحف ، ولكن ليس معنى ذلك أن كلام الله
القديم حل في هذه الأجرام (الصدور والألسنة والمصاحف) بل المعنى
أن كلام الله مدلول عليه بالحفظ في الجنان أو بتلاوة اللسان أو
بالكتابة بالبنان ، وذلك لان الشيء له وجودات أربع :

الوجود الحقيقي القديم ، والوجود الطارئ على القلب حفظا ،
أو على اللسان تلاوة ، أو على اليد كتابة ، والتلاوة غير المتلو ، والحفظ
غير المحفوظ والكتابة غير المكتوب كما أن الضرب غير المضروب ،
فالتلاوة حديثه لكن المتلو قديم ، وكذلك يقال في الكتابة والمكتوب
والحفظ والمحفوظ *

اثبات الإعجاز :

ثبت عجز فصحاء العرب عن الاتيان بمثل القرآن أو بمثل سورة
منه كما ذكرنا من قبل ، أما غير العرب أو العرب الذين لم ترتفع درجة
مصاحتهم ، فان الإعجاز ثابت عليهم بعجز أساطين البلاغة الذين قاوموا
محمدا بكل أساليب القوة ولم يستطيعوا أن يعارضوا القرآن مع
التحدى الذى ألقى في وجوههم عدة مرات ، وعلى هذا فاعجاز القرآن
ثابت لكل الناس ، فاذا عجز بطل عن مصارعة بطل يتحداه ، فان غير

البطل من جمهور الناس أعجز ، فالاعجاز حينئذ ينسحب على
الجميع (١) •

القرآن والشعر :

نزه الله القرآن عن الشعر ، والحكمة في ذلك أن القرآن منبج
الحق ومجمع الصدق ، أما الشاعر فيعمد الى التخيل ، والافراط في
الاطراء ، والمبالغة في الذم والايذاء دون تحرى الحق واثبات
الصدق (٢) •

وجوه الاعجاز فى القرآن

ذكر السيوطى فى معترك الأقران خمسة وثلاثين وجها من وجوه
الاعجاز فى القرآن ، وبعضها تكرر لما أورده فى « الاتقان » وسنلم
فيما بعد ببعض الوجوه المهمة •

١ - العلوم المستنبطة من القرآن :

جمع القرآن الكريم مجموعة من العلوم والمعارف لم يجمعها
كتاب من الكتب ، ولذلك جاء قوله تعالى « ما فرطنا فى الكتاب من
شئ (٣) » وقوله « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ (٤) » •

وقد استنبط الصحابة والتابعون وتابعوهم من القرآن الكريم
مجموعة من العلوم والفنون ، فاعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى •••
وكان القرآن الكريم من أهم الأسس التى وضعت قواعد اللغة
العربية على أساسها •

(١) معترك الأقران ص ٦ يتصرف •

(٢) معترك الأقران ص ٧ - ٨ •

(٣) سورة الأنعام : الآية ٣٨ •

(٤) سورة النحل : الآية ٨٩ •

(٥) معترك الأقران ص ١٤ وما بعدها •

واعتنى المفسرون بألفاظه ومعانيه دراسة وفهما وترجيحا *

واعتنى علماء العقيدة بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية ، مثل قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدنا » (١) فاستنبطوا منه الأدلة على وجود الله ووحدانيته وصفاته *

وتأملت طائفة معاني خطابه ، فكان ذلك أساسا لعلوم البلاغة ، وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام ، فنشأ عن ذلك علم الفقه *

واتجه علماء الحضارة الاسلامية الى القرآن الكريم ، فاقتبسوا منه ما استطاعوا به أن يبنوا هيكل هذه الحضارة من سياسة أو اقتصاد أو نظم اجتماعية أو عسكرية أو أخلاقية *

وتدارس قوم ما به من قصص فكان ذلك منشأ علم السيرة والتاريخ *

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ ، فنشأ علم الخطابة والدعوة واندفع قوم الى كتابته وتجويد هذه الكتابة بطرق مختلفة ، فنشأ علم الخط *

ومثل هذا يقال عن تفسير الرؤى ، وعلم الفرائض ، وعلم الفلك والمواقيت ، بل يربط السيوطي علوما أخرى كالهندسة والطب بآيات كريمة اقتبسها لذلك ، فعن الهندسة يذكر قوله تعالى : « انطلقوا الى ظل ذي ثلاث شعب (٢) » وعن الطب يورد قوله تعالى : « يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس (٣) » ويمكن أن يضاف

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٢ *

(٢) سورة المرسلات : الآية ٣٠ *

(٣) سورة النحل : الآية ٦٩ *

الى ذلك ما سبق أن أشرنا اليه عند حديثنا عن القرآن والعلم فيما يتصل بمراحل خلق الانسان التي وردت في قوله تعالى : « ولقد خلقنا الانسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة ... » (١) •

ويذكر السيوطى أن في القرآن الكريم أصول الصنائع وأسماء الآلات ويورد على ذلك مجموعة كبيرة من الآيات القرآنية يربط كل آية بصناعة أو بآلة ، ومن ذلك :

• النجاره : واصنع الفلك بأعيننا (٢) •

• الفلاحة : أفرايتم ما تحـرثون أأتم تزرعونه أم نحن الزارعون (٣) •

• الصيد واستخراج الحلى والملاحة : وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه (٤) •

• الصناعة : وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس (٥) •

٢ - مناسبة آياته وسوره وارتباط بعضها ببعض :

يذكر السيوطى (٦) أن آيات القرآن متتالية يناسب بعضها بعضا تماما ، فهي منسقة المعانى ، منتظمة المباني ، وأن كل سورة مرتبطة بما قبلها وما بعدها أروع ارتباط • ويذكر أن كثيرين من العلماء

(١) سورة المؤمنون : الآية ١٢ - ١٣ •

(٢) سورة هود : الآية ٣٧ •

(٣) سورة الواقعة : الآيتان ٦٣ - ٦٤ •

(٤) سورة الححل : ١٤ •

(٥) سورة الحديد : ٢٥ •

(٦) معترك الأقران ص ٥٤ وما بعدها •

ألقوا الكتب لبيان هذه الأسرار ، وأن العلم بهذه الأسرار ضرورى ،
والجهل بها نقص فى مراتب العلماء .

٣ - افتتاح السور بالحروف المقطعة :

يتحدث العلماء عن معانى الحروف المقطعة التى تبتدىء بها بعض السور ، وقد ذكر السيوطى اتجاهات كثيرة ، ورجح فى الاتقان أنها نوع من التحدى ، فهى بيان بأن القرآن جاء من هذه الأحرف المعروفة المتداولة عند العرب ومع هذا فقد عجزوا عن استعمالها استعمالا يباهون به كلام الله (١) .

ورجع فى معترك الأقران (٢) أن الحروف التى تفتتح بها كل سورة تتناسب مع الحروف أو الأفكار التى وردت فى السورة نفسها ، وعلى هذا فلا يتناسب مع أية سورة الا الحروف التى ابتدئت بها فلو وضع الحرف « ق » بدل « ن » لما كان ذلك مناسبا ، فسورة «ق» كثر فيها استعمال هذا الحرف مثل : القرآن - قال - تنقص - الحق فوقهم - باسقات - رزقا - قبلهم - قوم الخلق - أقرب - يتلقى المتلقبان عن اليمين وعن الشمال قعيد ، ما يلفظ من قول الا لديه رقيب عتيد .

وكثر استعمال حرف النون فى سورة «ن» ومن هنا افتتحت هذه السورة بحرف «ن» .

وقد تكررت « الراء » فى سورة يونس فورد بها أكثر من مائتى كلمة بها « الراء » ولهذا افتتحت بحرف الراء .

واشتملت سورة «ص» على خصومات متعددة ، فكان هذا

الافتتاح .

(١) الاتقان ج ٢ : ص ١٧ .

(٢) معترك الأقران ص ٥٤ وما بعدها .

و « الم » جمعت المخارج الثلاثة : الحلق واللسان والشفتين على ترتيبها ، وذلك اشارة الى البداية التي هي بدء الحلق والنهاية التي هي المعاد ، والتوسط الذي هو المعاش ، وكل سورة افتتحت بها فهي مشتملة على الأمور الثلاثة ، وهكذا •

٤ - روعته وهيبته : (※)

يحظى القرآن الكريم بروعة تلحق القلوب عند التفكير فيه ، وتغمر الاسماع عند سماعه ، كما يحظى بهيبة تعترى الناس عند تلاوته اذا قام بالتلاوة شخص يجيدها ويحسن تقديمها ، ومن العجيب أن هذه الهيبة تعظم على المكذبين لأنها تقع على نفوسهم وقعبا شديدا ، فيروى أن عتبة بن ربيعة كلم الرسول فيما جاء به مما يخالف عرف قريش وتقاليدها ، فأجابه الرسول بأن بدأ يقرأ من سورة فصلت حتى وصل الى قوله تعالى « فان أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١) » فاضطرب عتبة ووضع يده على فم الرسول ، وناشده الله والرحم أن يكف •

أما المؤمن فلا تزال روعته به وهيبته اياه توليه انجذابا وتكسبه هشاشة ، مع خشية ووجل ، قال تعالى : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم (٢) » •

٥ - تأثيره في النفوس : (※)

للقرآن الكريم خاصية مهمة هي أن الذي يسمعه بفكر ، يقبل عليه ويتمنى الاستمرار في السماع ما دامت التلاوة تأخذ حلقها من

-
- (※) معترك الاقران ص ٢٤٢ وما بعدها •
 - (١) سورة فصلت الآية ١٣ •
 - (٢) سورة الزمر الآية ٢٣ •
 - (※) معترك الاقران ص ٢٤٤ •

الإخراج ، ثم ان سماعه يؤثر تأثيرا كبيرا في النفوس ، أما غير القرآن الكريم فلا تتوافر له هذه الخصوصيات ، ولهذا اتجه أهل الكتاب الى احداث ألحان ترتبط بكتبهم ليجلبوا الرغبة في الاتصال بها ، والاستماع اليها ، ولكن القرآن الكريم مؤثر بذاته ، وقد امتد تأثيره فشمّل الانس والجن ، فمن العرب من أخذ به عند سماعه واعتنق الاسلام كعمر بن الخطاب وجبير بن مطعم ، ومنهم من أخذ به وتأثر ، ولكن ظروفًا قاهرة من الاستجابة له كالوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، أما الجن فتروى الآيات الكريمة انجذابهم اليه وإيمانهم به قال تعالى : « قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن ، فقالوا انا سمعنا قرآنا عجبا يهدى الى الرشده فأمننا به ولن نشارك ربنا أحدا » (١) •

تلك بعض وجوه الإعجاز التي رواها كتاب « معترك الأقران في إعجاز القرآن » للإمام السيوطي ، ولا شك أنها تبعث كثيرا من الضوء والإشعاع نحو هذا الموضوع العظيم •

وينبغي لنا قبل أن ندع موضوع إعجاز القرآن أن نعيش قليلا مع بعض المشاهير من شيوخ السيوطي الأقدمين الذين تكلموا في هذا الموضوع فأجادوا لنقتبس بعض آراء لم يقتبسها السيوطي منهم ، وذلك رغبة منا في محاولة استيفاء الدراسة ، ومن هؤلاء أبو الحسن علي الرماني (٣٨٦ هـ) وقد ذكر الرماني في كتابه « النكت في إعجاز القرآن » ثلاث نقاط مهمة عن الإعجاز هي توفر الدواعي ، ونقض العادة ، وقياسة بكل معجزة • وفيما يلي تعريف سريع بهذه النقاط من كلام الرماني :

يقول الرماني عن توفر الدواعي أن قريشا كانت في أشد الحاجة

(١) سورة الجن الآيتان ١ ، ٢ •

لمعارضة محمد ، ولو استطاعت معارضة القرآن ما تأخرت لحظة واحدة عن ذلك ، ولقد رمت قريش محمدا بكل مذمة ، فما كان أحرارا أن تواجه التحدى لو استطاعت ذلك •

وعن نقض العادة يقول الرمانى : ان العادة كانت جارية بضروب من أنواع الكلام معروفة ، منها السجع ، ومنها الخطب ، ومنها الرسائل ، ومنها المنثور الذى يدور بين الناس فى الحديث ، فأبى القرآن بطريقة مفردة خارجة عن العادة ، لها منزلة فى الحسن تفوق كل طريقة •

وأما قياسه بكل معجزة فانه يظهر اعجازه من جهة الوهم بإمكان المعارضة مع استحالتها عند المحاولة ، أما المعجزات الأخرى كقلق البحر ، وقلب العصا حية ، واحياء الميت وغيرها فقد اتخذت سبيلا واحدا فى الاعجاز اذ خرجت من العادة ولم تكن هناك امكانية للمعارضة ، فالقرآن يوهم ، ثم يخيب أمل من يشده هذه الوهم ، أما المعجزات الأخرى فلا سبيل للوهم فى معارضتها (١) •

ومن هؤلاء الشيوخ الذين نعرض لهم أبو سليمان عمر الخطابى (٣٨٨ هـ) وله كتاب فى اعجاز القرآن عنوانه « بيان اعجاز القرآن » ونقتبس منه نقطة مهمة ، هى جواب عن سؤال يقدمه هكذا :

ماذا لو قيل : لماذا لم يجرى نزول القرآن على سبيل التفصيل والتقسيم ، فيكون لكل نوع من أنواع علومه حيز ، فتجىء أخبار الأمم فى سورة ، والمواعظ والأمثال فى سورة ، والأحكام فى سورة ، والمواعظ والأمثال فى سورة ، والأحكام فى سورة ، وهكذا ؟

ويجيب بأن النسق الذى جاء به القرآن أسمى وأعظم ، لأنه

(١) النكت فى اعجاز القرآن ص ١٠١ - ١٠٣ من « ثلاث رسائل فى اعجاز القرآن »

بنقل السامع من فن الى فن ، ومن موضوع الى موضوع ، مع ترابط دقيق ، والتلوين مع الترابط هدف عظيم ، ولو كان لكل معنى سورة مفردة لكان الواحد من الكفار والمعاندين اذا سمع السورة منه لا تقوم عليه الحجة الا في النوع الذى تضمنته السورة ، فاجتماع المعانى الكثيرة فى السورة الواحدة أوفر حظا وأجدى نفعا (١) .

ومن هؤلاء الشيوخ عبد القاهرة الجرجاني (٤٧١ هـ) وله فى ذلك كتاب اسمه « الرسالة الشافية » يقرر فيه أن عجز العرب ظهر فى أحوالهم وأقوالهم ، ويتجه لشرح تلك الأحوال ، وهذه الأقوال :

فعن الأحوال يقرر أن المعارف عليه من عادات الناس وطبائعهم التى لا تتبدل ألا يسلموا لخصومهم بتفوق يستطيعون دفعه ، ويذكر الجرجاني أن الشعاعر أو الخطيب أو الكاتب كان يبلغه أن بأقصى الاقليم الذى هو فيه من يباهى بنفسه ، ويفتخر بشعر يقوله ، أو خطب يقوم بها ، أو رسالة يعلمها ، فيندفع بالانفة والحمية لمعارضة ذلك المتباهى ، ويثور اللجاج والتحاكم فترة طويلة ، كالذى حدث بين جرير والفرزدق ، ولم يكن أحد منهما يخشى أن ينال من صاحبه شيئا الا مجرد السبق فى عالم البيان ،

فكيف وقف أساطين البلغاء من معارضة القرآن مع أن محمدا جاء يهاجم معتقداتهم وكثيرا من عاداتهم ؟ من الواضح أنهم لو استطاعوا افعلوا ، ولكن المسافة كانت بعيدة بينهم وبين القرآن ، فأقبلوا وأحجموا ، ثم انتهى بهم الأمر الى التسليم والاذعان .

ثم ينتقل الجرجاني للحديث عن الأقوال التى نسبت الى العرب فيروى منها حديث الوليد بن المغيرة ، الشهير ، ويذكر كذلك ما روى من حديث عتبة بن ربيعة مع محمد ، فقد جاء عتبة الى الرسول يعرض

(١) اعجاز القرآن ص ٤٩ - ٥٠ .

عليه المال والسلطان ، فاستمع له الرسول بكثير من الصبر والأناة حتى انتهى من كلامه ، ثم سأله الرسول : أو قد فرغت ؟ قال عتبة : نعم . قال محمد فاسمع مني : وأخذ عليه السلام يقرأ آيات من سورة فصلت ، واهتز عتبه لما سمع من محمد ، وعاد الى قومه الذين كانوا ينتظرونه ، ولكنهم رأوه على حال غير ما كانوا يتوقعونه ، فقال بعضهم لبعض : لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، ولما جلس لهم ، وسألوه : ما وراءك ؟ قال : ورائي أني سمعت قولاً ما سمعت والله بمثابه فط ، ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني واخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه . . قالوا : سحرك بلسانه (١) .

هذا ويدور كلام الجرجاني في كتابه « دلائل الاعجاز » في هذا النطاق البلاغى بوجه عام .

مبهمات القرآن

للسيوطى كتاب اسمه « مفحمت الأقران في مبهمات القرآن » ذكر في مطلعته أنه يفوق ما سبقه من كتب في هذا المجال لأنه يحوى أحمل ما فيها ، ويضيف جديداً من الفوائد والفرائد .

ويذكر السيوطى أن علم المبهمات علم شريف ، اهتم الأوائل به اهتماماً كبيراً ، وهو يرجع الى النقل المحض ، ولا مجال للرأى فيه ، ولا يبحث عن مبهم أخبر الله باستنثاره بعلمه كقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله بعلمهم » (٢) فإنه لما ذكر أنه تعالى اختص بعلمهم دون البشر ، لم يكن من مجال

(١) الرسالة الشافية ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) سورة الأنفال الآية ١١ .

علم المبهمات أن نحاول أن نتعرف على هؤلاء المقصودين ، ولذلك يتعجب بعض الباحثين ممن تجرأ على القول بأن المقصود هم بنو فريظة ، ولكن السيوطي يرى أن ما اختص الله نفسه بعلمه هم الأفراد المحدودون ، وليس ما يمنع أن نحاول التعرف على جنسهم ، لا على أعيانهم (١) •

ويذكر السيوطي للابهام أسبابا نختار فيما يلي أهمها :

١ - الاستغناء ببيانه في موضع آخر مثل قوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم » فإن هذا المبهم بين في آية أخرى هي قوله تعالى « مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين » (٢) •

٢ - قصد الستر عليه ليكون ذلك أبلغ في عودته للصواب ، كقوله تعالى : « ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا (٣) » • وهو الأخنس بن شريق وقد أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه •

٣ - تعظيمه بالوصف كقوله تعالى « ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى (٤) » ، وقوله « اذ يقول لصاحبه •• » (٥) والمراد أبو بكر الصديق •

٤ - تحقير بالاهمال مع وصف يبرز منقصة فيه كقوله تعالى : « ان شائك هو الأبر (٦) » •

(١) مبهمات القرآن ص ٣ •

(٢) سورة النساء الآية ٦٩ •

(٣) سورة البقرة الآية ٢٤ •

(٤) سورة النور الآية ٢٢ •

(٥) سورة التوبة الآية ٤٠ •

(٦) سورة الكوثر الآية الثالثة •

قراءة القرآن والتطريب به

يستحب الاكثار من قراءة القرآن وتلاوته ، فقد روى الترمذى من حديث بن مسعود : من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشرة أمثالها ، وأخرج مسلم من حديث أبي أمامة : أقرأوا القرآن فإنه يكون يوم القيمة شفيعا لأصحابه •

وتسن القراءة بالتدبر والتفهم ، فذلك هو المقصود الأعظم والمطلوب الأهم ، وبه تنشرح الصدور ، وتستتير القلوب ، قال تعالى :
• كتاب أنزلناه اليك مبارك ليديرها آياته (١) •
وقال : « أفلا يتدبرون القرآن » (٢) •

ويسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها لقوله تعالى : « ورنل القرآن ترتيلا » ولقوله عليه السلام : زينوا القرآن بأصواتكم ، وقوله : حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسنا (٣) •

ولكن ينبغي ألا يخرج بالقراءة الى حد التمطيط والالحن ، وقد ذكر السيوطى (٤) أن بعض الناس قد ابتدعوا فى قراءة القرآن أصوات الغناء ، وأن أول ما غنى به من القرآن قوله تعالى :

« أما السفينة فكانت لمساكين يعملون فى البحر •• » (٥)

وكانوا فى ذلك يضاھون تغنيهم بقول الشاعر :

أما القطاة فانى سوف أنعتها نعتا يوافق عندى بعض ما فيها

-
- (١) سورة من الآية ٣٩
 - (٢) سورة النساء الآية ٨١
 - (٣) الاقان ج ١ ص ١٨٥
 - (٤) المراجع السابق ص ١٧٥
 - (٥) سورة الكهف الآية ٧٩

ويذكر السيوطي (١) أن الرسول قال في هؤلاء : مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم • وفي رواية : أقرأوا القرآن بلحون العرب وأصواتهم وإياكم ولحون أهل الكتابين وأهل الفسق فإنه سيحجى أقوام يرجعون بالقرآن ترجيع الغناء والرهابية ، لا يجاوز حناجرهم ، هؤلاء مفتونة قلوبهم وقلوب من يعجبهم شأنهم •

ويستحب الجهر ببعض القراءة والاسرار ببعضها ، لأن الذي يسر قد يميل فيأنس بالجهر ، والذي يجهر قد يكل فيستريح بالاسرار (٢) • والقراءة في المصحف أفضل من القراءة من الذاكرة ، لأن النظر في المصحف عبادة مطلوبة يثاب الانسان عليها : وقد روى عن الرسول قوله : أديموا النظر في المصحف • ولكن اذا كان التدبر أعمق في حال القراءة من الذاكرة فان هذه القراءة تكون أحسن (٣) •

ويكره للقارئ أن يقطع القراءة لمكاملة أحد ، لأن كلام الله لا ينبغي أن يرجح عليه كلام ، ويظل يقرأ حتى يفرغ من الحصاة ويقول صدق الله العظيم •

وينبغي الاستماع بخشوع لقراءة القرآن ، وترك اللفظ وترك الكلام عند القراءة قال تعالى : « واذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون » (٤) •

ويكره اتخاذ القرآن معيشة يتكسب بها ، وأخرج الآجرى من حديث عمران بن حصين مرفوعا : من قرأ القرآن فليسأل الله به ، فإنه سيأتي قوم يقرءون القرآن يسألون به الناس • ولكن تعليم القرآن بأجر جائز عند الأكثرين (٥) •

(١) الاتقان ج ١ ص ١٨٦ •

(٢) المرجع السابق ونفس الصفحة •

(٣) المرجع السابق ص ١٨٦ و ١٨٧ •

(٤) الاتقان ج ١ ص ١٨٨ والآية رقم ٢٠٣ من سورة الاعراف •

(٥) السوطي : الاتقان ج ١ ص ١٩٢ •

ولا يجوز أن يقرأ القرآن عند ظالم حتى لا يخدع الناس به ،
وفي الحديث : من قرأ القرآن عند ظالم ليرفع من شأنه لعن بكل حرف
عشر لعنات (١) •

ولا تجوز قراءة القرآن بغير العربية مطلقا ، سواء أحسن العربية
أم لا ، وسواء أكان ذلك في الصلاة أم خارجها ، وقال أبو حنيفة أولا
بالجواز ثم رجع عن ذلك وأجاز أبو يوسف ومحمد ذلك لمن لا يحسن
العربية ، وسبب المنع أن القرآن اذا ترجم لغير العربية ، ذهب اعجازه
البياني وهذا الاعجاز مقصود لذاته •

وتجوز ترجمة المعنى دون تقييد باللفظ ، لأن الترجمة اللفظية
لا تمكن ، اذ يعجز المترجم عن اختيار اللفظ الملائم للمعنى ، وقد سبق
أن ذكرنا أن علم الله واسع واحاطته شاملة ، فهو يختار اللفظ المناسب
للمعنى المطلوب ، وذلك ما لا يستطيعه البشر بدليل أن الشعراء
والكتاب يحاولون تجويد ما يكتبون بتغيير الألفاظ من حين لآخر •

التكرار في القرآن

في القرآن الكريم تكرر لفظي أحيانا ، وتكرار في الفكرة أحيانا
أخرى ، ولهذا وذاك هدف عظيم •

ومن التكرار اللفظي قوله تعالى : « فاذا سويته ونفخت فيه من
روحي فقعدوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون » فقد وردت
هاتان الآيتان في سورة الحجر (٢٩ - ٣٠) وفي سورة ص (٧٢ - ٧٣)
ومثل قوله تعالى : « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » فقد
وردت في سورتي الحشر (٩) والتغابن (١٦) •

والحكمة في هذا التكرار قد تكون الاهتمام بفكرة وتكرار

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة •

عباراتها حتى اذا غفل الانسان عنها مرة قابلته مرة أخرى ، وقد تكون ابرازا للقدرة التي تضع عبارة واحدة وسط عبارات مختلفة ولكن مع تحقيق أن العبارة المذكورة تبدو أصيلة في كل موقع بسبب دقة الحيك وروعة النسق •

ونجىء الى تكرار لفظي آخر في القرآن الكريم مثل قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » في سورة الرحمن ، وتكرار بعض الآيات في سورة القمر ، وهذا لا يحتاج القول فيه الى كبير عناء ، لأن مثل هذا التكرار أسلوب رفيع من الأساليب العربية ، وقد قال به الحارث بن عباد بعد مقتل ابنه « بجير » في حرب البسوس ، فكرر مصراع البيت « قربا مربط النعامة منى » أكثر من عشر مرات في قصيدته التي قاد بعدها هذا الحرب ، وكان يكمل البيت مع كل مصراع بما يثير غضب قومه ويقوى حماسهم وحقدهم على أعدائهم •

ولا شك أن تكرار قوله تعالى : « فبأى آلاء ربكما تكذبان » بعد تعداد نعم الله على الانس والجن ، ليس الا بمثابة انذار يدق النفوس والقلوب حتى تصحو من سباتها وتخضع لصاحب هذه النعم الكبيرة •

ونصل بعد هذا الى التكرار في الفكرة ، ومن ذلك قصص القرآن وخاصة قصص الأنبياء التي تكرر معظمها عدة مرات في القرآن الكريم ، وقد ألف بعض السابقين مؤلفات خاصة تشرح الحكمة من تكرار هذه القصص ، ومن هؤلاء ابن العربي في كتابه القواسم ، والبدر بن جماعة في كتابه « المقتنص في فوائد تكرار القصص » ، وسنلم فيما يلي بالاهداف التي دعت الى هذا التكرار •

وأول ما نشير له أن القرآن الكريم ليس كتاب قصص ، ولو كان كتاب قصص لكان من السهل جمع المادة عن القصة الواحدة في

مكان واحد ، ولكن القرآن كتاب اعجاز بأسلوبه وأفكاره ، فهدفه الدعوة للتوحيد وتعليم محاسن الأخلاق ، ويتخذ القرآن وسائل لذلك، كضرب الأمثال للناس بأسلافهم الذين عصوا ، وبيان ما آل اليه أمرهم ، فالقصص ليست مقصودة في ذاتها ، وانما تورد للانتفاع بها في ابراز تعاليم الدعوة وبيان عاقبة من يعمى عن اتباع الحق ، ومن يعارض النور الذى يرسله الله عن طريق الأنبياء •

وإذا كانت هذه القصص غير مقصودة لذاتها ، وانما تأتي للعظة والعبرة ، فانه من الطبيعى أن يرد من القصة الجزء الذى يناسب هذه العظة ، وقد يقتبس من القصة ذاتها جزء آخر يناسب عظة أخرى ، وقد يكرر جزء لنفس الهدف الذى ذكرناه آنفا وهو تكرر فكرة أمام القارئ حتى إذا اغفل عنها مرة واجهها مرة أخرى لمزيد من تقديم الهداية للانسان •

ويقتبس السيوطى من المراجع التى سبق أن ذكرناها ، فوائد أخرى لهذا التكرار نورد منها ما يلى (١) :

في كل موضع تكرر فيه القصة توجد زيادة لم تذكر في المواضع الأخرى ، أو تستبدل كلمة بكلمة أخرى لهدف معين ، وتلك أرقى طريقة في علم البلاغة والبيان •

ومنها أن الله سبحانه وتعالى جعل القرآن معجزا ، ولربما ظن بعض الناس أن القصة جاءت في صورة لا يمكن أن تأتي في صورة غيرها ، فكررت القصة لابرار أن من الممكن وضع القصة في عدة صور معجزة ، ولكن البشر لا يستطيعون اضافة أية صورة أخرى •

ومنها أن القصة الواحدة لما كررت كان في ألفاظها في كل موضوع

(١) الاتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ١١٥ - ١١٦ •

زيادة ونقصان وتقديم وتأخير . فجاءت على أسلوب غير أسلوب الأخرى فأفاد ذلك ظهور الأمر العجيب في اخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم وجذب النفوس الى سماعها ، بسبب ما جلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة ، وأستلذاذاها بذلك ، واطهار خاصة القرآن حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هجئة في اللفظ ، ولا ملل عند سماعه ، فباين ذلك كلام المخلوقين .

ومنها أن قصص الأنبياء انما كررت لأن المقصود بها افادة اهلاك من كذبوا رسالهم وكانت الحاجة داعية الى تكرير تلك القصص لتكرير تكذيب الكفار للرسول ، فكانوا كلما كذبوا نزلت قصة جديدة أو كررت قصة نزلت من قبل لتتذر هؤلاء القوم الذين لم يكتفوا بالانذارات المتعددة أو الذين اعتادوا سماعها ، فيأتى لهم صوت انذار جديد ، ولكل جديد مهابة .

وربما يسأل سائل عن السبب في ورود قصة يوسف مجتمعة وفي عدم تكرارها ، والاجابة عن ذلك أن قصة يوسف لها ظروف مختلفة ؛ فهي أولا جاءت استجابة لتحدى أهل الكتاب الذين أرادوا اختبار محمد فطلبوا قصة يوسف التي كانت لم ترد بعد في القرآن ، فجاءت الاجابة حاسمة ، بأن وردت القصة متكاملة تعجيزا لهم ، وابرزا لكون القرآن الكريم من عند الله .

وقصة يوسف - ثانيا - ليست كباقي القصص في تخويف المنكرين وانذارهم لأنها انتهت بحصول الفرج بعد الشدة ، فلم يكن هناك من داع لتكرارها مع تكرار الانكار ، ولهذا لم تتكرر قصة أصحاب الكهف ، وقصة ذى القرنين ، وقصة الذبيح لأنها لم تكن ردا على المنكرين وتخويفا لهم .

وثالثا هناك اتجاه القرآن الى ألوان من الاعجاز ؛ بمعنى أن قصة

ترد مرة متكاملة في مكان واحد ، وقصة أخرى تأتي شذرات منها
في أمكنة متعددة والاعجاز واضح هنا وهناك *

ورابعا هنا ما رواه الحاكم في مستدرکة ان سورة يوسف نزلت
بناء على طلب الصحابة ليعرفوا حقيقتها ، وكانت المعلومات عنها غير
دقيقة ، فجاءت مبسطة تامة لتحقق للصحابة الهدف الذي يتطلعون
اليه ، وليكون فيها ترويح للنفوس ومنتعة للقلوب *

وبعد

ذلك حديث موجز جدا عن أفكار السيوطي تجاه « الدراسات
القرآنية » ولا شك أن السيوطي أثري المكتبة العربية والفكر الاسلامي
بما كتب في هذا المجال كما فعل في المجالات الأخرى *

تحية لروح هذا العالم الكبير ، ودعاء أن يحسن الله جزاءه ،
وأن يجزل ثوابه *

السِّيَوطِي مَفْسَرًا
للدكتور أحمد عمر هاشم

المدرس بكلية أصول الدين بجامعة الأزهر

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين *
وبعد

فهذا بحث

عن الامام السيوطي مفسرا

تناولت الحديث فيه عن نسبه وسولده * وعن نشأته ، وحياته
العلمية ، ثم اقيمت بدراسة جانب التفسير ، فقدمت دراسة عن أهم
مؤلفاته واتجاهه العلمي في هذا المضمار *

ففي مجال علوم القرآن ، تناولت دراسة كتابه « الاتقان في علوم
القرآن » *

وفي مجال أسباب النزول ، تناولت دراسة كتابه « لباب النقول في
أسباب النزول » *

وفي مجال التفسير بالمأثورات ، تناولت دراسة كتابه « الدر
المنثور في التفسير بالمأثور » *

وفي مجال التفسير بالرأى : تناولت دراسة كتابه « تفسير الجالين » •

لتكون هذه الدراسة بمثابة نماذج لمؤلفاته في هذا الميدان الفسيح وهو التفسير • ومعلوم أن الامام السيوطى ألف في كل فن ، وكتب في كل علم ، ولو شاء أن يكتب في كل مسألة مصنفا لاستطاع ذلك ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، وتوفيقه للعلماء المخلصين •

ونحن اذ نقدم هذه الدراسة المركزة عن هذا الامام البجيليل ، فانما نقدم نمطا من سلفنا وتراثنا ، ونموذجا يحتذى للعلماء والباحثين والطلاب والقارئین •

جزاه الله خيرا على ما قدم من جهود علمية وتفعنا بعلمه •

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

نسبه ومولده

هو عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد بن سابق الدين بن الفخر عثمان بن ناصر الدين محمد بن سيف الدين خضر بن نجم الدين أبى الصلاح أيوب بن ناصر الدين محمد بن الشيخ همام الدين الهمام الخضرى الأسيوطى •

ولقب بجلال الدين ، وكنى بأبى الفضل ، وأما جده الأعلى وهو همام الدين فكان من أهل الحقيقة ، ومن مشايخ الطرق وأما من دون هذا الجد ، فقد كانوا أهل وجاهة ورياسة وليس من بينهم من عرف بخدمة العلم خدمة عظيمة الا والده •

وأما نسبه بالخضرى ، فقد تحدث هو عنها فى ترجمته لنفسه ، اذ يقول : « وأما نسبتنا بالخضرى فلا أعلم ما تكون اليه هذه النسبة الا الخضرية محلة ببغداد ، وقد حدثنى من أثق به أنه سمع والدى رحمه الله تعالى يذكر أن جده الأعلى كان أعجيبا أو من الشرق ، فالظاهر أن النسبة الى المحلة المذكورة (١) •

واشتغل والده ببلدة أسيوط ، وتولى بها القضاء ثم قدم القاهرة ، فلازم العلامة الغاياتى وأخذ عنه الكثير من الفقه والأصول والنحو والاعراب والمعانى والمنطق ، واجازة بالتدريس فى سنة ٨٢٩ تسع وثمانى وعشرين وثمانمائة - كما قال الجلال - كما اخذ عن الحافظ بن حجر العسقلانس علم الحديث ، وسمع عليه صحيح مسلم ، ولم تقف حال ابيه عند قضاء اسيوط واجازة الغاياتى اياه بالتدريس بل انه أفتى ودرس سنين كثيرة ، وناب فى الحكم بالقاهرة عن جماعة وولى دروس الفقه بالجامع الشيخونى ، وخطب بالجامع الطولونى وأم بالخليفة المستكفى بالله ، وكان يجله الى الغاية ، ويعظمه ، ولم

(١) حس المحاضرة للسبوطى ص ١٠٤ •

يكن يتردد الى احد من الاكابر غيره ، وعين لقضاء مكة فلم يتقى له ،
وتوفى سنة خمس وخمسين وثمانمائة أى قبل وفاة أبيه بست
سنين .

قال السيوطى فى كتابه حسن المحاضرة « وكان مولدى بعد المغرب
ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة . وحصلت فى حياة
أبى الى الشيخ محمد المجذوب ، رجل كان من كبار الأولياء بجوار
المشهد النفسى ، فترك على ، أى يباركه ، غاية التبرك بأهل الصلاح
والخير مستحب ، ففىما رواه الامام مسلم رحمه الله يسنده عن
عائشة زوج النبى صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه
وسلم كان يقول بالصبيان فيتبرك عليهم ويحنكهم . الى آخر الحديث .
أى كان يدعو لهم ويمسح عليهم ، وأصل البركة : ثبوت الخير
وكثرته .

قال الامام النووى رحمه الله فى تعليقه على هذا الحديث : فيه
استجاب تحنيك المولود ، وفيه التبرك بأهل الصلاح والفضل . وهكذا
استقبل بيت العلم والورع والفضل ، السلامة الحافظ جلال الدين
الذى كان بهجة لوالده وقرّة عين له .

نشأته :

نشأ جلال الدين السيوطى نشأة علمية منذ نعومة أظفاره ، فقد
كان والده أحرص ما يكون على أن يوجهه وجهة سديدة صالحة ،
فكان يحفظه القرآن الكريم ، فى صغره ، ويصحبه معه فى مختلف
مجالسه العلمية والقضائية .

وقد طلب والده من الحافظ بن حجر العسقلانى أن يدعو له
بالبركة والتوفيق ، وكان السيوطى يرى فى ابن حجر مثله الأعلى ، حتى

أنه كما شرب من ماء زمزم كان ينوي ويدعو الله أن يجعله مثل ابن حجر، حتى صار من أبرز العلماء ، ومن أكثر الحفاظ ، وبات والده وله من العمر حوالي خمس سنوات وسبعة أشهر ، ولكن الله تعالى قد كآه بعنايته ، وأحاطه برعايته ، فقد قيض الله تعالى له العلامة كمال الدين ابن الهمام الحنفى صاحب « فتح القدير » فكان يرعاه ويتابعه فى تحفيظ القرآن الكريم ، وكانت مخايل الذكاء فيه ظاهرة ، وقد منحه الله تعالى حافظه قوية ، وقريحة سيالة نحفظ وتستظهر بصورة فذة ، ولا غرابة فى هذا فقد حفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمان سنين ، ثم حفظ العمدة والمنهاج الفقهى والمنهاج الأصولى ، وألفية بن مالك .
وابتداً الاشتغال بالعلم سنة ٨٦٤ هـ .

فأخذ الفقه عن الشيخ سراج الدين البلقينى ، وقد لازمه الى أن توفى ، فلازم من بعده ولده على الدين الذى توفى سنة ٨٦٨ هـ ، وقد سمع منه الكثير مثل : الحاوى الصغير ، والمنهاج ، وشرح المنهاج ، والروضة . وأخذ الفرائض عن الشيخ شهاب الدين الشارمساجى ، ولازم الشرف المناوى أباً زكريا يحيى بن محمد ، جد عبد الرؤوف شارح الجامع الصغير . وتوفى الشرف سنة ٨٧١ هـ .

ولزم فى العلوم العربية والحديث تقى الدين الشمنى الحنفى المتوفى سنة ٨٧٢ هـ . ثم لازم الشيخ محى الدين محمد بن سليمان الرومى الحنفى أربع عشرة سنة ، فأخذ عنه التفسير والأصول العربية وعلوم المعانى .

وأخذ عن جلال الدين المحلى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ ، وعن المعز الكنانى أحمد بن ابراهيم الحنبلى .

وقرأ صحيح مسلم ، والشفاء ، وألفية بن مالك ، والتسهيل

والتوضيح ، على الشمس السيرامي ، ولم يدع السيوطي فرعاً من فروع المعرفة ولا نوعاً من أنواع العلم الا وأدلى فيه بدلوه ، واتجه ينهل منه كالفرائض والحساب ، كما أخذ من المجد ابن السبّاع ، وعبد العزيز الوقائي ، وأخذ الطب عن محمد بن ابراهيم الرومي . هذا والمتتبع لنشأة السيوطي يجد أنه قد أخذ الكثير من العلوم عن الكثير من الشيوخ ، فلم يقتصر في علمه ودراسته وتعلمه على علوم الدين واللغة كما لم يقتصر في الشيوخ على علماء مصر ، بل أنه رحل في طلب العلم ورواية الحديث الى : المغرب واليمن والهند والشام والحجاز ، والمحلة ودمياط والقيوم من المدن المصرية ، وغير ذلك من الأقطار الاسلامية ، وقد حج وشرب من ماء زمزم ، وجاء أن يصل في الفقه الى مرتبة الشيخ البلقيني ، وفي الحديث الى رتبة الحافظ بن حجر . وهكذا طوف الامام الجليل ، ورحل المراحل الواسعة ، وركب المركب الصعب ، من أجل تحصيل العلم ، ولذا كثر شيوخه الذين أخذ عنهم وروى عنهم .

وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في الطبقات أن شيوخه قد وصلوا نحو الستمائة ، وقد قسمهم الى طبقات :

الطبقة الأولى : من يروى من أصحاب الفخر أن البخاري والشرف الدمياطي ووزيره والحجار وسلیمان بن حمزه .

الطبقة الثانية : من يروى عن السراج البلقيني والحافظ بن الفضل العراقي .

الطبقة الثالثة : من يروى عن الشرف بن الكوبك ونحوه .

الطبقة الرابعة : من يروى عن أبي زرعة بن الزبير العراقي وابي الجزري ونحوهما (١) .

(١) طبقات الشعراني والامام السيوطي للدكتور / علي صافي حسين .

وقد تحدث السيوطى عن هذه المرحلة فى كتابه « حسن المحاضرة » فقال : « ونشأت فيما فحفظت القرآن ولى دون ثمان سنين، ثم حفظت العمدة ومنهاج الفقه والأصول وألفية بن مالك ، وشرعت فى الاشتغال بالعلم من مستهل سنة أربع وستين فأخذت الفقه والنحو عن جماعة من الشيوخ ، وأخذت الفرائض عن العلامة فرضى زمانه الشيخ شهاب الدين الشارمساجى الذى كان يقال أنه بلغ السن العالمية وجاوز المائة بكثير » .

والى جوار ما سبق من شيوخه الكثيرين ، أخذ منهم وروى عنهم ، بالإضافة الى رحلاته الواسعة التى قام بها ، فانه يضاف الى هذا وذلك اتعاشة بمكتبة المدرسة المحمودية ، التى كان مقرها بقصبة رضوان مكان الجامع المعروف باسم « جامع الكردى » فى أول الخيمية من ناحية باب زويلة .

وقال المقرئى : « وبهذه الخزانة كتب الاسلام من كل فن ، وهذه المدرسة من أحسن مدارس مصر ، وتنسب الى محمود بن الأستاذار الذى أنشأها سنة ٧٩٧ هـ » . وقال عنها الحافظ بن حجرى فى «أبناء العمر» : ان الكتب التى بها وهى كثيرة جدا من أنفس الكتب الموجودة الآن بالقاهرة ، وهى من جمع البرهان بن جماعة ، واشتراها محمود الأستاذار من تركته بعد موته ووقفها . . . » وقد كانت هذه الخزانة فى أمانة الحافظ بن حجر ، وبها نحو من أربعة آلاف مجلد ، وقد عمل لها بن حجر فهرستا ، وللسيوطى فيها رسالة تسمى « بذل المجهود فى خزانة محمود » .

وقد نضجت شخصية السيوطى ، وأكتملت ملامح تكوينه العلمى ، حتى تمت لديه أدوار الاجتهاد ، وحصل علومه وكان سريع البديهة ، قوى الحافظة ، فمنحه الله تعالى عقلا علميا خصبا ، وذكاء حادا ، والى جانب هذه الخصائص فقد كان عابدا زاهدا متواضعا .

ولا يقبل جوار الملوك ، وقد أهدى له السلطان العورى غلاما خصيا وألف دينار ، فرد الألف وأخذ الخصى فأعتقه وجعله خادما في الحجرة النبوية ، وقال لقاصد السلطان : « لا تعد فتأتينا بهدية فظ فان الله تعالى أغمانا عن مثل ذلك .. » *

حياته العلمية

وقد ذكرت مصادر عديدة مثل : « شذرات الذهب » ، لابن العساق الحنبلي وغيرها : أن السيوطي أجاز بالتدريس في مستهل سنة ست وستين وثمانمئة ، وذلك بتدريس العربية في سن مبكرة ، وعمره سبعة عشر عاما ،

أما بالنسبة لتدريس الفقه واملاء الحديث ، فقد كان ذلك سنة اثنتين وسبعين وثمانمئة (٢) * وأجاز بالتدريس والافتاء سنة ست وسبعين ، وسنه سبعة وعشرون عاما أجاز بهما بن شيخ الاسلام البلقيني ، وحضر تصديره ، وشرع في التأليف والتصنيف في سنة ست وستين ، وأول شيء ألفه رساله في شرح الاستعاذة والبسملة ، وراها شيخ الاسلام البلقيني فاستحسنها وكتب عليها تقريظا (٣) .. *

وعرف بشجاعته الأدبية ، وقوته في اقامة أحكام الشريعة الاسلامية وتطبيقها دون أن يجامل أحد ، فلم يخش في الحق لومة لائم ، فقد تصدى للافتاء وشئون القضاء ، فحرض على اقامة الحدود وتطبيق الأحكام الدينية مهما كلفه ذلك ، ولم يكثرث بغضب الأمراء أو السلاطين ، بل كان اذا رأى قاضيا ما تأول في حكم ارضاءه لأمير ، أو زلفى لسلطان قاوم مثل ذلك وأعلن انكاره ، ومعارضته

(١) مقدمة تدريب الراوي بتحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف .

(٢) الطقات للشمراني . والفضوء اللامع للسخاوي .

(٣) مقدمة الجامع الصغير للسيوطي بتحقيق الشيخ محيي الدين عبد الحميد .

وبين خطاه * وقد ذكر في مقامته « الاستنصار بالواحد القهار » أنه قاسى كثيرا من جراء الفتوى *

وقد استهل السيوطى أول عهد التأليف والتصنيف بكتاب وضعه في شرح الاستعاذة والبسمة وقد ظل مشغولا بالتدريس والافتاء الى أن بلغ من العمر أربعين سنة ، فاعتذر بعد ذلك وترك التدريس والافتاء ، وتفرغ للعبادة والتأليف ، فألف رسالة تسمى « التنفيس في الاعتذار من ترك الافتاء والتدريس » *

ومؤلفات السيوطى تزيد على الخمسمائة ، وهذه المؤلفات الكثيرة ان دلت على شيء فانما تدل على رسوخ قدمه في العلم ، وتبحره في سائر فنونه ، ويقول السيوطى : « ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة بين اختلاف المذاهب فيها لقدرت على ذلك من فضل الله لا بقوتى ، فلا حول ولا قوة الا بالله * * »

السيوطى مفسرا

لقد فطر الله تعالى أمامنا السيوطى على حب القرآن الكريم ، ووفقه الى حفظه منذ الصغر ، فابتدأ فجر حياته التعليمية بكتاب الله حفظا ودراسة ، كما ابتدأ حياته العلمية وحياته التأليف بالقرآن كذلك ، فكان أول شيء قام بتأليفه هو كتابه الذى كتبه في تفسير الاستفاة والبسمة وقد عرضه على شيخ الاسلام على الدين صالح البلقيني فأقر تأليفه وامتدحه ثم توالى تأليفه بعد ذلك *

وقد رزقه الله تعالى عقلية خصبة ، وفكرا معطاء ، مما جعله يتبحر في كثير من العلوم والمعارف ، وقد كان علم التفسير من العلوم التى تبحر فيها السيوطى ، وقال :

ورزقت التبجر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع ، على طريقة العرب والبلغاء لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ، والذي اعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة سوى الفقه والنحو التي أطلعت عليها فيها لم يصل إليه ولا وقف عليه أحد من أشياخي فضلا عن هو دونهم ، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه بل شيخي فيه أوسع نظرا وأطول باعا * ودون هذه السبعة في المعرفة أصول الفقه والجدل والتصريف ، ودونها الانشاء والترسل والفرائض ، ودونها القراءات ولم آخذها عن شيخ * * « *
وقد ألف السيوطي في التفسير وعلوم القرآن كتبا كثيرة وهي :

- ١ - الاتقان في علوم القرآن *
٢ - الدر المنثور في التفسير المأثور *
٣ - ترجمان القرآن في التفسير *
٤ - أصرار التنزيل ، ويسمى قطف الأزهار في كشف الأسرار *
٥ - لباب النقول في أسباب النزول *
٦ - مفحومات الأقران في مهمات القرآن * *
٧ - المهذب فيما وقع في القرآن من العرب *
٨ - الاكليل في استنباط التنزيل *
٩ - تكملة تفسير الشيخ جلال الدين الحلبي *
١٠ - التحبير في علوم التفسير *
١١ - حاشية على تفسير البيضاوي *

(١) حسن المحاضرة ص ١٤ *

- ١٢ - تناسق الدرر في تناسب السور •
- ١٣ - مرصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع •
- ١٤ - مجمع البحرين ومطلع البدرين في التفسير •
- ١٥ - مفاتيح الغيب في التفسير •
- ١٦ - الأزهار الفاتحة على الفاتحة •
- ١٧ - شرع الاستعاذة وبسمة •
- ١٨ - الكلام على أول الفتح ، وهو تصدير ألقاه السيوطي عندما
 باشر التدريس بجامع شيخون بحضرة شيخه البلقيني •
- ١٩ - شرح الشاطبية •
- ٢٠ - الألفية في القراءات العشر •
- ٢١ - خمائل الزهر في فنادق السور •
- ٢٢ - فتح الجليل للعبد الذليل في الأنواع البديعة المستخرجة من قوله
 تعالى : « الله ولي الذين آمنوا » الآية • وعدتها مائة وعشرون
 نوعا •
- ٢٣ - القول الفصيح في تعيين الذبيح •
- ٢٤ - اليد البسطى في الصلاة الوسطى •
- ٢٥ - معترك الأقران في مشترك القرآن •

وإذا كان الناس بالنسبة لجواز تفسير القرآن لكل أحد أو عدم
 جواز ذلك ، قد اختلفوا فمنهم من قال بعدم جواز التفسير لأى أحد
 وإن كان عالما واسع المعرفة والأدلة وعارفا بالأحكام والأخبار ، فليس
 له ألا أن ينتبى الى ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك •
 ومنهم من قال يجوز تفسيره لمن كان جامعا للعلوم التى يحتاج

اليها وقد بين الامام السيوطى هذه العلوم التى يحتاج اليها المفسر
وهى خمسة عشر علما :

الأول : اللغة ، لأن بها يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها
بحسب الوضع ، قاله مجاهد : لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر
أن يتكلم فى كتاب الله اذا لم يكن عالما بلغات العرب ، وتقدم قول
الامام مالك فى ذلك ، ولا يكفى فى حقه معرفة اليسير منها ، فقد يكون
اللفظ مشتركا ، وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر •

الثانى : النحو ، لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الاعراب ،
فلا بد من اعتباره ، أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه سئل عن رجل يتعلم
العربية يلتبس بها حسن المنطق ويقوم بها قراءته ، فقال : حسن
فتعلمها فان الرجل يقرأ الآية فيعى بوجهها وبهلك فيها •

الثالث : التعريف ، لأن به تعرف الأبنية والصيغ قال بن فارس :
ومن فاته علمه فاته المعظم ، لأنه اذا وجد كلمة مبهمة ، فاذا حرفها ،
انضحت بمصادرها •

وقال الزمخشري : من يدع التفاسير قول من قال أن الامام فى
قوله تعالى : « يوم ندعو كل أناس بأمامهم » جمع أم ، وأن الناس
يدعون يوم القيامة بأمامتهم دون آبائهم ، قال : وهذا غلط أوجهه
جهله بالتصريف فان « أما » لا تجمع على أمام •

الرابع : الاشتقاق ، لأن الاسم اذا كان اشتقاقه من مادتين
مختلفتين وباختلافهما كالسيح ، هل هو من السياحة أو المسيح •
الخامس : علم المعانى والسادس علم البيان والسابع : علم
البديع •

وهذه علوم البلاغة ، فيعرف بالمعانى خواص تراكيب الكلام
من جهة افادتها المعنى ، ويعرف بالبيان خواصها من حيث اختلافها

بحسب وضوح الأدلة وخفائها ، ويعرف بالثالث : وجوه تحسين الكلام .
وهذه العلوم من أعظم أركان المفسر ، لأنه لا بد له من مراعاة ما يقتضيه
الاعجاز ، وانما يدرك بهذه العلوم .

وقال السكاكي : أعلم أن شأن الاعجاز عجيب ، يدرك ولا يمكن
وصفه ، كاستقامة الوزن ، تدرك ولا يمكن وصفها كالملاحمة .
ولا طريق الى تحصيله لغير ذوى الفطرة السليمة الا التمرس على علمي
البيان والمعاني .

الثامن : على القراءات ، لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن
وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

التاسع : أصول الدين ، بما فى القرآن من الآية الدالة بظواهرها
على ما لا يجوز على الله تعالى ، فالاصولى يقول ذلك ويستدل على
ما يستحيل وما يجب وما يجوز .

العاشر : أصول الفقه ، اذ به يعرف وجه الاستدلال على الأحكام
والاستنباط .

الحادى عشر : أسباب النزول والقصص ، اذ بسبب النزول يعرف معنى
الآية المنزلة فيه بحسب ما أنزلت فيه .

الثانى عشر : الناسخ والمنسوخ ، ليعلم المحكم من غيره .

الثالث عشر : الفقه .

الرابع عشر : الأحاديث المهونة لتفسير المجمل والمبهم .

الخامس عشر : علم الموهبة ، وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل

بما علم ، واليه الاشارة بحديث .

« من عمل بما علم ورثه الله على ما لم يعلم » (١)

والى هذا النوع من العلم الاشارة بقول الله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله » (٢) .

وقد قال السيوطى - بعد أن بين علم الموهبة : « ولعلك ستشكل علم الموهبة ، وتقول : هذا شىء ليس فى قدرة الانسان هو ليس الأمر كما ظننت من الاشكال ، والطريق فى تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل . والزهد فقال فى البرهان : اعلم انه لا يحصل للناظر فهم معانى الوحي ولا يظهر له أسرار ، وفى قلبه بدعة أو كبر أو هوى أو حب الدنيا ، أو هو مصر على ذنب ، أو غير متحقق بالايمان او ضعيق التحقيق ، أو يعتمد على قول مفسر عنده علم او راجع الى معقوله ، وهذه كلها حجب وموانع بعضها أكد من بعض قلت : وفى هذا المعنى قوله تعالى (سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق) (٣)

وحول دراستنا هذه عن الامام السيوطى مفسرا سنتناول بمعون الله تعالى وتوفيقه دراسة بعض الكتب فى هذا الشأن .

ففى مجال علوم القرآن سنقدم دراسة عن كتابه النفيس :

« الاتقان فى علم القرآن »

وفى مجال أسباب النزول سنقدم دراسة من كتابه القيم : « لباب التقول فى أسباب النزول »

وفى مجال التفسير وما قدمه من خدمة جليلة لكتاب الله تعالى

(١) الاتقان ج ٢ ص ١٨٠ .

(٢) الآية ٢٨٢ سورة البقرة .

(٣) الاتقان ج ١ ص ١٨١ .

سنتناول دراسة كتابين من كتبه كل واحد من هذين الكتابين يمثل اتجاهها معنا في التفسير *

الكتاب الأول : « الدر المشور في التفسير بالمأثور » وهذا الكتاب يمثل اتجاهات التفسير بالمأثور *

والكتاب الثاني : « تفسير الجلالين » وهو يمثل اتجاه التفسير بالرأى *

ولنبداً. أولاً بما يتصل بعلوم القرآن :

الاتقان في علوم القرآن

ان العلوم تشرف بشرف موضوعها ، وترقى منزلتها بدرجة ما تعالجه من معارف ، وما تقدمه من فوائد وثمرات « واذا كانت علوم القرآن يدور البحث فيها حول ما يتعلق بكتاب الله تعالى ونزول آياته الشريفة ، وأسباب هذا النزول وتاريخه ، ومكانه وما الى ذلك من الأنواع ... فهذا يدل على عظمة هذا العلم وعلى رفعة شأنه ، وعلى أهميته في معاونة العلماء والباحثين ، في تفسير آياته وبيان ما يرشد اليه من العقيدة والعبادة والأخلاق وتلك فوائد من أعظم ما تصبوا اليه نفس المسلم *

وقد قدم الامام السيوطي لكتابه « الاتقان » بمقدمه بين فيها الداعي الى تأليف هذا الكتاب ؟

حيث ذكر في مقدمة الاتقان تشموقه وتطلعه الى أهمية علوم القرآن والحاجة الى التأليف في هذا المضمار ، كما دون العلماء وكتبوا في علم الحديث فقال :

ولقد كنت في زمن الطلب اتعجب من المتقدمين اذ لم يدونوا

كتابا في أنواع علوم القرآن كما وضحو ذلك بالنسبة الى علم الحديث ، فسمعت شيخنا استاذ الاستاذين ، وانسان عين الناظرين خلاصة الوجود علامة الزمان فخر العصر وعين الأوان أبا عبدالله محي الدين الكافيحي مد الله في أجله وأسبغ عليه ظله يقول :

قد دوت في علوم التفسير كتابا لم أسبق اليه فكتبته عنه فاذا هو صغير الحجم جدا ، وحاصلها فيه بايان : الأول في ذكر معنى التفسير والتأويل والقرآن والسورة والآية • والثاني في شروط القول فيه بالرأى وبعدهما خاتمة في آداب العالم والمتعلم فلم يشف لي ذلك قليلا ولم يهدني الى المقصود سبيلا •• ثم ذكر ما أوقفه عليه الشيخ علم الدين البلقيني من كتاب لأخيه جلال الدين سماه مواقع العلوم مر مواقع النجوم ، وما قاله في خطبة هذا • الكتاب : قد اشتهرت عن الامام الشافعي رضى الله عنه مخاطبة لعلماء بنى العباس فيها ذكر بعض أنواع القرآن ••• كما وضع السيوطى أن علم التفسير لم يدونه أحد لا في التقديم ولا في الحديث •

حتى جاء شيخ الاسلام جلال الدين البلقيني فعمل فيه كتابه مواقع العلوم من مواقع النجوم فنقحه وهدبه وقسم أنواعه ورتبه ولم يسبق الى هذه المرتبة ، فانه جعله فيها خمسين نوعا متقسمه الى ستة أقسام ، وتكلم في كل نوع منها بالمتين من الكلام لكن كما قال الامام ابو السعادات ابن الأثير في مقدمة نهايته : كل مبتدىء بشيء لم يسبق اليه ، مبتدع أمر لم يتقدم فيه عليه ، فانه يكون قليلا ثم يكثر وصغيرا ثم يكبر •••

ثم أشاد الامام السيوطى بجهود من سبقه في هذا الشأن خاصة الشيخ الزركشى •• قال : ثم خطر لي بعد ذلك أن أوّلف كتابا مبسوطا ومجموعا مطبوعة أسلك فيه طريق الاحصاء ، وأمشى فيه على منهاج

الاستقصاء ، هذا كله وأنا أظن أنى مفرد بذلك غير مسبق بالخوض ،
فى هذه المسالك فبينما أنا أجيل فى ذلك فكرى أقدم رجلا وأؤخر
أخرى ، اذ بلغنى ان الشيخ الامام بدر الدين محمد بن عبدالله
الزركشى أحد متأخرى الشافعيين ألف كتابا فى ذلك حافلا يسمى
« البرهان » فى علوم القرآن ، فتطلبته حتى وقفت عليه .

ولما وقف على هذا الكتاب ازداد سرورا وفرحا ، وحمد الله
وقويت عزيمته فى تصنيف ما أراد ، فوضع كتابه النفيس « الاتقان »
ورتب الامام السيوطى كتابه هذا ترتيبا أنسب من ترتيب البرهان ،
فأدمج من أنواع هذا الفن ما يحتاج الى ادماج ، وفصل ما يحتاج
الى تفصيل وزيادة وبيان .

والحقيقة : أن كل نوع من الانواع التى تناولها السيوطى
بالدراسة فى كتابه يمكن أن تفرد بالتأليف .

وكان هدفه من وراء تأليف هذا الكتاب ، أن يجعله مقدمة
للتفسير الكبير الذى كان قد شرع فى تأليفه وسماه « مجمع البحرين
وصلح البدوين » الجامع لتحرير الرواية ، وتقرير الداراية
وقد ذكر السيوطى فى مقدمة الاتقان ما اشتمل عليه هذا الكتاب من
علوم القرآن وهى :

النوع الأول : معرفة المكى والمدنى . والثانى : معرفة الحفرى .
والسفرى . والثالث النهارى والليلى . والرابع الصيفى الشتائى .
والخامس : الفراشى والنومى . السادس : الارضى والسماوى .
السابع : اول ما نزل . الثامن : آخر ما نزل . التاسع اسباب النزول
العاشر : ما نزل على لسان بعض الصحابة . الحادى عشر : ما تكرر
نزوله . الثانى عشر : ما تأخر حكمه عن نزوله وما تأخر عن حكمه .
الثالث عشر : معرفة ما نزل مفرقا وما نزل جمعا . الرابع عشر :

ما نزل مفردا • الخامس عشر : ما أنزل منه على بعض الانبياء وما لم ينزل منه على أحد قبل النبي صلى الله عليه وسلم • السادس عشر : في كيفية انزاله • السابع عشر : في معرفة اسمائه واسماء سورته • الثامن عشر : في جمعه وترتيبه • التاسع عشر : في عدد سورته وآياته وكلماته وحروفه • العشرون : في حفاظه ورواياته ، الحادى والعشرون : في العالى النازل • الثانى والعشرون : معرفة المتواتر • الثالث والعشرون : : في الشهور • الرابع والعشرون : في الآحاد • والخامس والعشرون : في الشاذ • السادس والعشرون الموضوع السابع والعشرون المدرج • الثامن والعشرون : في معرفة الوقف والابتداء • التاسع والعشرون : في بيان الموصول لفظا المنفصول معنى • الثلاثون : في الاماله والفتح وما بينهما • الحادى والثلاثون : في الادغام والظهار والاختفاء والاقلاب • الثانى والثلاثون : في المد القصير • الثالث والثلاثون : في تخفيف الهمزة • الرابع والثلاثون : في كيفية تحمله • الخامس والثلاثون : في آداب تلاوته • السادس والثلاثون : في معرفة غريبه • السابع والثلاثون : فيما وقع فيه بغير لغة الحجاز • الثامن والثلاثون معرفة الوجوه والنظائر • الخ هذه الأنواع الأربعون •

وقد بين أن هذه الأنواع انما ذكرها على سبيل الادمج ولو أنها نوعت وفصلت لزادت على الثلاثمائة •

ومن الملاحظ أن الامام السيوطى • قد صنف ودون هذا الكتاب ما لم يسبق اليه نعم كانت هناك مصنفات في هذا العلم قبله الا أنها كانت نبذا وشذرات ، ومختصرات ومجالات ، وكانت المؤلفات من قبله عبارة عن تصنيف مفرد لنوع منها او لبعضها • وقد ذكر في مقدمة كتابه « الاتقان » الكتب التى رجع اليها • وللمراجع التى اعتمد عليها • ما بين كتب في التفسير والحديث والقراءات واللغات •

والأحكام وتعلقاتها وكتب في الاعجاز وفنون البلاغة ، وغير ذلك من أنواع العلوم •

وقد أبدع الامام السيوطى فى كتابه هذا ، حيث ما أجمله المصنفون فى هذا العلم من قبله وأتى بأمور جديدة فى هذا الشأن سكت عنها السابقون ، فجاء الكتاب حافلا بمادة علمية خصبة تدل على ما أتى مؤلفه من فكر ثاقب ، وحافظة قوية ، وبصيرة نافذة ألهمه الله تعالى إياها فهو يعتبر أول كتاب متكامل فى هذا الشأن ولئن كان قبله كتب فى هذا المضمار إلا أنها كانت بحوثا متفرقة •

كما يعتبر الكتاب المذكور خلاصة كتب كثيرة • وعصارة معلومات حصلها السيوطى ممن سبقه وممن عاصره ومن نلتى أنواع الكتب والعلوم • حتى جاء فى ثوبه الكامل وقد قال فى آخر كتابه •

« •• محضت فيه كتب العلم على تنوعها واخذت زبدها ودرها ومررت على رياض التفاسير على كثرة عددها • واقتطفت ثمرها وزهرها الى أن قال : وانا أضرع الى الله جل جلاله وعز وعز سلطانه كما من بآتمام هذا الكتاب ان يتم النعمة بقبوله وأن يجعلنا من السابقين الأولين من أتباع رسوله • (١)

(١) الاتقان ج ٢ ص ٢٠٦ •

فى أسباب نزول القرآن الكرىم

كتاب

لباب القول فى أسباب النزول

كتب الامام السيوطى لمعرفة أسباب كتب النزول كتابة مركزة. ضمن الأنواع التى تعرض لها فى كتابه « الاتقان » فذكرها تحت النوع التاسع، ووضح ان جماعة قد افردوها بالتصنيف أقدمهم على بن المدينى شيخ البخارى * ومن أشهر ما كتب : كتاب الواحدى ، وقد اختصره الجعبرى فحذف أسانيدہ ولم يزد عليه شيئاً ، وألف فيه أبو الفضل ابن حجر كتاباً ولكنه كما قال السيوطى مات عنه وهو مسودة * .

ثم جاء السيوطى فألف كتابه الحافل الموجز « لباب النقول فى أسباب النزول » وهو كتاب لم يؤلف مثله فى هذا النوع السيوطى يتميز على كتاب الواحدى بأمور : احدها : الاختصار * ثانيها : - الجمع الكثير فقد اشتمل على زيادات كثيرة على ما ذكره الواحدى وميزها حين رمز اليها بالرمز (ك) ثالثها : أن السيوطى عزا كل حديث الى كل من خرجه من أصحاب الكتب المعتمدة المعتمدة كالكتب الستة، والمستدرک ، وصحيح ابن حبان ، وسنن البيهقى ، والدار قطنى ، ومسائيد أحمد ، والبزار ، وأبى يعلى ، ومعجم الطبرانى ، وتفاسير ابن جرير ، وابن أبى حاتم وابن مرويه ، وأبى الشيخ ، وابن حبان ، والغريابى ، وعبد الرازق وابن المنذر وغيرهم * .

وأما الواحدى فإنه تارة يورد الحديث باسناده وتارة يورده مقطوعاً فلا يعلم ان كان له اسناده أم لا * .

رابعها : تمييز الصحيح من غيره والمقبول من المردود * .

خامسها : الجمع بين الروايات المتعددة (١)

سادسها : تنحية ما ليس من أسباب النزول *

سابعها : وقد ابتدأ كتابه بمقدمة موجزة مبين فيها أهمية اسباب النزول ، وفوائد هذا العلم حيث قال : « ومن فوائده الوقوف على المعنى او ازالة الاشكال ، قال الواحدى : لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان سبب نزولها ، وقال ابن دقيق العيد بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن ، وقال ابن تيمية : تعرفه سبب النزول يعين على فهم الآية ، فان العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب **

ثم نبه - قبل الشروع فى موضوعه - على امور ذكرها بقوله « الأول » ما جعلناه من قبيل المسند الصحابى اذا وقع من تابعى فهو مرفوع أيضا لكنه مرسل فقد يقبل اذا صح السند اليه ، وكان من أئمة الأخذيين عن الصحابه كمجاهد وعكرمه وسعيد بن جبير ، او اعتضد بمرسل آخر ونحو ذلك *

الثانى : كثيرا ما يذكر المفسرون لنزول الآية أسبابا متعددة وطريق الاعتماد فى ذلك أن تنظر العبارة الواقعة فأن عبر أحدهم بقوله : نزلت فى كذا ، والآخر نزلت فى كذا وذكر أمر آخر ، فقد تقدم أن هذا يراويه التفسير لاذكر سبب النزول ، فلا منافاة بين قولهما اذا كان اللفظ يتناولهما كما بينه فى كتابى « الاتقان » (وحينئذ فحق مثل هذا أن لا يرورد فى تصانيف أسباب النزول ولما يذكر فى تصانيف أحكام القرآن *) (٢)

ولنضرب أمثلة متنوعة لما أورده فى كتابه هذا :

(١) لباب النقول بصرف *

(٢) لباب النقول للسيوطى ص ٥٥ *

فمن ذلك ما نبه عليه السيوطي بأنه ان ذكر واحد سبياً للآية
وذكر آخر سبياً غيره ، فقد تكون نزلت عقيب تلك الأسباب وذلك كما
في آية اللعان « والذين يرمون أزواجهم » الآية .

أخرج البخارى من طريق عكرمة عن أين عباس أن هلال بن أمية
قذف امرأته عند النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال له النبي صلى الله
عليه وسلم (البينة أوحد في ظهرك) فقال يا رسول الله اذا رأى أحدنا
مع امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم
يقول : البينة أوحد في ظهرك ، فقال هلال : والذي بعثك بالحق انى
نصادق ولينزل الله ما يبىء ظهري من الحد ، فنزل جبريل فأترل الله
عليه « والذين يرمون أزواجهم . . » فقرأ حتى بلغ « ان كان مسن
الصادقين » ثم ذكر سبياً آخر رواه الشيخان وغيرهما عن سهل بن
سعد ، قال : جاء عويمر الى عاصم بن عدى فقال : اسأل لى رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، أرأيت رجلا وجد مع امرأته رجلا فقتله أيقتل به
أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل ، فلقبه عويمر : فقال ما صنعت ،
انك لم تأتني بخير ، قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاب
السائل فقال عويمر : فوالله لآتين رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا
سألته فسأله فقال : انه انزل فيك وفي صاحبك الحديث : قال الحافظ
ابن حجر : اختلف الأئمة في هذه المواضع ، فمنهم من رجح انها نزلت في
شأن عويمر ، ومنهم من رجح أنها نزلت في شأن هلال ، ومنهم من جمع
بينهما بأن أول من وقع له ذلك هلال وصادف مجيء عويمر أيضاً
فنزلت في شأنهما معا . والى هذا جنح النووي وتبعه الخطيب ، فقال :
لعلهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد قال الحافظ ابن حجر : ويحتمل
أن النزول سبق بسبب هلال ، فلما جاء عويمر ولم يكن له علم بما
وقع لهلال ، أعلمه النبي صلى الله عليه وسلم بالحكم ، ولهذا قال في

فصه هلال ، فنزل جبريل ، وفي فصه عويمر : فد انزل الله فيت فيقول .
قوله قد أنزل الله فيك : أى فيمن وقع له مثل ما وقع لك وبهذا اجاب
ابن الصباغ في الشامل ، وجنح الفرطبي الى تجويز نزول الآية
مرتين * (١)

وقد يكون النزول حدث مرتين وذلك كما في آية الروح .
أخرج البخارى عن ابن مسعود قال : كنت أتمشى مع النبي صلى الله
عليه وسلم بالمدينة وهو متوكىء على عسيب ، فمر بنفر من قريش ،
فقال بعضهم لو سألتموه ؟ فقالوا : حدثنا عن الروح ، فقال ساعة ورفع
رأسه فعرضت أنه يوحى اليه حتى صعدا الوحى ثم قال : الروح من
أمر ربي وما اوتيتم من العلم الا قليلا وأخرج الترمذى عن ابن عباس
قال : قالت قريش لليهود وعلمونا شيئا نسأل هذا الرجل فقالوا سلوه
عن الروح فسألوه ، فأنزل الله « ويسألونك عن الروح قل الروح من
أمر ربي ... »

قال ابن كثير : يجمع بين الحديثين بتعدد النزول ، وكذا قال
الحافظ ابن حجر ، أو يحمل سكوته حين سؤال اليهود على توقع
مزيد بيان في ذلك ، والا فما في الصحيح أصح . قلت : ويرجع ما في
الصحيح بأن رواية حاضر القصة بخلاف ابن عباس (١) ..

هذا وقد تعرض الامام السيوطى في كتابه « لباب النقول » الى
جميع سور القرآن الكريم مع زيادات كثيرة على اوردة الواحدى ومع
العزو الى كتب السنة الصحيحة .

(١) لباب النقول ص ١٥٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٤١ .

فى التفسفر بالمأثور

كتاب

الدر المنثور فى التفسفر بالمأثور

التفسفر بالمأثور هو توضفح معنى الآفة القرآنية بما جاء فى القرآن الكرفم ، لأنه قد فكون ما جاء مجملا فى موطن فصل فى آخره . أو بما جاء فى السنة النبوية الصالحة ، فان السنة مبنفة وموضحة للقرآن ، ومفصلة لمجمله ، ومقفة لمطلقة ، ومخصصة لعامه ، وموضحة لأحكامه .

أو بما عدد من أقوال الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ، وأما ما جاء عن التابعفن ، فقد عده بعض العلماء من المأثور ، لأن التابعفن قد أخذوه عن الصحابة فى الغالب ، وعده البعض من التفسفر بالرأى ، لكثرة اختلافهم أكثر من الصحابة أو لأنهم أخذوه عن أهل الكتاب الذفن أسلموه . (١)

وقد أبرز لنا السوطى الداعى الى تألف كتاب الدر المنثور اذ فقول فى مقدمته : فلما ألفت كتاب ترجمان القرآن وهو التفسفر المسند عن رسول الله صلى الله علفه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم ، وتم بحمد الله فى مجلدات ، فكان ما اوردته فى الآثار بأسانفد الكتب المخرج منها واردات رأفة قصور أكثر؟ الهمم عن تحصفله ، ورغبتهم فى الاقتصار على متن الأحادفث دون الاسناد وتطوفله ، فلخصت منه هذا المختصر مقتصراف فىه على متن الأثر مصدراف بالعزو والتخرفج الى كتاب معتبر ، وسمفته المنثور فى التفسفر بالمأثور . (٢)

(١) تاريخ التفسفر ومانع المفسرفن للدكتور عبد العظفم الفباشى .

(٢) الدر المنثور فى التفسفر بالمأثور ص ٢ .

فالسبب اذن اختصر كتابه هذا من كتابه « ترجمان القرآن » وحذف أسانيد الروايات خشية السامة والملل ، وعزا كل رواية الى أصلها ومرجعها ، ولم يخلط السبب بالروايات التي نقلها شيئا من رأى كما فعل غيره ، وانما قام بجمع الروايات عن السلف فى التفسير دون أن يعقب عليها ، ولا يجرح ولا يعدل ولا يضعف ولا يصحح . وقد أخذ عن البخارى ومسلم والنائى والترمذى ، وابى داود ، واحمد ، وابن جرير ، وابن ابى حاتم ، وعبد بن حميد وابن أبى الدنيا ، وغيرهم ممن تقدمه ودون التفسير . (١)

فمنهج السبب فى هذا الكتاب : يتلخص فى سرد الروايات عن السلف بدون تعقيب عليها ، فقد كان مولعا بتدوين الروايات دون فحص وتمحيص ، مما أدى الى اختلاط الصحيح بغيره ، فقد جمع فيه أقوال النبى صلى الله عليه وسلم ، والصحابة ، والتابعين .

ولكن يؤخذ على السبب فى هذا الكتاب : أنه وان عزا لروايات الى مصادرها الا أنه لم يوضح درجة كل رواية من حيث الصحة او الضعف وما الى ذلك .

وفى الكتاب اسرائيليات ، ولاسيما فى قصص الأنبياء ، كما فى قصة هاروت وماروت ، وفى قصة الذبيح وأنه اسحاق ، وفى قصة يوسف ، وفى قصة داود ، وفى قصة الياس (٢) .

فالكتاب فى حاجة الى تنقية وتمحيص ، وبيان درجة ما جاء فيه من الأحاديث .

(١) التفسير والمفسرون للدكتور محمد الذهبى ج ١ ص ٢٥٤ .

(٢) الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسير للدكتور محمد أبو شسة .

فى التفسىر بالرأى

كتاب

تفسىر الجلالىن

التفسىر بالرأى : هو تفسىر القرآن الكرىم بالاجتهاد بعد معرفة المفسر للعلوم التى ينبغى معرفتها لمن يتصدى للتفسىر ، وقد بينتها فىما سبق ووضحت ما اشترط السىوطى للمفسر ، بالاضافة الى معرفة المفسر لكلام العرب وفنونه ، والوقوف على أسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغير ذلك • (١)

وقد اشترك الامامان الجلىلان : جلال الدين المحلى ، وجمال الدين السىوطى فى هذا التفسىر ، وقد اختلف الكتاب فى تعيين القدر الذى فسر كل واحد منهما فى كتاب الله تعالى ، قال صاحب كشف الطنون : وتفسىر الجلالىن من اوله الى آخر سورة الاسراء للعلامة جلال الدين محمد بن احمد المحلى الشافعى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ اربع وستىن وثمان مائة • ولما مات كمله الشيخ المتبحر جلال الدين عبد الرحمن بن أبى بكر السىوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ احسدى عشرة وتسعمائة •• ثم قال : وكان المحلى لم يفسر الفاتحة وفسرها السىوطى تفسيرا مناسبا (٢) •

ولكن الحقيقة أن جلال الدين المحلى فسر النصف الثانى وفسر سورة الفاتحة والسىوطى فسر النصف الأول غير الفاتحة •
وعلى ذلك فرأى صاحب كشف الطنون يجافى الصواب ، وذلك

(١) تاريخ التفسىر ومناهج المفسرىن للدكتور عبدالعظمى الفباشى •

(٢) كشف الطنون ج ١ ص ٢٣٦ •

لأن السيوطي في مقدمة هذا التفسير قال : هذا ما اشتدت اليه حاجة الراغبين في تكملة تفسير القرآن الكريم الذي ألفه الامام العلامة الجليل المحقق جلال الدين محمد بن احمد المحلى الشافعي رحمه الله ، وتمم ما فاته وهو من أول سورة البقر الى آخر سورة الاسراء بنتمه على نمطه من ذكر ما يفهم فيه كلام الله تعالى والاعتماد على أرجح الأقوال ، واعراب ما يحتاج اليه وتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة على وجه لطيف وتعبير وجيز ، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية وأعراب محلها كتب العربية . والله أسأل النفع به في الدنيا واحسن الجزاء في العقبى بمنه وكرمه » . (١)

كما قال أيضا في آخر سورة الاسراء : « آخر ما كملت به تفسير القرآن الكريم الذي ألفه الشيخ الامام العالم العلامة المحقق جلال الدين المحلى الشافعي رضى الله عنه . »

وبهذا يتبين لنا مقدار ما ألفه كل منهما على الحقيقة ، وهو ان السيوطي قد فسر النصف الأول غير الفاتحة ، والمحلى فسر النصف الثاني مضافا الفاتحة . وقد وضع الشيخ سليمان الجمل في مقدمة حاشيته على هذا التفسير ، أن الفاتحة فسرهما المحلى ، وجعلها السيوطي في آخر تفسير المحلى لتكون منضمة الى تفسيره .

وقد التزم السيوطي منهج المحلى في الاختصار والعبارة الموجزة الدقيقة وعدم التوسع ، فسار على نفس النمط . وذكر في خاتمة سورة الاسراء انه الف الجزء الذي ألفه في قدر ميعاد الكلم وهو أربعون يوما ، وذكر أنه استفاد من تفسير الجلال المحلى ، واعترف انه اعتمد عليه في الرأى المتشابهة ، وأن الذى وضعه الجلال المحلى في قطعه أحسن مما وضعه هو بطبقات كثيرة . وهذا ان دل على

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٦ .

شيء فافما يدل على نبل العلماء وأدبهم الرفيع وخلقتهم الجهم وحسن
تواضعهم وعرفانهم للفضل والجميل • والذي يقرأ تفسير الجلالين
لا يكاد يرى فرقا كبيرا بين الشيخين ولا مخالفة الا في القليل ومن
المواضع التي لوحظ فيها الاختلاف بينهما : ان المحلى فسر الروح
في سورة ص بأنها جسم لطيف يحيى به الانسان بنفوده فيه ،
والسيوطى تابعه على هذا التفسير في سورة الحجر ثم ضرب عليه لقوله
تعالى في سورة الاسراء « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي
وما اوتيتم من العلم الا قليلا » •

فهى صريحة او كالصريحة في ان الروح من علم الله تعالى
فالمسالك عن تعريفها أولى •

ومنها ان المحلى قال في سورة الحج الصابئون فرقة من اليهود ،
وتابعه السيوطى على ذلك في سورة البقرة وزاد عليه (أو النصارى) •

وهذا بيان منه لقول ثان • وقد ذكر صاحب كشف الظنون عن
بعض علماء اليمن انه قال عددت حروف القرآن وتفسيره للجلالين
فوجدتهما متساويين الى سورة المزمل ، وبين سورة المدثر زائد على
القرآن ، فلى هذا يجوز حمله بغير الوضوء • (١)

وبالجملة فهو كتاب قيم في بابه نال من عناية العلماء والباحثين
الكثير ، وظفر بشروح وحواش وتعليق من أهمها حاشية الجمل
وحاشية الصاوى •

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٦ •

خاتمة

وقد دعى السيوطى الاجتهاد المطلق وأنه المجدد للدين فى المائة التاسعة وانتشرت فتاواه ومصنفاته ، وكاتبه كثير من الناس وراسله المستفتون من مختلف الأقطار • ولم يخالط السيوطى الأمراء ولا السلاطين ، فتألب عليه بعض منافسيه وطعنوا فيه •

وقد ألف السخاوى كتابه (الضوء اللامع فى تاريخ القرن التاسع) وترجم فيه للسيوطى وهو حى ، ترجمة ظالمة واتقصه فى علمه ومولفاته •

ومما وجه الى السيوطى أنه اختلس من تصانيف الحافظ ابن حجر الكثير وادعاها لنفسه مثل : عين الاصابة ، والنكت البديعات على الموضوعات ، ونشر العبير فى تخريج احاديث الشرح الكبير ، وكشف الثقاب من الألقاب ، ولباب النقول فى أسباب النزول ، وغير ذلك •

ويجاب على هذا ، بأن أهلية السيوطى لا تقل عن تأليف هذه الكتب وان استعداد اللاحق من السابق ضرورى فى الأمور التاريخية والواقعية ، وهناك فرق بين التأليف والجمع ، وبين السرقة والاختلاس • وللسيوطى فى ذلك (الفارق بين المؤلف والسارق) • ومن المعلوم ان السيوطى ابتدأ التأليف فى أول أمره ملخصا ثم استقل بالتأليف المستوعب ، والحق انه أهل للاجتهاد وان ادوات الاجتهاد كملت لديه ، وانه عالما بآيات الأحكام وأحاديث الأحكام وشروط القياس •

والسيوطى امام فى كثير من العلوم والفنون ، واحفظ للمتون من السخاوى ، واكثر بصرا باستنباط الاحكام الشرعية * وقد نقل عنه انه كان يرى النبى صلى الله عليه وسلم يقظة وانه اخبر بكثير من المغيبات (١) * فهو خاتم الحفاظ وصاحب عتادة وكرامات * وتوفى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر من شهر جمادى الأول من سنة ٩١١ هـ وكان قد مرض سبعة أيام * وأتم من حياته احدى وستين سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوما ، ودفن بحوش قوصسون المسمى (قيسون) خارج باب القرافه ، ويسمى الآن بوابة السيدة عائشة بالقاهرة ، فى زمن السلطان الغورى ، وبنيت على قبره قننه *

على أنه لم يعقب فالمنتسبون اليه فى أسيوط ليسوا من ذريته ، بل اما من نسل نظار المسجد او خدمته — كما حققه تيمور باشا — رضى الله تعالى عنه وأرضاه وثقنا بعلمه وجزاه عن خدمة القرآن والسنة خير الجزاء *

• وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم •

(١) مقدمة تدريب الراوى تحقيق المرحوم الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف •

اهم المراجع

- ١ - كتاب الاتقان فى علوم القرآن لجلال الدين السيوطى .
- ٢ - لباب العقول فى أسباب النزول لجلال الدين السيوطى .
- ٣ - حسن المحاضرة لجلال الدين السيوطى .
- ٤ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطى .
- ٥ - تفسير الجلالين لجلال الدين المحلى لجلال الدين السيوطى .
- ٦ - ائفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى .
- ٧ - تاريخ التفسر ومناهج المفسرين للدكتور عبد العظيم الغباشى .
- ٨ - الجامع الصغبر للسيوطى للشيخ محبى الدين عبد الحميد .
- ٩ - تدريب الراوى بتحقيق المرحوم الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف .
- ١٠ - الامام جلال الدين السيوطى للدكتور على صافى حسين .
- ١١ - الاسرائيليات والموضوعات فى كتب التفسر للدكتور محمد أبو شهبه .
- ١٢ - كتب التفسر .
- ١٣ - كتب السنة الصحيحة .
- ١٤ - اللآلئ المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة للسيوطى .
- ١٥ - كتب التاريخ المختلفة ، وكتب التراجم .

السِّيَوطِي مَحَرَّرًا
للدكتور عبدالحكم السيد عتلم

المدرس بكلية البنات الاسلامية بجامعة الأزهر

القدمة :

الحمد لله رب العالمين ، الثائل « وما آتاكم الرسول فخذوه
وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله ان الله شديد العقاب» (١) •
والصلاة والسلام على خير خلق الله أجمعين ، سيدنا محمد بن
عبد الله المبعوث رحمة للعالمين •• وبعد ••
فان علوم السنة النبوية من أشرف العلوم الانسانية وأعظمها
وكفى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم شرفا أنها المصدر الثاني
من مصادر التشريع الاسلامي بعد كتاب الله عز وجل •
ومن هنا تأتي قيمة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
كأساس قويوم من الأسس التي تعتمد عليها شريعة الاسلام ، كمصدر
للأحكام ، وسند للعقيدة ، ومنهج للحياة وطريق للهداية من اشتغل
به واعتنى بأمره نال الشرف الأعظم وعز في الأولى والآخرة •
ويحدثنا في هذا الشأن العلامة الشهاب أحمد المنيني الدمشقي

(١) سورة المشر آية ٧ •

الحنفى فى القول السديد مبينا لنا شرف علم الحديث وفائدته ومزية المشتغلين به • فيقول : « ان علم الحديث على رفيع القدر ، عظيم الفخر ، شريف الذكر ، لا يعنى به الا كل حبر ، ولا يحرمه الا كل غمر ولا تفنى محاسنه على مر الدهر ، لم يزل فى القديم والحديث يسمو عزة وجلالة وكم عز به من كشف الله له عن مخبأ أسراره ، وجلاله اذ به يعرف المراد من كلام رب العالمين ويظهر المقصود من حبله المتصل المتين منه يدري شمائل من سما ذاتا ووصفا واسما ويوقف على بلاغة من شرف - الخلائق عربا وعجبا وتمتد من بركاته للمعنى به موائد الاكرام من رب البرية فيدرك فى الزمن القليل من المولى الجليل المقامات العلية والرتب السننية (١) • • واذا كان لعلم الحديث هذه المنزلة فلا عجب اذن ان نسمع صيحات متكررة فى القديم والحديث تنطلق من أفواه المحبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه مناشدة أبناء الأمة الاسلامية أن يحيطوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بسياج قوى من العناية الفائقة • مظهره لهم فضل الاشتغال به موضحة لهم فوائده فهذا الحافظ أبو القاسم بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقى المؤرخ الشهير يقول :

واظب علم الحديث وكتبه واجهد على تصحيحه فى كتبه
واسمعه من أربابه نقلا كما سمعوه من أشياخهم تسعد به

الى أن قال :

واترك مقالة من احاك بجله عن كتبه أو بدعة فى قلبه
وكفى المحدث رفعة أن يرتضى وبعد من أهل الحديث وحزبه (٢)

(١) قواعد التحديث للقاسمى ص ٤٤ ، ٤٥ •

(٢) قواعد التحديث للقاسمى ص ٤٠٢ •

وقال الشعراني رحمه الله تعالى في مقدمة ميزانه (١) كان الأعمش رضى الله عنه يقول عليكم بملازمة السنة ، وعلموها للأطفال فانهم يحفظون على الناس دينهم اذا جاء وقتهم .

والحافظ جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى أحد هؤلاء الذين حفظوا على الناس دينهم بما ترك لنا من تراث اسلامى خالد تزخر به المكتبات العامة والخاصة .

ففى مجال التفسير وتعلقات القرآن نرى المؤلفات المتعددة التى عالج بها موضوعات التفسير وكل ما يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه والتى منها :

- ١ - الدر المنثور فى التفسير بالمأثور .
- ٢ - التفسير المسند ويسمى ترجمان القرآن خمس مجلدات .
- ٣ - الاتقان فى علوم القرآن .
- ٤ - الاكليل فى استنباط التنزيل .
- ٥ - لباب النقول فى أسباب النزول .
- ٦ - الناسخ والمنسوخ فى القرآن .
- ٧ - حاشية على تفسير البيضاوى . يسمى نواهد الأبيكار وشوارد الأفكار . أربع مجلدات وغيرها كثير .

أها فى مجال السنة فنرى تلك الموسوعات الضخمة والجوامع الجامعة والتى يأتى جمع الجوامع على رأس قائمتها وكذلك الجامع الصغير والذيل عليه . وغيرها .

هذا وقد حاولت فى هذه العجالة . أن ألقى بعضاً من الضوء

(١) ص ٦٢ ، ٦٣ .

على جهود السيوطى رحمه الله تعالى فى ميدان السنة النبوية (رواية ودراية) والتي عن طريقها نستطيع أن نقف فى خشوع أمام محراب السيوطى المحدث *

وقد عقدت بحثى هذا على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب وخاتمة تحدثت فى التمهيد عن عصر السيوطى من الناحيتين السياسية والعلمية وجهدت فى الربط بين السيوطى والعصر الذى عاش فيه من هاتين الناحيتين تأثيرا وتأثيرا *

أما الباب الأول : فقد ترجمت فيه للحافظ جلال الدين السيوطى وقسمته الى أربعة فصول تحدثت فيها بإيجاز عن حياة السيوطى *

وخصصت الباب الثانى : لبيان جهوده فى مجال الحديث وقسمته الى خمسة فصول : الأول منها ذكرت فيه مؤلفات السيوطى فى الحديث وتعلقاته مرتبة على حروف المعجم والفصول الأربعة الباقية خصصت لبيان جهوده فى مجال الجمع والشرح والتخريج والموضوعات *

وعقدت الباب الثالث : لبيان جهوده فى علوم الحديث وبنيتها على فصلين * الأول : ذكرت فيه مؤلفات السيوطى فى علوم الحديث على وجه الاجمال والثانى : عرفت فيه ببعض مؤلفاته فى هذا المجال * وأما الخاتمة فقد ضمنتها أهم نتائج البحث *

هذا * وأحب أن أشير هنا الى أن هذا البحث جاء بحمد الله تعالى بعيدا عن التعصب المفقوت والهوى المطاع * حاولت فيه أن أضع الأمور فى نصابها وأن أحق الحق وأبطل الباطل ولو كره المعرضون *

وختاماً فانى اذ أتقدم الى جماهير الامة الاسلامية بهذا العمل المتواضع فى محاولة لابرار دور امام من أئمة المسلمين فى خدمة السنة النبوية (الحافظ جلال الدين السيوطى) فانى أسأل الله سبحانه وتعالى أن يرفع به • وأن يجزل المثوبة والعطاء لمن أتاحوا لنا فرصة المشاركة فى هذه الندوة المباركة بما يسهم فى خدمة السنة النبوية الشريفة وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم •

تمهيد :

أولا - نبذة عن الجانب السياسي في عصر السيوطي :

ولد السيوطي رحمه الله تعالى في عصر دولة المماليك البرجية • وقد جاء حكمهم لمصر بعد عهد دولة المماليك البحرية الذين يختلفون في أصل الجنس عنهم ويرجع قيام دولتهم الى سنة ٧٨٤ هـ على يد أشهر ملوكهم وأدلهم (الملك الظاهر سيف الدين برقوق الذي قام بخلع السلطان صلاح الدين حاجي بن الأشرف شعبان آخر المماليك البحرية وتولى السلطة مكانه (١) ، وكان الطابع المميز لهذه الدولة هو ذلك الاضطراب الداخلي الذي ساد في عصرها) •

فقد وصل معظم سلاطين هذه الدولة الى العرش بعد فتنة واثقلا ب سياسي فظيع فطبع عهدهم بطابع الفتن والثورات التي كانت تقوم بين حين وآخر (٢) ، وكان طبيعيا أن يتأثر الشعب في مصر بهذه السياسة المضطربة التي كان الدافع اليها الهوى والميل الشخصي مما أحدث رد فعل لدى أفراد الشعب وفتاته • فقاموا بثورات متعددة دون تحريض أو استعداد وانما بدافع من ذات أنفسهم ردا للمظالم المختلفة التي اقترن بها حكم المماليك (٣) •

ولم تكن كل هذه الحروب والفتن الداخلية هي كل ما بليت به مصر في عهد المماليك البرجية بل كانت هناك اضطرابات خارجية • فقد اعتاد أمراء سوريا أن يقوموا بحركات ثورية عنيفة شغل جانبا

(١) أنظر صفحات من تاريخ مصر ، عصر السيوطي ص ٣ ، ٤ •

(٢) صفحات من تاريخ مصر ص ٣ ، ٤ •

(٣) صفحات من تاريخ مصر ص ١٢ ، ١٣ •

أكبراً من مجهود السلاطين • وهنا كذلك غارات البدو المتكررة على مصر وغارات المغول وخاصة في عهد زعيمهم تيمورلنك ثم هجمات للصليبيين على الثغور المصرية واستيلائهم على أحد هذه الثغور بين الفترة والأخرى (١) •

هذه أهم ملامح الحياة السياسية في عهد دولة المماليك البرجية (على وجه الاجمال) الا أنه مما ينبغي أن يذكر أن فترات من الاستقرار السياسي في عهد هذه الدولة توفرت للبلاد على يد بعض ملوكها الذين كان من حظ السيوطى أن يقضى معظم حياته في عهدهم •

فقد ولد رحمه الله تعالى في أيام حكم الظاهر أبى سعيد الذى تعد أيامه بحق من أهدأ سنوات حكم المماليك وكانت مدة حكمه خمس عشرة سنة منذ تولى الحكم يوم الاربعاء تاسع عشر من ربيع الأول سنة ٨٤٢ هـ واستمر في الحكم حتى مات سنة ٨٥٧ هـ (٢) •

وهذه أول فترات الاستقرار السياسى التى واكبت حياة السيوطى • ومن هنا نشأ عهده الأول في ظل استقرار سياسى أمكنه في رحابه أن يتعلم ويتلقى مبادئ العلوم في يسر وسهولة •

هذا • وقد قضى السيوطى أطول مدة من حياته العلمية في المماليك ديناً وخلقاً ومن أحمدهم وأطيبهم سيرة وقد حكم هذا السلطان فترة من الزمن تعتبر أطول فترة حكم فيها سلطان مملوكى فقد استمر حكمه تسعا وعشرين سنة وأربعة أشهر وعشرين يوماً فقد تولى السلطة يوم الاثنين السادس من رجب سنة ٨٧٢ هـ الى أن

(١) أنظر صفحات من تاريخ مصر ص ٤ • وأنباء الغمر بآبناء العمر ح ١ ص ١٩٩ •

• ٢٠٤

(٢) الضوء اللامع ج ٣ ص ٧١ وما بعدها الى ص ٧٤ •

انخلع من الحكم بسبب مرضه يوم السبت السادس عشر من شهر
ذى القعدة سنة ٩٠١ هـ (١) •

وهذه هي الفترة الثانية والمهمة من فترات الاستقرار السياسي في
عصر السيوطي والتي تمثل بالنسبة للسيوطي أزهى فترات حياته
العلمية تأليفاً وتصنيفاً وأعظم اطوار حياته الثقافية نضجاً واتقاناً •

على أن الأمر لم يسلم من حدوث بعض فترات اضطراب في حياة
السيوطي لكنها كانت قليلة وقصيرة اذا ما قيست بفترات الاستقرار •
والمتتبع للأحداث التاريخية في تلك الحقبة من الزمن يستطيع أن يقف
على ذلك بوضوح •

هذا وقد لحق السيوطي رحمه الله تعالى من سياسة بعض السلاطين
هذه الدولة أذى ففى عهد (طومان باي الذي لقب نفسه بالملك العادل)
والذي تولى الحكم بعد أن خلع (جان بلاط) وتولى مكانه يوم السبت
الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ اضطرت السيوطي الى
الاختفاء طيلة أيام حكم هذا السلطان لأنه قد صمم على قتله اذا قبض
عليه ، وتمكن منه ولكن الله عز وجل لم يمكنه من ذلك اذ قام عليه
الأمراء فخلعوه وأسندوا أمر البلاد الى السلطان قانصوه الغوري في
أول أيام عيد الفطر سنة ٩٠٦ هـ •

وقد عاش السيوطي بقية حياته في عهد (قانصوه) هذا (٢) وكان
السيوطي في ذلك الوقت قد اعتزل الناس ولزم بيته بروضة المقياس
وقد حدث أن أهدي الغوري هذا الى جلال الدين السيوطي خصياً
وألف دينار • فرد الألفى وأخذ الخصى فأعتقه وجعله خادماً في الحجرة
النبوية • وقال لقاصد السلطان : (لا تعد تأتينا قط بهدية فان الله

(١) انظر شذرات الذهب ج ٨ ص ٩ وحسن المحافظة ج ٢ ص ١٢٣ •

(٢) ابن اياس ج ٢ ص ٣٩٦ •

تعالى أغنانا عن مثل ذلك واستطيع أن أقول : أن مثل هذه الاضطرابات لم يكن له كبير أثر على نشاط السيوطى العلمى فمضى فى طريق التأليف والتصنيف والمراجعة والتهديب بكل قوة ونشاط فاستطاع أن يحقق أعظم الانتصارات العلمية وأن يضيف الى رصيد المكتبة الاسلامية مئات المصنفات فى جميع الفنون •

ثانيا - الجانب الثقافى والعلمى فى عصر المماليك :

على الرغم من وجود هذه الاضطرابات وتلك الفتن الداخلية أيام المماليك فلم يكن ذلك صارفا لهم عن العناية بالناحية العلمية والنهوض بها ، فقد أولوها عناية فائقة حتى غدت مصر فى أيامهم ميدانا واسعا لنشاط علمى كبير ، يدل عليه ذلك التراث الضخم من الموسوعات الأدبية والتاريخية واللغوية والنحوية والدينية التى خلفها علماء ذلك العصر (٢)

ولقد ساعد على هذه النهضة العلمية عدة عوامل منها :

(١) تلك الثقافه العاليه التى كان يتمتع بها كثير من سلاطين المماليك والذى دفعتهم لحبهم للمجتمع المثقف فبدلوا فى سبيل كل جهد ومال وغال ونفيس •

(ب) اقدوم كثير من المشاركة والمغاربة الى مصر اما فرارا من وجه ظالم أو رغبة فى تحصيل العلم والرزق •

(ج) منها فى رأى السيوطى احياء الخلافة العباسية فى مصر •

ويمكن القول أن عصر المماليك من العصور الذهبية فى تاريخ الحديث ومصطلحه وشرحه ونقده ، فقد تكاثرت فيه الحفاظ وعنوا بالرواية عناية تامة على الرغم من انتشار الخط وكثرة الخطاطين

(١) الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة ج ١ ص ٢٢٨ •

(٢) العصر المماليكى فى مصر والشام للدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ص ٢٣٠ •

ومما يكون له شأن في التقليل من العناية بالحفظ والرواية ولكن علماء العصر كأنما وجدوا انه لابقاء لعلمهم في صدورهم ما لم تعاونه ذخيرة من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فحفظوه كما حفظوا كتاب الله ، واهتموا به أى اهتمام واشتروا على رواته الحصول على الاجازة بالرواية من عالم حافظ رواية مجاز عن شيخة وسمت العناية بالحديث سموا كبيرا حتى كان قصارى كثير من الطلاب الحصول على الاجازات ليصيروا في زمرة الحفاظ وكانت هذه العناية سببا في شحذ الهمة وتبسيه الحافظة والذاكرة . . حتى أصبح بعضهم مضرب المثل في قوة الحفظ والذكر ويذكر في تاريخه وأوصافه انه سريع الاستحضار للأحاديث في مناسباتها وان بعضهم يحفظ حديثا أو عدة أحاديث يجمع أساسيدها ورواياتها المتغايرة مع علمه برجال كل سلسلة من سلاسل هذه الأسانيد من ناحية ضبط الاعلام والكنى والنسبة وتاريخ كل علم منها وكل ما قيل من تجريح أو تعديل ونحو ذلك .

فكان طبعيا أن يكون لهذه العناية أثر بارز في ميدان التأليف ، فأصرفت العناية الى وضع مؤلفات في الحديث ورجاله وفي مصطلحه ونقد وشرح كتبه واختصارها كذلك .

فظفر العصر بجملة بارعه نافعة في هذه الأبواب وحسبك منها .
كتب الذهبي والعيني والسيوطى والقسطلانى والعسقلانى الذى قال السخاوى عن كتابه في شرح البخارى أن الأمة به وفيت دينها (١)

هذا ومن أجل العناية بالعلم وتنشيطه في عصر دولة المماليك كما أوضحت كانت عنايتهم الفائقة بدور العلم ومراكزه وكانت تتمثل عندهم في الخوانق والمساجد أو الجوامع ثم المدارس التى لا يزال الكثير منها قائما حتى الآن شاهد صدق على عناية هؤلاء المماليك بأمر الدين والعلم .

(١) عصر سلاطين المماليك لمحمود رزق سليم المجلد الثالث ص ١٤٢ ، ١٤٣ .

الباب الأول

ترجمة الحافظ السيوطي

الفصل الأول : اسمه وكنيته ولقبه ونسبته الى أسـيوط ومولده
ونشأته ودراسته

هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن ابى بكر الكمال بن
محمد بن سابق الدين ابن الفخر عثمان بن ناظر المدين بن سيف الدين
خضر بن نجم الدين أبى الصلاح ايوب بن ناصر الدين محمد بن
الشيخ همام الدين الهمام الخضرى الاسيوطى (١) وهذا النسب أثبتته
السيوطى بنفسه فى كتابه حسن المحاضرة •

والسيوطى نسبه الى أسـيوط بثـلثـيـث أوله وفيه الاسيوطى بثـلثـيـث
أوله أيضا •

قال صاحب مرصد الاطلاع : أسـيوط بفتح أوله وسكون ثانيه
وضم ثالثه هو اسم لمدينة غربى النيل من نواحي صعيد مصر • ويقال
لها اسـيوط بغير همزة كما فى معجم ياقوت (٢) وهى الآن احـدى
عواصم محافظات الوجه القبلى الشهيرة •

وترجع نسبه جلال الدين الى هذه المدينة الى ان والده الكمال
ولد بها فنسب الجلال اليها وكان أحد اجداده قد بنى مدرسة وأوقف
عليها أوقافا • وللسيوطى فيها رسالة تسمى « المضبوط فى أخبار

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٥ •

(٢) انظر معجم البلدان لياقوت الحموى المجلد الثالث ص ٢٠٦ •

اسيوط ، ومقامة تسمى المقامة الاسيوطية (١) •

اما مولده : فقد كان بعد المغرب ليلة الأحد مستهل رجب سنة تسع وأربعين وثمانمائة (١٤٩٩ هـ في مدينة القاهرة (٢) في أسرة كريمة عريضة في المجد وقد حدثنا السيوطي في حسن المحاضرة عن منزلة تلك الأسرة النى تنتمى اليها وكيف أنهم كانوا أهل رياسة ووجاهة •• الخ فقال : أما جدى الأعلى همام الدين فكان من أهل الحقيقة ومن مشايخ الطرق •• ومن دونه كانوا من أهل الوجاهة والرياسة منهم من ولى الحكم ببلده ومنهم من ولى الحسبة بها ومنهم من كان تاجرا في صحبة الامير شيخون • وبني بأسيوط مدرسه ووقف عليها أوقافا ومنهم كان متسولا ولا أعلم منهم من خدم العلم حق الخدمة الا والدى (٣) •

نشأته ودراسته :

نشأ السيوطي يتيما فقد توفي والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر وقد وصل في القراءة اذ ذاك الى سورة التحريم ولكن الله عز وجل هيا له ن أسباب النجاح في الحياة ما جعله آية في العلم ونابعة من نوابغه اغرم به منذ صغره • فقد حياه الله تبارك وتعالى بمزيد من النبوغ المبكر وانبته نباتا حسنا في وسط علمى عريق •

ولاشك أن السيوطي رحمه الله تعالى قد تأثر بهذه البيئة منذ نعومة اظفاره • ففي حياة والده احضره رحمه الله مجلس الحافظ ابن حجر وهي في سن الثالثة وشرع كما ذكرت في حفظ القرآن في سن مبكرة وأتم حفظه وهو دون الثامنة •

واذا كان المولى عز وجل قد اختار والده الى جواره والسيوطي

(١) انظر تدريب الراوى بحمق المرحوم الأستاذ/عبد الوهاب عبد اللطيف ج ١ ص ١٠ •

(٢) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٦ ، والكواكب السائرة ج ١ ص ٢٢٦ والضوء اللامع

ج ٤ ص ٦٥ •

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٣٦ •

لم يزل في سن الطفولة المبكرة فان الله عز وجل عوضه عن والده مرب
فاضل وامام جليل كان من بين الأوصياء عليه ، هو العلامة المفضل
كمال الدين بن الهمام الحنفى صاحب فتح القدير ومدرس الفقه
بالمدرسة الشيعونية كما في بقية الوعاة •

وبعد أن أتم السيوطى حفظ القرآن الكريم • حفظ عمدة
الأحكام ومنهاج النووى وألفية ابن مالك ومنهاج البيضاوى وعرض
الثلاثة الأولى على مشايخ الاسلام - العلم البلقيني - والشرف المناوى
والعز الحنبلى وشيخ الشيوخ الاقصرائى وغيرهم وأجازوه وحضر
مجالس الجلال المحلى سنة كاملة يومين فى الجمعة وحضر مجلس زين
الدين رضوان العقبى (١)

وقرأ على الشيخ شمس الدين محمد بن موسى السيرائى صحيح
مسلم الا قليلا منه والشفاء ، وقرأ عليه الفية ابن مالك حلافا اتمها الا
وقد صنف واجازه بالعربية ثم قرأ عليه قطعه من التسهيل وسمع عليه
الكثير من ابن المصنف والتوضيح وشرح الشذور والمعنى فى اصول
فقه الحنفيه وشرح العقائد للتفتازانى • (٢)

هذا وقد روى السيوطى ورحل وكاتب أهل الاقطار البعيدة •

الفصل الثانى - شيوخه وتلاميذه

أخذ السيوطى العلم عن ستمائة شيخ هكذا لتلميذه الشعرانى فى
طبقاته الصغرى •

والذى فى ترجمته من حسن المحاضرة (٣) له وتلميذه الد اودى
فى ترجمته ونحوه فى شذرات الذهب فى أخبار من ذهب لابن العماد

(١) انظر الكواكب السائرة ج ١ ص ٢٢٦ •

(٢) انظر الكواكب السائرة ج ١ ص ٢٢٧ •

(٣) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٣٩ •

الحنبلية انهم بلغوا مائة وواحد وخمسين • ورتبهم الداودي على
حروف المعجم •

والحقيقة أن شيوخ السيوطي الذين تلقى عنهم العلم كثيرون
ويهمني هنا أن أشير الى أبرزهم ومن لازمهم السيوطي أكبر مدة من
الزمن من هؤلاء •

١ - تقي الدين الشمني الحنفي المتوفى سنة ٨٧٢ هـ

لازمة السيوطي أربع سنوات في الحديث والعربية • • وسمع عليه
المطول والتوضيح والمعنى وحاشيته عليه وشرح العقائد للتفتازاني
وقرأ عليه من الحديث كثيرا ، ومن عنومه وشرحه على نظم
النخبة لوالده (١) •

٢ - العلامة محيي الدين الكافجي الحنفي المولود سنة ٧٨٨ هـ

قال السيوطي : لزمته أربع عشرة سنة فمآجته من مرة الا
وسمعت منه من التحقيقات والعجائب ما لم أسمعها قبل ذلك •
توفى ليلة الجمعة رابع جمادى الاول ٨٧٩ هـ •

٣ - شرف الدين المناوي :

لزم السيوطي درسه فقراً عليه قطعة من المنهاج وسمعه عليه
كاملاً في التقسيم وسمع عليه الكثير من شرح البهجة للعراقي ومن
تفسير البيضاوي وغيره ولزمه الى أن مات (٢) •

هذا ولم يقتصر السيوطي على الأخذ من الرجال بل أخذ العلم
كذلك عن عدد من النسوة اللاتي اشتهرن بالعلم والأصلاح في ذلك
العصر مثل :

(١) الكواكب السائرة ، ج ١ ص ٢٢٧ •

(٢) أنظر الكواكب السائرة ص ٢٢٧ وصفحات من تاريخ مصر ص ١٤٧ •

- ١ - أمة العزيز بنت محمد الانباس
- ٢ - فاطمة بنت علي بن اليسير (١)
- ٣ - آسية بنت جار الله بن صالح الطبرى
- ٤ - صفية بنت ياقوت المكية
- ٥ - رقية بنت عبد القوى بن محمد الجاوى (٢)

وغيرهن من شهيرات عصره ممن نشأن في بيوت العلم والورع
والتقوى •

وإذا كان السيوطى رحمه الله تعالى قد تتلمذ على هذا الحشد
الكبير من الأئمة الاجلاء مما كان له كبير الأثر في حياته العلمية حتى
أصبح اماما حافظا جليلا • فكذاك تخرج بالسيوطى جمع كثير من الأئمة
الذين تتلمذوا على يديه ونهلوا من معينه الصالح • أذكر منهم :

١ - الدودى :

وهو الحافظ شمس الدين محمد الداودى المصرى الشافعى وقيل
المالكى العلامة المحدث الحافظ ، هكذا وصفه العماد في شذرات الذهب •
وقال :

كان شيخ أهل الحديث في عصره أننى عليه المسند جار الله بن
فهد والبدر الغزى وغيرهما قال شمس محمد بن طولون • وضع ذبيلا
على طبقات الشافعية للسبكى وجمع ترجمة شيخه الحافظ السيوطى
في مجلد ضخيم وله دليل على لب الألباب في الأنساب للسيوطى وطبقات
المفسرين مات في ٢٨ من شوال سنة ٩٤٥ هـ •

(١) بنية الوعاة ص ٤٥٦ •

(٢) انظر فهرس الفهارس للكتانى ج ٢ ص ٣٥٥ وبنية الوعاة ص ٤٦٠ •

٢ - الشامي :

وهو الامام الحافظ محدث الديار المصرية مسند شمس الدين محمد بن يوسف بن علي بن يوسف الشامي الصالحى الدمشقى نزيل برقوقية الصحراء خارج باب النصر بمصر من أجل تلاميذ الحافظ السيوطى * * توفى ١٤ من شعبان سنة ٩٤٣ هـ (١) *

٣ - ابن طولون :

وهو الامام العلامة المحدث مسند الشام ومفخرته وحافظه شمس الدين محمد بن علي بن أحمد المدعو بابن خمارويه وبابن طولون الصالح الدمشقى الحنفى ولد بدمشق سنة ٨٨٠ هـ وأخذ علم القراءات على مشيختها وتلقى الحديث عن شيوخ ومسندين يبلغ عددهم خمسمائة أعظمهم الحافظ السيوطى * * مات بدمشق سنة ٩٥٣ هـ (٢) *

وقد كان لهؤلاء وغيرهم ممن تتلمذوا على السيوطى مكانة علمية عظيمة وقدموا للمكتبة الاسلامية عديدا من المصنفات النافعة فى جميع الفنون حديثية وغير حديثية * وكانت كثرة تلاميذ السيوطى من أهم العوامل التى ساعدت على حفظ تراثه ونقله الينا *

الفصل الثالث : علمه

والسيوطى ممن شفعوا بتدوين مسائل العلم والتأليف فى سن مبكرة حيث أنه شرع فى التصنيف سنة ست وستين وثمانمائة وسنه اذ ذاك سبع عشرة سنة وقد أجزى فى ذلك الحين بتدريس اللغة العربية وكان أول شىء ألفه هذه السنة وهو أول تأليف له شرح الاستعاذة والبسملة وأوقف عليه شيخه شيخ الاسلام علم الدين البلقينى فكتب عليه تقریظا *

(١) فهرس الفهارس ج ٢ ص ٣٩٢ ، ٣٩٣ *

(٢) فهرس الفهارس ج ١ ص ٣٥٥ *

وجلس لاملاء الحديث في مستهل سنة اثنتين وسبعين وثمانمائة (١)
وتصدر للتدريس والافتاء ابتداء من سنة ست وسبعين وثمانمائة (٢)
وذكر رحمه الله تعالى أنه رزق التبخر في سبعة علوم فقال : ورزقت
التبخر في سبعة علوم : التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني
والبيان والبديع على طريقة العرب البلغاء ، لا على طريقة العجم وأهل
الفلسفة * والذي أعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة
سوى الفقه والنقول التي أطلعت عليها لم تصل إليه ولا وقف عليه
أحد من أشياخي فضلا عن هو دونهم وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه
بل شيخى فيه أوسع نظرا وأطول باعا ودون هذه السبعة في المعرفة
أصول الفقه والجدل والتصريف ومنها الانشاء والترسل والفرائض
وأما علم الحساب فهو أعسر شيء على وأبعده عن ذهني وإذا نظرت في
مسألة تتعلق به فكأنما أحاول جبلا أحمله ، وقد كملت عندي الآن
آلات الاجتهاد بحمد الله تعالى أقول : ذلك تحدثا بنعمة الله تعالى فخرا ،
وأى شيء في الدنيا حتى يطلب تحصيلها في الفخر وقد أرف الرحيل
وبدأ الشيب وذهب أطيب العمر ولو شئت أن أكتب في كل مسألة مصنفا
بأقوالها وأدلتها النقلية والقياسية ومداركها ونقوضها وأجوبتها والموازنة
بين اختلاف المذاهب فيها ، لقدرت على ذلك من فضل الله لا بحولي
ولا بقوتي فلا حول الا بالله ما شاء الله لا قوة الا بالله وقد كنت في
مبادئ الطاب قرأت شيئا في علم المنطق ثم ألقى كراهيته في قلبي
وسمعت أن ابن صلاح أفتى بتحريمه فتركته لذلك فعوضني الله تعالى
عنه علم الحديث الذي هو أشرف العلوم (٣) *

(١) صفحات من تاريخ مصر في عصر السبوطي ص ١٤٨ .

(٢) انظر عصر سلاطين المماليك المجلد الثالث ص ٣٥٩ .

(٣) عصر السلاطين المماليك المجلد الثالث ص ٣٦٠ ، وحسن المحاضرة ج ١

ص ٣٢٨ وما بعدها .

من هذا الحديث الذي حدثنا اياه السيوطى عن نفسه وما فتح الله به عليه من العلوم والمعارف يتضح لنا عدة أمور منها *

١ - أن السيوطى قد بلغ في هذه العلوم السبعة التى ذكرها مرتبة يحسد عليها ومما يؤكد قوله هذا مؤلفاته الكثيرة فى هذه العلوم التى تذر بها مكتبات العالم الاسلامى *

٢ - ان السيوطى كره المنطق وذمه *

٣ - نلمس روح التواضع وقد برأ نفسه من الزهو واردة الفخر وهو فى ذلك صادق بلا شك لأنه يصف حقيقة * (١)

وقد انعكس علم السيوطى هذا فى مؤلفاته العديدة فى مختلف الفنون * والتى يستطيع الباحث المحقق أن يقف على الكثير منها فى المكتبات العامة والخاصة مطبوعا ومخطوطا (٢) *

كما أن السيوطى رحمه الله كان بالاضافة الى ذلك شاعرا فله رحمه الله كثير أكثره متوسط وجيد ، كثير وغالبه فى الفوائد العلمية والأحكام الشرعية ، وهو فى هذه الناحية شبيهه بابن حجر العسقلانى وجهتهما حياتهما العامية بعيدا عن الأدب الذى هو مزاج ل نفسيهما فكانا يعاودانه الفينة بعد الفينة وكل منهما تتراءى على شعره المسحة العلمية وان كان بن حجر أرق وأغزل من السيوطى (٣) *

الفصل الرابع

(أ) منافسته والطعون فيه :

تألب على السيوطى معاصره من أقرانه ومنافسوه من العلماء وطعنوا فى طباعه ومواهبه وعلمه ومؤلفاته وتحاملوا عليه ورموه بما

(١) عصر سلاطين المماليك المجلد الثالث ص ٣٦١ *

(٢) راجع سالننا من ص ٦٤ الى ص ٩٣ *

(٣) راجع النماذج من شعره برلتننا ص ٩٤ - ٩٥ *

ليس فيه حسدا منهم وحقدا عليه ، لما ناله من الشهرة دونهم كما هي عادة الأقران في كل زمان واشتدت هذه المنافسة وتبادل الطعون التي بلغت ذروتها أو ألفت من أجلها المؤلفات تأييدا ومعارضة •

وأصبح في عصر السيوطي معسكران : معسكر يقوده السخاوي ومن قواده وجنوده (ابن الكركي) وابن العلييف : تلميذ الجوجري ••
وأحمد بن القسطلاني •• وغيره •

والمعسكر الآخر يقوده السيوطي ومن أنصاره : الفخر الديمي وأمين الدين الاقصرائي وسراج الدين العبادي وغيرهم •

وتبادل الفريقان التهم والنقائص والسياب وذكر المثالب وأخذت الخصومة بينهم زمنا ليس بالقليل وألفت رسائل ومقامات وكتب شغلت من الوقت كثيرا (١) •

والعرض لهذه الخصومات تفصيلا لا يتسع له المقام هنا (٢) غير أني أرى أن واجب العلماء في كل عصر أن يترفعوا عن مثل هذه الخصومات التي قد يساء الظن في فهم المراد منها والتي قد تشوه سعة أئمة جيل بأكمله •

(ب) وفاته وقبره :

وختاما لهذه الترجمة التي أوجزنا فيها الحديث عن حياة السيوطي مما قد يترتب عليه التقصير في العرض لبعض جوانب حياته وعذرنا في ذلك ضيق المقام وشفيعنا فيه أننا تكلمنا عن حياة السيوطي في رسالتنا التي موضوعها « الحافظ جلال الدين السيوطي وجهوده في الحديث وعلومه » والتي تقع في حوالي خمسمائة وخمسين صفحة من الحجم الكبير لا يفوتنا أن نذكر تاريخ وفاته ومكان قبره فقد توفى رحمه

(١) أنظر صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي ص ٢٤٩ •

(٢) زيادة للايضاح راجع رسالتنا من ص ٩٧ : ١٠٧ •

الله تعالى بعد حياة عامرة بالعلم والايمان والزهد والورع والتقوى
والتأليف والتصنيف والمراجعة ♦

في سحر ليلة الجمعة تاسع عشر من جمادى الأولى سنة احدى
وتسعمائة في منزله بروضة المقياس بعد أن تمرض سبعة أيام بورم شديد
في ذراعه الأيسر وقد استكمل من العمر واحد وستين سنة وعشرة أشهر
وثمانية عشر يوماً وكان له مشهد عظيم ودفن بالقاهرة في حوش قيصون
خارج باب القرافة (المعروفة الآن ببوابة السيدة عائشة) (١) ♦

وقد قام العلامة أحمد تيمور بتحقيق موضع قبره وألف رسالة
صغيرة في ذلك سماها « قبر السيوطى وتحقيق موضعه » وهى مطبوعة
بالمطبعة السلفية سنة ١٣٤٦ هـ ♦

(١) انظر الكواكب السائرة ج ١ ص ٢٣١ .

الباب الثاني جهود السيوطي في مجال الحديث

نمهد للحديث في هذا الباب والباب الذي يليه بنبذة عن حدد المحدث واختلاف أهل الفن في ذلك ، ومدى انطباق هذه التعريفات على جلال الدين السيوطي • فنقول : قال النساج السبكي في كتابه مفيد النعم (معرفا المحدث) :

المحدث : من عرف الأسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالي والنازل وحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون وسمع الكتب السنة، ومسند أحمد بن حنبل ، وسنن البيهقي ، ومعجم الطبراني وضم الى هذا القدر ألف جزء من الأجزاء الحديثية • هذا أقل درجاته فاذا سمع ما ذكرناه وكتب الطبقات ودار على الشيوخ وتكلم في العلل والوفيات والمسانيد كان أول درجات المحدثين ثم يزيد الله من يشاء ما يشاء •

وقال في موضع آخر منه : ومن أهل العلم طائفة طلبت الحديث وجعلت دأبها السماع على المشايخ ومعرفة العالي من المسموع والنازل وهؤلاء هم المحدثون على الحقيقة (١) •

وقال الشيخ فتح الدين بن سيد الناس : المحدث في عصرنا هـ من اشتغل بالحديث رواية ودراية وجمع رواية واطلع على كثير من الرواة

(١) تدريب الراوي ج ١ ص ٤٥ ، ٤٦ •

والرويات في عصره وتميز في ذلك حتى عرف فيه خطه اشتهر فيه
ضبطة (١) •

هذه بعض التعريفات التي أطلقها أهل الفن على من يقال في حقه
محدث • أما المحدث عند الفقهاء فيحدد لنا أوصافه الزركشى في قوله :
أما الفقهاء فاسم المحدث عندهم لا يطلق الا على من حفظ سند الحديث
وعلم عدالة رجاله وجرحها دون المقتصر على السماع •

هذا ومما لا شك فيه أن السيوطي رحمه الله تعالى كانت تتوافر
فيه هذه الشروط فقد ضم رحمه الله تعالى الأخذ من الصحف الأخذ
من أفواه الرجال • وشيوخه الذين أخذ عنهم العلم من أفواههم بلغوا
عددا غير قليل • وقد حفظ رحمه الله تعالى عدة آلاف من الأحاديث
فقد نقل الشعراني في الطبقات الصغرى عن السيوطي أنه قال عن نفسه :
أنه يحفظ مائتي ألف حديث قال ولو وجدت أكثر لحفظته ولعله لا يوجد
على وجه الأرض أكثر من ذلك •

وكيف لا يكون السيوطي محدثا : وهو الذي قضى حياته
خادما للسنة النبوية الشريفة وما يتصل بها من علوم جمعا وشرحا
ونقدا وتمحيصا وحفظا وتعديلا وتوثيقا وتضعيفا •

وألف في ذلك المؤلفات العديدة المطولة والمختصرة • بل أننا
إذا تصفحنا كتبه المختلفة في بقية الفنون نجده رحمه الله تعالى قد
صبغها بالصبغة الحديثة توضيحا لمعناها وحلا لمشكلاتها ومسائلها •
ويهمنى هنا وأنا في مجال الحديث عن السيوطي المحدث أن أعرض
بإيجاز لبعض مؤلفات السيوطي في مجال « علم الحديث رواية » وقد
عقدت لها هذا الباب ثم مؤلفاته في علم الحديث (دراية) وقد خصصت
لهما الباب الثالث من هذا البحث وهي تصور لنا بصدق مدى اهتمام
السيوطي بأمر السنة النبوية الشريفة وعلومها •

(١) تدريب الراوي ج ١ ص ٤٨ •

هذا وقد أعددت ثبنا بمؤلفات السيوطى (فى علم الحديث رواية) ليكون بمثابة مفتاح يمسك به كل من أرادوا ان يقفوا على جهود السيوطى فى هذا الميدان . وفى هذا الثبت أذكر اسم الكتاب ومخطوط هو أم مطبوع والرقم الذى يوجد تحته فى المكتبات العامة ، كما أشير. فى حالة طبعه الى من قام بطبعه أو نشره تيسيرا على الباحثين وتوفيرا لوقتهم وجهدهم فى سبيل الحصول عليه . وأحيانا أذكر نبذة عن الكتاب على سبيل التعريف به .

وأنبه الى أن ما ذكرته من الكتب هنا مجردا عن هذه الايضاحات فانه مما يذكر فى فهرست مؤلفات السيوطى .

وقد خصصت لهذا الثبت - الفصل الاول من هذا الباب .

الفصل الأول : مؤلفات السيوطى فى الحديث وتعليقاته

وقد رتبها على حروف المعجم وهى :

- ١ - آداب الفتنيا .
- ٢ - آداب الملوك .
- ٣ - آكام العقيان فى أحكام الخصيان « دار الكتب المصرية » تحت رقم ٢٧ ، ٥٣ مجاميع .
- ٤ - آكام المرجان فى أخبار الجان .
- ٥ - أبواب السعادة فى أسباب الشهادة . رسالة بدار الكتب الأزهرية رقم ١٨٧ مجاميع .
- ٦ - اتحاف الفرقة بدنو الخرقه .
- ٧ - اتمام النعمة فى اختصاص الاسلام بهذه الأمة - انظر رسالة فى ذم المكس بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٤٣٦ حديث .
- ٨ - الأحاديث الحسان فى ذم الطيلسان .

- ٩ - أحاديث الشتاء • دار الكتب المصرية ٣٠ مجاميع •
- ١٠ - الأحاديث المشتهرة على الألسنة (الدر المنتشرة في الأحاديث المشتهرة) مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٣٩٧ مجاميع •
- ١١ - الأحاديث المنيفة في فضل السلطنة الشريفة مخطوط بدار الكتب المصرية تحت رقم ٤٦ - حديث •
- ١٢ - أحاديث في نجاة أبوي النبي صلى الله عليه وسلم - دار الكتب المصرية ١٦٠ مجاميع مخطوط •
- ١٣ - الاحتفال بالأطفال •
- ١٤ - احياء الميت في فضائل أهل البيت ، مخطوط بدار الكتب المصرية ٣٨٠١ مجاميع •
- ١٥ - الأخبار المأثورة في الاطلاع بالنوة مطبوع بمصر ضمن الحاوي للفتاوى السيوطي •
- ١٦ - اذكار الاذكار أربعون حديثا في ورقة •
- ١٧ - أربعون حديثا جمعها في الصحاح والحسان محذوفة الأسانيد • دار الكتب المصرية ٢٤٧ - مجاميع • مخطوط •
- ١٨ - أربعون حديثا رواية مالك عن نافع عن ابن عمر • دار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع •
- ١٩ - أربعون حديثا في قواعد الأحكام الشرعية • • والزهد • دار الكتب المصرية رقم ٣٠٨ حديث مخطوط •
- ٢٠ - أربعون حديثا في الجهاد •
- ٢١ - الأزهار المتناثرة في الأخبار المتواترة • دار الكتب المصرية برقم ٥١٣ حديث مخطوط. ومنه نسخة أخرى بمكتبة الأزهر تحت عنوان (قطف الأزهار المتناثرة) رقم ٢٠٥٠ ضمن مجموعة مخطوطة •

- ٢٢ - الأساس في مناقب بنى العباس *
وهي أربعون حديثا استخرجها من الأحاديث الصحيحة «مخطوطة
بدار الكتب المصرية برقم ١٤٢٠ حديث « ونسخة أخرى ٤١٦
مجاميع مخطوطة أيضا *
- ٢٣ - الاسفار في آداب قلم الاظفار طبع بمصر نشر مكتبة الجندي
ضمن مجموعة *
- ٢٤ - أسباب نزول الحديث (اللمع) بدار الكتب الأزهرية تحت رقم
٥٦ مجاميع مخطوطة أوله : بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين *
الحمد لله سبب الأسباب ويسر السحاب والصلاة والسلام على
سيدنا محمد والآل والاصحاب *
- مرتب على الأبواب * أوله كتاب الطهارة وآخره كتاب
الأدب *
- وهذا الكتاب لم يتم فقد وجدت في آخر النسخة المرجوع اليها
عبارة تفيد ذلك وهي * هذا آخر ما وجدت بخط المؤلف رضى
الله عنه ورحمه ، وكان في عزمه أن يأتي مصنفا حافلا ولكن اخترته
المنية * فاذن هو من آخر مؤلفات السيوطى *
- وشخصيته فيه ظاهرة وهو صغير الحجم يقع في حوالي ٣٠
صفحة *
- ٢٥ - اعذب المناهل في حديث « من قال انا عالم فهو جاهل » طبع
ضمن الحاوى *
- ٢٦ - الاعلام بحكم عيسى عليه السلام بدار الكتب الأزهرية نسخة
في مجلد بخط مصطفى ابن ابراهيم الديسمى سنة ١١٠٨ م
١٢٠ ورقة تحت رقم ٤١٦٣ توحيد *
- ٢٧ - أعلام الأريب بحدوث بدعة المحاريب دار الكتب المصرية ٥٢١
مجاميع مخطوطة *

- ٢ - أعمال الفكر في فضل الذكر نشر مكتبة الجندي بالقاهرة
ضمن مجموعة *
- ٢ - افادة الخبر بنصه في زيادة العمر ونقصه * دار الكتب المصرية
٣٢ مجاميع *
- ٣ - الامالى على الدرّة الفاخرة *
- ٣ - الامالى على القرآن الكريم *
- ٣١ - الاناقة في رتبة الخلافة *
- ٣٢ - الامالى المطلق *
- ٣٤ - أبناء الاذكيا لحياة الأنبياء ضمنها الكلام على حياة الأنبياء
في قبورهم * دار الكتب الأزهرية رقم ٣٠٩٩ مخطوطة ونسخة
أخرى في مجلد بخط النفراوى سنة ١١٦٣ هـ في ١٢ ورقة وعدة
نسخ أخرى *
- ٣٥ - أنموذج اللبيب في خصائص الحبيب مطبوع بمصر ومنه نسخة
مخطوطة بدار الكتب المصرية ٤٧ حديث *
- ٣٦ - الآية الكبرى في قصة الاسرى *
- ٣٧ - الباحة في فضل السباحة « رسالة في ذكر الأحاديث الواردة في
السباحة » دار الكتب الأزهرية ٢٠٣٢ حديث مخطوطة *
- ٣٨ - البدور السافرة في أمور الآخرة * دار الكتب الأزهرية ١٨٣٠
مخطوطة *
- ٣٩ - برد الظلال في تكرير السوءال * دار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع
مخطوط *
- ٤٠ - برد الأكباد عند فقد الأولاد *
- ٤١ - بذل المسجد بسؤال المسجد * دار الكتب المصرية ١٦٥١
حديث مخطوط *

- ٤٢ - بزوغ الهلال في الخصال الموجبة للظلال • دار الكتب المصرية
رقم ٥ مجاميع مخطوط •
- ٤٣ - بغية الرائد في الدليل على مجمع الزوائد • لم يتم •
- ٤٤ - بلوغ المآرب في قص الشارب • نشر مكتبة الجندي ضمن
مجموعة •
- ٤٥ - بلوغ المآرب في أخبار العقرب • نشر مكتبة الجندي بمصر •
- ٤٦ - تأويل الأحاديث الموهمة للتشبيه • دار الكتب المصرية رقم ٥٥٥
مجاميع •
- ٤٧ - التثبيت عند التبييت ومعه أرجوزة في فتنة القبر • طبع
الحسينية بالقاهرة سنة ١٣٢٨ •
- ٤٨ - تجريد أحاديث الموطأ •
- ٤٩ - تخريج السيوطي لأحاديث السيد الشريف الجرجاني في شرحه
على المواقف « دار - الكتب الأزهرية ١٣٠ مجاميع » •
- ٥٠ - تخريج شرح السعد على العقائد النسفية « دار الكتب المصرية
مخطوط ٣٢ مجاميع » •
- ٥١ - تخريج السيوطي لجزء من مرويات المتوكل على الله أبي العزيز
عبد العزيز الخليفة - العباسي بمصر « دار الكتب المصرية رقم
١١٥٩ حديث » •
- ٥٢ - التزيين الاراتك في رسالة النبي صلى الله عليه وسلم الى
الملائك •
- ٥٣ - التضلع في معنى التفتيح •
- ٥٤ - تطريز العزيز في تخريج ما فيه من الأحاديث •
- ٥٥ - التعظيم والمنة في أن أبوي الرسول في الجنة • مطبوع موجود
بدار الكتب المصرية ١٣٦٤ •

- ٥٦ - التعقبات على الموضوعات • دار الكتب الأزهرية ٨١٢ ، ١٤٥٩
 ضمن مجموعة طبع حجر •
- ٥٧ - التعليقة العنيفة على مسند أبي حنيفة •
- ٥٨ - التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة • دار الكتب المصرية
 مخطوط تحت رقم ٣٠٢ مجاميع تيمور •
- ٥٩ - التنفيس في الاعتذار عن ترك الافتاء والتدريس •
- ٦٠ - تنوير الحوالك شرح موطأ مالك مطبوع المكتبة التجارية
 الكبرى بمصر •
- ٦١ - توضيح المدرك في تصحيح المستدرك كتب منه اليسير •
- ٦٢ - الثغور الباسمة في مناقب السيدة فاطمة رضى الله عنها •
- ٦٣ - تلج الفؤاد في أحاديث لبس السواد « الأزهر ١٣٠ مجاميع » •
- ٦٤ - الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير للسيوطي • مطبوع
 بمصر عدة طبعات •
- ٦٥ - الجامع الكبير (جمع الجوامع) في الحديث للسيوطي مخطوط
 وجارى طبعه بمجمع البحوث الاسلامية •
- ٦٦ - جامع المسانيد كتب منه جزء •
- ٦٧ - جزء في الأحاديث الواردة في ذم القضاة • مخطوط بدار الكتب
 المصرية رقم ١٣٩٠ حديث •
- ٦٨ - جزء في حديث (ارحموا ثلاثة) عزيز قوم ذل •• الخ •
- ٦٩ - جزء في صلاة الضحى •
- ٧٠ - جزء في طرق حديث (طلب العلم فريضة على كل مسلم ••)
 الحديث •
- ٧١ - جزء في طرق حديث (أنا مدينة العلم وعلى بابها) (الفتاوى
 الحديثية) •

- ٧٢ - الجواب الخاتم عن سؤال الخاتم •
- ٧٣ - الجواب الحزم في حديث التكبير جزم •
- ٧٤ - جياذ المسلسلات (انظر فهرس ج ١ ص ٢٣٢ ومنه نسخه
 • دار الكتب المصرية ١٤٩ حديث تيمور) •
- ٧٥ - الجبائك في أخبار الملائك (دار الكتب المصرية ١٩٤٨ حديث
 • مخطوط والأزهر ٣٧٩٧ حديث) •
- ٧٦ - الحجج المينة في التفضيل بين مكة والمدينة •
- ٧٧ - حسن التعهد في أحاديث التسمية في التشهد • دار الكتب
 • الأزهرية ١٣٠ مجاميع مخطوط •
- ٧٨ - حسن السميت في الصمت « مخطوط دار الكتب المصرية ٥٣٠
 • مجاميع » •
- ٧٩ - حصول الرفق بأصول الرزق • الأزهر مخطوط برقم ٣٩٣٥ يقع
 في ست ورقات ، ودار الكتب المصرية رقم ١٤٢٤ ، ١٤٢٧ ،
 • ١٢٩٥ ، ٤١٦ ، ٥٢١ مجاميع •
- ٨٠ - الخبر الدال على وجود القطب والأتواد والنجباء والابدال
 • « طبع ضمن الحاوى » •
- ٨١ - الخصائص الكبرى • طبع بمصر ومنه نسخة بتحقيق فضيلة
 الأستاذ محمد خليل هراس •
- ٨٢ - داعي الفلاح في أذكار المساء والصباح • « دار الكتب المصرية »
 • ١٢٤ م مجاميع •
- ٨٣ - الدرارى في أنباء السراى • دار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع
 • مخطوط •
- ٨٤ - الدرر المنيفة في الاباء الشريفة • مطبوع ضمن مجموعة •

- ٨٥ - دفع التعسف في أخوة يوسف « دار الكتب المصرية ١٠٢ م
مجاميع » *
- ٨٦ - الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج « مخطوط » دار الكتب
المصرية برقم ٢١٩ حديث ودار الكتب الأزهرية برقم ٥٢٤ *
- ٨٧ - ذيل الجامع الصغير « طبع بمصر مع الجامع الصغير » انظر
الفتح الكبير للنبهاني *
- ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية بخط عبد القادر
القرافي الشافعي ٩٤٢ تقع في ٢٠٤ ورقة *
- ٨٨ - ذيل اللآلئ المصنوعة مطبوع ضمن مجموعة طبع حجر *
- ٨٩ - ذم زيادة المهر *
- ٩٠ - رسالة في خصائص يوم الجمعة * ضمن مجموعة دار الكتب
المصرية ١٥١٨ حديث *
- ٩١ - رسالة في عشاريات البخاري مخطوطة بدار الكتب المصرية
١٠٢ م مجاميع *
- ٩٢ - رسالة في الكلام على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :
(طوبى لمن رآني وآمن بي ... الخ) دار الكتب المصرية
مخطوطة برقم ٧٤ مجاميع *
- ٩٣ - رسالة في معنى الحديث الذي اشتهر على الألسنة (من عرف
نفسه عرف ربه) مطبوعة ضمن مجموعة مكتبة الجندي بالقاهرة *
- ٩٤ - الرسالة السلطانية في النهي عن زيارة العلماء للملوك * دار
الكتب المصرية مخطوطة ١٢٣ م مجاميع *
- ٩٥ - رسالة واردة في الأخبار الواردة في حكم الاتكاء على الوسادة *
- ٩٦ - رفع الجدر عن قطع السدر « مخطوطة » * دار الكتب المصرية
١٢٣ م مجاميع *

- ٩٧ - رفع الصوت بذبح الموت •
- ٩٨ - الروض الاينق فى مسند الصديق •
- ٩٩ - رياض الصالحين « مخطوط » دار الكتب الأزهرية تحت رقم
٣٧٤٢ حديث •
- ١٠٠ - الرياض المنيفة فى شرح أسماء خير الخليقة •
- ١٠١ - الزجر بالهجر مطبوع مكتبة الجند بالقاهرة •
- ١٠٢ - الزهر الباسم فيما يزوج الحاكم • دار الكتب المصرية مخطوط
١٥١٨ مجاميع •
- ١٠٣ - زهر الربا على المجتبى وهو شرح للسيوطى على السنن الصغرى
للنسائى « مطبوع بمصر مع المجتبى » •
- ١٠٤ - زوائد شعب الايمان لليهقى على الكتب الستة « كتب منه
الثلث » •
- ١٠٥ - سهام الاصابة فى الدعوات المستجابة • مطبوع مكتبة الجندى
بالقاهرة •
- ١٠٦ - السماح فى أخبار الرماح • دار الكتب المصرية مخطوط ١٥٧٧
مجاميع •
- ١٠٧ - الشافى العى على مسند الشافعى •
- ١٠٨ - شد الاثواب فى سد الابواب • مطبوع ضمن الحاوى للفناوى •
- ١٠٩ - ضوء البدر فى احياء ليلة عرفة ، والعيدين ونصف شعبان ؛
وليلة القدر • مطبوع دار الكتب المصرية ٣٥ مجاميع مخطوط •
- ١١٠ - طرق حديث (اطلبوا الخير عند حسان الوجوه) •
- ١١١ - طلوع الثريا باظهار ما كان خفيا « مختصره يسمى ضوء
الثريا » •

- ١١٢ - على اللسان عن م الطيلسان *
- ١١٣ - العرف الوردى فى أخبار المهدي *
- ١١٤ - عقود الزبرجد على مسند الامام أحمد * دار الكتب المصرية
مخطوط ٩٣ م *
- ١١٥ - عمل اليوم والليلة * دار الكتب المصرية مخطوط ١٢٦ م
مجاميع *
- ١١٦ - العناية بتخريج احاديث الهداية لم يتم *
- ١١٧ - عين الاصابة فى استدراك السيدة عائشة على الصحابة
دار الكتب المصرية ٤٧٤ م ١٢٣ م مخطوط *
- ١١٨ - فض الوعاء فى احاديث رفع الأيدي فى الدعاء * دار الكتب
الأزهرية ١٣٠ مجاميع *
- ١١٩ - الفضل العميم فى اقطاع تميم « دار الكتب المصرية ٣٥
مجاميع » *
- ١٢٠ - الفوز العظيم فى لقاء الكريم * دار الكتب المصرية ١١٥٥ حديث
- ١٢١ - الفيض العلوى فى طرق الحديث العشارى * « دار الكتب
المصرية مخطوط ٥٢٩ مجاميع » *
- ١٢٢ - القرب فى محبة العرب « دار الكتب المصرية مخطوط ١٥٨٨ » *

ملحوظة :

الحافظ العراقى له كتاب بنفس العنوان تحت رقم ٢١١ ، ٢٧١
مخطوط ونسخه أخرى مطبوعه تحت رقم ١٢٦٧ حديث « دار الكتب
المصرية » *

١٢٣ - قوت المعتزى على جامع الترمذى « مطبوع » -

- ١٢٤ - القول الجلى ، فى حديث الولى • دار الكتب المصرية مخطوط
 • ٤٢٠ مجاميع
- ١٢٥ - القول الحسن فى الذب عن السنن •
- ١٢٦ - القول الفصيح فى تعيين الذبيح •
- ١٢٧ - كتاب الباهر فى حكم النبى صلى الله عليه وسلم فى الظاهر
 والباطن « دار الكتب المصرية ٥٢٢ مجاميع مخطوط » •
- ١٢٨ - الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف • « دار الكتب الأزهرية»
 المجموع ١٣٠ ، ٣٢ مجاميع بدار الكتب المصرية •
- ١٢٩ - كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة •
- ١٣٠ - كشف الغمى فى فضائل الحمى •
- ١٣١ - كشف اللبس فى حديث الشمس « دار الكتب المصرية ٣٢
 مجاميع » •
- ١٣٢ - الكلم الطيب والقول المختار فى المأثور من الدعوات والاذكار
 « دار الكتب المصرية ١٢٦ م مجاميع » •
- ١٣٣ - الكلام على حديث (احفظ الله يحفظك) •
- ١٣٤ - الكواكب السيارت فى الأحاديث العشاريات • دار الكتب
 المصرية ١٩٤ مجاميع •
- ١٣٥ - اللآلىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعية وهو مطبوع •
- ١٣٦ - لباب الحديث • طبع دار احياء الكتب العربية سنة ١٣٥٦ هـ •
- ١٣٧ - ليس اليب فى الجواب عن ايراد حلب • « دار الكتب المصرية»
 • ١١٨ مجاميع
- ١٣٨ - لم الأطراف وضم الأتراف مرتب على حروف المعجم فى أول
 الحديث •

- ١٣٩ - ماوراء الاساطين فى عدم المجرى الى السلاطين *
- ١٤٠ - ماوراء الواعون فى أخبار الطاعون *
- ١٤١ - المثابة فى أخبار الصحابة *
- ١٤٢ - المجلس الحادى والتسعون من املاء الحافظ جلال الدين السيوطى *
- « دار الكتب المصرية * مخطوط تحت رقم ١٥٥٥ حديث » *
- ١٤٣ - المدرج الى المدرج وهو كتاب فى الأحاديث المدرجة الاسناد « دار الكتب المصرية ١٨٨٥ حديث » *
- ١٤٤ - مرقاة الصعود على سنن أبى داود مطبوع بمصر *
- ١٤٥ - المسارعة الى المصارعة *
- ١٤٦ - المصاييح فى صلاة التراويح « مطبوع » مكتبة الجندى *
- ١٤٧ - مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة « مطبوع » *
- ١٤٨ - المرقاة العلية فى شرح الاسماء النبوية *
- ١٤٩ - مفتاح الجنة فى الاحتجاج بالسنة *
- ١٥٠ - الملاحن فى معنى المشاحن * دار الكتب المصرية ١٠٢ م مجاميع *
- ١٥١ - مناهل الصفاى تخريج أحاديث الشفا * مطبوع (تناولته بالدراسة الخاصة) *
- ١٥٢ - المنحة فى السبحة « دار الكتب المصرية » مخطوط ٣٢ ، ٣٧٥ مجاميع *
- ١٥٣ - المنتخب فى طرق حديث (من كذب) *
- ١٥٤ - المنتقى من الأدب المفرد للبخارى *
- ١٥٥ - المنتقى من مستدرك الحاكم *
- ١٥٦ - المنتقى من شعب الايمان للبيهقى *

الفصل الثاني : جهود السيوطي في مجال جمع الحديث

للسيوطي رحمه الله في هذا المجال همة فائقة فقد تفوق رحمه الله تعالى على كثير ممن صنفوا في هذا الاتجاه ويتمثل ذلك أساسا في كتابيه :

- ١ - الجامع الكبير (أو جمع الجوامع) الذي جمع فيه بين الكتب الستة وغيرها ، والذي احتوى على نحو ثمانين ألف حديث *
- ٢ - الجامع الصغير وزوائده الذين اختصر فيهما السيوطي الجامع الكبير وضمنهما زيادات عليه وله غير ذلك كثير ولكنني سأقتصر على التعريف بهذين الجامعين في ايجاز *

أولا : الجامع الكبير (جمع الجوامع) هو كتاب حاول فيه السيوطي رحمه الله تعالى أن يجمع كل الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكنه قد عاجلته المنية قبل ان يستكمل مراده في ذلك (١)

وقد جمع فيه كل ما وصل اليه من أقوال النبي صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته جمعا مرتبا على قسمين :

الاول : قسم الأقوال وهو مرتب على حسب حروف المعجم *

الثاني : قسم الأفعال وهو مرتب على حسب المسانيد وقد استهل كتابه هذا بمقدمة قيمة أبان فيه عن مسلكه واصطلاحاته التي سيسير عليها من رموز الى المراجع وغيرها *

فذكر أنه قسمه الى قسمين كما ذكرت ثم تحدث عن مسيرته في القسم الأول ومنهجه فيه وهو أنه يذكر أولا الحديث بنصه ثم يتبع متن الحديث بذكر من خرج به من الأئمة أصحاب الكتب

(١) انظر مفتاح السنة للمرحوم الأستاذ/محمد عبد العزيز الخولي ص ١١٢ *

المعتبرة ومن رواه من الصحابة رضوان الله عليهم واحد الى عشرة أو أكثر من عشرة •

ثم ذكر أنه سلك في طريقة : يعرف منها صحة الحديث وحسنه وضعفه مرتبا ترتيبا اللغه مراعيًا اول الكلمه فما بعد •

هذا وقد استعمل رحمه الله الرموز في الاشارة الى مصادر كتابه رغبة في الاختصار فرمز للبخارى (خ) ولمسلم (م) ولابن حبان (حب) وللحاكم في المستدرک (ك) وللضياء المقدسى في المختارة (ض) ونراه وهو يتحدث عن منهجه فيه يرتب مصادرہ في مجموعات ثم يصدر عليها حكما عاما يشير فيه الى مرتبة ما فيها من أحاديث اجبالا كتلك المجموعه السابقة حيث قال عقبها وجميع ما في هذه الخمسة صحيح فالعود اليها معلم بالصحة سوى ما في المستدرک من المتعقب فينبه عليه وكقوله : وكذا ما في موطأ مالك وصحيح بن خزيمة وأبي عوانة وابن السكن ، والمنتقى وابن الجارود ، والمستخرجات فالعزو اليها معلم بالصحة أيضا وهكذا يمضى الى نهاية ما ذكره في مقدمته مما يتعلق بأمر منهجه فيه •

والحقيقة أن المنهج الذي سلكه السيوطي في هذا الكتاب جدير بالتقدير والتبجيل وهو يعد أوضح شرح وأدق وصف وأصدق تصوير لمنهجه العلمى الذى التزمه فى جميع ما أورده من الأحاديث فى هذه الموسوعة الحديثية •

وهو ان كان بهذه المثابة فى تصوير منهجه الا أنه لا يخلو من ثغرات يستطيع الناقد أن ينفذ من خلالها الى أعماق منهجه وما سار عليه فى صلب كتابه هذا •

ومن أهم ما لا حظته على هذا المنهج ما يأتى :

أولاً : أنه لا يخلو من اجمال وأحكام عامة لا تفيد الدقة المطلوبة في الوقوف على مرتبة الحديث • فالسيوطى مثلاً يذكر عدة كتب كالبخارى ومسلم وابن حبان والضياء المقدس ومستدرك الحاكم بعد أن ينبه على المتعقب منه كما ذكرت سابقاً ثم يصدر حكماً مبرماً على أن جميع ما في هذه الخمسة صحيح • الخ (١) •

والمتفحص لهذا المنهج والتدبر في مسلك السيوطى في كتابه هذا لا يلبث الا أن يعلن أنها طريقة اجمالية في معظم تحركاتها واتجاهاتها غير كافية في تحديد المعالم الرئيسية للحكم على الحديث وبيان مرتبته بالضبط من صحة وحسن وغير ذلك •

وقد أشار الى هذا الاجمال صاحب فهرس الفهارس عند كلامه على الجامعين الكبير والصغير (٢) •

ولو أن السيوطى قال : كل ما في هذه الكتب مقبول لخف الاجمال نوعاً ما فإن المقبول يشمل الصحيح والحسن وربما الضعيف • وكما هو معروف عند بعض الأئمة أنه يعمل به في فضائل الأعمال ••• الخ •

على أنه رحمه الله تعالى فعل هذا بالنسبة لمسند أحمد حيث قال : وكل ما كان في مسند أحمد فهو مقبول فإن الضعيف الذى فيه قد يقرب من الحسن ومع ذلك فإن حقيقة الاجمال ما زالت موجودة وان اختلفت نسبتها وذلك لأن الحكم على الحديث بالصحة مرتبة خطيرة لا يصلح معها الاجمال •

ثانياً : السيوطى استعمال الفاظ لا تحدد بالضبط درجة الحديث كقوله مقبول ، وصالح وهذا يقتضى ممن يريد أن يقف على درجة

(١) انظر العدد الأول من الجزء الأول ص ٢ جمع الحوامع •

(٢) انظر فهرس الفهارس للكفانى ج ٢ ص ٣٥٧ •

الحديث بمعياره الصحيح أن يبذل جهدا شاقا في سبيل الوصول الى ما يريد *

ثالثا : في أثناء حديث السيوطى عن مسيرته في هذا الكتاب *
قال : وقسمته قسمين الأول : أسوق فيه لفظ المصطفى بنصه * * الخ
وهذا تساهل في التعبير لأن كثيرا من أحاديث هذا الكتاب موضوعة
باعتراف السيوطى في تعليقاته عليها *

وبالطبع الأحاديث الموضوعة ليست من لفظ المصطفى صلى الله
عليه وسلم فكان الأولى أن يعدل عن هذا التعبير الى تعبير آخر *

اللهم الا أن يكون مقصده « اللفظ المنسوب الى المصطفى صلى
الله عليه وسلم » بصرف النظر عن صحة النسبة أو عدمها *

هذه بعض الملاحظات على مسلك السيوطى وطريقته في الجامع
الكبير *

الجهود التى بذلت من أجل تهذيب وترتيب هذه الموسوعة الحديثية :

جرت عدة محاولات لخدمة الجامع الكبير اما بهدف التنقية
والتنقية والاختصار واما بهدف الترتيب على الأبواب الفقهية واما
بهدف طبعه واخراجه الى حيز الوجود لينتفع به رواد السنة النبوية *

أولى هذه المحاولات كانت على يد السيوطى نفسه وهى اختصاره
لسنن الأقوال في كتابه الجامع الصغير الذى سنعرّف به بعد ذلك *

وثانيهما : ترتيب هذا الكتاب (جمع الجوامع) على أبواب
الفقه مع زيادات وقد قام بها الشيخ علاء الدين المتقى المتوفى سنة
٩٥٧ هـ في كتاب أسماه « كنز العمال » طبعته دائرة المعارف النظامية -
حيدر آباد سنة ١٣١٢ هـ وكان الشيخ أبو الحسن البكرى يقول :
للسيوطى منة على العالمين وللمتقى منة عليه *

ثم اختصر علاء الدين كتابه هذا في كتاب أسماه (منتخب كنز العمال) وذكر أن هذا التأليف فاق على كنز العمال بشيئين : أحدهما بحذف التكرار .

والثاني امتزاج أحاديث الأفعال بأحاديث الأقوال ترجمة بعد ترجمة . الخ (١) .

وبهذا يظهر لنا مدى عناية الشيخ علاء الدين الهندي بأمر هذه الموسوعة الحديثية ترتيبا على الأبواب مزيدا من التوفير لجهد الباحثين واختصارا وتيسيرا وتسهيلا للطالين .

ثالثا : ثم جاء دور مجمع البحوث الإسلامية ليضطلع بمسئوليته نجاه هذا المرجع الحديثي الوافي الذي ظل مخطوطا محبوسا في خزائن العلم زهاء خمسة قرون وكان المجمع في مؤتمره الثالث أوصى بعمل موسوعة للسنة وكان من الطبيعي أنه لا يمكن أن يتم هذا العمل إلا اذا سبقه جمع السنة من مصادرها الصحيحة وأصولها المعتمدة (٢) .

وقدر أن المعنيون بهذا الأمر أن في كتاب السيوطي (جمع الجوامع) غنى عن القيام بهذا العمل من جديد توفيرا للوقت والجهد . وحتى يتسنى لهم أن يسيروا على نهجه في بقية الموسوعة واتمامها، قرر المجمع طبع هذا الكتاب بعد أن أسند هذه المهمة الى لجنة متخصصة .

وقد جاء في تقديم هذه اللجنة لهذا السفر العظيم أن (جمع الجوامع) لم يطبع بصورته التي وضعها مؤلفه رحمه الله تعالى قبل تلك المحاولة التي يقوم بها مجمع البحوث الإسلامية رجاء أن يكون خطوة أولى في سبيل اخراج الموسوعة الحديثية الكبرى وأشارت

(١) أنظر مسند أحمد ومعه المنتخب ج ١ ص ٦ طبع الميمنية بمصر سنة ١٣١٣ هـ .

(٢) مقدمة الأمين العام د/بيصار عدد ١ ج ١ ص ١ .

الى أن المجمع قد يسر لها المهمة فوضع تحت يدها خمس مخطوطات
مصورة لجمع الجوامع الأصول بدار الكتب الخديوية ومكتبة
الجامعة العربية والمكتبة الأحمدية بالجامع الأعظم بخطوط مختلفة *

كما عثرت اللجنة على مخطوطة بمكتبة معهد دمياط الديني (١) *
وبهذا أوقفنا اللجنة مشكورة على عدد نسخ «الجامع الكبير»
المخطوط غير أنها أشارت الى أنه لا توجد نسخة من هذه النسخ
كاملة وان كانت جميعها متكاملة *

غير أني أنه الى أن هناك نسخة كاملة بمخطوطات خزائن
الأوقاف ببغداد رقم ٣٦٦٠ حديث في مجلد ضخم حسن الخط (٢) *
معركة الجامع الكبير :

أشارت فكرة الطبع هذه التي قام ويقوم بها المجمع ردود فعل
مضادة يرى أصحابها أنه من الأفضل أن لا يطبع مثل هذا الكتاب
محللين ذلك بما سأذكره مما جاء على لسان بعضهم في هذا المقام *

وقد كان من الطبيعي أن ينهض أصحاب فكرة النشر بالدفاع
اللازم عن فكرتهم هذه ، وقد اعتلت هذه المناقشات حول هذه القضية
صفحات مجلتين من أشهر المجلات الاسلامية في مصر بل وفي العالم
الاسلامى : احدهما مجلة منبر الاسلام والتي يصدرها المجلس الأعلى
للتشؤون الاسلامية بمصر ، وهذه قد اتخذ منها رائد الاتجاه المضاد
فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى مجالا لنشر اعتراضاته ونقده للجامع
الكبير والجامع الصغير * وللقائمين على رأس فكرة النشر واللجنة
القائمة على تحقيق هذا الكتاب من ناحية منهجها التي سارت عليه *

(١) ص ٦ عدد ١ تقديم اللجنة * جمع الجوامع *
(٢) انظر الكشف عن مخطوطات خزائن كتب الأوقاف ببغداد (تاليف محمد أسعد
طلس) مطبعة العاني ببغداد سنة ١٣٧٢ هـ - ١٩٥٣ م :

وثانيتها : مجلة الأزهر وقد كانت مجالا لنشر دفاعات المدافعين
بريادة فضيلة الدكتور عبد الحلیم محمود (شيخ الأزهر) *

بدأت الشرارة الأولى لهذه المعركة على يد فضيلة الشيخ
عبد الجليل عيسى وذلك في مقاله الذي كتبه في المجلة المذكورة عدد
ربيع الأول سنة ١٣٨٩ هـ تحت عنوان حول احياء موات كتب مثل كتاب
الجامع الصغير أو الكبير للشيخ السيوطي ، أغلب ما فيها تشويه
لتعاليم الاسلام والتليل الصحيح منها موجود في كثير من كتب
الصحاح (١) *

والمقال كما يفهم من عنوانه هدم البناء الجامع الكبير والجامع
الصغير *

أورد هنا أهم النقاط التي تضمنها هذا المقال :

١ - استهل فضيلته مقاله هذا بتعجب واستنكار لفكرة طبع جمع
الجوامع وذكر فيما ذكر أن هذا الكتاب كبير الحجم قليل الفائدة
وذكر أنه من فضل الله على المسلمين أنه لا زال مخطوطا لم يطبع
الى الآن * وقال فيما قال : (ونعلم خطره على حديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم اذا علمنا أن الشيخ السيوطي فحصه
واختار منه عشرة آلاف حديث وسماها الجامع الصغير) *

٢ - ذكر فضيلته أن كل ما فيه من أحاديث صحيحة كلها موجودة
بل وأكثر منها في الكتب الستة *

٣ - لفت نظر المسؤولين في مجمع البحوث الاسلامية الى نشر كتب
أعظم نفعاً من هذا الكتاب ككتاب الذخيرة ، الذي يعتبر أحسن
موسوعة في فقه مالك والصحابة والتابعين لشهاب الدين بن عباس

(١) انظر ص ٤٣ العدد المذكور *

القرافي المتوفى سنة ٦٨٤ هـ • وكتاب (المحيط البرهاني)
للإمام السعيد محمد بن الصدر برهان الأئمة من علماء القرن
الثاني عشر الهجري •

٤ - ساق فضيلته بعض الأحاديث التي يرى أنها باطلة ومفتراه وجاءت
في الجامعين الكبير والصغير •

٥ - ثم أختتم فضيلته مقاله هذا يبحث وضعه القرطبي في مقدمة
تفسيره تحت عنوان « التنبيه على أحاديث وضعت في فضل سور
القرآن الكريم وغيره » (١) •

وكانه بهذا يؤكد ما ذكره في صدر مقاله هذا من قلة فائدة هذا
الجامع ولكثرة الموضوعات فيه •

هذا ولم تمض مدة كبيرة حتى انبرى فضيلة الدكتور عبد الحلیم
محمود شيخ الأزهر للرد على صاحب المقال والدفاع عن الجامع الكبير
وصاحبه في مجلة الأزهر عدد ربيع آخر سنة ١٣٨٩ هـ ص ٣٠١ ، ٣٠٤
وذلك تحت عنوان (تصدير) •

وكان من بين ما ذكره فضيلته في هذا المقال :

أولاً : ذكر فضيلته أن الجامع الكبير للإمام السيوطي من الأعمال
العلمية الشامخة وأنه من هذه الذرى والقمم التي يندر ان توجد •

ثانياً : أبان فضيلته عن منهج السيوطي فيه وامتدح هذا المنهج •

ثالثاً : أوضح في هذا التصدير كيف أن السيوطي رحمه الله
تعالى قد أدى بعلمه هذا خدمة الى جميع الباحثين من جميع الألوان
والمستويات لا يقدرها الا من يعرف المعنى الصادق لهذا العمل الجليل

(١) انظر العدد المذكور ص ٤٣ : ٤٦ •

من حيث تيسير البحث عن حديث واحد فلا يهتدون اليه ، وعلى هؤلاء الذين شكوا في حديث واحد فلم يعرفوا درجته وبحوثا عن درجته فلم يهتدوا اليها ، هؤلاء الذين أعجبوا بحديث ثم نسوا بعض ألفاظه ولكنهم يذكرون الكلمة الأولى منه ، ويريدون أن يجددوا عهدهم به .

رابعا : ثم أخذ فضيلته في دفع النقد والاعتراض الموجه الى السيوطى بالنسبة للجامعين الكبير والصغير فكان مما قال : (الامام السيوطى لم يلتزم ولم يعلن ولم يقل ولم يشر في هذا الكتاب السامى الى أنه التزم الصحة أو التزم الحسن وانما أعلن أن عمله الذى قام به انما هو جمع السنة مرتبة أبجديا ومرتبة مسانيد ، وهو من أجل ذلك قد برىء من كل نقد وسلم من كل عتب وبقي له بعد ذلك الشكر الخالص والثناء الحميد والدعاء أن يجعل الله قبره روضة من رياض الجنة الى أن يلتقى ربه سبحانه وتعالى فيسعد برضوانه .

خامسا : أشار فضيلته الى أن خدمة السنة كما تكون بالتزام الصحة كما في كتب الصحاح تكون أيضا بمحاولة حصرها وجمعها على اختلاف مستوى الأسانيد .

وكما أن ملتزم الصحة مشكور مأجور مثاب على عمله فان ملتزم الحصر والاحاطة مشكور مأجور مثاب على عمله .

كما أن السيوطى لم يخترع شيئا لم يكن موجودا وانما جمع الموجود وبين في الأغلب الأعم درجته وبين في كل الأحوال مصدره .

ثم أشار فضيلته الى أن أسلافنا اعتمدوا منهج الرواية أولا ثم بينوا عن طريق هذا المنهج نفسه الصحيح والحسن الضعيف والموضوع وكتبوا في كل ذلك .

قال ان السيوطى قد أسهم في هذا المجال بنسب وافر لاثار الى كتابه (اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة) كما أن الأسلاف لم

يكتفوا ببيان الموضوع والضعيف والحسن والصحيح وانما اتخذوا قواعد عامة كالقرآن الكريم وعمل الرسول صلى الله عليه وسلم وعمل الصحابة كل ذلك مسهمين كمقياس للصحة والبطلان وقواعد الدين العامة وأصوله الصحيحة ومبادئه بل وفروعه هذا أهم ما تضمنه مقال فضيلة الاستاذ الدكتور عبد الحليم محمود ولكن الأمر لم ينته عند هذا الحد بل فضيلة الشيخ عبد الجليل عيسى يواصل اعتراضاته . انتقاده في المجلة المذكورة في الأعداد الآتية :

• عدد ربيع آخر سنة ١٣٨٩ هـ ص ٢٢ : ٢٤ •

• عدد جمادى الأولى سنة ١٣٨٩ هـ ص ٥ وما بعدها •

• عدد جمادى الآخرة سنة ١٣٨٩ هـ •

• عدد رجب سنة ١٣٨٩ هـ •

• عدد شعبان سنة ١٣٨٩ هـ •

• عدد صفر سنة ١٣٩٠ هـ ص ١٦ وما بعدها •

والمتفحص لهذه المقالات يجدها كلها هجوما شاملا على الجامعين الكبير والصغير وعلى مؤلفها الحافظ السيوطى رحمه الله •

وبعد تفحص لما كتب فى هذه المقالات أستطيع أن أبدي بعض الملاحظات عليها بصفة عامة وعلى وجه الاجمال (١) •

أولا : أسام لفضيلة المعارض ببعض ما ادعاه ككون هذا الكتاب قد اشتمل على الموضوع •

ثانيا : تحامل فضيلته على السيوطى تحاملا زائدا على حد المعقول وذلك واضح فى كل سطر من سطور مقالته ومن بينه فى عدد صفر سنة ١٣٩٠ هـ منير الاسلام قوله : فهو يتصور عاقل أن الاسلام كان ناقصا

(١) من أراد أن يراجع ذلك تفصيلا فليرجع الى رسالتنا من ص ١٦٤ : ١٨٢ •

حتى يأتي رجل كالمرحوم الشيخ السيوطى فيخرج على الناس بتكميله •
ثالثا : تشدد فضيلته في عدة أحاديث جاءت في الجامع الصغير
وأنى بها في مقالاته وحكى القول فيها ، بالوضع وقال فيها بالوضع
والكذب ، وفي الحقيقة هي ليست كذلك •

من ذلك بعض ما أورده في مجلة منبر الاسلام بعدد جمادى
الأولى سنة ١٣٨٩ هـ ص ١٥ وما بعدها ومنه حديث (شفاء عرق
النساء اليه شاة عريية تداب ثم تجزأ ثلاثة اجزاء ثم تشرب على الريق
كل يوم جزءا) •

أورده في معرض الانتقاد على السيوطى قائلا : وقال السيوطى
أيضا في حرف الشين في كتابه الجامع الصغير : روى الحاكم عن أنس
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم ساق الحديث ثم قال فضيلته
واضح كذبه مهما لفتت له من حواش •

وأقول : الحق خلاف ذلك • فقد قال المناوى في التيسير عندما
تعرض لهذا الحديث قال : قال عن أنس : وضعته لثمائة نفس كلهم
يعانى وذا خطاب لأهل الحجاز ونحوهم ممن يحصل مرضه من يس
وفي الالية تليين لقله فضولها وطيب مراعاها (صم ه ك) قال (ك)
أى الحاكم فى المستدرک : عالى شرطهما واقرره : أى على شرط
الشيخين (١) •

وغير ذلك كثير مما تشدد فيه فضيلته :

وأقول اذا كان الجامع الكبير قد اشتمل من بين ما اشتمل على
الحديث الموضوع • فليس ذلك مبرر لنقد هذه الموسوعة الحديثية
التي بذل فيها السيوطى من الجهد والوقت يعتبر هذا العمل الشاهد

(١) التيسير للمناوى ج ٢ ص ٧٨ •

صدق على عظمته وضحامته • وكما أننا في حاجة الى معرفة الصحيح والحسن من الحديث لنعمل به فاننا في حاجة الى معرفة الموضوع لنحذره وتجنب العمل به •

والسيوطى كما هو شاهد من خلال كتابه هذا كثيرا ما كان يأتى بالحديث الموضوع ثم ينص على من تكلم فيه بالوضع أو ينبه على ما فى سنده من علة كأن يقول : فى سنده (فلان) كذاب أو وضاع أو يذكر من أخرجه فى كتب الموضوعات كابن الجوزى •

كما أن السيوطى ليس أول من أتى بالموضوع فى كتابه فقد سبقه غيره الى مثل هذا ، ومع ذلك وجد كتابه طريقه الى الحياة وشق سبيله الى أيدي أهل العلم والمعرفة وتناولته الأيدي بالتنقيح والتصفيه والتخريج وذلك بعد أن خرج الى حيز الوجود وأصبح فى متناول الأيدي ، مما أتاح لذوى الدراية من أهل الحديث أن يقوموا بغربلته وتمييز صحيحه من سقيمه والوقف على ما فيه من تساهل وذلك (كمستدرك الحاكم) مثلا : فقد حوى من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ما حوى ووقع فيه من التساهل ما وقع •

ومع ذلك هيا الله تعالى له من يقوم على أمره بالانتقاد والتمييز لما جاء فيه من أحاديث تكام فيها ذلك كصنيع الذهبى بالنسبة له وكالسيوطى الذى امتدت يده اليه فألف كتابه (توضيح المدرك فى تصحيح المستدرك) ذكر فى فهرست مؤلفاته أنه كتب منه اليسير وانتقى الأصل فى مجلد (١) •

والجامع الكبير من هذا القبيل وان اختلفت نسبة الموضوع فيه عنه هنا كثرة وقلة وعلى أية حال فالكتاب موسوعة حديثة ضخمة وانتقاؤه واجب المتأخرين من أبناء هذه الأمة •

ثانيا : الجامع الصغير من حديث البشير النذير :

أختصره السيوطى من قسم الأقوال من الجامع الكبير وزاد عليه ورتبه على حروف المعجم وقد ضم بين جنبه عدة آلاف من الأحاديث قال صاحب الرسالة المتطرفة : فيه على ما قيل عشرة آلاف وتسعمائة وأربعة وثلاثون حديثا *

وقد طبع هذا الكتاب وانتشر انتشارا واسعا وهو مرجع لا يغيب عن ذهن أى طالب من طلاب الحديث المشتغلين به وقل أن تخلو مكتبة من مكتبات العلم ودوره من هذا المرجع الحديثى الوافى *

وقد أشاد السيوطى رحمه الله تعالى بعمل هذا * فقال فى خطبته بعد الديباجة (مبينا حقيقته ومتحدثا عن مسلكه فيه) هذا الكتاب أودعت فيه من الكلم النبوية ألوفا ، ومن الحكم المصطفوية صفوفا ، اقتصرت فيه على الأحاديث الوجيزة ولخصت فيه من معادن الذهب ابريزه وبالغت فى تحرير التخريج ، فتركت القشر وأخذت اللباب وصنته عما تفرد به وضاع أو كذاب ، ففاق بذلك الكتب المؤلفة فى هذا النوع كالفائق والشهاب وحوى من نفائس الصناعة الحديثية ما لم يودع قبله فى كتاب *

أهم ما وجه الى هذا الكتاب من نقد واعتراضات :

لقد آثار ما صرح به السيوطى فى خطبة كتابه من كونه لخص فيه من معادن الذهب ابريزه ، وأنه بالغ فى تحرير التخريج فيه بحيث ترك القشر وأخذ اللباب وصانه عما تفرد به وضاع أو كذاب * الخ *

آثار هذا نائرة بعض المشتغلين بالحديث فأخذوا فى الاعتراض وتقدمه أو تأويل ما ذكره هنا فقد قال فى فيض التقدير تعقيبا على قول السيوطى (وصنته عما تفرد به وضاع أو كذاب) قال : ثم ان ما ذكره من صونه عن ذلك غالبى أو ادعائى والا فكثيرا ما وقع له أنه لم يصرف

الى النقد الاهتمام فسقط فيما التزم الصون عنه في هذا المقام . . لكن
العصمة لغير الانبياء متعذرة والغفلة على البشر شاملة منتشرة (١) .
والمناوى يشير بهذا الى ما جاء في الكتاب من احاديث مقول فيها
بالضعف أو الوضع .

وليس المناوى وحده هو الذى وجه مثل هذا الاتقاد للسيوطى
بالنسبة لكتابه هذا بل نجد في معرض هذا من ألف كتابا في نقد الجامع
الصغير واطهار ما جاء فيه من الموضوعات على أنه صحيح حسب ما
ذكره السيوطى من هؤلاء :

٢ - الحافظ أبو الفيض القمارى فى كتاب أسماه (المنير على الأحاديث
الموضوعة فى الجامع الصغير) قال فى أوله بعد الحمد لله والصلاة
والسلام على رسوله صلى الله عليه وسلم :

أما بعد : فقد ذكر الحافظ السيوطى فى خطبة كتابه الجامع الصغير
أنه صانه عما تفرد به وضاع أو كذاب ، ومعناه أنه لم يذكر فيه حديثا
موضوعا بل جميع أحاديثه نابتة وليس كذلك فقد أورد فيه أحاديث
تفرد بها الكذابون وأخرى ناهرة الوضع ، وان لم يتفردوا بها
لأنها من رواية الكذابين أمثالهم الذين يسرقون الأحاديث ويركبون
لها أسانيد أخرى ، لقصد ترويح ذلك الحديث الموضوع لغرض الاغراب
أو الاحتجاج أو غير ذلك من الأغراض ، بل من الأحاديث التى ذكرها
فيه ما جزم هو نفسه بوضعه اما بقراره حكم بن الجوزى بوضعه
وذلك فى اللالىء واما باستدراكه هو اياه على بن الجوزى وذلك فى
ذيل اللالىء ، ثم مع ذلك أوردتها فى هذا الكتاب الذى هو من آخر
ما ألف . اما سهوا ونسيانا وهو الغالب على الظن به ، واما لتغيير
رأيه ونظره ومنها أحاديث لم يظن هو أنها موضوعة لأنه متساهل فى

(١) فيض القدير ج ١ قسم ١ ص ٢١ .

ذلك غاية التساهل فلا يكاد يحكم على حديث بالوضع الا اذا دعتهم
الضرورة الى ذلك في الاحتجاج على خصمة وابطال دليله والتأليف في
انكار معنى ما دل عليه ذلك الحديث •

الى أن قال : وهذا جزء أفردته لذكر الأحاديث الموضوععة فيه
مما تفرد به الكذابون والوضاعون أو تعددت الطرق وهو مع ذلك
موضوع وذكر أنه لم يستقصى فيه كل الاستقصاء •

وقد رتب هذا الكتاب على الحروف تبعا لأصله وجعل رموزه
كرموزه وهذا الكتاب كما هو واضح من عنوانه : اغارة شديدة على
السيوطى وجامعه يلمح الناظر فيه لأول وهلة أسلوب التهكم والسخرية
من السيوطى ومن صنيعة فى الجامع الصغير •

رأى فى المغير وصاحبه :

أولا : اسلم مع صاحب المغير بوضع بعض الأحاديث التى جاءت فى
الجامع الصغير •

ثانيا : ان صاحب المغير قد تشدد فى كتابه هذا وتعسف وأتى بأحاديث
بعيدة عن صفة الوضع وأكثر ما يقال فيها أنها ضعيفة ، وهناك فرق
كبير بين الوضع والضعف • أتى بها على أنها موضوعه واتخذ منها
مبررا للهجوم السافر على شخص الحافظ السيوطى رحمه الله تعالى •
من هذه الأحاديث :

حديث : ائتروا كما رأيت الملائكة تأتزر عند ربها الى انصاف
سوقها (فر) عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده •

قال صاحب المغير انفرد به المثنى عن عمرو • والمثنى ضعيف
منكر الحديث وبه أعله الحافظ (١) وأنقل هنا بعض ما نقله المناوى

(١) المغير ص ٧ •

في فيض التدير من آراء الأئمة بالنسبة للمثنى بن الصباح الذي هو
موضع الطعن عند العماري *

قال المناوي : وقال الزين العراقي ، في شرح الترمذي : فيه المثنى
بن الصباح ضعيف عند الجمهور وقال ابن حجر في زهر الفردوس
المثنى ضعيف وكرر ، الحديث رواه الطبراني في الأوسط
باللفظ المذكور عن صاحبيه المزبور ، قال الهيثمي عقبه وفيه المثنى
ابن الصباح ويحيى بن يشكر ضعيفان وعنه ومن طريقه خرجه الديلمي
فلو عزاه المؤلف إليه كان أولى (١) *

وبلاحظ هنا أن المناوي لم ينقل من الآراء ما يصف المثنى
بالنكارة وإنما نقل آراء الأئمة الذين ضعفوه . اشتدت الألفاظ في
ذلك ضعفت أفراد أو كررت *

ومن هنا أستطيع أن أقول بأن الحديث ضعيف وليس بموضوع ،
كما أن لجنة الجامع الكبير التابعة لمجمع البحوث الإسلامية والقائمة
على اخراج الجامع الكبير وتحقيقه قالت في تعليقها على هذا الحديث:
الحديث في الصغير برقم ٣٥ رواه الطبراني في الأوسط باللفظ المذكور .
وهو حديث ضعيف ولعل انتزاع الملائكة عند التشكيل بصورة
الإنسان (٢) *

وغير هذا الحديث كثير مما أورده العماري على أنه موضوع
وهو ليس بموضوع *

ثالثا : تشدد العماري هذا في نظري ليس قائما على أساس سليم
ولا بحث دقيق ولعل عذره في ذلك ما أعلن عنه في مقدمة المعير من
أنه كان غريب الديار ليست لديه مراجع كافية حيث قال :

(١) فيض التدير ج ١ قسم ١ ص ٦٩ ، ٧٠ .
(٢) الجامع الكبير ج ١ قسم ١ ص ٣٢ (هامش) .

ونحن كتبنا هذا على استعجال وفي حالة غربة واعتقال ، وبعد
عن الوطن والآل ليس معنا كتب نستعين بها ولا نعتد عليها (١) .

ولا شك أن انسانا ليست لديه المراجع والأصول الكافية ، وفي
حالة اغتراب بعيدا عن آله واجبابه مشغول بالتفكير في أمرهم ومتى
العودة اليهم يشاغله حب الوطن والعودة اليه . مرهق الفكر
والأعصاب نتيجة لذلك لا شك أن أحكامه في أغلب أحوالها لن تكون
علمية دقيقة فيها الحق ظاهر، ورحابة صدر من أصدرها جلية وواضحة
بل يشوبها أحيانا تشدد وتعسف واضطراب .

رابعا : اتهام صاحب المغير للسيوطي بالخيانة في العلم والمشاركة في
الوضع .

اتهم الغماري السيوطي بذلك مستشهدا بحديث :
(ما قدمت أبا بكر وعمر ولكن الله قدمهما) قال عقبه (قلت) وأسندته
أيضا في اللسان وقال انه باطل ورجاله مذكورون بالثقة ثم ذكر أن
لهذا الحديث بقية وهي (ومن بهما على فأطيعوهما واقتدوا بهما ومن
أرادهما بسوء فانما يريد الاسلام) وذكر فيما ذكر أن المؤلف (يقصد
السيوطي) حذف هذه البقية عمدا لانها صريحة في الدلالة على
وضعه .

ثم اطلق صاحب المغير لسانه متهما الحافظ السيوطي رحمه الله
تعالى قائلًا : وهذا مع كونه خيانة في العلم مشاركة في الوضع ، فما
أدرى ما أقول فيه سامحه الله (٢) .

والحقيقة أن هذا تحاملا شديدا على السيوطي فان هذه الزيادة
ربما سها عنها الامام السيوطي في الجامع الصغير لانه أوردها بتمامها

(١) المغير ص ٩٢ .

(٢) المغير ص ٩٢ .

في الجامع الكبير ونقلها عنه العارف البكري في ص ٧٩ بالهامش من كتاب الصلوات الهامة طبع بولاق سنة ١٣٠٤ هو ومن أراد التحقيق من ذلك فليرجع الى هذين المرجعين •

وبهذا يتضح لنا مدى تشدد صاحب المغير •

من هذا يتضح لنا مدى ما كان يتصف به صاحب المغير من « الجهود التي بذلت في خدمة الجامع الصغير »

خامسا : الغماري لم يكن متعاملا على السيوطي وحده وانما زراه يغير على كثير من أئمة الاسلام وما خلفوه من تراث خالد للأمة الاسلامية وقد وصل الامر بالغماري الى حد أنه مديد الاغارة على الصحيحين وكانت له جرأة غير حميدة عليهما يدهسها من يرجع الى المغير ص ١٠٤ حيث قال : (...) فان الشهرة بالعدالة لا تفيد القطع في الواقع ومنها أحاديث الصحيحين فان منها ما هو مقطوع ببطلانه فلا تغير بذلك ولا تنهيب الحكم ، لما يذكرونه من الاجماع على صحة ما فيها ... الخ) (١) •

شهوة النقد والاستطالة بغير حق على كثير من الائمة ومن بينهم السيوطي •

الجهود التي بذلت في خدمة الجامع الصغير

واذا كانت هناك حملات من النقد وجهت الى هذا الجامع فاننا نجد في الوقت نفسه جهودا فائقة بذلت من أجل خدمته والعناية بأمره واظهار نوعية ما جاء فيه من الاحاديث وتيسير ما جاء فيه لجمهور المسلمين وقد تنوعت الجهود شرحا وترتيا وانتقاء القويه وحسنه من ضعيفه واختصارا الى غير ذلك واذكر هنا أهم ما وقفت عليه من هذه المصنفات •

(١) المغير ص ١٠٤ •

١ - فيض القدير شرح الجامع الصغير للعلامة محمد المدعو بعبد الرؤوف المناوى وهو يعتبر من أهم شروح الجامع الصغير وهو مرجع مهم مطبوع *

٢ - التيسير بشرح الجامع الصغير للمناوى أيضا جزئين مطبوع وهو شرح وجيز اخصر من الشرح الكبير *

٣ - الكوكب المنير بشرح الجامع الصغير للعلامة شمس الدين محمد العلقمى * ومطبوع بمصر مع الشرح الكبير للمناوى * مطبعة الجمالية سنة ١٣٢٩ هـ *

٤ - مواهب القدير على الجامع الصغير * للشيخ فايد بن مبارك منه نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية تحت رقم ٥٣٣ حديث فى مجلدين *

٥ - شرح المتبولى للجامع الصغير (استدراك النضير) وهو كتاب ضخيم يقع فى عدة أجزاء منه نسخة مخطوطة موجودة برواق الاتراك * مكتبة الأزهر تحت رقم ٦٦٣ حديث فهرس الاتراك *

٦ - شرح الجامع الصغير للخريتناوى المسمى (الفتح المنير بشرح الجامع الصغير ، وهو شرح ضخم ويكفى أن نعلم أن الجزء الأول من الأجزاء الثلاثة التى يتكون منها هذا الشرح يقع فى ورقه ٥٠٩ ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية تحت رقم ٧٠ حديث *

٧ - لم تكن كل الجهود التى وجهت الى الجامع الصغير شرحا فقط كما ذكرنا وانما تجد بعضها كان انتقاء أو تجريدا لصحيحه من سقيمه من هذا القبيل *

وكتاب اتحاف الناقد البصير بقوى احاديث الجامع الصغير ،

جمع على بن أحمد باصرين، منه نسخة مخطوطة بدار الكتب
الأزهرية تحت رقم ٣٨١٧ حديث *

٨ - ومن اختصروا الجامع الصغير الجرداني في كتاب أسماه نيل
المرام من أحاديث خير الانام * طبع مطبعة صبيح بالقاهرة *

٩ - كان هناك أيضا في مجال الجهود التي بذلت عناية بهذا الجامع
من نبض لترتيبه على الأبواب * وقد وقفت على كتابين من هذا
النوع هما :

الأول : فتح القدير بترتيب الجامع الصغير * للعلامة ابراهيم
ابن محمد السهوائى *

الثاني : فتح القدير بترتيب الجامع الصغير * للأmir أحمد كتخدا
صالح مستحفظان من أمراء المماليك بمصر في أواخر
القرن الثاني عشر الهجرى منه نسخة مخطوطة بدار الكتب
الأزهرية ٧٦٣ حديث وتقع في ٢١٧ ورقة *
وغير ذلك مما ألف في مجال الجامع الصغير ، كثير *

القيمة العلمية لهذا المرجع الحديثى وثمرته :

أستطيع أن أقول بعد معايشتى لهذا الجامع بحثا وتدقيقا أنه
أشتمل على جميع أنواع الحديث من الصحيح الى الموضوع ان جاز
لنا أن نسمى الموضوع حديثا ، ومن هنا وجبت العناية بانتقاد الكتاب
واتقائه في غير تعسف ولا تشديد ولا هوى مطاع مع تصحيح رموزه
والنص على درجة الحديث خشية وقوع التحريف من النساخ *

والكتاب بعد ذلك يعد بحق من أهم المراجع الحديثية التي بيد
طالب الحديث لنضعها على مراده والوقوف على ما ينشده من أحاديث
بحيث يتعرف على مصادرها وبقف على درجتها ، ثم ينطلق بعد ذلك

الى المصادر الأصلية التي وقف عليها بفضل الجامع الصغير ليحقق ويدقق حتى يقف على حقيقة الأمر نفيًا أو اثباتًا وهذه من أهم ثماره .

هذا وقد ألف السيوطي ذيلًا لهذا الكتاب أسماه (زيادة الجامع) وقد طبع هذا الذيل مع الجامع الصغير بمصر حيث مزج الشيخ يوسف النبهاني هذه الزيادة بالجامع الصغير في كتاب أسماه (الفتح الكبير في ضم الزيادة الى الجامع الصغير) وبعد فهذه أهم جهود السيوطي في مجال جمع الحديث ممثله في هذين الجامعين .

وهناك جهود فائقة له في هذا المجال ومن أراد الوقوف على بعضها فحسبه الرجوع الى الخصائص الكبرى للسيوطي والخصائص الصغرى له أيضا والبدور السافرة في أمور الآخرة الذي جاء جامعا لعدد ضخم من الأحاديث والآثار وغير ذلك .

الفصل الثالث : السيوطي والموضوعات

أولا - نبذة عن الحديث الموضوع وحكم روايته :

الموضوع لغة : اسم مفعول من وضع الشيء يضعه بالفتح وضعا حطه وأسقطه ، وقال الحافظ ابن دحية : الموضوع الملقق وضع فلان على فلان كذا ألصقه به .

واصطلاحا : هو الحديث المختلق المصنوع مأخوذ من المعنى الأول لأن رتبته أن يكون مطروحا ملغى لا يستحق الرفع اصلا . أو من المعنى الثاني لأنه ملصق بالنبي صلى الله عليه وسلم (١) أى كذب

(١) تنزيه الشريعة ج ١ ص ٥٠

الراوى فى الحديث النبوى بأن يروى عنه صلى الله عليه وسلم ما لم يقاه متعمداً لذلك * (١)

حكم روايته : اتفقوا على أنه تحرم روايته مع العلم بوضعه سواء كان فى الأحكام أو القصص والترغيب ونحوها الا مبينا وضعه *
لحديث مسلم عن سمرة بن جندب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من حدث عنى بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكذابين. ورواه الامام أحمد وابن ماجه - روى الكذابين على صيغة التثنية والكذابين بالجمع (٢) *

ومع ذلك نرى أن الوضع فى الحديث شاع وانتشر وخاصة عندما ظهرت الفرق السياسية والعناصر الفلسفية وكثرت النحل وازدادت العصبية فى عصر صغار التابعين فى حدود الخمسين بعد المائة ومن بعدهم *

ولكن الله عز وجل هيا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من يدافعون عنها ويضعون القوانين والمقاييس والمعايير التى يستطيع الانسان عن طريقها أن يميز بين صحيح السنة وسقيمها وما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم وما قاله من ينتسبون الى مسيلمة رائد الكذب على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم *

ومن يجمعون هذه الموضوعات فى مؤلفات خاصة موضحين أمرها ومعلقين عليها * وكان أول من أفرد الموضوعات بالتأليف فى عامنا هو الحافظ الحسين بن ابراهيم الجوزقانى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ وله كتاب الأباطيل (٣) *

(١) قواعد التحديث للقاسمى ص ١٣٢ *

(٢) قواعد التحديث ص ١٣٢ * ١٣٣ وانظر سنن ابن ماجه ج ١ ص ١٤ *

(٣) الفوائد المجموعة ص ٤ *

ثم الحافظ ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧ هـ وكتابه أشهرها
وأكبر ثم الصاغاني اللغوي المتوفى سنة ٦٥٠ هـ له رسالتان (١) •

ومضت مسيرة التأليف في الموضوعات حتى جاء دور الحافظ
السيوطى فشارك في هذا مشاركة فعالة ولم يكن رحمه الله تعالى مجرد
جامع للموضوعات ، وإنما كان أيضا متعبقا وناقدا وكان له منهج
معين في ذلك وكما يراه • اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية
والتعقبات على الموضوعات خير دليل على ذلك • وله أيضا (الوجيز)
والنكت البديعات كما ذكر في بعض التراجم •

ويجمل بي هنا أن أعرف في ايجاز بكتابه الشهير في هذا الباب
(اللآلئ المصنوعة)

أولا - السبب الحامل له على تأليفه :

سبق أن ذكرت أن من بين كتب الموضوعات (الموضوعات
الكبرى لأبى الفرج عبد الرحمن بن الجوزى) • والحقيقة أن بين
الآلئ وهذا الكتاب صلة قوية حيث أنه كان نقطة الانطلاق التي
انطلق منها قلم السيوطى مسجلا هذا الكتاب وغيره منتقدا فيه صنيع
ابن الجوزى في كتابه المذكور وتساهله فيه ملحقا بهذا الكتاب
موضوعات كثيرة فانت ابن الجوزى •

وهم سبق السيوطى الى انتقاد وضع ابن الجوزى في
موضوعات ابن الصلاح حيث قال في مقدمته (ولقد أكثر الذى جمع
في هذا العصر الموضوعات فذكر كثيرا مما لا دليل على وضعه وإنما
حقه في هذا ان يذكر في الأحاديث الضعيفة) (٢) •

وربما لم يظهر لابن الصلاح ولا للذهبي الذى سنسوق كلاما هنا

(١) انظر فتح المنبث للسخاوى ج ١ ص ٢٢٨ بصرف •

(٢) مقدمة ابن الصلاح •

من خلال (مقدمته لتلخيص الموضوعات) ، أن ابن الجوزي قد ذكر في كتابه هذا أحاديث صحاح بل في الصحيحين كما ذكر ابن حجر والسيوطي فيما بعد ، والا لأعلننا عنه اثناء حديثهما عن صنيع ابن الجوزي في هذا الكتاب فبينما نجد ابن الصلاح يذكر أن ابن الجوزي ضمن كتابه أحاديث ضعيفة نجد الذهبي ينص على أنه ضمنه أحاديث حسانا قوية ، قال : ونقلت من خط السيد أحمد بن أبي المجد قال صنف ابن الجوزي كتاب الموضوعات فأصاب في ذكره أحاديث مخالفة للنقل والعقل ومما لم يصب فيه اطلاق الوضع على أحاديث لكلام بعض الناس في أحد روايتها كقولهم : فلان ضعيف أو ليس بالقوى أو لين وليس ذلك الحديث مما يشهد القلب ببطلانه ولا فيه مخالفة للعقل ولا معارضة لكتاب أو سنة أو اجماع ولا حجة له في أنه موضوع سوى كلام ذلك الرجل في راويه وهذا عدوان ومجازفة أه (١) *

وهذا التساهل قد دفع ابن حجر الى أن يؤلف كتابا يتعقب فيه ابن الجوزي في موضوعاته بالنسبة لما أورده فيها من أحاديث مما جاء في مسند أحمد وليس بموضوع *

هذا الكتاب الذي ألفه شيخ الاسلام هو القول المسدد في الذب عن مسند الامام أحمد أورده فيه أربعة وعشرين حديثا في المسند ذكرها ابن الجوزي في الموضوعات من بينها حديث في صحيح مسلم (٢) *

والسيوطي أراد أن يكمل مسيرة ابن حجر في تعقبه ابن الجوزي

(١) تلخيص موضوعات ابن الجوزي للذهبي (المقدمة) وشرح الترمس على الفية السيوطي ص ١٢١ والحديث والمحدثون للاستعاذ محمد محمد أبو زهرة وتدريب الراوي للسيوطي ج ١ ص ٢٧٨ *

(٢) تدريب الراوي ج ١ ص ٢٨٠ *

في أحاديث المسند فذيل السيوطي على القول المسدد وزاد على ذلك أربعة عشر حديثا هي في المسند أيضا ثم ألف كتابا سماه « القول الحسن في الذب عن السنن » وهو يعتبر ذبلا على الكتابين السابقين أورد فيه مائة وبضعة وعشرين حديثا ليست بموضوعة منها حديث في صحيح البخاري رواية حماد بن شاکر (١) *

نتيجة لكل هذا تولدت في صدر السيوطي فكرة انتقاء هذا الكتاب وانتقاده واختصاره لينتفع به من يطلع عليه فصنف كتابه اللالي ليحقق به هذا الغرض كما ذكر في مقدمته *

ويذكر لنا السيوطي بعض المعلومات التي تتعلق بأمر اللالي، وتطوره فيقول في مقدمته أيضا: وأعلم أنني كنت شرعت في هذا التأليف في سنة سبعين وثمانمائة وفرغت منه في سنة خمس وسبعين وكانت التعقبات فيه قليلة وعلى وجه الاختصار وكتب منه عدة نسخ ومنها نسخة راحت الى بلاد التكرور ثم بدأ لي في هذه النسخة سنة ٩٠٥ هـ استيفاء التعقبات على وجه مبسوط والحاق موضوعات كثيرة فأتت أبا الفرج وتعذر الحاق ما زادته في تلك النسخ التي كتبت إلا باعدام تلك وانشاء نسخ مبتدأة فأبقيت تلك على ما هي عليه ويطلق عليها الموضوعات الصغرى وهذه الكبرى وعليها الاعتماد (٢) *

رأينا في هذا الكتاب:

الكتاب مرجع مشهور في مجال الموضوعات وهو مطبوع عدة طبعات ويقع في مجلدين من الحجم الكبير بالنسبة لبعض الطبعات وهو مرتب على الأبواب *

والسيوطي في هذا الكتاب وان كان أصاب في تعقب ابن الجوزي

(١) تدريب الراوي ج ١ ص ٢٨٠ *

(٢) اللال ص ٢ *

في بعض الأحاديث ونفى الوضع عنها وخاصة تلك التي اشتملت عليها كتب السنة المشهورة المعتمدة • وذلك واضح في اللآلئ غير خاف على من يرجع اليها • الا انه تعقبه في مواضع كثيرة كان لا داعي للتعقب في مثلها وكل ذى عقل سليم وفؤاد طاهر نفى لا يسعه عندما يقف عليها الا ان يعترف بوضعها موافقا بذلك ابن الجوزي حيث ان لوائح الوضع فيها أشد ظهورا من الشمس في رابعة النهار •

من ذلك مثلا : أحاديث الديكة التي حكم بن الجوزي بوضعها وجاء السيوطي محاولا بشتى الوسائل نفى الوضع عنها والحقيقة انها لا تخرج عن دائرة الوضع •

وهذا الاسراف في التعقب هو الذي حمل بعض المتأخرين على انتقاد السيوطي في صنيعه هذا ومن هؤلاء : (ابن عراق) في كتابه (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الاحاديث الشنيعة الموضوعة نرى فيه من الانتقادات الموجهة الى السيوطي الشيء الكثير •

ومنهم ناصر الدين الالباني في كتابه (سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة) • حيث تعقب السيوطي في عدة أحاديث تعقب فيها السيوطي ابن الجوزي •

غير أني أرى أن بعض المتأخرين الذين انتقدوا السيوطي كانوا في غالب الأحيان يتشددون تشددا يفوق الحد •

وأقول : اذا كان السيوطي في اللآلئ أسرف في انتقاد ابن الجوزي مما جعل الكتاب في حالة تستوجب انتقاه مما وقع فيه، فليس معنى هذا أن نكيل النقد لصاحبه رحمه الله تعالى ولا أن نحمل معول الهدم ونصوبه نحوه • فالكتاب لا يخلو من تعقبات صالحة صادقة وزيادات مفيدة جامعة واحالات تدل على مدى سعة اطلاع السيوطي والمأمه بكثير من محتويات المراجع الحديثية ، ولم يصنفه

صاحبه رحمه الله تعالى عشقا في الانتقاد والتعقب رغبة في الوصول الى
مجد أو شهرة • فالسيوطي هو ذلكم العلم الذي طوقت شهرته
الآفاق •

بل نرى بين صفحات هذا الكتاب موافقات كثيرة على وضع
أحاديث عديدة حكم بوضعها صاحب الموضوعات • وكان هذا العمل
من جانب السيوطي يدل على مدى سلامة نيته وإخلاصه في الدفاع
عن السنة النبوية والحاق ما يرى الحاقه بها غير قاصد بذلك الحاق
ضرر بمصدر من مصادر التشريع ، أو نصرة مذهب معين على حساب
من لقب في صباه (بالصادق الأمين) صلى الله عليه وسلم • وناقيا
عن ساحة السنة النبوية ما نسب اليها مما هو كذب وافتراء ويحمل
بين طياته تناقضا ظاهرا لشريعة الاسلام •

وقد ذيل السيوطي على هذا الكتاب بذيل أسماه (ذيل اللكلىء
المصنوعة) ذكر فيه جملة من الأحاديث الموضوعية التي فانت
ابن الجوزي • وهو مرجع مفيد في بابه • وهو مطبوع بالمطبع العلوي
بالهند •

وبعد : فهذه بعض جهود السيوطي في مجال الموضوعات •

الفصل الرابع : جهود السيوطي في مجال شرح الحديث

السيوطي كان في هذا اماما من الائمة الذين أزالوا اللبس
والغموض عن معنى كثير من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم
شرحا وتعليقا وضبطا وجمعا بين الروايات المختلفة ووصلا للمعلق
وبيانا للمسبب الى غير ذلك ، وكان من أهم جهوده في هذا المجال :
شروحه وتعليقاته التي وضعها على الكتب الستة وموطأ مالك وهي :

١ - التوشيح على الجامع الصحيح وهو التعليق الذي وضعه على الجامع الصحيح للامام البخارى رحمه الله تعالى *

وقد نحدث السيوطى فى خطبة شرحه هذا عن السمات الاساسية له بما يوضح مسلكه فيه فقال بعد أن حمد الله تعالى وصلى وسلم على نبيه صلى الله عليه وسلم : هذا تعليق على صحيح الاسناد شيخ الاسلام أمير المؤمنين أبى عبد الله البخارى سمي بالتوشيح يجرى مجرى تعليق الامام بدر الدين الزركشى المسمى (بالتنقيح) وتعرفه بما حواه من الفوائد والزوائد ويشتمل على ما يحتاج اليه القارىء والمستمع من ضبط ألفاظه وتفسير غريبه وبيان اختلاف رواته وزيادة فى خبر لم تزد فى طريقه وترجمة ورد مرة بلفظها حديث مرفوع ووصل تعليق لم يقع فى الصحيح وصله وتسمية مبهم ، واعراب مشكل ، وجمع بين مختلف بحيث لم يفتته من الشرح الا الاستنباط الخ *

القيمة العلمية لهذا التعليق :

لا نستطيع أن نضع التوشيح فى مصاف شروح البخارى الكبيرة المعروفة كفتح البارى لابن حجر أو شرح الكرماني أو العيني وغير ذلك من هذه الشروح التى تعتبر موسوعات *

ولكن الحقيقة أنه مع وجازته واختصاره مفيد فائدة تحملنا على أن ننظر الى التوشيح هذا بعين التقدير والاعجاب والى صاحبه بالتبجيل والاكبار *

وحقيقة الاعمال العلمية ليست بالكم وانما بالكيف ويقدر ما اشتملت عليه من افادات نادرة وتعليقات سامية ومهما تعمدت الشروح والتعليقات على صحيح البخارى فان للتوشيح مكانة معروفة بينها *

هذا ولننظر الى ما قاله المرحوم الأستاذ الشيخ : محمد عبد العزيز الخولي في كتابه « مفتاح السنة » ص ٤٢ ، ٤٣ وقد عد انفاضل ملا كاتب جلبى في كتابه كشف الظنون ما ينيف على اثنين وثمانين شرحا للبخارى دمجها يراع الجهابذة من السلف ، والاذكياء من الخلف ما بين كامل وناقص • الى قوله : وهؤلاء على اختلاف مشار بهم وتباين مسالكهم ، قد فاقوا حد الكثرة •

الا أن المحسنين من الشراح احسانا اربعة نفر • ثم ذكر اسماءهم وشروحهم وهم : الامام بدر الدين الزركشف والعلامة بدر الدين العيني ، والحافظ جلال الدين السيوطى وشيخ الاسلام ابن حجر أمين أولئك المحسنين (١) •

وهذا يوضح لنا أيضا مدى أهمية التوشيح وقيمتة العلمية في مجاله • ومما ينبغى ان أشير اليه أن هذا الكتاب مازال مخطوطا في خزائن العلم منذ عدة قرون لم ير النور بعد ولم يشق طريقه الى أيدي الناس •

وأسأل الله تعالى الى أن يسرلى الطريق لآخراجه من أوكاره الذى يعيش فيها داخل سراديب مكتبات العالم •

نسخ التوشيح وأماكن وجودها وأرقامها :

أولا : نسخة مخطوطة بدار الكتب الأزهرية رقم ٣٣٥ حديث •

ثانيا : نسخة بدار الكتب المصرية (مخطوطة) رقم ٢٤٥ حديث

• تيمور

ثالثا : نسختان مخطوطتان بخزائن كتب الأوقاف ببغدادا

الأولى - تحت رقم ٢٨٤٤ حديث •

(١) مفتاح السنة ص ٤٢ ، ٤٣ •

- الثانية - تحت رقم ٦٦٧١ حديث (١) *
- ٢ - الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج * وضعه تعليقا على صحيح مسلم *
- ٣ - قوت المفتدى على جامع الترمذى *
- ٤ - زهر الربا على المجتبى * وضعه السيوطى تعليقا على السنن للصغرى للنسائى المسماه بالمجتبى *
- ٥ - مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجه * وهو تعليق له على سنن الحافظ أبى عبد الله بن ماجه *
- ٦ - مرقة الصعود على سنن أبى داود * وضعه تعليقا وشرحا لسنن أبى داود *
- وهو سائر فى هذه التعليقات على نمط مسيرته ومنهجه فى التوشيح على الجامع الصحيح كما صرح السيوطى فى مقدماتها *
- ٧ - شرحه لموطأ مالك المسمى (بتنوير الحوالمك شرح موطأ الامام) وهو سائر فيه أيضا على نمط ما علقه على صحيح البخارى المسمى (بالتوشيح) وما علقه على صحيح مسلم المسمى (بالديباج) ولكنه أوسع منهما قليلا لخصه من شرحه الأكبر كما ذكر فى مقدمة هذا الشرح (٢) *

اثر شروح السيوطى الحديثية لدى المتأخرين

نالت شروح السيوطى الحديثية وخاصة تعليقاته على الكتب الستة عناية من بعض المتأخرين ممن جاءوا بعده فمدوا اليها يد الاختصار والتهذيب والزيادة والتنقيح * وممن وقفت على جهوده -

(١) راجع الكشف عن مخطوطات خزائن كتاب الأوقاف ص ٢٧ *

(٢) انظر تنوير الحوالمك ج ١ ص ٥ *

بالنسبة لهذه الشروح العلامة المحقق / على بن سليمان الدمنتي
الجمعي المغربي . حيث اختصر هذه الشروح مع زيادات لطيفة
وافادات كثيرة وربط بينها وبين اسم أصلها وهذه المختصرات هي .

- ١ - روح التوشيح على الجامع الصحيح .
- ٢ - وشيى الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج .
- ٣ - درجات مرعاة الصعود على سنن أبى داود .
- ٤ - نفع قوت المعتزى على جامع الترمذى .
- ٥ - عرف زهر الربا على المجتبى .
- ٦ - نور مصباح الزجاجة على سنن ابن ماجة .
وجميعها مطبوعة بمصر طبع الوهبة .

ويعد : فقد نال الكثير من شروح السيوطى الحديثية العناية من
المتأخرين كما وضع مما ذكرت وهذا يدل على أهمية تلك الشروح في
نظرهم .

الفصل الخامس - السيوطى ومجال التخريج

معنى التخريج :

أولا : معناه فى اللغة : قال المناوى فى فيض القدير تعليقا على قول
السيوطى فى مقدمة الجامع الصغير (بالعت فى تحرير التخريج) .
والتخريج من خرج العمل تخريجا واخترجه بمعنى استخرجه .
قال الزمخشرى : ومن المجاز خرج فلان فى العلم والصناعة
خروجاً اذا نبغ . وخرجه واخترجه بمعنى استخرجه وخرج
الغلام لوحة ترك بعضه غير مكتوب ، واذا كتبت الكتاب فتركت

مواضع الفصول والأبواب فهو كتاب مخرج • وخرج الكتاب
جعله ضروبا مختلفة •
والاخراج والاستخراج • الاستنباط (١) •

ثانيا : معناه فى الاصطلاح : يختلف من المتقدمين الى المتأخرين فهو
عند المتقدمين كما وجدناه فى كتبهم : ذكر الحديث بسنده من
أوله الى منتهاه وذلك كصنيع البخارى ومسلم فى صحيحيهما
فيأتى كل منهما بالحديث بسنده وطرقه المختلفة التى تنفق
وشروط كل منهما فى كتابه من أول شيوخهما الى من رواه عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم •

اما عند المتأخرين : فهو عزو الحديث الى الكتب التى أخرجته
كأن يقول السيوطى مثلا فى حديث (ما) رواه البخارى أو
مسلم أو أحمد وهكذا • وقد بين بعض المخرجين درجة الحديث
ومرتبته والكلام عن موضع العلة فيه سندا ومتنا أن وجدت علة
والتخريج عن طريقه يستطيع الانسان أن يقف على صحيح السنة
وسقيمها •

ولما كان كثير من المصنفين المتقدمين لا يعنون بتخريج الأحاديث
مما جعل مؤلفاتهم فى التفسير وغيره تجيء مليئة بالأحاديث الضعيفة
والموضوعة •

فقد تجرد بعض حفاظ الحديث فخرج تلك الأحاديث وكشف عن

(١) فى القدير شرح الجامع الصغير للمناوى ط • بيروت • القسم الاول من الجزء
الاول ص ٢٠ وانظر أساس البلاغة للزمخشري ص ١٥٧ ط • دار صادرود ابيروت سنة
١٩٦٥ •

أماكنها من كتب الحديث وجعل ذلك في كتاب على حدة وذلك :

١ - تخريج أحاديث تفسير الكشاف للحافظ جمال الدين الزيلعي المتوفى بالقاهرة ٧٦٢ هـ .

٢ - تخريج أحاديث الأذكار للنووي والأربعين له وأحاديث المصاييح والمشكاة للحافظ ابن حجر وغيرها .

٣ - (والكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) للحافظ ابن حجر العسقلاني .

والسيوطي واحد من هؤلاء الذين أولوا هذا النوع من التصنيف عناية تامة . فقد أسهم رحمه الله تعالى بمجهود ضخم في هذا الميدان وله فيه كتب عدة منها :

١ - تخريج أحاديث الكفاية لكنه لم يتم .

٢ - تخريج شرح عقائد النسفي .

٣ - نشر العبير في تخريج أحاديث الشرح الكبير (١) .

٤ - تخريج أحاديث الدرة الفاخرة . يسمى تجربة العناية .

٥ - مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا خرج فيه أحاديث الشفا للقاضي عياض وقد أبان السيوطي في مقدمته بعد أن حمد الله تعالى وصلى وسلم على نبيه . عن حقيقة هذا الكتاب ومسلكه فيه فقال : هذا كتاب نفيس ألفته وتأليف شريف صغته . خرجت فيه أحاديث الشفا للقاضي عياض تخريجا محررا سالكا فيه طريقا موجزا مختصرا ولم اسند فيه من شيء من الكتب المؤلفة عليه بل اعتمدت فيه على حفظي ونظري وراجعت الأصول المعتمدة والجوامع وسميته مناهل الصفا في تخريج أحاديث الشفا .

(١) مقدمة تحفة الاحوذى . تحقيق فضيلة الاستاذ/عبد الرحمن عثمان ج ١ ص ٢٨٦

والمهرس الفهارس للكتاني ج ٢ ص ٣٥٧ .

وهو كتاب مفيد لمن أراد أن يقف على حقيقة ما جاء في كتاب
هذا ومن استفادوا من هذا الكتاب ونقلوا عنه في مصنفاتهم الشهاب
الشفاء من أحاديث وآثار نسبت الى رسول الله صلى الله عليه وسلم
الخفاجى فى نسيم الرياض الذى شرح فيه الشفا •
وغير ذلك يكن الوفوف عليه بسهولة •

فقا، نقل كلام السيوطى فى بعض هذه الأحاديث وتستطيع أن
برى ذلك واضحا فيسا جاء فى معنى : (الا المودة فى القربى) نقل كلام
السيوطى فى المناهل عليه (١) •

وكحديث ابى هريرة : (من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله بلجام
من نار يوم القيامة) نقل الشهاب كلام السيوطى عليه (٢) •
٦ - تخريج أحاديث شرح المواقف :

كتاب المواقف كتاب فى علم الكلام وهو من تأليف القاضى عضد
الدين عبد الرحمن بن أحمد الايجى •
وقد تعددت الشروح عليه وتنوعت ووضعت عليه اكثر من حاشية
كحاشية السياكوتى وغيره •

وكان من بين الذين شرحوا كتاب المواقف هذا العلامة المحقق
السيد الشريف على بن محمد الجرجانى المتوفى سنة ٨١٦ هـ وقد
تضمن هذا الشرح العديد من الأحاديث النبوية ولاشك أن القارىء
لهذا الشرح يهمة أن يقف على قيمة هذه الأحاديث ودرجتها لأنها
سبابة أدلة يجب بيان حالها •

وقد قام جلال الدين السيوطى رحمه الله تعالى بتخريج أحاديث

(١) نسيم الرياض ج ١ ص ٨٦ •

(٢) نسيم الرياض ج ١ ص ٤٢ •

هذا الشرح استجابة لطلب من يقدرهم السيوطى ويعتز بهم وذلك
كما ذكر في مقدمة هذا الكتاب •

ومن هذا الكتاب نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم ١٣٠
مجاميع •

٧ - واذا كان للسيوطى كتب خاصة بالتخريج كالتى أشرت اليها
سابقا فان له تخاريج أخرى لم بعنوان لها بكلمة تخريج وانما تنطق
هى بذلك معبرة عن نفسها كما يبدو ذلك للناظر اليها لأول وهلة •
كتلك التى جاءت فى معرض الاجابات عن مسائل حديثية معينة
وجهت الى الامام السيوطى رحمه الله تعالى من مختلف الأوساط
والأشخاص ، وكالتى سعى بها الساعى من بلاد نأت حدودها
عن حدود بلادنا كبلاد التكرور وغيرها مما طارت اليها شهرة
الامام السيوطى وذاع صيته بين أرجائها •

وقد ضمن السيوطى هذه المسائل والاجابات عنها (كتابه
الحاوى فى الفتاوى) والذى اشتمل من بين ما اشتمل على هذه الفتاوى
الحديثية وقد جمع فيها السيوطى بين بيان المعنى وتوضيحه وبين
تخريج الأحاديث التى كانت فى معظم الأحيان هدف المسألة ومقصد
السؤال •

وبعد : فهذه أهم جهود السيوطى فى مجال الحديث جمعها
وشرحا وتعليقا وتخريجا وهى جديرة بأن تصور لنا فى صدق مدى
ما كان يتمتع به السيوطى من سعة أفق فى هذا المجال • وما يتحلى
به من وصف المحدث الحافظ •

الباب الثالث

جهود السيوطي في علوم الحديث

الفصل الاول : التعريف بعلم الحديث (دراية) وذكر بعض المؤلفات فيه

هذا العلم يسمى علم أصول الحديث وعلوم الحديث ومصطلح الحديث وعلم دراية الحديث ، أو علم الحديث دراية وكان منه ما أفرد بالتاريخ لرجال الحديث وتسمية هذا العلم : بعلم دراية الحديث أو علم الحديث دراية انما هو اصطلاح المتأخرين ممن جاء بعد الخطيب البغدادي ومن عصر بن الاكفاني فمن بعده *

وعلى هذا الاصطلاح جلال الدين السيوطي في تدريبيه وفقائته وألفيته واما المتقدمون فعلم الحديث عندهم : علم يبحث فيه عن كيفية اتصال الأحاديث بالرسول صلى الله عليه وسلم من حيث معرفة أحوال رواها ضبطاً وعدالة ومن حيث كيفية السند اتصالاً وانقطاعاً وغير ذلك *

وهذا هو الذى يبحث فيه عند المتأخرين من علم دراية الحديث ويرجع الى الراوى والمروى من حيث القبول والرد (١) *

هذا وقد توافر عدد كبير من أئمة هذا الفن من المتقدمين والمتأخرين على التأليف والتصنيف في هذا الميدان *

(١) أنظر المنهج الحديث في علوم الحديث للأستاذ الدكتور/محمد محمد السماحي *
قسم الرواية ص ١٤ ومقدمة محقق تدريب الراوى المرحوم الأستاذ الدكتور/عبد الوهاب
عبد اللطيف ص ٥ ، ٦ *

فالقاضي بن محمد الراهمزي الذي عمل كتابه (المحدث
الفاصل) •

وكالخطيب البغدادي الذي عمل على قوانين الرواية كتاب أسماء
(الكفاية) وفي آدابها كتابا أسماء (الجامع لآداب الشيخ والسماع)
وكالحافظ تقي الدين أبي عمرو عثمان بن الصلاح الشهروزي في كتابه
المشهور (بمقدمة بن الصلاح) وغيرهم •

مؤلفات السيوطي في هذا المجال :

والسيوطي أحد الأئمة الأعلام الذين أكثروا من التصنيف في
هذا الشأن فله رحمه الله تعالى •

- ١ - تدريب الراوي في شرح النواوي •
- ٢ - نظم الدرر في علم الأثر وهي ألفيته •
- ٣ - شرح هذه الألفية يسمى البحر الذي زخر لم يتم •
- ٤ - شرح الفية العراقي ممزوجة •
- ٥ - التذنيب في الزوائد على التقريب •
- ٦ - لب اللباب في تحرير الانساب •
- ٧ - المدرج الي المدرج •
- ٨ - تذكرة المؤتسى بمن حدث ونسى •
- ٩ - كشف التلبيس عن قلب أهل التدليس •
- ١٠ - حسن التخليص لتالي التلخيص •
- ١١ - جزء في أسماء المدلسين •
- ١٢ - جزء فيمن وافقت كنيته كنية زوجته من الصحابة •
- ١٣ - ربح السريرين فيمن عاش من الصحابة مائة وعشرين •
- ١٤ - عين الاصابة في معرفة الصحابة لم يتم •
- ١٥ - جزء فيمن عين النبي صلى الله عليه وسلم أسماءهم •

- ١٦ - مختصر نهاية بن الاثير يسمى الدر النثير *
 - ١٧ - التعريف بأداب التأليف *
 - ١٨ - التذليل والتذنيب على نهاية الغريب *
 - ١٩ - زوائد اللسان على الميزان (١) *
 - ٢٠ - در السحابة فيمن دخل عصر الصحابة والحقها بكتابه حسن المحاضرة *
 - ٢١ - اسعاف المبطل برجال الموطأ *
 - ٢٢ - طبقات الحفاظ *
 - ٢٣ - ذيل على طبقات الذهبي *
 - ٢٤ - الزوائد على تهذيب الكمال *
 - ٢٥ - تحفة النباه بتلخيص المتشابه *
 - ٢٦ - الروض المكمال والورد المعلل في المصطلح *
 - ٢٧ - شد الرحال في ضبط الرجال *
 - ٢٨ - كشف النقاب عن الالتساب *
 - ٢٩ - المنى في الكنى *
 - ٣٠ - الفانيد في حلاوة الاسانيد *
 - ٣١ - المسلسلات الكبرى *
 - ٣٢ - جيات المسلسلات *
 - ٣٣ - مفتاح الجنة في الاعتصام بالسنة *
 - ٣٤ - الفارق بين المؤلف والسارق (٢) *
- هذه أهم مؤلفات السيوطي في علوم الحديث *

(١) أنظر فهرست مؤلفات السيوطي بدار الكتب المصرية رقم ٣٢ مجاميع مخطوط
 نسخة مكتبة الأهر مخطوطة برقم ١٣٢ مجاميع *

(٢) أنظر تقديم المرحوم الأستاذ الدكتور/عبد الوهاب عبد اللطيف لتدريب الراوي
 ح ١ ص ١٦ *

الفصل الثاني التعريف في ايجاز بعض هذه المؤلفات

أولا - ألفية السيوطي في علوم الحديث :

هي من أهم ما ألفه السيوطي في هذا المجال . وقد جاءت جامعة لقواعد هذا الفن ، حافلة بالمباحث القيمة والفوائد الجمة ، والزوائد النافعة .

السبب الخامل له على نظمها :

من الطبيعي أن ينظر اللاحقون فيما خلفه السابقون من تراث فيحاولون تهذيبه وترتيبه أو شرحه والتعليق عليه ، أو اختصاره والزيادة عليه أو معارضته وقد يصحب تلك المعارضة والمضاهاة زيادات وهذا هو شأن اللاحق مع السابق وما تركه من تراث وقد جرت العادة بهذا كما نشاهده كثيرا بالنسبة لصنيع بعض المتأخرين مع من تقدمهم . وقد كانت ألفية السيوطي لونا من السير على هذا الضرب .

فقد سبقه الحافظ أبو الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي الى نظم الفية في علوم الحديث . نظم فيها ما جاء في كتاب (معرفة أصول الحديث لابن الصلاح) المشهور بمقدمة بن الصلاح . وكان هدف العراقي رحمه الله تعالى في جعل هذه الألفية نظما . أن تكون أثبت في الذاكرة والطف في التعبير وأروح للنفس .

فلما جاء السيوطي أراد أن ينشئ ألفية يعارض بها ألفية الحافظ العراقي . فنظم ألفيته المذكورة وضمنها زيادات مهمة ورتبها ترتيبا مناسبا كما أدعى لها التفوق على ألفية العراقي أمور ثلاثة وهي : الجمع والايجاز والاتساق .

قال رحمه الله تعالى في أولها :

وهذه أمية تحكى الدرر منظومة ضمنها علم الأثر
فاتقة الفية العراقي في الجمع والايجاز واتساق

بهذا بدأ السيوطي ألفيته مشيدا بها ، منبها الى ما أمتازت به على ألفية العراقي كما أنه في نهايتها امتدحها بأوصاف من بينها أنها سهلة وليس بها تعقد أو حشو وأوصى بالعناية بها وبتقديمها على غيرها فقال :

نظم بديع الوصف سهل حلو ليس به تعقد أو حشو
فأعن بها بالحفظ والتفهيم وخصها بالفضل والتقديم.

اهم الشروح التي وضعت على هذه الألفية :

حظيت هذه الألفية باهتمام كبير من السيوطي نفسه وممن جاء بعده من العلماء ، فبالنسبة للسيوطي فبعد أن نظمها قام بشرحها وقد حملت لنا التراجم التي تحدثت عن السيوطي نبأ هذا الشرح لكنني لم أوفق في العثور عليه .

وقد أشار السيوطي الى هذا الشرح وذلك في كتابه مصباح الزجاجة الذي شرح فيه سنن بن ماجه وذلك عندما تكلم عن المقلوب معلقا على حديث « اذا أمرتكم بشيء فأتوه واذا انهيتكم عن شيء فاتتوها » الطبراني في الأوسط .

قال السيوطي : وله أنواع عديدة ذكرتها بشرح الفيتي (١)

أما بالنسبة لمن جاء بعد السيوطي فمن أهم شروحيهم عليها :
١ - شرح العلامة محمد محفوظ بن عبد الله الترمسي المسمى (بمنهج ذوى النظر في شرح منظومة علم الاثر وهو شرح لطيف لكن نفعه عميم . وقد زاد الترمسي في شرحه هذا عشرين بيتا على ألفية السيوطي. والحقها بها في مواضع مختلفة .

(١) انظر نور مصباح الزجاجة ص ٤ .

منها أربعة عشر بيتا في المعل وأربعة أبيات في أسباب الحديث
وبيت واحد في الأنواع العشرة من الأسماء والكنى المزيدة على بن
الصلاح والعراقي وبيت في آداب طالبت الحديث وهذا الشرح
مطبوع بمصر طبع الجمالية سنة ١٣٣٢ هـ *

٢ - شرح المرحوم الاستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد وهو
شرح متوسط لم يوجز فيه صاحبه ايجازا مخلا ولم يطبب اطنابا مملا.
وهو مطبوع بمصر *
وبعد فهذه أهم شروح ألفية السيوطي التي وقفت عليها وهي
تصور لنا مدى عناية أهل الفن بهذه الألفية *

هذا والذي يتمن في هذه الألفية وألفية الحافظ العراقي يستطيع
أن يدرك صحة ما ادعاه السيوطي لألفيته من التفوق في الأمور الثلاثة
سالفة الذكر على الفية العراقي بل ومن ناحية المضمون وما اشتملت
عليه من آراء تمثل وجهة نظره أو يراها هو (١) *

ثانيا - طبقات الحافظ للسيوطي :

هذا الكتاب لخصه الحافظ جلال الدين السيوطي من طبقات
الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ وجمع فيه تراجم من يعتد برأيهم في
التوثيق والتجريح والتصحيح والتصنيف *

هذا ومن يراجع طبقات السيوطي على طبقات الذهبي يستطيع
أن يدرك أن السيوطي رحمه الله في طبقاته هذه لم يجس نفسه داخل
اطار طبقات الذهبي بالنسبة لما جاء فيها من آراء وأقوال فقد أتى
السيوطي رحمه الله تعالى ينقول وآراء ليست عند الذهبي الأمر
الذي يؤكد أن لكل من الكتابين مزاياه الخاصة به وبالتالي لا غنى لنا
عن أحد الكتابين *

(١) راجع رسالتنا من ص ٤٥١ : ٤٦٢ *

وقد رتب السيوطى كتابه هذا على أربع وعشرين طبقة تبتدىء
الطبقة الأولى من كبار الصحابة رضوان الله عليهم وتنتهى الطبقة
الأخيرة بابن حجر المتوفى سنة ٨٥٣ هـ *

وقد جاء ترتيبه لهذه الطبقات طبقا لأجيال المحدثين وطبقاتهم
مراعى فيها التسلسل الزمنى *

وقد طبع هذا الكتاب أخيرا بالقاهرة بتحقيق الاستاذ على محمد
عمر نشر مكتبة وهبة ١٤ شارع الجمهورية بعبادين - القاهرة * طبعة
أولى * رجب سنة ١٣٩٣ هـ وأغسطس سنة ١٩٧٣ م طبع مطبعة
الاستقلال الكبرى بالقاهرة *

والكتاب مرجع مفيد ومهم فى بابه *

وبعد : فانى آكتفى هنا بهذا القدر من التعريف بجهود السيوطى
فى الحديث وعلومه مراعاة لمساحة البحث *

خاتمة وتشتمل على أهم نتائج البحث

بعد هذه المسيرة مع ذلكم الامام الجليل الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله تعالى وبعد أن ألقى الضوء على شخصيته من مختلف جوانبها * من خلال الترجمة الموجزة التي ترجمت له فيها مظهرها منزلته العلمية وهمنته الفائقة في خدمة السنة النبوية حفظا وجمعا وشرحا وتعليقا وتخريجا وغير ذلك مما تحدثت عنه في صلب البحث * وأيضا مجهوده العظيم في علم الحديث دراية ونظما ونثرا وشرحا ونوضيحا وترجمة لرجاله * بعد هذا كله أستطيع أن أخص أهم نتائج البحث فيما يأتي :

أولا : عصر السيوطي يعتبر من العصور الذهبية التي عنى فيها بأمر الأنشطة الحديثية ولقى ذلك تشجيعا فائقا من سلاطين المماليك وأمرائهم *

ثانيا : السيوطي رحمه الله تعالى ، كان شخصية عالمية وليس شخصية محلية فحسب *

ثالثا : كان رحمه الله موسوعة علمية صاحب ثقافات متعددة نبغ في فنون متنوعة وأكثر من التأليف والتصنيف لدرجة أثارت عليه حساده ومنافسيه *

رابعا : السيوطي أحد هؤلاء الأئمة الذين قادوا ركب الثقافة في عصره وخاصة ما كان يتعلق منها بأمر الحديث والتفسير والنحو *
خامسا : السيوطي في مجال الحديث خاض غمار هذا المجال بكل

ما توافر له من امكانيات ولذلك استطاع ان يؤلف ويصنف في كل مسائل الفن تقريبا *

وكتبه الجامع الكبير ، والجامع الصغير والذيل عليه من أهم مصنفاة في مجال الجمع الحديثى واللألى المصنوعة والذيل عليها من أهم مؤلفاته في مجال الموضوعات *

وشروحه على الكتب الستة من أبرز ما كتبه في مجال الشرح الحديثى وأما تخاريجه فهى تمثل جانبا اهتمام السيوطى بأمر السنة *
سادسا : وقع في مؤلفات السيوطى الحديثيه بعض التساهلات التى كان ينبغى أن يتجنبها واتفاء هذه المؤلفات واجب المتأخرين من أبناء هذه الامه *

سابعا : جهود السيوطى في علوم الحديث واضحة ومن ابرز مؤلفاته في ذلك * تدريب الراوى في شرح تقريب النواوى ، وألفيته في علوم الحديث وقد اثبت تفوقها على العراقى من ناحية الشكل والمضمون وطبقات الحافظ له التى لم تكن مجرد تلخيص لطبقات الذهبى وانما اشتملت على زيادات مفيدة *

ثامنا : من أهم نتائج هذا البحث أنه أزال مسحه من التراب المتراكم على وجه جزء كبير من تراثنا الاسلامى الخالد *

تاسعا : ومنها أيضا انه كان مؤشرا لامعا الى كثير من مؤلفات السيوطى المخطوطة التى ما زالت تعيش في سرايب مكتبات العالم وخزائن العلم المختلفة منذ مئات السنين *

يبقى أن أقول من قبل ذلك ومن بعده : رحم الله السيوطى الحافظ المحدث ونفعنا بعلمه ووقفنا الى تحقيق تراثه في مجال السنة النبوية الشريفة وصلى اللهم على سيدنا محمد وآله واصحابه وسلم *

أهم مراجع البحث

- ١ - القرآن الكريم •
- ٢ - قواعد التحديث لمحمد جمال الدين القاسمي - تحقيق بهجت البيطار طبع المطبعة الكستيلية سنة ١٢٧٩ هـ •
- ٣ - صفحات من تاريخ مصر في عصر السيوطي للاستاذ/ عبد الوهاب حموده • طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة بدون تاريخ •
- ٤ - أنباء الغمر بأبناء العمر - الحافظ أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني • مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤٧٦ تاريخ •
- ٥ - الضوء اللامع للسخاوي • نشر مكتبة القدس بالقاهرة سنة ١٣٥٣ هـ •
- ٦ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب • لأبي الفلاح ابن العماد الحنبلي نشر مكتبة القدس بالقاهرة •
- ٧ - حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة • للسيوطي •
- ٨ - الحاوي للفتاوى لجلال الدين السيوطي - تحقيق المرحوم الأستاذ/محمد محيي الدين عبد الحميد • طبع السعادة بمصر •
- ٩ - التوشيح على الجامع الصحيح • للسيوطي • مخطوطة • بمكتبة الأزهر رقم ٣٣٥ حديث •
- ١٠ - الجامع الكبير (أو جمع الجوامع) للسيوطي طبع مجمع البحوث الإسلامية (جارئ طبعه) •

- ١١ - الجامع الصغير • للسيوطى • طبع مصطفى محمد •
- ١٢ - الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة • لنجم الدين الفزى
تحقيق جبرائيل سليمان • المطبعة الامريكانية بيروت سنة
١٩٤٥ م •
- ١٣ - العصر المالكي في مصر والشام للدكتور/سعيد عبد الفتاح
عاشور • الطبعة الأولى • طبع مطبعة لجنة البيان العربى
بالقاهرة سنة ١٩٦٥ م •
- ١٤ - عصر سلاطين الماليك للمرحوم الأستاذ/محمود رزق سليم
نشر مكتبة الآداب بالجماميز سنة ١٣٦٨ هـ - سنة ١٩٤٩ م •
- ١٥ - معجم البلدان لياقوت الحموى - دار صادر ودار بيروت
للطباعة والنشر بيروت سنة ١٣٧٦ سنة ١٩٥٧ م •
- ١٦ - تاريخ ابن اياس •
- ١٧ - تدريب الراوى بشرح تقريب النواوى • للسيوطى تحقيق
المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عبد اللطيف •
- ١٨ - بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاه • للسيوطى • الطبعة
الأولى • طبع السعادة بمصر سنة ١٣٢٦ هـ •
- ١٩ - فهرس الفهارس للكتانى • الجزء الثانى طبع المطبعة الجديدة
بالطالعة عدد ١١ سنة ١٣٤٦ هـ •
- ٢٠ - مفتاح السنة للأستاذ/محمد عبد العزيز الخولى • مطبوع •
نسخه مكتبة الأزهر تحت رقم ٤١٧٨ تاريخ •
- ٢١ - التيسير بشرح الجامع الصغير • للشيخ عبد الرؤف المناوى •
مطبوع بمصر • نسخة مكتبة الأزهر تحت رقم ٢٢٧٩ حديث •

- ٢٢ - كشف الظنون عن أساس الكتب والفنون لحاجي خليفة • طبع
وكالة المعارف سنة ١٣٦٢ هـ سنة ١٩٤٣ م •
- ٢٣ - فيض القدير للعلامة/ عبد الرؤف المناوى • الطبعة الثانية سنة
١٣٩١ هـ - سنة ١٩٧١ م دار النهضة الحديثة • بيروت •
- ٢٤ - المغير على الأحاديث الموضوعية فى الجامع الصغير • للحافظ
أبى الفيض الغمارى • الطبعة الأولى •
- ٢٥ - تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعية لابن
عراق الطبعة الأولى •
- ٢٦ - تنوير الحوائك شرح موطأ مالك للسيوطى • مطبوع بمصر •
المكتبة التجارية الكبرى •
- ٢٧ - تخريج أحاديث شرح المواقف للسيوطى • مخطوطة الأزهر
رقم ١٣٠ مجاميع •
- ٢٨ - مقدمة ابن الصلاح • طبع السعادة بمصر • الطبعة الأولى
سنة ١٣٢٦ هـ •
- ٢٩ - مقدمة تحفة الاحوذى • للمبارك فوزى • تحقيق الأستاذ/
عبد الرحمن عثمان • نشر السلفية المدينة المنورة •
- ٣٠ - مناهل الصفاى تخريج أحاديث الشفا • للسيوطى •
- ٣١ - المنهج الحديث فى علوم الحديث لفضيلة الأستاذ الدكتور/
محمد محمد السماحى طبع دار الأنوار بالقاهرة • طبعة
أولى •
- ٣٢ - منهج ذوى النظر فى شرح منظومة علم الأثر • للترمس •
الطبعة الأولى سنة ١٣٣٢ هـ •
- ٣٣ - الحديث والمحدثون • للأستاذ الدكتور/ محمد أبو زهو •
الطبعة الأولى بمصر سنة ١٣٧٨ هـ سنة ١٩٥٨ •

- ٣٤ - سنن ابن ماجة طبع الحلبي بمصر سنة ١٩٥٢ م .
- ٣٥ - الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعية . للشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ . الطبعة الأولى سنة ١٣٨٠ هـ - ١٩٦٠ م .
- ٣٦ - فتح المغيب للسخاوي . طبع مطبعة العاصمة بالقاهرة . نشر السلفية بالمدينة المنورة .
- ٣٧ - نسيم الرياض بشرح الشفا للشهاب الخفاجي ط . أولى المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٦ هـ .
- ٣٨ - نور مصباح الزجاجة للبعجموى . طبع الوهية بمصر سنة ١٢٩٨ هـ .
- ٣٩ - ألفية الحافظ السيوطي مع شرحها للأستاذ المرحوم/محمد مجيب الدين عبد الحميد .
- ٤٠ - اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعية للسيوطي .
- ٤١ - فهرس مؤلفات السيوطي مخطوط بدار الكتب المصرية ٣٢ مجاميع .
- ٤٢ - اعداد من مجلتى الأزهرية ومنبر الاسلام .

القسم الخامس

السيوطي والدرجات اللغوية والأدبية

السِّيَوطِيّ والدِّسُّ اللُّغَوِيّ

للدكتور عبده الراجحي

الأستاذ المساعد بقسم اللغة العربية
كلية الآداب جامعة الإسكندرية

لا يكاد الحديث عن منهج العرب فى درس اللغة يخلو من الحديث عن المصادر التى صدر عنها هذا المنهج ، والأغلب ألا يخلو ذلك من البحث عن مصادر يونانية أو هندية أو سريانية • والبحث عن المصادر فى حد ذاته مسلك علمى قويم ، غير أن السعى الى ارجاع كل نشاط علمى الى مصادر خارجية قد لا يبرأ من ادعاء «الموضوعية» حين يخشى المتحدثون عن «الأصالة» شبهة السقوط فى شرك التعصب والهوى • « وادعاء الموضوعية » « وعدم الموضوعية » فى معيار البحث سيان ، كلاهما ليس من العلم بسبب •

ولا أحسب الحديث عن السيوطى اللغوى الا حديثا عن المنهج العربى رغم الحقيقة العلمية الهامة التى تؤكد أن الفترات الباكورة من درس اللغة عند العرب هى الصالحة لدراسة هذا المنهج • غير أن السيوطى - رغم تأخيره الزمنى عن فترات النشأة والازدهار فى القرون الأربعة الأولى - يصور بأعماله اللغوية خصائص المنهج العربى فى مراحل الأولى ثم يضيف إليها ما أضافته المراحل المتأخرة مما اتخذته بعض الباحثين أساسا للحكم على المنهج على العموم •

ولسنا هنا ندعى « الأصالة » للمنهج العربى لأن « الأصالة »
تعبير غير واضح وغير علمى فيما نظن ، وهى على الأغلب مسألة
« نسبية » وبخاصة فيما يتصل بالنشاط العلمى . نقول هذا بمناسبة
ما بلغت اليه بعض أساتذتنا وباحثينا من أن الدرس العربى للغة
يستند الى أصول يونانية أو هندية . ونحن - فى الأغلب - لا نملك
ما نرفض به هذا الرأى كما لا يملك أصحابه ما يدعمونه به . ومن
ثم ندعو الى التوقف حيال القضية كما يتوقف أصحاب الحديث حيال
« مجهول الحال » . أو كما يتوقفون انتظارا « للمتابعة » أو « للاعتبار » .

غير أن الذى نكاد نطمئن اليه أن نشأة الدرس اللغوى عند
العرب تختلف عنها عند أبناء اللغات الهندية الأوروبية ، لاختلاف
المصادر والوسائل والغايات ، وأن المنهج العربى تطور تطورا
« داخليا » واستوى هذا الاستواء المعروف فى القرون الأولى من
« داخل » البيئة الاسلامية لا من « خارجها » ، أو هذا ما تؤدى اليه
المادة المعروفة لدينا حتى الآن ، وهى فى الحق مادة قليلة جدا الى
ما تؤكد كنهه كتب التاريخ والتراجم من نشاط لغوى واسع يحتاج الى
جهد أجيال وأجيال .

والذى نراه أن خصائص المنهج العربى لا ينبغى أن نفتش عنها
عند أرسطو أو عند الهنود وإنما تتجراها فى البيئة الاسلامية وبخاصة
عند الفقهاء والمتكلمين .

والذى لا شك فيه أن علوم اللغة عند العرب نشأت فى ظلال
القرآن ، وانها وغيرها من العلوم كانت تهدف الى خدمة النص
الكريم ، فعلم القرآن والحديث والأصول والكلام واللغة كانت
متداخلة ذلك التداخل الذى تقتضيه الغاية التى كانت جميعها تنتهى
اليها ، ومن ثم كان هذا التبادل فى التأثير بين هذه العلوم ، فى المنهج

أحيانا ، وفي المصطلح أحيانا أخرى ، وفي غير ذلك من فنون البحث ، وأنت لا تستطيع أن تفهم منهج العرب في درس اللغة الا في ضوء هذا الواقع .

والسيوطي - كما قلنا - يمثل هذه الحقيقة أصدق تمثيل ، فقد توفر الرجل على معارف كثيرة ، يدرسها ويؤلف فيها ، وقد توافرت لديه جهود قرون طويلة من العمل العلمي المتواصل . والحق أننا لا نستغرب هذه الكثرة الواضحة فيما قدم الرجل من علوم الا استغراب تقدير الجهد الانساني ، لأن هذه العلوم التي تبدو مختلفة كانت تصدر عن مصدر واحد وكانت تشترك في طرائف التناول وظواهر التأثير .

ولقد أخذ السيوطي يضرب في كل ميدان يصل اللغة بهذه العلوم ، بل انه لا يكاد يكتب شيئا في اللغة الا في ضوء هذا التأثير العام الذي ذكرناه ، ومن اليسير أن تضع يدك على ذلك في كل ما كتب على وجه التقريب ، فهو يصل اللغة بالقرآن ، وبالحدِيث . وبالأصول ، وبكل ما يتصل بالدين على العموم .

١ - ونبدأ بأبحاثه اللغوية عن ألفاظ القرآن التي تكاد تركز على ناحيتين ، أولاها ما في القرآن من لهجات القبائل العربية ، على ما يظهر فيما قدمه في « الاتقان » عن « غريب القرآن » ، وما وقع فيه بغير لغة أهل الحجاز » (١) وهو موضوع لغوي هام أخذ يلفت أنظار الباحثين المحدثين لما يفيد في معرفة العربية التي كانت سائدة قبيل نزول القرآن ، وفي « وزن » هذه « اللهجات » بميزانها اللغوي الصحيح (٢) .

(١) الاتقان ١١٥/١ - ١٣٦ .

(٢) انظر كتابنا : اللهجات العربية في القراءات القرآنية - دار المعارف بمصر ١٩٦٨ -

أما الناحية الثانية فتنصل بموضوع غير بعيد عن هذا الموضوع، وهو دراسة ما ورد في القرآن بغير لغة العرب ، وقد ظهر ذلك عنده في كتابين : المتوكلي فيما ورد في القرآن باللغة الحبشية والفارسية والهندية ، والتركية ، والزنجية ، والنبطية ، والقبطية ، والسريانية ، والعبرانية ، والرومية ، والبربرية ، وهو كتيب (١) ألفه للخليفة العباسي المتوكل على الله ورتب ألفاظه حسب اللغات ، فبدأ بالحبشية ثم الفارسية وهكذا * * * * * والكتاب الثاني هو «المهذب فيما ورد في القرآن من العرب» (٢) * وهو كتيب يعرض لموضوع الكتاب السابق غير أن ترتيبه حسب الألف باء * وهذا موضوع هام أيضا سوف يظل له مكانه في الدرس اللغوي بما يقدم للبحث من مادة تفيد في معرفة حياة اللغة ، وتطورها ، « وقوانين » اتصالها بغيرها من اللغات * وإذا كان العرب لم يعرفوا « المنهج المقارن » كما هو في البحث الحديث ، فإن المادة التي قدموها - على ما بينه السيوطي - كافية في الإشارة الى اهتمامهم العملي حينذاك ، وهو اهتمام لا يزال يحظى بنصيبه في العصر الحديث ، ونعني به قضية « التعريب » *

٢ - أما وصله اللغة « بالحديث » فهو طابع يغلب عليه ، ويكاد يظهر في كل ما كتب ، وذلك أمر منطقي من رجل استغرقته دراسة « الحديث » حتى صار صاحب عقلية « حديثية » واضحة ، وذلك أيضا أمر غير مبتون الصلة باللغة ان لم يكن منها بسبب وثيق ، « فالرواية » و « النقل » من أسس العمل اللغوي لا جدال *

ولعل كتابات السيوطي تعتبر أشمل ما قدم من درس لغوي متأثر بعلوم الحديث ، بل ان أبواب « الزهر » جاءت على نسق

(١) مطبعة الترقى في دمشق ١٣٤٨ هـ .

(٢) مخطوط بدار الكتب المصرية (٨٥) لغة ، (٢٨٦ لغة) .

أبواب الحديث (١) وقد عرض الرجل فيها لما يمكن ان يكون منهجا كاملا لرواية اللغة * وعلى ذلك يفهم تأليفه في الطبقات دليلا على تأثره « بعلم الرجال » ، وهو لم يكتف بما قدم في « البغية » وانما عرض لذلك أيضا حين تحدث عن « الطبقات والحفاظ والثقات والضعفاء » ، وعن « الأسماء والكنى والألقاب » وعن « المؤتلف والمختلف » ، وعن « المثقف والمفترق » وعن « المواليذ والوفيات » (٢) * ولقد يكون صحيحا أن نقرر أن أعمال السيوطي جميعا متأثرة بدرسه لعلوم الحديث ، يظهر ذلك في اتجاهه الى « الجمع » والى « النقل » ، و « الاسناد » ، واستعمال « المصطلح » في أغلب الأحيان *

٣ - ثم يأتي وصله اللغة « بالأصول » وهو منهج سبقه اليه عدد من علماء العربية الكبار أشهرهم ابن جنى وابن الأنباري ، والحق أن هذا الاتجاه كان جديرا - لو قدر له - أن يطور الدرس اللغوي تطويرا أساسيا ، ذلك أنه لم يكن يدرس بابا من أبواب اللغة أو ظاهرة من ظواهرها ، وانما كان يستهدف علم « الأصول » في محاولة الوصول الى منهج لاستنباط الأحكام ، أي أنه كان يبحث عن « الخصائص » العامة التي تميز اللغة مما يهدى الى وضع قوانينها وضعا « علميا » يطمئن اليه روح البحث ، ولم يكن أمامهم الا « علم الأصول » الذي سيظل - دون ريب سمة بارزة من سمات الفكر الاسلامي *

وقد كتب السيوطي كتابه « الاشباه والنظائر » (٣) متأثرا بما

(١) أنظر في المظهر : معرفة الصحيح الثابت ، معرفة ما ورد من اللغة ولم يصح واهم نشت ، معرفة المتوافر والآحاد ، معرفة المرسل والمنقطع ، معرفة الأفراد .. الخ *

(٢) أنظر الزهر : ٣/٣٩٥ - ٤٥٨ *

(٣) طبعة حيدر آباد ١٣١٨ هـ *

قدمه تاج الدين السبكي في « الأشباه والنظائر » في الفقه ، وجاءت (فنونه السبعة) على نحو ما كتب الأصوليون ، فوجد المصادر العلية في القواعد النحوية ، والتدريب ، وهو فن القواعد الخاصة والاستثناءات ، وسلسلة الذهب في البناء من كلام العرب ، وللمسمع والبرق في الجمع والبرق ، والطراز في الألفاظ ، والتبر الذائب في الأفراد والغرائب ، والمناظرات والمجالسات .

على أن « الاقتراح في علم أصول النحو » (١) يعتبر أقرب أعماله وأشهرها الى علم « الأصول » وقد قرر ذلك هو في صدر كتابه حين قال : « ورتبته على أصول الفقه في الأبواب والفصول والتراجم » (٢) ، وقد حد أصول النحو على طريقة الأصوليين بأنه « علم يبحث فيه عن أدلة النحو الاجمالية من حيث ادلته ، وكيفيته الاستدلال بها ، وحال المستدل » (٣) ، ولعله كان يستهدى الامام الشافعي (٤) حين جعل هو أدلة النحو أربعة ، وقد كانت عند ابن جنى وابن الانباري ثلاثة ، اذ رأى ابن جنى أنها السماع والاجماع والقياس ، ورآها ابن الانباري السماع والقياس واستحصاب الحال، لكن السيوطي جعلها السماع والاجماع والقياس واستصحاب .

على أن الذي يهمننا هنا أن الشعور بالحاجة الى علم يحدد أصول الاستنباط ، أي يضع القوانين العامة للبحث اللغوي هو الذي دفع القدماء الى الكتابة في « أصول النحو » ، وكما قلنا انهم لم يبحثوا عنه في مصادر « خارجية » وانما أخذوه مما هو واقع بينهم كل يوم وهو أصول الفقه ، غير أن هذا الشعور هو نفسه الذي يجعل

(١) طبعة حيدر آباد ١٣٥٩ هـ .

(٢) ص ٢ .

(٣) ص ٤ .

(٤) حين قرر الأصول الأربعة في الرسالة .

اللغويين المحدثين يبحثون عن علم يحدد أصول البحث وطرائقه ويضع القوانين العامة التي ينبغي أن يسير عليها الباحث ، وهم لا يزالون يتطورون حتى الآن من « الوصفية » (١) المطلقة التي سادت حتى أواخر العقد السادس من هذا القرن ، الى « التحويلية » (٢) التفسيرية التي بدأت تزدهر في السنوات الأخيرة ، وهي كلها — على أية حال — تشمل السعى نحو الوصول الى قوانين البحث في لغة الانسان .

٤ — وبعد القرآن ، والحديث ، والأصول ، يتحرك الجهد اللغوي في خدمة كل ما يتصل بالدين ، فيقدم في الوقت نفسه ملاحظات لغوية تنضاف الى خصائص المنهج ، من ذلك ما كتبه السيوطي في التطور اللغوي حين عرض للألفاظ الاسلامية في رسالة من رسائله عن « أصول الكلمات » (٣) حاول فيها أن يبحث عن المعاني اللغوية التي كانت عليها هذه الألفاظ قبل الاسلام : « أصل العبارة الخضوع والتذلل ، أصل الطغيان الانقباض ، أصل الفسق الخروج عن الشيء ، أصل التلاوة الاتباع . . الخ » (٤) ومن هذا الوادي ما قدمه في « الرياض الأنيقة في شرح أسماء خير الخليفة » (٥) بجمعه أسماء الرسول صلى الله عليه وسلم مبينا اشتقاقها وضبطها وتصريفها . وهذا كله غير بعيد عن البحث اللغوي ، فمعرفة « الأصل » كانت تسود منهج الفيولولوجيا ابان القرن الماضي ، ثم عادت تظهر عند « التفسيريين » في السنوات الأخيرة . ولقد ظلت هذه المسألة مهضما يدرجه الله المتد في الدرس العربي حتى تأكدت أهميتها الآن . والمشكاة أن القدماء

Descriptive (١)

Transformational (٢)

(٣) رسالة صغيرة طبعت ضمن كتابه « المتوكل » .

(٤) ص ١٤ .

(٥) مخطوطة دار الكتب ٢٣٣١٦ ب .

توقفوا عند هذا الذي قدموه ، وتوقف السيوطى عند « جمع »
ما قدمه السابقون ، ولم يحدث تطوير لهذا الاتجاه بما كان حقيقيا
أن يؤدي الى نفع كبير •

٥ - ويكتب السيوطى فى التاريخ فلا ينس لغويته وانما يعرض
حيث تدعى الحاجة الى ما ينبغى مثله أن يعرض له ، واذا هو أيضا
لا يبتعد عن الدين ، ترى ذلك فيما كتبه فى « السماريخ فى علم
التاريخ » (١) عن أسماء الأيام واشتقاقها ومعناها ، وهو موضع
من البحث له مكانه فى الحياة الدينية لأهميته فى معرفة « المواقيت » (٢)
ثم يتناول الاستعمال اللغوى فى التعبير عن التقويم : « يقال أول
ليلة فى الشهر كتب لأول ليلة منه أو لغرته ، أو لمهله ، أو لمستهله ،
وأول يوم ليلة خلت ثم لليلتين خلتا ثم لثلاث خلون الى العشر ،
فخلت الى النصف ، فللنصف من كذا وهو أجود من خمس عشرة
خلت أو بقيت .. » •

هذا اذن هو المنهج العام الذى صدر عنه السيوطى فى كل ما قدم
من درس لغوى ، وهو منهج وصل اللغة بالعلوم التى نشأت فى ظلال
القرآن ، وأخذت تستهم فى ظواهر التأثير والتطور •

على أن ذلك كله ليس الوجه الوحيد لهذا المنهج ، وانما وجهه
الثانى هو ما قدمه علماء العربية من درس للظواهر اللغوية فى أشكالها
الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية • ويحتل السيوطى فى ذلك
مكان الجامع الذى اطلع على جهود السلف واستوعبها - وأدرك
حينذاك ضرورة الاحاطة بهذه الجهود وتقديمها للناس ••

وملاحظاته الصوتية تسير فى هذا الاتجاه ، غير أنه لم يخصص

(١) لين ١٨٩٤ •

(٢) انظر فى هذا كتاب الأزمات والامكنة للمزروق - وكتاب تهذيب اللسان بتعريف

الأزمة لمحمد بن عبد الله الشبل ••

عملا مستقلا لهذه الدراسة شأن ابن جنى فى « سد ضاعته الاعراب »
مثلا ، وانما فى ملاحظات كما قلنا تأتى هنا أو هناك ، وتدور حول
الأصوات وأوصافها ، وحول القلب والابدال ، أو حول « الأتباع » (١)
وغير ذلك مما كان يتحدث عنه القدماء •

على أن أكثر ما كان يهتم به هو الصلة بين « اللفظ والمدلول » ،
فنقل هذا الاتجاه عن كان يذهب اليه من القدماء ، وركز عليه ، ولعله
كان متأثرا بابن جنى الذى فصل هذا الاتجاه فى كثير مما كتب ، واز
كان السيوطى فى الأغاب يرجعه الى أهل الأصول وأصحاب الكلام ،
ومن نم يسبغ عليه تجديدا عقليا بحيث يكون نتيجة « النظر » وليس
نتيجة « الواقع » اللغوى كما يقولون ، فيقول : « نقل أهل أصول
الفتة عن عباد بن سليمان الصميرى من المعتزلة أنه ذهب الى أن بين
اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع ، قال :
والا لكان تخصيص الاسم المعين بالمسمى المعين ترجيحا من غير مرجح •
وكان بعض من يرى رأيه يقول : انه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها .
فسئل ما سمي (أزغاغ) وهو بالفارسية الحجر ، قال : أجد فيه بسا
شديدا ، وأراه الحجر » (٢) •

ومهما يكن من رأى فقد كان ذلك اتجاها متسقا مع سير الحياة
العقلية عند العرب ، ومع أنه واجه رفضا لدى الدارسين المحدثين ،
فإن عددا منهم قد ذهب اليه ، ولا تزال هناك أبحاث فى بعض الجامعات
العالمية يقوم على أساسه (٣) •

أما النحو والصرف فقد كانا علما واحدا عند العرب منه قدم
سيبويه « الكتاب » ، ولا نحسب التأليف الصرفية المفردة كانت فضلا

(١) المزهر ١/٤٦٠ ، ١/٤١٠ •

(٢) المزهر ١/٤٧ - ٤٩ •

(٣) أنظر ما كتباه فى « لغة اللغة فى الكتب العربية » عن المستوى الصوتى •

للصرف عن النحو ، لأن الاتجاه الغالب ظل على الجمع بينهما كما كان ، وهو هو ما انتهى إليه الدرس الحديث من جعل « النحو » جامعا « للصرف » و « للنظم » على السواء .

ولقد تعددت أعمال السيوطى وتنوعت في هذا المجال ، فيكتب في أصول النحو على ما بيناه في « الاقتراح » ، وكتب مؤرخا لنشأة النحو والصرف في رسالته « الأخبار المروية في سبب وضع العربية » (١) ، ثم توفر على عدد من مصنفات النحو بالشرح والتعليق ، فشرح ألفية ابن مالك في « البهجة المرضية في شرح الألفية » (٢) ، وقدم « النكت على ألفية ابن مالك ، والكافية والشافية لابن الحاجب ، وشدور الذهب ونزهة الطرف لابن هشام » (٣) ، و « شرح شواهد المغنى » (٤) وغير ذلك من الشروح ، ومن الواضح أن الرجل قد ركز على هذه المصنفات التي كانت منشرة في عصره وبخاصة في دور العلم المصرية ، وقد يفسر ذلك استمرار الاهتمام بها حتى الآن .

وهذا الاطلاع جعله يستقل بعد ذلك بتأليف نحوية ، كانت احداها ألفية سماها « الفريدة » (٥) ، ولا بأس من « شرح » لها سماه « المطالع السعيدة في شرح الفريدة » (٦) ، غير أنه أهم أعماله - لا شك هو كتابه « جمع الجوامع » وشرحه « جمع الهوامع » الذي يعد مصدرا من مصادر النحو العربى لما فيه من مادة تكاد تستوعب جهود القداماء .

وأما ما كتبه في « الدلالة » فإن أهم ما فيه أنه قد يكون أول

(١) طبعت مع مجموعة التحفة البهية والطرفة الشبية .

(٢) ١٢٧٢ هـ .

(٣) مخطوطة دار الكتب ٥٨١٥ هـ .

(٤) البهية ١٣٢٢ هـ .

(٥) القاهرة ١٣٢٢ هـ .

(٦) مخطوطة دار الكتب ٥٨١ نحو .

من قدم دراسة لنشأة المعجم العربى وتطوره (١) ، وأنه حين تناول مداد « الدلالة » تناولها فى الأغلّب الأعم متأثراً بما قرره الأصوليون فى هذا المجال ، ومن ثم نفهم عرضه للحقيقة والمجاز ، والخاص والعام ، والمطلق والمقيد . ثم انه فضلاً عن ذلك تطرق الى كل ما تطرق اليه القدماء كحديثه عن « الاستقاق » و « المولد » و « المشترك » و « الأضداد » و « المترادف » و « المشجر » . ومن بينها موضوعات لا تزال فى حاجة الى تتبع علمى يكشف عن دوراتها فى الاستعمال اللغوى . وقد يكون السيوطى أحد المصادر المرشدة فى هذا الميدان .

وبعد ، فلا شك أن قيمة الدرس اللغوى عند السيوطى لا ترجع لى « جديد » قدمه الرجل ، وإنما تكمن فى هذا « الجمع » الطيب لجهود القدماء ، وفى تمثيله لهذا الجو العام الذى نشأ فيه هذا الدرس وتطور ، وليس هذا قليلاً بالنسبة لعصر الرجل ، بل ليس أمراً هيناً أن تعد أعماله من نوع « دوائر المعارف » التى ترشد الباحث ابتداء الى المواطن التى ينبغى أن يتلمسها ، والى المصادر الضرورية التى ينبغى أن يعتمد عليها فى عمله العلمى . وهذا وحده كاف فى تقدير قيمة الرجل ، فضلاً عن أنه لا يحجب اسهامه فى تطور الدرس اللغوى ، وفى خدمة لغة القرآن .

(١) المزمع ٧٦/١ - ١٠٣ .

السِّيوطي كاتبًا أدبيًا للدكتور مصطفى الشكعة

استاذ الأدب ورئيس قسم اللغة العربية
بكلية الآداب بجامعة عين شمس

السيوطى عالم موسوعى جليل من علماء هذه الأمة السابقين الى التأليف فى ميادين كثيرة من فنون المعرفة الاسلامية ، وقد سلف القول أن عدد مؤلفاته يربو على ثلاثمائة كتاب ورسالة فى نظر بعض العلماء ، بل ذهب آخرون الى أنها بلغت الخمسمائة . ومهما كان الرأى فى صحة العدد الذى أورده الدارسون والمؤرخون لكتب السيوطى فان الأمر الذى لا شك أنه كعالم كبير من علماء هذه الأمة ، وكمؤلف موسوعى واسع الأفق متشعب فى نواحي المعرفة يمتلك ناصية الكتابة وعدتها ومؤهلاتها فكان اسهامه فيها والأمر كذلك اسهاما متنوعا يتراوح بين النشر العلمى المطلق والنشر الفنى المستهدف موضوعات فكرية وقيما أخلاقية ، والنشر الفنى المستهدف غايات امتاعية وضروب من القول ابتكارية .

ولتيسير عرض طبيعة فن النشر أو الكتابة عند السيوطى يمكننا أن نقدمها من خلال هذا النهج :

النشر العلمى :

ان علينا أن نسارع الى القول بأن النشر العلمى الذى نعرضه

هنا لا يقصد به الأسلوب الذي تكتب به كتب الكيمياء والفيزياء والرياضيات والفلسفة وما إليها ، فما الى ذلك قصدنا ، بل ان ذلك النهج من الكتابة لا يندرج تحت مدرسة فنية من مدارس الكتابة ، ولكن الذى نعيه هنا ونقصد اليه هو تعبير الكاتب أو المؤلف عن فكرة بذاتها أو ايضاح منهج بعينه ، ولقد كان أستاذ هذا النهج من الكتابة أبا عمرو الجاحظ في مقدمتيه النفيستين لكتابه « البيان والتبيين » و « الحيوان » وابن قتيبة الدينورى في مقدمات « أدب الكاتب » و « عيون الأخبار » و « الشعر والشعراء » وأحمد بن عبد ربه في مقدمة كتابه النفس « العقد الفريد » وأبا حيان التوحيدي في مقدمة بعض كتبه من أمثال « الصداقة والصديق » و « المقابسات » و « الامتاع والمؤانسة » و « الاشارات الالهية » .

وإذا نحن أردنا أن نذكر مزيدا من الأمثال أو نورد جديدا من الشواهد تشعب علينا الأمر وضائق بنا السبل ، لأن مقدمات كتب الأولين من رواد كتابة التراث في الأدب والفكر والتاريخ والعقيدة يعتبر موضوعا شيقا يلذ فيه البحث ويستحب حياله الاستقصاء ، وإنما نحن نشير اشارة سريعة الى هذا النهج من كتابة المقدمات الذى يعتبر لونا متميزا من ألوان الكتابة يمكن أن نطلق عليه عنوانا يصدق عليه كل الصدق ، وهو النثر العلمى .

فاذا ما رجعنا الى السيوطى نستعرض اتجاهه فى هذا السبيل ترددا فى أى المقدمات نستعرض وأى النماذج نختار ، لأنها جميعا من الاتقان الصوفى بحيث يعجب بها القارئ ومن البلاغة الأسلوبية بحيث يقف أمامها الدارس الأديب عميق التأمل غزير الاستفادة ، وإذا كان لابد من عرض نص من هذه النصوص فليكن ذلك الذى قدم به

كتابه « الأشباه والنظائر » الذى ألفه فى النحو على نسق كتاب آخر له بالعنوان ذاته ألفه قبله فى الفقه • يقول السيوطى : (١)

« ان الفنون العربية على اختلاف أنواعها هى أول فنونى ، ومبتدأ الأخبار التى كان فى أحاديثها سمرى وشجونى ، طالما أسهرت فى تتبع شواردها عيونى ، وأعملت فيها بدنى أعمال المجد ما بين قلبى وبصرى ويدي وظنونى ، ولم أزل من زمن الطلب أعنتى بكتبها قديما وحديثا ، وأسعى فى تحصيل ما دثر منها سعيا حثيثا ، الى أن وقفت منها على الجهم الغفير ، وأحطت بغالب الموجود مطالعة وتأملا بحيث لم يفتنى منها سوى النزر اليسير ، وألفت فيها الكتب المطولة والمختصرة ، وعلقت التعليقات ما بين أصول وتذكرة ، واعتنيت بأخبار أهلها وتراجمهم ، وأحياء ما دثر من معالمهم ، وما رووه أو رووه ، وما تفرد به الواحد منهم من المذاهب الأقوال ضعفه الناس أو قووه ، ومع ما وقع لهم مع نظرائهم وفى مجالس خلفائهم وأمرائهم من مناظرات ومحاورات ، ومجالسات ومذاكرات ، ومدارسات ومساربات ، وفتاوى ومراسلات ، ومعاناة ومطاريحات ، وقواعد ومناظيم ، وضوابط وتقاسيم ، وفوائد وفرائد ، وغرائب وشوارد ، حتى اجتمع لى من ذلك جمل ، ودوتها رزما ولا أبالغ وأقول وقر جمل ، وكان مما سوت من ذلك كتاب ظريف ، لم أسبق الى مثله ، وديوان منيف ، لم ينسج ناسج على شكله ، ضمنته القواعد النحوية ذات الأشباه والنظائر ، وخرجت عليها الفروع السائرة سير المثل السائر ، وأودعته من الضوابط والاستثناءات جملا عديدة ، ونظمت فى سلكه من النوادر الغربية والألغاز كل فريدة ، ولم يكن انتهى المقصود منه لاحتياجه الى الحاق ، ولا سود بتسطير جميع ما أرصد له من بياض الأوراق ، فحبسته بضع عشرة سنة ، وحرمت منه الكاتبون والمطالعون ، ثم قدر

(١) مقدمة الأشباه والنظائر النحوية •

الله أنى أصبت بفقدته ، فاستخرت الله فى إعادة تأليفه ثانيا والعود
أحمد ، وعزمت على تجديده طالبا من الله المعونة فهو أجل من فى
اهمات يقصد •

وأعلم أن السبب الحامل لى على تأليف ذلك الكتاب الأول أنى
فصدت أن أسلك بالعربية سبيل الفقه فىما صنفه المتأخرون فىه وألفوه
من كتب الاشباه والنظائر « ••

ان السيوطى يسجل فى مقدمته هذه - شأنه فى ذلك شأن
الناهين من العلماء السابقين - فكرة حول تأليفه الكتاب وهدفه
من ذلك ، وهو يتبع أسلوب زمانه ، بل أسلوب أزمان وقرون سابقة
عليه من حيث الصناعة اللفظية والزينات البيعية ، ولقد لاحظنا حرصه
الشديد على السجع الذى جاء به متنوعا متباينا ، فتارة يأتى بسجعات
طوال ، ويأتى تارة أخرى بسجعات قصار غاية القصر ، هذا فضلا عن
ضروب أخرى من البديع كالطباق والمقابلة والترصيع •
النثر الأخلاقى :

والسيوطى كامام جليل من أئمة زمانه وعالم كبير من علماء
الاسلام وكصاحب قلم وفكر وزهد ورسالة وجد من طبيعة كيانه أن
يدعو الى الخير وأن ينهى عن الشر وأن يرشد وأن يزجر ، وهذه
المادى تقع من العقيدة الاسلامية فى صلبها فان من مواد الدستور
الاسلامى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ابتغاء سعادة الناس كل
الناس وصلاح المجتمعات كل المجتمعات ولتكن منكم أمة يدعون الى
الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون (١)؟

ولم يكن السيوطى يكتفى بأن يعظ من هم حوله أو القريبين منه
مكانه وانما كان يعظ الحكام الذى ظلموا والأمراء الذين بغوا مهبا

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤ •

يعدت المسافة بينه وبينهم ، فقد علم السيوطى أن ملوك التكرور
- وهى بلاد النيجر حاليا والسنغال - شاع ظلمهم فى رعيتهم وتجاوزوا
حدود الله فى الأحكام التى يصدرونها فبعث اليهم رسالة يعظهم فيها
ويعنفهم ويحاول ردهم الى حظيرة الرشد واطار العدل • كتب
السيوطى يقول (١) :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا
يصلح لكم أعمالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطع الله ورسوله فقد
فاز فوزا عظيما » •

« من الفقير عبد الرحمن السيوطى الى الملوك والسلاطين ببلاد
التكرور عموما والى الملك الزاهد « محمد بن صفن » صاحب أكور
وأخيه محمد وعمرو •• والى الملك صاحب كاسنة خصوصا » •

« سلام عليكم ورحمة الله وبركاته أما بعد فأنى اليكم أحمد الله
الذى لا اله الا هو وأصلى وأسلم على نبيه محمد صلى الله عليه
وسلم » •

ثم أوصيكم بتقوى الله فانها رأس الأمر وسنامه ، وقد فاز وأفلح
من به اعتصامه ، واحتكم على العدل بين الرعية ، والوقوف عند
حدود الأحكام الشرعية ، ولا يغرن امرأ منكم ما آتاه الله من الملك
والسلطنة ، وما خوله الله من زينة الحياة الدنيا ، كلها سنة منام
ولا بد أن يستيقظ من السنة ••

وقد بلغنى عن أحدكم أنه يذكر له الحكم الشرعى فى واقعة ،
والمحكوم عليه منتم اليه فيحضنه ، ويحول بينه وبين ضاحب الحق

(١) عصر سلاطين المالك ٨٧/٦ عن مخطوطة بدار الكتب رقم ٤١٦ •

ويحصنه ، ويقول : هذا دخل في ملكي أو جعل في سلطاني ، ورد ما حكم به الشرع الشريف اغترارا بالأمانى ، أفلا يخشى أحدكم من مالك الملك أن يحل عليه العذاب الأكبر ، أو ينزل عليه سخطه في الدنيا قبل أن يفبر؟ « ان بطش ربك لشديد » * « وما ربك بظلام للعبيد » أيعتر أحدكم بملكه الذي هو كقطرة أو صباية ، ويريد أن يلغى حكم الله باقامة ناموسه الذي لا يساوى عند الله جناح ذبابة * أأمنتهم من في السماء أن يخسف بكم الأرض ، أو يدكدك عليكم ما بين طولها والعرض ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « السلطان ظل الله في الأرض ، يأوى اليه كل مظلوم من عباده ، فاذا عدل كان له الأجر وعلى الرعية الشكر ، واذا جار عليه الاصر ، وعلى الرعية الصبر » * .

والرسالة على جانب من الطول ، ولكنها أيضا على جانب من النفاسة ، فهي سجل كريم لعدد من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم في الحض على التزام العدل ، وتقبيح الظلم ، والتحذير من الغدر ، كما أنه يذكر أحداثا بعينها ومظالم وقعت على بعض الناس يذكرهم بأسمائهم مما يدل على أنه كانت هناك مكاتبات بين السيوطى وبين هؤلاء الرعايا ، وأنه كانت ثمة وشائج بين السيوطى وبين هؤلاء الأمراء * وهو مع ذلك لم يقصر في وعظهم بل في زجرهم ، وطلب اليهم العودة الى العدل والتوبة الى الله وتلك وظيفة العلماء يبصرون الأمراء بظلمهم والحكام بانحرافهم ولا يتوانون عن زجرهم * .

والذى يعنينا في هذا السبيل فضلا عن الغاية النبيلة التى استهدفها السيوطى هو ذلك الأسلوب النضير وهذا الصوغ المتين الأمر الذى يجعل من السيوطى - فى دنيا الكتابة - كاتباً ذات قدر وهج وكفاية * ومن الأمور التى تلفت النظر هنا أنه لم يلتزم السجع فى هذه الرسالة التزام غيره له من علماء العصر وكتابه ، الأمر الذى يشير الى أن السيوطى كان يهتم بالمعنى قبل اهتمامه باللفظ وأن اللفظ

عنده خادم للمعنى فيما يتصل بالخطير من الموضوعات التى له فيها هدف وغاية واصرار *

وإذا كان السيوطى قد عمد الى وعظ الأمراء وزجرهم وحضهم على التوبة الى الله سبحانه والتزام جانب العدل فيما يصدر من أحكام حسبا بينا فى المثال السابق فانه يعمد أيضا وفى قلب آخر الى بث الحكمة بين الناس ونثر الكلم الطيب على أسماع جمهورتهم ، وهو فى ذلك يستهدف الاصلاح السلوكى والتحذير من شرار الناس وينصح أحيانا بالتفرد والانعزال ويحض حيناً آخر على الزهد والتصوف وهو فى كل حال يعرض بالفلسفة والفلاسفة *

لقد كتب السيوطى رسالة قصيرة أسماها « دور الكلم وغرر الحكم » ضمنها مجموعة كبيرة نفيسه من الحكم والنصائح بحيث جعل كل حكمة متدثرة بجملتين بليغتين * انها يسوق دور الكلم وغرر الحكم على هذا النسق (١) *

« صلة الناس ليس لها عائدة » ، ومعرفتهم نزوة الفوائد * من عرف الناس خص بالبلاء ، وأحاط به الرق والولاء * رب امرىء أوليته جيلا ، فكان بالاساءة اليك حميلا * السنة السنة ولو عليك، الأسته * عليك بعلم الشريعة ، فانه الى الله أقوى الذريعة * أف. للدينيا !! تقدم الجاهل ، وتؤخر الفاضل ، وتبا للعلياء يفوتها السابق والفاضل الكريم يرى ألم الكلام ، أشد من ألم الكلام * رب ساكت أعلم من ناطق ، وساكن ليس له بارق * قبح الله من جهل العلوم المشرفة ، وتمثل بعلوم الفلسفة * من تحكم بالشريعة فعارضه مسجوم، ومن تكلم بالفلسفة فلسانه ملجوم * لسان العالم ، سنان فى الملاحم * ما كل خطيب مصقع ، ولا كل واعظ يصدع *

(١) دور الكلم وغرر الحكم : مقال قصير مخطوط بدار الكتب المصرية ..

مقامات السيوطي

المقامات فن أدبي نال شهرة وذيوعا وتوفر على الكتابة فيه عدد كبير من أدباء العربية على مر السنين والعصور ، القصد منه الامتاع الأدبي والانشاء القصصي .

ومن المعروف أن منشئ هذا الفن ومبتدعه الكاتب العربي الفنان الشاب بديع الزمان أحمد بن الحسين الهمداني الذي خلف لنا اثنتين وخمسين مقامة كتب أولها في نيسابور سنة ٣٨٣ هـ وكان عمره إذ ذاك خمسا وعشرين سنة ، ثم نسج على منواله وترسم خطاه العالم اللغوي المشهور أبو محمد القاسم بن علي البصري الحريري المتوفى ٥١٥ هـ . وقد نهج الحريري في مقاماته نهجا تعليميا أكثر منه نهجا فنيا روائيا مستهدفا من ذلك تعليم اللغة وتلقين مفرداتها للناشئين .

وأخذ الفلك يدور دورته فاذا بعدد غير قليل من أعلام الفكر الاسلامي وأعيان الأدب العربي يواصلون الكتابة في هذا الفن ولكنهم اتتهجوا نهجا مختلفا عن ذلك الذي استهدفه بديع الزمان وسار على دربه من بعده الى حد كبير أبو محمد الحريري ، فجاء ابن ناقيسا وكتب ثمانى مقامات عالج فيها الحكمة على السنة البهائم ، والأمر الجدير بالذكر أن ابن ناقيسا عاش في مرحلة زمنية متوسطة بين بديع الزمان والحريري اذا انه توفي سنة ٤٨٥ هـ .

ويجبىء الزمخشري ٤٦٧ - ٥٣٨ وهو كما نرى معاصر للحريري فينشئ خمسين مقامة ولكنها ان تشابهت مع مقامات الحريري في الأسلوب فانها تختلف معها في الموضوع فقد التزم كاتبها ميدانا واحدا هو الوعظ والارشاد .

ثم يأتي ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ فيكتب خمسين مقامة

على نسق الحريرى ولكنه يكتر من الألفاظ الحوشية والاستشهاد بالشعر المعمى والألغاز ، ويأتى بعده بقليل ابن صقيل الجزرى فينشئ خمسين مقامة أطلق عليها « المقامات الزينية عالج فى كثير منها موضوعات من الفقه والحديث والنحو . وفى أوائل القرن السابع أيضا يكتب التنوخى مقامة طويلة فى وصف نار العجم ، وفى منتصف القرن الثامن يكتب ابن الورى مقامات أربعة هى الأنطاكية والمشهدية والدمشقية ومقامة الافتتان وملاحقة فتیان الزمان ، ثم يأتى بعد ذلك جلال الدين السيوطى ليكتب مقامته *

هذه المقدمة السريعة الموجزة عن المقامات وموضوعاتها تعتبر ضرورة لاغنى عنها ونحن نحاول أن ندرس مقامات السيوطى *

ان الأخبار تذكر لنا أن السيوطى كتب أربعين مقامة وان كانت عملية الاستقصاء التى قمت بها لم تهيبى لى حتى الآن الحصول على أكثر من ثمانى عشرة مقامة بين مخطوطه ومطبوعه وانى أرجو بمزيد من الجهد والمتابعة أن أصل الى بقية المقامات التى لم يتح لى أن أحظى بالوقوع عليها حتى الآن *

لقد أفاد السيوطى من سابقيه من كتاب المقامات فعمد الى التوزيع فى موضوعات مقاماته ، بل أنه تحلل من الاطار العام للمقامة وتخلص فى كثير منا من الراوية والبطل فأصبحت هذه المقامات - أعنى أكثرها - أقرب الى المقال منها الى المقامة *

أشكال مقامات السيوطى وموضوعاتها

ان مقامات السيوطى - أو على الأقل ما كان منها بين أدينا - الآن لا تجرى على نسق واحد ولا تعالج موضوعا واحدا ، وانما هى تجرى على أكثر من نسق وتعالج أكثر من موضوع ، وهى بذلك

تختلف عن مقامات بديع الزمان والحريري والزمخشري والجزري
الدين حرص كل منهم على التزام وحدة الموضوع بالقدر المستطاع .

فأما من حيث الشكل فإن النسق أو النهج الذي يقدم السيوطي
من خلاله موضوعه يكون في اطار مقال حيناً وفي اطار مناظرة حيناً
ثانياً ، وحيناً ثالثاً يكون في اطار مفاخرة وحيناً رابعاً يكون في نطاق
القالب القصصي المألوف عند سابقيه من كتاب المقامات وقد ابتدع
لنفسه شخصيته الراوية الذي اختار له اسم « هاشم بن التاميم » .

المقامة المقالة :

وحتى هذا النسق من المقامات الذي صيغ في قالب مقالات
لا علاقة لها بالناحية القصصية تعالج موضوعات عدة ، فهي تارة تكون
مشاببة مقالة علمية يرد بها السيوطي على خصم له يخالفه في رأيه ويكون
قد حاول النيل من قدره كما هو الحال في المقامة السندسية في النسبة
المصطفوية . وتارة أخرى تكون المقامة مقالة ذاتية تعالج مشكلات
شخصية للكاتب وتهجو خصومه وبعض حاسديه كما هو الحال
في المقامة اللؤلؤية ، وتارة ثالثة تكون المقامة مقالا أدبيا رفيع الأسلوب
كثير نصوص الشعر بهدف تعليم الأدب وتربية الذوق حسبما هو
الحال في مقامة روضة مصر . وتارة رابعة تكون المقامة مقالا وعظياً
كما هو الحال في مقامة الحمى أو المقامة الولدية .

وحتى يتضح لنا معالم هذا النسق من المقامات أو بالاحرى
المقالات فلا بأس من أن نستعرض مثالا لبعضها أو لكل واحد منها .

مقال ديني : المقامة السندسية في النسبة المصطفوية :

ان السيوطي يؤمن ايمانا راسخا ان والدي الرسول صلى الله
عليه وسلم في الجنة وأن أجداده بين الجنة والأعراف ، من كان منهم

نبياً أو رسولا أو أمن نبياً أو رسول فهو في الجنة ، ومن لم يلحق
بنبي أو برسول فقد كان بريئاً من الشرك فيكون من أهل الفترة
وبالتالي هو ناج من النار . وكان السخاوي معاصر السيوطي وصديقه
في صدر شبابهما تم ألد خصومه في باقى سنى حياتهما لا يرى هذا
اراي ، ومعنى ذلك أن عبد الله بن عبد المطلب سيد شباب قريش
قبل ميلاد الرسول وأن آمنة بنت وهب والدة محمد وسيدة نساء
قريش وفضلاهن - من وجهة نظر السخاوي - في النار ، ويشتمط
السخاوي في مذهبه هذا ويدعى أن الآية الكريمة : « ولا تسأل عن
أصحاب الجحيم » نزلت في والدي الرسول صلى الله عليه وسلم .

ينشط السيوطي للدفاع عن الرأي الذي يعتقده والذي يشاركه
فيه جمهرة المسلمين ويجد الفرصة سانحة لتسوية حساب قديم مع
انسخاوي ، وكان السخاوي حسبنا ذكرنا شديد الخصومة حديد
التحامل على السيوطي متهما اياه بكثير من التهم التي تنال من أماته
العلمية وقدره الرفيع فيثبت السيوطي بالآيات القرآنية والأحاديث
النبيهة والأقوال المأثورة الصادرة عن كبار الأئمة ومشاهير العلماء أن
والدي الرسول في الجنة ويؤيد ذلك بالكثير من الأخبار التاريخية
والأشعار المروية .

لقد ردد السيوطي قوله تعالى في سورة التوبة « إنما المشركون
نجس فلا يقربوا المسجد الحرام » ثم أورد قول الرسول صلى الله
عليه وسلم : لم أزل أنقل من اصلاب الطاهرين . ولاشك أن الطهر
مرتبط بالايان ، بل ان السيوطي يسفه رأى السخاوي حين يذكر أن
المراد بالآية التي استشهد بها هم كفار أهل الكتاب الحائذون عن
الإنابة والتاب ويؤكد أن السورة مدنية . هذا فضلا عن حجج أخرى
كثيرة ومجادلات عديدة ويواجهه بذكر اسمه أكثر من مرة في اطار
من القول لا يخلو من هجوم وتجريح مثل قوله :

قل للسخاوى ان تعروك مشكلة

عظمى كبحر من الأمواج ملتظم

هذا والمقالة طويلة ممتعة ، خاصة وأن للسيوطى أكثر من بحث دينى فى هذا الموضوع ، فلنستعرض جزءا من هذه المقامة أو بالأحرى هذا المقال :

« ولقد وصل الى عن رجل من أهل الحديث ، وممن سعى فيه طول عمره السعى الحثيث ، انه ذكر له ما قلته فصاح ، وأعرض بوجهه واشاح ، وأجرى من فمه سيلا ، وجر من لسانه ذيلا ، وكسا وجهه الصباح ليلا ، وكاد يطير مع بنات نعش ، وحاص حيصة حمر الوحش ، ثم زأر ، وشذر فى النظر ، وكلح بوجهة ويسر ، وقال فحشا وهجر ، وهذى فى منطقته وحذر ، وصرح بانهما نعوذ بالله من أهل سقر ، وذكر أنه نزل فيهما من القرآن الكريم ، « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » ، فقلت للناقل لهم لا تلجأ الى وزر ، وهلا القمت فاه من كلام شيخه وهو الركن المشيد بحجر ، واطفأت النار التى أوقدها من زفر بزفر من زفر ، وعلمت أنه يضرب فى حديد بارد اذا ضربنا نحن فى ذهب ذائب ويرمى عن وتر منقطع اذا فوقنا نحن كل سهم صائب ، ولو أنه اقتصر على ذكر المنقول من غير سفسه لم يكن عليه من باس ، انما السبيل على الذين يظلمون الناس ، افرحا بالعلو ، أم تجاوزا الى حسد الغلو ، أم اعظاما لنفسه واستكبارا ، واحتقارا لغيره واستصغارا ، أم استجاشة على مثلى واستنصارا ، الاتقن قاعدة شكر المنعم التى مبنى هذه المسألة عليها ؟ ، المحكم قاعدة التحسين والتقييح التى مرد هذه القاعدة اليها ؟ أعرف حكم الفاضل من حيث التكليف ؟ ، أدرى حكم الأفعال قبل البعثة هل توصف بالثشديد أو التخفيف ؟ ، أعلم فن الأصول ؟ ، وقواعد الاستدلال والترجيح عند تعارض النقول ؟

لا تحسب المجد ثمرا أنت آكله لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

انسى ما بدا منه من برهة في مسألة رؤية الأنبياء يقظة ، وما أنكره على من افتأى بإمكانها كما نص عليه الأئمة والحفظة ، فبادر بقوله ان ذلك مستحيل ، وأخذ يغير في الوجه الجميل ، ويفرح بكثرة القبال والقييل ، وما شعر أن هذا القول يؤول الالمن يعذر بجهله الى كفره، وينبئ تعالى الله علوا كبيرا. عن استقصار القدرة ثم لما شددت عليه النكير ، وبلغه أن ذلك يلزم منه والعياذ بالله التكفير ، بدل قوله وحول ، وقال انما انكرت دعوى الاجماع وتأول ، فكان قوله الثانى أشد سوءا من الأول لأن صلاحية القدرة للمكنات لا يختلف فيها اثنان ولا تتجزى ، ومن لا يميز بين الجائز والمستحيل فسكوته عن الأفكار أخرى وتصديه له أخزى ، وقد قلت في تلك الواقعة :

رؤية الأنبياء بعد الممات ادخلوها في حيز المكنات

قل لمن قال انه مستحيل اترك الخوض عنك في الغمرات

انت لا تعرف المحال ولا الممكن لا ما بالغير أو بالذات

فاحترز أن تزل زلة كفر وتوقى مواقع الزلات

ونعود الى ما نحن فيه لبيت شعري ما لذي أنكره على ، وفوق لسببه سهامه الى اترجيح جانب النجاة أما لى فيه من سلف صالح ، اما تقدمنى اليه من أئمة كل منهم لو وزن بالجبال فهو عليها راجح ، فان اعتذر بعدم الوقوف كان عذره جليا ، أو بالنسيان فقد خلق الانسان نسيا •

وما سمي الانسان الا لنسيه ولا القلب الا انه يتقلب

وهل يستبعد على من أنجى الله به الثقلين ، أن ينجى به الأبوين،

فان استبعد هو ذلك فليست الشدة عندي بارجح من الرخاء ، وان
استكثر ذلك فانه لبخيل حيث شح بأجمل الأمرين وهو السخاء :

شح السخاوى بالانجاء يذكره عن والدى سيد الأنبياء والأمم
ان عز ان يبلغ البحر الخضم روى ياليتة يستقى من وابل الديرم

ام ظن انى أقدمت على الترجيح لا لمستند أو بمجرد التشهى من
غير دليل معتمد ، معاذ الله بل لما قام عندى من أدلة قاطعة ساطعة ،
ناصره لامعة ، جامعة مانعة ، هامة رائعة ، صادعة قامعة ، بارعة
باقعة ، جازمة لازمة ، مثبتة هاذمة صحيحة صريحة ، متعبة مريحة ،
حاصرة فسيحة ، تامة ، عامة ، كاملة شاملة ، كافلة حافلة ، تجزم
ولا تجزم ، وتهزم ان شاء الله ولا تهزم •

انمى القوافى تحت غير لوائنا ونحن على أقوالها أمراء

أم انكر على السكوت عن القول الآخر ورام منى أن أجريه
على طول الألسنة ، فيا سبحان الله مالى ولحكايته أنائم أنا أم فى سنة،
أما أكون من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، أما يحق
لى أن أضرب بينى وبينه بسور له باب ، باطنه فيه الرحمة وظاهرة من
قبله العذاب ، أما أولا فلأن العلماء أرشدوا فى هذا الى الصمت ،
وعدوه من حسن الأدب والهدى والسمت ، واما ثانيا فلأن السائل
عن ذلك ممن يقرأ المواد ويستطرد فى الكلام ، ويحضر عليه النساء
والعوام ومن هم بعيدهم الأفهام الى ومن هم حديثو عهد بالاسلام ،
أفأكون سببا فى وصول ذلك اسماعهم ووسيلة الى تحديثهم به مع نقص
انهامهم وجفاء طباعهم ، كلا والله لكل مقام مقال ، وما كل ما يعلم
نقال ، وقد روى البيهقى فى شعب الايمان عن بعض السلف قال من
كان عقله أصغر من علمه قتله علمه ، ومن تكلم بكل ما يعلم هدر دمه
وكثر ذمه • • •

المقامة اللؤلؤية :

وهذه ايضا مقامة (١) تتناول موضوعا آخر أقرب ما يكون الى الترجمة الذاتية لأن السيوطى يشرح فى هذه المقامة - بل المقالة - سبب اعتذاره عن تركه الافتاء والتدريس ، ويبرر ذلك بما يصدر عن بعض الناس من انحراف ينال من قدر العلماء ويجعلهم ينصرفون عن الاستمرار فى ممارسة الوظائف الدينية العلمية الرفيعة ، ويتخذ السيوطى من هذا الموقف ذريعة أخرى لتصفية بقية حسابه مع السخاوى لو كان ثمة بقية بعد الذى ناله منه فى المقامة السندسية التى أوردنا طرفا منها ولم نسجل كل ما كاله السيوطى لخصمه اللدود •

أما أن «اللؤلؤية» مقالة وليست مقامة فلأنها - شأن سابقتهما - ليس فيها من المقامة مجرد الشكل فضلا عن أس البنية وجوهر الهدف . ان السيوطى يبدؤها بالبسملة وبالصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم وآله ويتبع ذلك بآية قرآنية انتقاها متسقة مع المناسبة وهى قوله تعالى : « وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد » • ثم يمضى فى قوله صائغا اياه على شكل خطاب قائلا : « يا معشر الأصحاب الصلحا ، وأولى الألباب النصحا ، ومن لاح له أمر فلام عليه ولحا ، الى كم تكثرون على الكلام وتكثرون لدى الملام ، وتشيرون الى بالسلام ، وتسكرون الى السلام ، وتريشون لأجلى السهام ، وتهرعون الى السنة كالأسنة ، وتسرعون فى نسبتى الى الضنة بالظنة كأنى لست عندكم ممن يحفظ السنة ، ولا ممن يعرف طرائف السلف التى هى طريق الى الجنة » ؟ •

ويمضى السيوطى فى تفريع للأئمة وشائنية فى جمل مسجوعة متسقة حزينة الى أن يقول : « الا تسألون عن العذر قبل الملام ؟

(١) مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم ٢١١٢٤ ب •

الا ترسلون بحسن الكلام بدل الكلام ؟ الا تحبون أن تكونوا من
النفر الذين يحبون ويحيون بسلام ؟ فان لم تكونوا بالاعذار موقنين،
فسلام عليكم دار قوم مؤمنين » *

وبعد أن يوضح الكاتب بعض جوانب عيوب الناس وخطايا
المجتمع وانحراف الأفراد من تكذيب الصادق وتصديق الكاذب
وتخوين الأمين وتأمين الخائن يقول : « وتلك هي الطامة ، وتكلم
الرجل التافه في أمر العامة ، وتعلم المتعلم لغير العمل ، وكان التفقه
للدنيا وليس له في الآخرة أمل ، واهين الكبير ، وقدم عليه الصغير ،
ورفعت الأشرار ووضعت الأخيار .. واستعلى الجهال على العلماء ،
وقهر السفهاء الحلما ، وولى الدين غير أهله ، وظهر الفحش من كل
جاهل على قدر جهله . هذه امارات وردت في أحاديث صحاح ،
وآيات جاءت بها سنن أضوأ من فلق الصباح وارشدنا نبينا الهادي ،
صلى الله عليه وسلم ما راح رائح وغدا غادي ، الى أننا اذا أرينا
ذلك قد وقع ، وبدا لنا نجمة الكاسف وطلع ، فلنجلس في البيوت ،
ولنلزم السكوت ولنتق الله في خاصة نفسنا ، ولندع عامة الأمور الى
أن نحل برمسنا ، وكلم من عالم قبلي قد قبل هذه الوصية اذ رأى
ماليس له به قبل ، وترك الافتاء والاقراء وأقبل على خاصة نفسه
والعمل ، وقد اقتنيت بهم ونعم القدوة ، وتأسيت بالحديث الذي
هو لكل عالم أسوة ، طالما قطعت نهاري في التدريس والافتاء ،
واستغرقت أوقاتي في نفع الناس وقتنا وقتنا . ولم أسلم مع ذلك ممن
يوليني أذى ومقتا ، ويرميني كذبا وبهتا » *

ويصف السيوطي تلاميذه في التدريس ويصنفهم الى ثلاث طبقات:
طبقة كلها خير صرف ، وطبقة ثانية تجمع بين الخير والشر « تعرف
وتنكر ، وتذم وتشكر » وطبقة ثالثة « الله أكبر وما أكثر شرها ،
وأكبر حرها ، وأشد اصرها ، وأنكد أمرها ، وأعظم مرها ، وأقوى

فجورها ، وأدنى كذبها وبهتانها وزورها ، عظيمة السفه والجهل ،
ليست للعلم ولا للحلم بأهل ، فان صبرت حتى تأتى طبقة رابعة ،
وفرقة مروعة رابعة أوشك أن يأتى بعد هؤلاء حثالة الرجال ، وفراج
يأجوك ومأجوك والدجال ، وما أحسن قول من قال •

ألم تعلم بأنى صيرفى احك الأصدقاء على محك
فمنهم بهرج لاضير فيه وفيهم من أجوزه بشك
ومنهم خالص الذهب المصفى بتركيتى ومثلى من يزكى،

ثم يتحدث السيوطى عن فتاواه التى طبقت الأرض شرقا وغربا
وأوضحت كل مشكلة وحلت كل معضلة ويطبق على نفسه قول
الشاعر :

إذا المشكلات تصدين لى كشفت حقائقها بالنظر
وان برقت لى تحيل السحا ب بماء ولا تجتليها الفكر
مقنعة بغيوب الفهو م وضعت عليها حسام البصر
ولست بامعة فى الرجا ل أسائل هذا وذا ما الخبر
ولكننى مدره الأصغري ن أقضى بما قد مضى أو غير

والى هنا يكون السيوطى قد شرح حاله ووفى نفسه حقها من
التقدير والتمس لها ما يكفى من الاعذار لتركه التعليم والافتاء ، ثم
يتحول بعد ذلك الى النيل من السخاوى والحملة عليه والازراء به
ونعته بأجهل الجاهلين وعرة الحيوان الهاملين ، ويشن عليه حملة هجاء
مكثفة ضارية لانخال السيوطى فيها الا تلميذا أميناً لبديع الزمان فى
بعض رسائله الهجائية نسقا ومعنى ولفظا وأسلوبا •

انه بشيء من التجاوز يمكن أن نعتبر هذه الرسالة نوعا من الترجمة الذاتية ووصفا لجانب من الحياة الاجتماعية في بيئة السيوطى، وبشيء من الحكم الدقيق نعتبرها رسالة هجائية كتلك الرسائل التي كانت تصدر عن كتاب القرن الرابع الهجرى من أمثال الصابى وبيديع الزمان وأبى بكر الخوارزمى وغيرهم •

انها على كل حال رسالة بارعة التكوين جيدة الصوغ تشهد للسيوطى بأنه جدير بالانخراط فى سلك الكتاب المجيدى المبدعين ولكن فى مضمار كتابة الرسائل وليس فى ميدان انشاء المقامات •

مقال فى الوصف : مقامة الروضة (١) :

ان مقامة الروضة بدورها قطعة أدبية وصيغة بدیعة البناء رفيعة الانشاء ، وبالتالي فانها ليست من المقامات فى شيء •

وجلال الدين السيوطى لا يمل من وصف جزيرة الروضة والتغنى بجمالها وسحرها ونيلها وبروجها وقصورها وخمائلها ، لقد كانت مأواه وسكناه ، فكل ما فيها جميل حتى ان قبيحها حسن وعيوبها مزايا •

ان السيوطى يجعل من بعوضها المؤذى حسناوات من ساحرات جرير ، ان طنين البعوض تغريد بلابل ولسعته سهام العيون :

ياليلة غردت فيها البعوض وقد

طاروا الى زرافات ووحداانا

يصرعن ذبا اللب حتى لاحراك به

وهن أضعف خلق الله انسانا

(١) المقامات المطبوعة ص ٦٣ وما بعدها •

ولا يقف أمر السيوطى فى حبه لجزيرته عند التسامح مع البعوض بل انه يبارك براغيث الروضة ويصحف اسم البرغوث الى كلمتين نبيلتين هما بر و غوث • ويجعل البراغيث تؤدى مهمتين جليلتين لصحيتها هما مص الدماء الفاسدة وايقاظ الملدوغ لبؤدى صلاة الفجر • يقول السيوطى فى هذا المقام :

لا تكره البرغوث ان اسمه
بر و غوث لك ان تدرى
فبره مص دم فاسد
والغوث ايقاظك فى الفجر

اما الأبيات الشعرية الصادقة التعبير الحسنة الايقاع البارعة فى تكوين لوحات الطبيعة الساحرة فقد أحسن السيوطى اقتباسها وتطويعها لخدمة جزيرته العتيذة هذا فضلا عن المحاسن الأخرى التى سجلها على النحو التالى :

« قال الله تعالى وآويناها الى ربوة ذات قرار ومعين » ، نطق الكتاب والسنة بأن أرض مصر أحسن البقاع ، وتضافرت على ذلك آثار الصحابة والاتباع ، وانعقد عليه الاجماع ، وشهد الحسن بأن الروضة منها كمركز الدائرة فهى لها كالمقطب والأساس وقام النظر على انها أنزه بقعة فيها فاتتج أنها أحسن بقاع الأرض بما صح فيها من القياس :

شوقتنا الى الجنان فزدنا فى اجتناب الذنوب والآثام
روضة ذات محاسن ، فيها انهار من ماء غير آسن ، وأشجار
تنبت أفانين الأحاسن وزهار ما بين مفتوح العين ووسين ، وأطيبار
ترنم بلغات يعجب منها كل فصيح ولسن •

في روضة نصبت أغصانها وغدا
 قد جمعت جمع تصحيح جوانبها
 والرياح قد اطلقت فيه العنان به
 والرياح تجرى رخاء فوق بحرتها
 والرياح ترقم في أمواجه حبكا
 والماء ما بين مصروف وممتنع
 والترجس الغض لم تغضض نواظره
 كأنه ذهب من فوق أعمدة
 ذيل الصبا بين مرفوع ومجروح
 والماء يجمع فيها جمع تكسير
 والغصن ما بين تقديم وتأخير
 وماؤها مطلق في زى مأسور
 والغيم يرسم أنواع التصاوير
 والظل ما بين ممدود ومقصور
 فزهرة بين منفض ومزور
 من الزمرد في أوراق كافور

روضة أريضة ، عيون ازهارها مريضة ، وأنواع البركات من
 نهرها مفيضة ، ونوازع الهموم والغموض بها مفيضة *

بلد اغارته الحمامة طوقها وكساه حلة ريشة الطاووس
 روضة حى مجمع البحرين ، ومختار تقابل مطلع البدرين ،
 ومنهاج يسير فيه كل فلك من النواعير وبدر فهي على كل الأحوال
 ذات النورين :

يا جذا في الحسن ناعورة كأنها من فلك الشمس
 تحمى حمى الروضة من مائها وشكلها بالسيف والترس

ذات وجهين غير ما يجرى فيها بالنقل والتخريج ، فاربت على
 السبعة الأوجه بما حوته من كل منظر بهيج ، لم يفز غيرها بحسن الا
 وكان لها منه قسم قسيم ، ولم تتقابل وجوه المناظر الا وكان وجهها
 وسيم ، فلا غرو ان كانت ملكة المنتزهات فانها اوتيت من كل شيء ولها
 عرش عظيم *

من مات فيها وهو مغفور له فمن الجنان الى جنان ينقل
ان فاخرتها مصر بانها القديمة قالت انا الجديدة ، ولكل جديد
ثدّة ، أو ناظرها الجزيرة الوسطى قابلتها بالكسر وقالت انا في ملازمة
النيل الفردة البدة ، وان تطاولت نحوها الجزيرة الكبرى اعرضت عن
القال والقييل ، وقالت انى يقاس بخرطومى المشتهى زلومة القيل ، وان
تقال التاج أنا المرفوع على الروس ، قالت أنا عروسة الحسن لاسيما
فى عرس النيل والتاج فى خدمة العروس ، وان قالت السبعة الأوجه
قد تعددت منا الوجوه والمناظر ، قالت رب واحد كالف أو يزيد عند
المناظر .

ارى المشتهى فى روضة الحسن قد بدأ
على رصد المعشوق قالقلىب واحد
لمعرك ما السبع الوجوه اذا بدت
بمغنية عن وجهه وهو واحد

كأنها بدر والنيل حولها هالة ، أو شمس فى وسط سماء ليس
عليها سحابة أو غلالة ، أو وجه دار عليه طيلسان ، أو سرير ملك نصب
فى ميدان أو قلب جيش له مصر والجزيرة جناحان ، تبرجت بأنواع
الازاهر البهجة لا بالشيوخ والقيصوم ونادها لسان الربيع يا روضة
سنمسك بالخضرة على الخرطوم ، ونغير الأسلوب وتقول نثرت السماء
على أغصانها النجوم وارثشف من خرطومها زلال الريق والرجيق فلم
يحتج فى كلا الحالين الى خرطوم .

وخص البحر منها كل خص وعم بروضها الزاهى أكامه
فقلت وقد سقى الخرطوم علا أخرطوم بدا لى أم مدامه
كانت دار ملك وخلافه ، وسرير سلطنه ورتبة أنافة ، ومسكن

علماء أعلام ، ومجلس قضاة وحكام ، ومقر صلحاء وعباد ، ومفسر
صوفية وزهاد ، ويكفي في الرد على المعارض قول الشيخ عمر بن
الفارض :

جلق « جنة » من تاه وبأها برباها غيرها لولا وبأها
قال غال بردى كوثرها قلت غال برداها برداها
وطنى مصر وفيها وطرى ولنفسى مشتتها مشتتها
ولعيني غيرها ان سكنت يا خليلي سلاها ما سلاها
وكم سكن بها من خلفاء وملوك وامراء ، وكتاب ورؤساء ووزراء ،
وقراء وأولياء ، وفقراء وأغنياء ، وأكباء وأغبياء ، وذوى هنات
واتقياء ، تلاوة قرآن ، وتدريس افنان ، وشعائر وآذان ، ونغمات
والحان ، وقضاء أوطار ، وضرب أوتار ، كل نفس بما كسبت رهينة
وعلى ما حملت من أمانة دينها أمينة ، فهذا يسعى في خلاص ذمته ،
وأداء اماتته وهذا يوقعه القدر في جبال جنائته بخيائته ، قل كل
يعمل على شاكلته ، فكأن لسان الحال ، يقضى بأن الحريرى انما
عناها حيث قال :

بها ما شئت من دين ودينا واخوان تأسوا فى المعانى
فمشغوف بآيات المثانى ومفتون برنات المثانى
ومضطلع بتلخيص المعانى ومطلع الى تخليص عانى
وكم من قارىء فيها وقار اضرا بالجفون وبالجفان
وكم من معلم للعالم فيها وناد للندى حلو المجانى
فصل ان شئت فيها من صلى واما شئت فادن من الدنان
ودونك صحبة الاكياس فيها أو الكاسات منطلق العنان «

الحق ان المقامة - بل الرسالة - قطعة أدبية تعليمية جميلة تعلم الانشاء الجيد وترسم الصور البارعة وتنبه الى الشعر الرقيق اللطيف ، انها والأمر كذلك زاد طيب للناشئ يتعلم منه ، وسلوى طيبة للأديب يستمتع بها ويطرب •

هذا ونود الاشارة الى أن الكثير من الأبيات الشعرية والعبارات النثرية التي حفلت بها هذه الرسالة قد سبق ورودها والتمثل بكثير منها في كتاب للسيوطى أسماه « كوكب الروضة » •

مقال فى الوعظ : مقامة الحمى :

لم ينس السيوطى نفسه وهو يكتب فيض خواطره الأدبية ، لقد كان الرجل أماما جليلا وعالما فذا صاحب مشاركة فى الهداية وحسن التوجيه ، ومن ثم فقد عمد الى توظيف قلمه من خلال مقاماته الى وعظ الناس اذا ما تعرضوا للمحن وهدايتهم حين تنزل بهم النوازل • وللسيوطى فى مجال الوعظ والهداية والارشاد مقامتان احدهما طويلة وهى المقامة الولدية والأخرى قصيرة وهى مقامة الحمى •

فاما المقامة الولدية فموضوعها التعزية عن فقد الأولاد ، وفيها يتمثل السيوطى بأيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة وأقوال الأئمة والعلماء ويقدم نماذج كثيرة متنوعة من الشعر تعالج الموضوع وتدخل السلوى والأمن على النفوس المحزونة بفقد ولد عزيز أو ابن حبيب ، ويستهل السيوطى مقامته الولدية هذه بقول الله عز وجل : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين اذا أصابتهم مصيبة قالوا انا لله وانا اليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون » • ويضفى السيوطى على مقاله الثوب الدينى

والوشاح الوعظى وما يستتبع ذلك من ضرب الأمثال والاستشهاد
بالأخبار والأشعار •

وأما مقامة الحمى فانها هي الأخرى وسيلة ينفذ الكاتب من
خلالها الى اىصال الكلمة الطيبة الى قلب القارئ يعتبر الحمى امتحانا
من الله يصبر على اجتيازه فاذا صبر فقد نال ثوبا وأجرا ، بل ان
السيوطى يحاول ان يجعل من مقاله وسيلة لاطهار براعته فى الطب
فيذكر للحمى عددا من الفوائد ، وقدرها من المزايا ، « لها منافع بدنية ،
وماثر سنية غير دنية ، وذلك أنها تنفى البدن ، وتنفى عند الافن
والعفن •• وذكروا انها تفتح كثيرا من السدد ، وتنضج من المواد
والأخلاق ما فسد » •

ان السيوطى يتخذ من كل من المقامة الولدية ومقامة الحمى
سبيلا الى الوعظ والارشاد والتوجيه والهداية ، ويتخذ لكل مقام
من الأساليب • ما يناسبه ومن الأمثال ، ايلائمه ومن الأشعار ما يظاهاه ،
وان كان قد عمد فى مقامة الحمى الى شىء آخر هو اظهار مقدرته فى
علم الطب وذلك على حساب الشعر الذى انعدم فى هذه المقامة أو
كاد بقدر ما كثر فى المقامة الولدية وتعدد وزاد •

واقدر يجدر بنا قبل أن نترك هذا الضرب من المقامات لكى نتنقل
الى ضرب آخر منه أن نسجل مرة أخرى ان هذا النهج من الكتابة
لايتم الى شكل المقامة التقليدية بسبب ولا يرتبط بمبناها بوشيجة ،
وانما ذلك الذى قدمنا للسيوطى من نماذج لا يخرج عن كونه مقالات
انشائية أو رسائل أدبية أدت غرضها بنجاح فى نطاق الهدف الذى
استهدفه الكاتب سواء أكان ذلك الهدف جدلا علميا ، أو تسجيلا
لتاريخ حياة أو هجاء لخصم أو وصفا أدبيا لجزيرة أو مكان ، أو
وعظا وهداية وطلب سلوى فى محنة أو نازلة •

ان السيوطى فى مقالته الأخيرة قد تقمص شخصية الواعظ القديم الذى يكتر من ضرب الأمثال ، وربما وضع بعضها كما التزم أسلوب الوعظ من الحرص على السجع الفصير المتتالى المتلاحق واللعب بالألفاظ والمجانسة بينها فى شىء من الغلو والمبالغة .

مقامات المناظرات :

هذا النوع من المقامات تكلف فيه السيوطى جهدا كبيرا ، ولكنه يدل على الطاقة الأدبية الانشائية الرائعة التى كانت كامنة فى عقل هذا العالم الجليل ، ذلك أنه يكتب المقامة فى موضوع ما ، وغالبا ما يكون الموضوع ذا طرفين ، يكمن فى احدهما الشر ويستكن فى الطرف الآخر الخير ، ثم يجرى السيوطى وصف كل من الخير والشر على السنة عدد من العلماء بحيث يستعمل كل واحد منهم الألفاظ التى تتفق مع مهنته والعبارات التى تتسق مع تخصصه ، ان السيوطى يسوق أقوال هؤلاء العلماء من ذوى التخصصات المختلفة فى كثير من الرشاقة والحدق والمهارة الى المدى الذى يتصور معه القارىء أن السيوطى قد مارس هذه التخصصات جميعا .

ولقد وقع بين أيدينا من المقامات التى تسير على هذا النهج وتعالج هذا الوجه ثلاث بارعات هى المقامة الطاعونية والمقامة النبيلة ، ومقامة النباء التى أطلق عليها السيوطى عنوانا طريفا هو « رشف الزلال من السحر الحلال » .

المقامة الطاعونية :

تصور هذه المقامة (١) حلول وباء الطاعون بمصر سنة سبع وتسعين وثمانمائة ويدوها بما يتناسب مع هذه الكارثة ويبعث فى

(١) المقامات المطبوعة من ٦٩ - ٧٥ .

علمه وثقافته ، فلما انحسر عاد السيوطى فأجرى على لسان كل من الناس تسليما بالأمر الواقع ويستهلها بالقول الكريم « كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » ثم يصف سير الطاعون منذ خروجه من بلاد الروم ومروره بحلب وانتقاله الى مصر وصفا تفصيليا ، كما يصور فزع الناس في مصر لوصوله وكيف انه اجتث بلادا بأكملها مثل بلدة الخانكاه التى كان ضحايها فيها كل يوم ثلاثمائة ، وكان عمله في غيرها لا يقل عما انزله بها « عاث في الناس بحرا وبراً ، وكم اخلى قصرا وملاً قبرا ، فأخذ البنين والبنات ، والفتيان والفتيات ، وجمع في الموت بين كل الفين ، وبلغ عدد الموتى في كل يوم أزيد من ألفين ، واقيل أكثر من ذلك بضعف أو ضعفين » ويتابع السيوطى في مقامته هذا الوباء في سيره وتحركه ويصف فعله بالناس في كل بلد من بلاد مصر ، ثم يجرى وصفا لفتكه على لسان المقرئ والمحدث والفقير والأولى والنحوى والصرفى والبليغ ، كل يستعمل كلمات متسقة مع هؤلاء حمدا لله وشكرا على نفس النهج وذات الأسلوب •

يقول المقرئ في وصف محنة الطاعون : هذا باب الادغام الكبير في اللحود والاخفاء لكل بدر منير مغرب في الأخدود ، والاقلاب لكل عبد أبق الى فلك الردى وبر ودود • لئن تكرر هذا المد المتصل في الإكفاف ليتلون كل منفصل كل من عليها فان ، ولئن هجم هذا الدانى بحملته على القوم ، ليقولن كل امرئ منهم لا عاصم اليوم ••

وقال المحدث : قد جرى الدمع المتراكم ، ونفذ في العام الماضى ما حكم به الحاكم ، من صحبح به أصبح للوساد مسندا ، وعزيزا ضحى في لحده غريبا مفردا وضعيف أصبح على النعش موضوعا ، وعلى أعناق الرجال مرفوعا ، وكم متصل الحياة به صار منقطعا مقطوعا •••

وقال النحوى : قد أفنى ذلك العام الماضى كل خليل ، وأتى بكل

خطب جليل تواترت فيه من القاضية جمل ، ولم يبلغ فيه أحد من الشافية أمل ، كم ساء فيه من حال وتعطل فيه من حال ، ورفع كل فاعل ونائبه ، ولحق دل مطاوب بطالبه وجمع الموت بين كل مصحوب وصاحبه وصاحبه ، وكم أخذ من كبير منضم ، وأخلى من بيت مرخم فان عاد ضمير الفصل ، وقضى الشأن له بالوصل ، فورب الليالى وما وسق ، والقمر اذا اتسق ، لئن عطف عاما بعد عام على نسق ، ليقطن عائد كل موصل ، وليذهبن كل ذى حاصل ومحصول وليفتحن بابى الاستغاثة والندبة ، وليرفعن بابى التمييز والنسبة •••

وهكذا نرى السيوطى أجرى فى براعة تامة وصف الكارثة على لسان المقرء الذى يستعمل اصطلاحات القراءات من ادغام واخفاء واقلاب ومد ووصل وفصل وتسكين وتنوين ، بل استعمل السيوطى اسم عاصم صاحب القراءة المشهورة فى ثورية لطيفة من خلال الآية القرآنية الشريفة : « لا عاصم اليوم من أمر الله » •

وحين يجرى السيوطى وصف الطاعون على لسان المحدث نراه يستعمل أنواع الأحاديث من صحيح ومسنند ومفرد وضعيف وموضوع ومرفوع ومقطوع •

وحديث النحوى عن الطاعون طويل ملىء بأكثر أبواب النحو وكتبه فهو يذكر الحال والفاعل ونائب الفاعل والضمير والوصل والفصل والعطف والموصول والعائد والاستغاثة والندبة والتمييز والمسنند والمسنند اليه وغير ذلك مما حواه حديث النحوى وهو يصف الطاعون •

ولقد أجرى السيوطى أحاديث مماثلة على السنة الفقيه والأصولى والصرفى والبلغ •

والمتتبع لبقية المقامة يستطيع أن يلمس براعة السيوطى فى اجراء
كلمات الشكر والحمد على لسان من هؤلاء بعد انحسار الطاعون •

المقامة النيلية (١) :

السيوطى مغرم بالنيل غرامه بالروضة غرامه بمصر كلها ولذلك
فهو لا يستطيع أن يكتب مقاماته دون أن يخص النيل بوحدة منها بل
من أطرفها وأكثرها براعة انشاء وخرابة تكوين •

ان النيل يأتى بالنعمة والخير اذا فاض ، ويسبب النكبات والغلاء
والمجاعات اذا أخلف وعده وفاض • ان الامام السيوطى يجعل محور
مقامته حول هذين الحادثين : يتأخر النيل عن الوفاء فيفزع الناس
ويكون الغلاء فيجربى السيوطى فى مقامته وصف حال مصر وكرهها
على لسان اثنين وعشرين من أصحاب العلوم الدينية واللغوية والأدباء
والفنانين وأرباب المهن وهم المقرئ والمحدث والفقير والفرسى
والأصولى والجدلى والصوفى والنحوى والتصريفى واللغوى والمعنوى
والبيانى والبديعى والعروضى والشاعر العربى والشاعر المولد والكاتب
والطبيب والمنطقى الموسيقى الميقاتى والمؤذنين •

ثم يؤذن النيل بالارتفاع والفيضان بالوفاء ، والأرض بالرى ،
والزرع بالنماء ، ويعم الخير ، ويحل الرخاء ، فيجربى السيوطى مرة
أخرى وصف هذه الحالة الجديدة على لسان كل واحد من هؤلاء
الأعلام العلماء الاثنين والعشرين •

ان الأمر الذى لا شك فيه أن السيوطى يمثل طاقة لغوية كبرى،
وذخيرة أسلوبية فذة ، وبراعة فى انماط الكتابة وقدرة فى حسن
التصرف وموهبة على الاطراف والابداع تجعل منه كاتباً فذاً بالاضافة
الى ملكاته الكثيرة الأخرى • ولعل كاتباً آخر لم يلحق بالسيوطى

(١) المقامات المطبعة ص ٥٨ - ٦٣ •

في ابداع هذا النمط الذي تفرد باجاده عالمنا الجليل دون غيره ممن حاول السير في هذا الدرب من دروب الكتابة الفنية •

رشف الزلال من السحر الحلال (أو مقامة النساء) :

هذه مقامة وليست مقالة ، فلها من المقامة هيكلها وبنيتها ، وموضوعها وهدفها كما أن روح الحكاية وعنصر المغامرة يتمشى في أردانها ، فقد جعل السيوطي لمقامته هذه راوية على نسق المقامات التقليدية ، فاذا كان راوية مقامات بديع الزمان هو عيسى بن هشام ، وراوية مقامات الجريري هو الحارث بن همام فان راوية هذه المقامة هو ابو الدر نفيس بن ادريس ، واذا كان لمقامات بديع الزمان بطل واحد هو ابو الفتح الاسكندري ، وللجريري كذلك بطل واحد هو ابو زيد السروجي ، فان السيوطي قد جعل لمقامته هذه الطويلة عشرين بطلا هم : المقرئ والمفسر والمحدث والفقيه والاصولي والجدلي واللغوي والنحوي والصرفي وصاحب المعاني صاحب البيان وصاحب البديع وصاحب العروض والكاتب وصاحب الحساب وصاحب الهيئة وصاحب المقيات والطبيب وصاحب المنطق والصوفي •

لقد وضع السيوطي عناصر فكرته في قالب الحكاية واستهدف بها محاربة انحراف خلقى شائن شاع في العالم العربي فترة طويلة من الزمان منذ أن اختلط العرب بالفرس على أيام العباسيين ثم تفشى هذا الانحراف على أيام المماليك والأتراك ونعنى به الشذوذ الجنسي ومعاشرة الغلمان •

ان السيوطي يجرى قصة المقامة على لسان الراوية ابي الدر نفيس بن ادريس الذي يروي ان جماعة من الأصدقاء من مقرئ ومفسر ومحدث وفقيه واصولي وجدلي وكل هؤلاء الاشخاص الذين أسلفنا ذكرهم قبل قليل خرجوا يوم عيد الى مسجد بعيد لأداء الصلاة

ثم استمعوا الى الخطيب الذى اعتلى المنبر والقى عليهم موعظة طويلة تجمع على الترغيب فى الخير والترهيب للانصراف عن الشر والانحراف وبخاصة تلك العادة الذميمة التى كانت متفشية بين الرجال، ويورد الخطيب كثيرا من المقطوعات الشعرية التى قيلت فى تقبيح تلك الجريمة واستهجانها * وما أن انتهى الخطيب من موعظته حتى عادت العصابة أدراجها وقرر كل واحد منهم أن يتزوج فتاة جميلة ، وفى صبيحة اليوم التالى حكى كل منهم بلغته والأسلوب الذى يتفق مع تخصصه ومهنته ما حدث ليلة الزفاف على سبيل التفصيل من غير تحفظ فى اللفظ أو تصرف فى التعبير *

وهنا نقف قليلا بل طويلا متحيرين ازاء الصراحة العارية والألفاظ المكشوفة والكلمات المفرطة فى الاباحية التى جرت على لسان السيوطى فى هذه المقابلة * أنه أدب - ان صحت هذه الكلمة - مكشوف الى الحد الذى يخجل منه القارئ أى قارئ ، وان المرء ليتحير فى تسميته ، أهو أدب مكشوف أم أدب جنسى ، أم أدب فراش *

وهل هو لون من ألوان التحدى أقدم عليه السيوطى ليثبت أنه مستطيع الاسهام فى كل فن من فنون القول غلا أم رخص ، صعب أم سهل ، لئن كان الأمر كذلك فالثمن لا يعدل السلعة والصفقة - من حيث مكانة الشيخ - خسارة على كل حال *

أم أن السيوطى وقد هاله الفساد المتفشى فى المجتمع وانتشار فاحشة الغلمان بين الناس رأى أن يعالج مرضا شديدا الضرر بعمل فنى مهما بلغ قبجه فهو لبنة نحو البناء وجهه فى سبيل الدواء فكذب ما ينفر من هذه الآفة ، وأنشأ على ما يشجع على التحويل الى النساء ولو عن طريق الاثارة الجنسية والصراحة غير المرضية * الحق أنى لم أصل بعد الى رأى أخير *

مقامات المفاخرات :

كانت المقامات التي عرضنا لها في الفصل السابق حاوية ألوانا من المناظرات أى أن كل عالم ذا انتماء بذاته وثقافة بعينها يدلى بدلوه مع غيره من نظرائه في موضوع مشترك بين جميع المتناظرين حسبما وضح في المقامة الطاعونية والمقامة النبيلة ومقامة النساء *

وأما مقامات المفاخرات فهي أن تجتمع طائفة متجانسة من قبيل بذاته كالجواهر أو الازهار أو الفواكه ، ويحاول كل نوع الجواهر مثلا أن يتبى على أقرانه أو يفخر على اخوانه والشئ نفسه يمكن أن يحدث بين أصناف الأزاهير بعضها وبعض ، أو بين أنواع الفاكهة على اختلاف ألوانها *

لقد جعل السيوطى كثيرا من هذه الميادين موضوعات لبعض مقاماته فكانت من الطرافة بحيث تمتع الخاطر ومن السلاسة بحيث تريح الذهن المكدود وتفيد القارئ الذى يبغي تحصيل أدب وترويحاً عن النفس *

والحق أن المناظرات والمفاخرات بين الأشياء المتناظرة ليس من ابتكار السيوطى أو اختراعه فقد سبقه الى ذلك المضمار كثير من الأدباء ، وهناك أكثر من أديب كتب مناظرات بليغة بين السيف والقلم ، وهناك أيضا من أجرى مفاخرات بين العلوم فلقد أنشأ القلقشندى رسالة طويلة في هذا الموضوع ضمنها نيفا وسبعين علما منها النحو والشعر والعروض والموسيقى والطب والتاريخ وقص الأثر وعلم الكف وعلم النجوم علم اليئة المواقيت والسحر والهندسة والكيمياء والحساب والجبر والفقه والفرائض والاصول المنطق ورواية الحديث ودراية الحديث والتفسير والقراءات التصوف وغير ذلك من العلوم الدينية

والدنيوية ، وقد حاول القلقشندي أن يكسب السبق لكل علم على
أقرانه في مناظرة طويلة غاية في البراعة والامتاع (١) •

لقد سار السيوطي على نفس الدرب ولكن في نطاق المقامة النني
هي أقرب ما تكون الى القصة ، فضلا عن الشوب الأنيق مع بعض
لمسات دينية وأخرى طيبة بسطها عالمنا الجليل على عدد من المقامات
في هذا الميدان •

ولعل أشهر المقامات التي خلق السيوطي فيها هذا اللون من
المفاخرة هي المقامة الياقوتية ، والمقامة الوردية ، والمقامة التفاحية ،
فنى الياقوتية جعل كل حجر كريم يفخر على أقرانه ، وصنع نفس
الصنيع في كل من المقامة الوردية والمقامة التفاحية حسبما سوف نوضح
في السطور التالية •

المقامة الياقوتية :

جمع السيوطي في هذه المقامة سبع أحجار كريمة هي الياقوت
واللؤلؤ والمرجان والزمرد والزبرجد والعقيق والفيروز وأجرى بينهما
مفاخرات بحيث جعل كل حجر كريم يتحدث عن نفسه فيفخر أول
ما يفخر بورود اسمه في القرآن الكريم ويذكر الآيات التي ذكر فيها،
ثم يذكر الأحاديث الشريفة والأخبار التي ذكر فيها ، ثم يعطف بعد
ذلك الى ذكر فوائده الطيبة التي عادة ما تكون من الكثرة بحيث
يشفي كل العلال ويقى من جميع الأمراض • وآخر ما يفخر به الحجر
الكريم تسجيل منتخبات من قول الشعراء فيه وتكون عادة من الشعر
المنتقى الرقيق ، هذا وقد اطلق السيوطي هذا الاسم على مقامته من
باب تسمية الكل باسم الجزء •

(١) صبح الاعشى ٢٠٦/١٤ •

على أن عددا من الاحجار الكريمة لم يجر ذكرها في القرآن ولم يرد لها خبر في الحديث الشريف . فالزهررد والزربرد والعقيق والفيروز لم يذكر واحد منها في القرآن الكريم . وهنا يحاول السيوطي على لسان هذا الحجر أو ذلك أن يعوضه بمزيد من الأحاديث الشريفة أو الفوائد الطبية الخطيرة الجليلة ، أو أقوال بليغة ورقيقة لشعراء فنانين .

فلنقدم مقطوعات من المقامة الياقوتية ونستعرض النهج الذي نهجه السيوطي ونحاول أن نرى الى أى مدى التزم هذا السبيل والى أى حد أصاب نجاحا وتوفيقا (١) .

« اجتمع سبعة من اليواقيت ، وتصدوا للمفاخرة ، وللمكابرة لا للمكابرة ، أيهما في الرتبة أعلى ، وفي الزينة أعلى ، وفي المنظر أحلى ، وفي المخبر أجلى ، فعقدوا لكل منهم في حلقتنه منعمة ، وأشاروا اليه بالأصابع بحيث أضحى عين الخاتم وفصه ، فقال الياقوت :

الحمد لله الذى خلقنى حسن التقويم ، وجعلنى أبهى فى العين من الدر النظيم ، وشرفنى على كثير من الأقران ، حيث ذكرنى بصريح اسمى فى القرآن فى قوله تعالى فى سورة الرحمن « كأنهن الياقوت والمرجان » وقد منى فى الذكر وذلك يدل على أنى من المرجان أنه ، وأشرف منه مقاما ورتبة ، وكم ورد ذكرى فى الأحاديث الصحاح والحسان ، فى صفات ما أودعه الله تعالى فى المحاسن فى الجنان من ذلك حديث عن أفاض الله عليه من المكارم فيضا بنى الله جنة عدن لبنة من ياقوت حمراء ، ولبنة من زبرجدة خضراء ، ولبنة من درة بيضاء ، ومن حديث مرفوع رواه حافظ مجدد ، الدرجة الثالثة من الجنة دورها وبيوتها وأبوابها وسررها ومعاليقها من ياقوت ولؤلؤ

(١) المقامة الياقوتية ميكروفلم ٩٤٨ ادب المخطوطات العربية .

وزبرجد • وفي حديث صحيح الثبوت ، حسبهاؤها اللؤلؤ والياقوت ،
 وفي حديث من الحسان ، درجها اللؤلؤ والياقوت ، وأبوابها اللؤلؤ
 وترابا الزعفران • وفي حديث رواه البيهقي وعد به المصلى اجرا :
 ليس عبد « مؤمن » يصلى في ليلة من رمضان الا بنى الله له بيتا في
 الجنة من ياقوتة حمرا وفي أحاديث صحاح وحسان : في الجنة خيل من
 ياقوت لها من الذهب جناحان اذا ركبها صاحبها طارت به في الجنان ،
 فما ذكر بمعرض الترغيب والتنبيه • والأو وكان لى بذلك فخار ورفعته
 وتنويه ، وقد ورد في احاديث تثبت للشرف والفخر : تختموا بالياقوت
 فانه ينفي الفقر • وأما الخواص المودعة في تشريفه والمنافع الموجودة
 فنيفه ، من ذلك أن التختم بى والتعليق ، يمنع من اصابة الطاعون على
 التحقيق ، ولى في الفريج ، وتقوية القلب الجريح ، ومقاومة السموم ،
 ومدافعة الهموم والغموم ، ما هو مشهور معلوم ، ومن خواصى أنه
 لا تعمل في المبارد ، واذا صليت بالنار لم تؤثر في مورد من الموارد ،
 وحسبك قول الشاعر :

وطالما أصلى الياقوت جمر غضا ثم انطفى الجمر والياقوت ياقوت
 وقال الآخر :

ما باله يجفو وقد زعم الورى ان الذى يختص بالوجه الندى
 لا تخذ عنك وجنة محمرة رقت ففى الياقوت طبع الجلمد

وقول الآخر :

أما ترى الورد على غصنه فى روضة البستان للمنظر
 صحاف ياقوت وقد رصعت فى وسطها بالذهب الأصفر

وقال الآخر :

ومن ملح الأيام يوم قضيته لدى روضة فيها لأحبابنا قوت

لبست به من أخضر الروض حلة وأزرارها من حمرة الورد ياقوت.
وقال آخر :

أرأيت أحسن من عيون النرجس
أم من يلاحظهن وسط المجلس
در تشقق عن يواقيت على
قضب الزبرجد فوق بسط السندس
وقال آخر :

انظر الى برجس في روضة أنف غناء قد جمعت شتى من الزهر
كان ياقوته صفراء قد طبعت في غصنها حولها نبت من الدر

وقال اللؤلؤ : الحمد لله الذى ألبسنى خلعة البياض ، وجعلنى
بين اليواقيت كالنور فى الرياض ، ومن على بالتبجيل ، وحيانى بالتنويه
والتنويل ، وكرر ذكرى فى عدة مواضع عن التنزيل ، وقد منى فى الذكر
فى القرآن ، قوله تعالى فى سورة الرحمن : « يخرج منهما اللؤلؤ
والمرجان » ، وشبه بى الحور والوالدان . فقال تعالى فى كتابة المصون
« وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون » وقال تعالى موعبا للمؤمنين
ومخدرا أن يطيعوا آثما او كفورا . « ويطوف عليهم ولدان مخلدون
إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا » . وقال تعالى فى الأخبار عن أهل
الجنة وذلك الفضل الكبير « يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا
ولباسهم فيها حرير » وقد ذكرت فى الأحاديث كثيرا ، ونحت فى صفة
الجنة على لسان من أرسل بشيرا ونذيرا ، فف حديث عن خص
بنهر الكوثر ، أن فى الجنة غرفا من أصناف الجواهر ، وفى حديث رواه
حفاظ الأخبار وأربابها أن أدنى أهل الجنة منزلا من له دار عن لؤلؤة
واحده من غرفها وأبوابها . . .

وعن حكومة : ما أنزل الله من قطرة الا أنبت بها في الأرض
شبة أو في البحر لؤلؤ اودرة • وكس في من منفعة اودعها الرحمن ،
اقوى قلب الانسان وانفع من فزع السوداء وخوفها ومن الخفافان •
واجلو الأسنان وانفع من بيان العين ، واجلو ما فيها من الظلمة والوسخ
والعسین أشد عصبها وأجفف رناوبتها وأخفف وصبها وأحبس الدم
وانفس الغم ، منافع صالحة لكل غادية ورائحة ، وتجارة رابحة ، لمن
أراد حلية ورفعة جائحة ، وتشسيهات في الشعر في كالبجر طافحة ،
قال الشاعر :

وقال آخر :

وعذبنى قضيب في كتيب تشارك فيه لين واندماج
أغار اذا دنت من فيه كأس على در يقبله زجاج

وقال الآخر :

ياحسن أشجار لوز تسقى بصوب الغمام
تنائر النور منها كالدرد من كف ناظم
الاجذا القتاء أكلا وجذا
تكسبه لو كان يدخر من كسب

كأمثال قضبان الزبرجد أودعت

لآلئ جبات من اللؤلؤ الرطب

ثم يجرى ذكر المرجان والزبرجد والعقيق والفيروز على نفس
النسق والأسلوب •

وهكذا تنتهي المقامة الياقوتية ولكن دون أن نحس فيها بروح

الحكاية التي تكمن عادة في المقامات ومن ثم فإن هذه المقامة في واقعها ليست الا رسالة مفاخرة شأنها في ذلك شأن الرسائل والمقالات لا شأن المقامات .

المقامة الوردية :

لعل هذه المقامة أفضل مقامات المفاخرات التي كتبها السيوطي ، فلقد مرت بنا المقامة الياقوتية ، ويمكن مراجعة المقامة الفستيفية ، والمقامة التفاحية وكلها تفتقد روح المقامة وان شكلت نموذجا ايقنا للكتابة في مجال مفاخرة الأشياء المتناظرة واستعراض ما قاله الشعراء فيها .

أما المقامة الوردية فان روح القصة تشيع في أردانها وهيكل المقامة واضح المعالم في بنيتها واطارها ، والمفاخرة تجري في المقامة بين الأزاهير التي هي الورد والرجس والياسمين والبان والنسرين والبنفسج والنيلوفر والآس والريحان ، وقد بذل السيوطي جهدا كبيرا لكي يخلق جوا من التوازن بين هذه الأزاهير التي جعل كل زهرة منها تتيه بمفاخرها ثم لا تلبث أن تنهض أخرى لكي تثلبها مؤهلات الفوز ثم تلتفت الى فضائل ذاتها مفصلة متباهية ، وعرض علينا السيوطي ألوانا من الصدام الطريف بين كل زهرتين مثل ذلك الصدام الذي جرى بين الورد والرجس حين اشتشهد هذا الأخير ببستين لابن الرومي في الورد نزلا به من علياء افتخاره الى حضيض من القبح والسخرية .

ويحرص السيوطي في مقامته هذه دون غيرها من نظيراتها على أن يجعل فيها رواية ، وأن يلتزم بنمط الرواية المسندة ويتمسك بالنعمة التقليدية التي تتسم بالأنسجام مع طبيعة الموضوع ولا تخلو من دعابة ولطافة ، فالرواية هو الريان الذي يحدث عن أبي الريحان

عن ابى أبان ، عن بلبل الأغصان ، عن ناظر الانسان عن كوكب
البستان عن وابل الهنان • فهل هناك اسناد الطف من هذا الاسناد
جانبا أو أرق منه حاشية ؟ •

هذا والمقدمة نفسها موسومة بالرقعة مترعة بالشاعرية متشحة
بالدعابة مغمورة بلطافة الأسلوب • ان وابل الهتان - رأس الاسناد -
يقول : «مرت يوما على حديقة خضرة نضرة أنيقة ، طولها وردية ،
واغصانها وريقة ، وكوكبها أبدى بريقة ذات ألوان وأخنان ، وأكمام
وأكنان ••• » وهكذا يعزف السيوطى على هذا النمط الأسلوبى
الايقاعى فى أكثر مراحل المقامة ، ومع الجهد المبذول من لدن كل زهرة
لتنفوز بعرش الزهور يعمد السيوطى الى عنصر المفاجأة فى آخر المقامة
فيضع أمل كل زهرة فى الملك ولكن فى جو الرضى ووسمة
من الاقتناع (١) •

لقد انتهت المقامة بمفاجآت لطيفة ، فقد قبل قبيل الأزاهير
التحكيم لدى عالم بالأصول والفروع الذى حكم لزهرة من خارج
الحلبة ولم تشترك فى المفارقة وتطوع رئيس التحكيم لتقديم مؤهلات
الفوز للزهرة المختارة وهى الفاغية ذلك انها الزهرة المفضلة عند رسول
الله صلى الله عليه وسلم •

ان المقامة مترعة بالأسلوب الدفاق المرتاح برغم الصناعة
البديعة التى توشىها بين الحين والحين ، ففيها جناس كثير ، وفيها
توريات عديدة ، والمقامة بعد ذلك يمكن ان تمدنا بديوان شعر لطيف
فى موضوع الزهريات ، والشعر فى الأزهار حسبما نعرف يعتبر من
أرق فنون الشعر وأوفرها جمالا وألطفها خبالا •

(١) مقامات السيوطى ص ١١ وما بعدها •

والسيوطى دائم الانسجام مع نفسه ، فهو لا ينسى لحظة واحدة انه من أئمة علماء الدين ولذلك فان كل مقاماته موشاه بالآيات القرآنية ، مزدنة بالأحاديث النبوية وهو دائم ترديد عبارات التمجيد للرسول والثناء عليه والاجلال لمقامه *

والحقيقة أن المتقامة الوردية عمل أدبى رفيع لولا أن السيوطى أفسدها بالمواصفات الطبية الكثيرة جدا بحيث تبدو المتقامة في كثير من مراحلها وكأنها دائرة معارف ادوية أو موسوعة فارما كويا حسب التعبير الفنى عند أساتذة الصيدلة *

هذا ونود أن نشير ونحن في صدد الحديث عن محاورات ومفاخرات بين الزهور أن هذا الفن ليس من ابتكار السيوطى ، فلقد عمد كثير من الشعراء منذ القرن الرابع الى انشاء قصائد شعرية يفضلون فيها زهرة على أخرى أو يجرون محاوراة بين زهرتين أو أكثر ويحضرنا في هذا المقام أبيات للصنوبرى شاعر الروضيات أجرى فيها مفاخرة بين الورد والترجس وانجاز فيها الى جانب الورد فقال :

زعم الورد أنه هو أبهى من جميع الأنوار والريحان
فأجابته عين الترجس الفضى بذل من قولها وهوان
ايما أحسن ؟ النور أم مقلة رثم مريضة الاجفان
أم فماذا يرجو بحرمة الورد اذا لم يكن له عينان
فزا الورد ثم قال مجيبا بقياس مستحسن وبيان
ان ورد الخدود أحسن من عين بها صغرة اليرقان

فحديث الأزهار اذن ومفاخراتها فن من الفنون القديمة ، ولكن السيوطى وسع أطرافها ورقق حواشيتها وأثرى المفاخرات بما أنشأه

هو نفسه من صناعة وافتنان وبما استعاره من غيره من آداب العربية
من نصوص شعرية مختارة بعناية منتقاه بدوق وروية *

المقامات القصصية التقليدية :

كان السيوطي في كل ما مر بنا من مقامات بعيدا عن الصيغة
التقليدية الموروثة للمقامات المشهورة ، فقد اتحنى ناحية متميزة
جعلت أكثر إنتاجه أقرب الى المقالات منه الى المقامات حسبما سلف
القول وان عمد الى تنوع أشكالها وتغيير مضامينها فهو حينما يجرى
حوارا بين مجموعة متشابهة متكافئة من العلماء وهم يصفون حادثة
ما أو يتناولون محنة بعينها ويتقمص شخصية كل واحد منهم وينطق
بلسانه ويعبر عن مكنون جنانه وهو ما يمكن أن يسمى بجمع الخيال،
وتارة أخرى يجرى مفاخرات بين عناصر متكافئة من الأزهار
أو الخضروات أو الفواكه أو النقول أو الأحجار الكريمة حسبما مر
بنا في الفصل الماضي ولم يحاول السيوطي أو بالحرى لم يعمد الى
صيغة الحكاية الناجحة الا في واحدة فقط هي المقامة الوردية التي
تحدثنا عنها في الصفحات السابقة *

ولكن ذلك لا يعنى أن السيوطي قد انصرف عن انشاء المقامات
التقليدية ذات الرد القصصى والبناء الخيالى فى اطار الراوية والبطل ،
ان السيوطي لم يكن بوسعهُ أن ينصرف عن ممارسة هذا الطراز من
المقامات فهو تلميذ أمين لبديع الزمان ومريد وفى للحريرى ولذلك فقد
رسم على منوالهما واقتفى أثرهما فى عدة مقامات أشهرها المقامة
المكية والمقامة السيوطية والمقامة الجيزية *

ان لكل مقامة من هذه المقامات راوية فصبح هو. هاشم بن
القاسم الذى يقابل عيسى بن هشام عند بديع الزمان ، ولها بطل هو

أبو بشر العلاء الذي يقابل أبا الفتح السكندري عند رائد المقامات الأول ، وان الأحداث لتتشابه والمواقف تتماثل والحوار يتقارب بين مقامات السيوطى هذه وبين مقامات الرواد الأولين *

ففى المقامة المكية مثلا يصف الراوية فى خفة ورشاقة مشاعره نحو مكة المكرمة ويسجل فى لباقة أحاسيسه حيالها ، ثم تتضح شخصية البطل فاذا به حلال للمشكلات جيد الفصل فى المعضلات عالم شاعر كاتب فقه لغوى * يتوجه هاشم نحوه بالمشكلة بعد المشكلة والمعضلة بعد المعضلة وهو يجيب فى سرعة وثقة وبيان ، وفى النهاية بنصح البطل عن ذاته فى أبيات من الشعر *

والشياء نفسه يمكن أن يقال عن المقامة السيوطية فالبطل نفس البطل ، والطابع العام للمقامة هو نفسه الذى اتسمت به المقامة المكية وان كان السيوطى هنا قد أعطى الصيغة الأدبية مزيدا من التألق وغير قليل من الاحتفال ، فبين عنوان المقامة ولقبه نسب وكلاهما يرتبط بنفس السبب *

المقامة المكية :

« حدثنا هاشم بن القاسم قال : ما زلت اقتحم المهامة المخيفة ، وادخل فى المسالك العنيفة ، الى أن نزلت بمكة الشريفة ، فحططت الرحال بعتابها ، وأرحت النفس من عذابها ، وظللت أجوب فى مشاهدها ، وأجول فى معاهدها ، وأسهر فى تأمل محيياها العين ، وأشهد من تجمل رباها ما يهون فيه الحين ، وأتردد فى الغدو والرواح ، واتزود من تلك الآثار فى المساء والصبح ، وأتمنى أدبيا يسلى بمسامرته الغربية ، وأربما ينيل بمحاضرتة الاربة ، فيينا أنا ذات ليلة فى المطاف وقد سمرت سحائب الألفاف ، اذا انا بشعبة مؤتلفين ، وعصبة محتفين ، وهم بين سلام وترحيب ، وبكاء ونحيب ، وفى صدر

الخلقة ، شاب مخيف الخلقة ، قد تدرع بشباب البها ، وتقنع جلباب
الحيا ***** » *

ومضى السيوطى يصف الشاب وصفا دقيقا : شكله وخلقته
ومظهره ومخبره من ادعاء للمعرفة وتسكن من العلوم والمأم بالنظم
والنشر وحل المعضلات والفصل فى المشكلات قائلا :

« قال هاشم بن القاسم : فتساميت الى لقاءه ، وتقدمت الى
تلقائه ، لا ستنور بباطنه على ظاهره ، واستنظر من كامنه على باهره ،
واتخذة معا ضدا ونصيرا ، ومحاضرا وسميرا فقلت : وعيت منك
ما رأيت ، وشممت فيما عنك فهمت ، فأيت على ما أدعيت ببرهان من
الدلائل ، وأجب على ما اقترحتة عليا ، من المسائل . فقال : على الخير
سقطت ومن البحر لقطت . فأوضح عن مسالك ، وأفصح عن مقالك .
فقلت : ما تقول فيمن توضحا ولم يصبح أمه ؟ فقال : لم تصح يا أمة
(والأم الأولى بمعنى الرأس والثانية بمعنى القدم) .

وتتناول الأسئلة والاجابات موضوعات عدة قد صيغت فى
قوالب من الألغاز اللطيفة المألوفة عند الفقهاء واللغويين ، وقد اشتملت
الأسئلة على مثل هذه الموضوعات :

صلاة الحرة وعنقها بارزة والمقصود بالعنق اثى الماعز وجواز
السجود على الجبهة وهى الخيل ، وصحة الصلاة على الفحل ، والفحل
حصير متخذ من فحال النخل ، وجوب الزكاة فى البهار وهو السمكة ،
وجواز بيع الحر والمقصود به الفرس العتيق ، وجواز غصب الكميث ،
والمقصود بالكميث هنا الخمر وهكذا .

وفى نهاية المقامة يسأل السائل المسئول عن اسمه وقد استولى
عليه الاعجاب بذكائه ونبوغه فيجيبه المسئول على سؤله بأبيات يقول
فى بعضها :

يا راغبنا في أربى وهائما في أدبي
وعالما برتبتى ورفعتي في السرتب
انى أبو بشر العلالا في تاج أهل الأدب
قد طوحت بى النبوى بى في بلاد العرب»

وإذا كان من رأى أخير حيال مقامات السيوطى فهو انها نماذج
من فن القول الأدبى تشهد لصاحبها ببلاغة القلم وتمكن الاسلوب
وعمق الثقافة ورحابة الفكرة وخصب العطاء والقدرة على التنوع
وكسر الطوق الذى ضرب حول شكل المقامة وهدفها •

ومقامات السيوطى وان لم تنال من الدراسة قبل اليوم شيئا
ذا بال جديرة بأن يحتفل بها وان يلتفت اليها وان تنشر على المتأدبين
والدارسين بعد تحقيق دقيق •

أما رأى فى السيوطى الأديب والمؤدب ، فمن اليسير أن نقرر
أن الرجل كان كاتباً بليغاً ومرسلاً متفنناً ، ولم يكن كذلك فى الشعر،
ولو أنه قدر لأعمال السيوطى الأدبية ان تنشر وحدها بمعزل عن
آثاره العلمية المتعددة الموضوعات والفنون لكانت شاهدة على أن
السيوطى واحد من رجال الأقلام الأفاضل فى عصره وأنه فى مقدمة
كتاب زمانه ابداعاً وقدرة ، فقد قدم نماذج من الشعر العربى المصرى
على مساحة عدد من كتبه وهو بذلك يعتبر رائداً للدراسات الأدبية
المصرية ، ثم انه ألف فى صميم الدراسات الأدبية كتاباً نفيسة على قدر
رفيع من القيمة العلمية مثل « كوكب الروضة » و « بهجة الخاطر »
و « رشف الزلال فى وصف الهلال » و « كنة المراد فى بيان بانة
سعاد » و « تحفة المجالس ونزهة المجالس » وغيرها •

وفي الشعر ترك عددا من المنظومات العلمية النفسية ، وكثيرا من
القصائد التي ترجمت بين الجودة والتوسط .

فاذا ما عرضنا للسيوطي كاتبا ، فهو كاتب مقالة من الطراز
المتنازع ، وناثر حكمة ومبدع طرفة ، ثم هو بعد ذلك الكاتب الفنان
المنألق في فن المقامات الذي ذلل منته ونوع شكله ومضمونه وخاطب
من خلاله جمهرة القارئین الواعين ، فكان السيوطي — والامر كذلك —
أديبا فذا ومؤدبا مرموقا .

الفهرس

افتتاح الندوة :

٦ كلمة الأستاذ يوسف السباعى

البحوث

١١ ● القسم الأول : السيوطى وعصره

- جلال الدين السيوطى

١٣ للأستاذ الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

- عصر السيوطى

٢١ للأستاذ الدكتور عبد المنعم ماجد

٣٣ ● القسم الثانى . السيوطى مؤرخا

- مهج السيوطى فى كتابة التاريخ

٣٥ للدكتور حسن بن محمد ربيع

- رؤية السيوطى للتاريخ المصرى

٧٣ للأستاذ الدكتور إبراهيم أحمد العدوى

١٠١ ● القسم الثالث : مؤلفات السيوطى

- مؤلفات السيوطى

١٠٣ للدكتور عصام الدين عبد الرؤف

- دراسة نقدية لكتاب « حسن المتاضرة » لسيوطى

١٣٣ للأستاذة الدكتورة سيدة اسماعيل كاشف

- دراسات نقدية وتحليلية لكتاب « تاريخ الخلفاء »
للسيوطي
- ١٥٣ للدكتور علي حسنى الحروبوطي
- المرأة في كتابات السيوطي
- ١٩٥ للدكتور أحمد عبد الرازق
- القسم الرابع : السيوطي والعلوم الدينية ٢٢١
- السيوطي والدراسات القرآنية
- ٢٢٣ للاستاذ الدكتور أحمد شلبي
- السيوطي مفسرا
- ٢٥٧ للدكتور أحمد عمر هاشم
- السيوطي مجدثا
- ٢٩١ للدكتور عبد الحكيم السيد عتلم
- القسم الخامس : السيوطي والدراسات اللغوية والأدبية ٣٧٥
- السيوطي والدرس اللغوي
- ٣٧٧ للدكتور عبده الراجحي
- السيوطي كائنا أديبا
- ٣٨٩ للدكتور مصطفى الشكعة

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٨/٤٥٨٥

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ٦٠٨ ٧